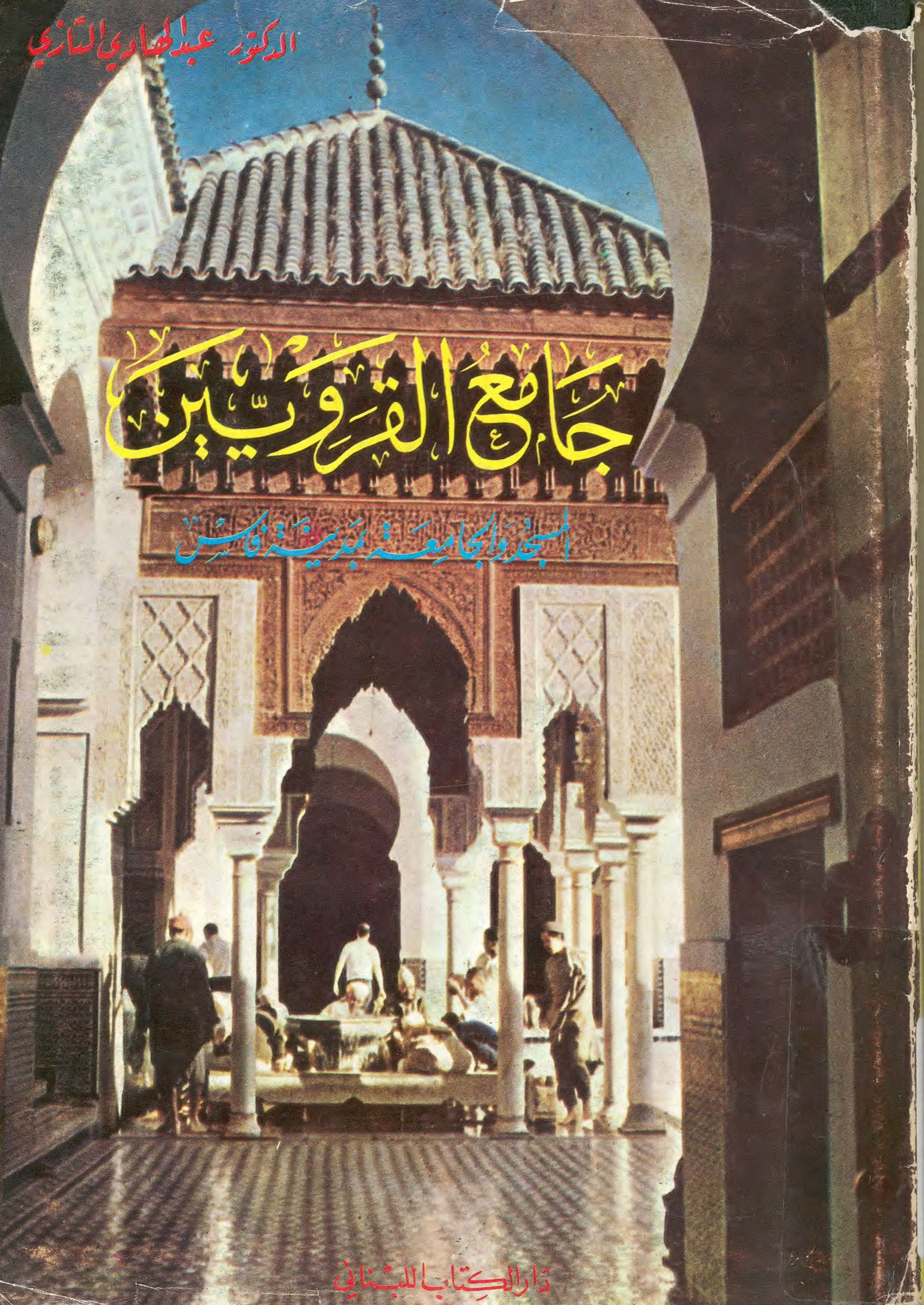

الدكتور عبد الهادي التازي
جامع القرويين
المسجد والجامعة بمدينة فاس
دار الكتاب اللبناني

جامع القرويين



حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك محمد الخامس

واضع نظام القرويين



حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

في تاريخ المغرب

جامع القرويين

المسجد والجامعة بمدينة فاس

موسوعة لتاريخها المعماري والفكري

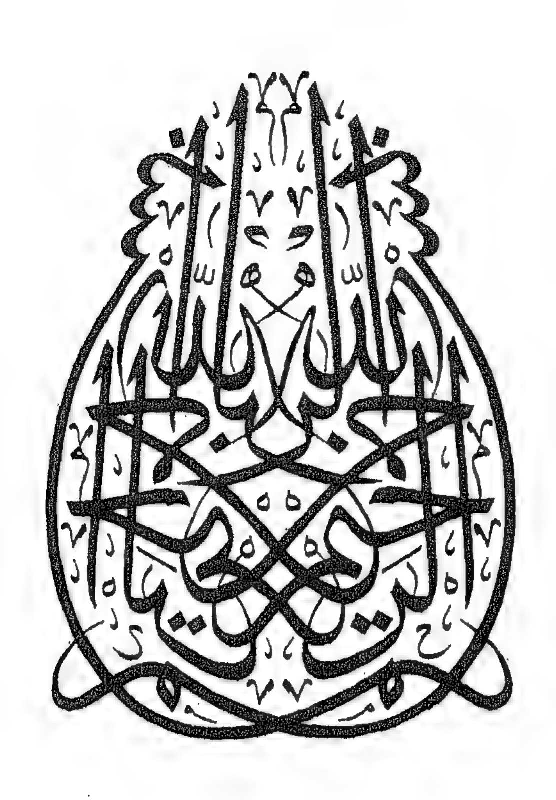
المجلد الأول

تأليف
الدكتور
عبد الهادي التازي

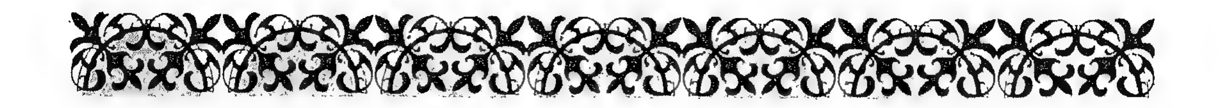
دار الكتاب اللبناني

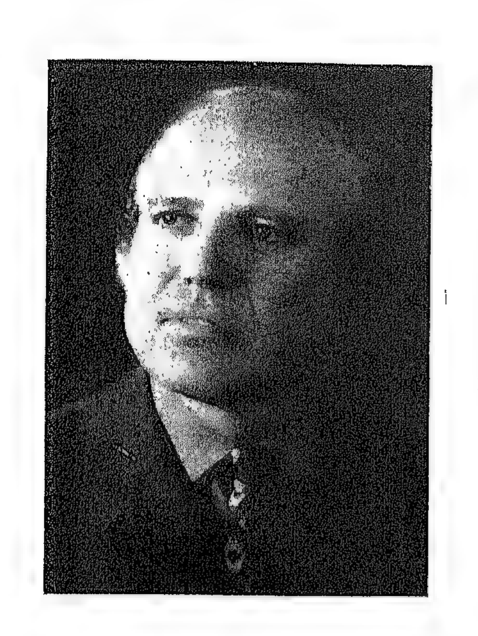
دار الكتاب اللبناني
تلغرافيا ؛ كتالبان – بيروت
ص . ب ٣١٧٦
بيروت – لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٢



رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ اعْمَلَ صالحاً تَرْضَاهُ ،
وأَصْلِحْ لي في ذُرِّيَّتِي .





عَبْدُ الهَادِي التَّازِي

* ولد بمدينة فاس (٧ شوال ١٣٣٨ – ٢٥ – ٦ – ١٩٢١).
* اسهم منذ صغره في الحركة الوطنية من اجل الاستقلال فاستهدف للنفي والاعتقال.
* نال بتفوق شهادة العالمية من جامعة القرويين عام ١٩٤٧ وعين بها مدرسا....
* أحرز على دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس بدرجة ممتازة.
* دكتوراه في الآداب من جامعة الاسكندرية بمرتبة الشرف الاولى.
* بروفي في اللغة الفرنسية من معهد الدراسات العليا، وشهادة في الانجليزية من معهد اللغات.
* عضو المجمع العلمي ببغداد.
* نشر عدة بحوث ومؤلفات، وترجم عن الفرنسية والانجليزية، عدداً من المقالات والدراسات.
* دعي بعد استقلال المغرب للاشراف على القسم الثقافي بوزارة التربية بالعاصمة حيث امسى يعطي محاضرات بالمدرسة الادارية وكلية الحقوق والآداب.
* شارك في عدة مؤتمرات دولية كان منها مؤتمرات للقمة.
* كاتب عام لمركز التنسيق بين اللجان الوطنية العربية لليونيسكو.
* سفير للمملكة المغربية منذ ١٣/ ٥ / ١٩٦٣ لدى عدد من الدول.
* محرز على وسام العرش من (المغرب) والاستقلال من (ليبيا) والرافدين من (العراق).

تقديم

بالأمس كان المعاصرون للوزير والمؤرخ لسان الدين بن الخطيب ينعتونه بلقب « ذو العُمرين » لانه كان يخصص النهار لأداء مهام وظيفته بينما يتفرغ في الليل للقراءة والتأليف وقد وجدنا أن هذا الوصف ينطبق اليوم على صديقنا السفير الدكتور الاستاذ عبد الهادي التازي الذي عرف كيف يجمع بين مهمته كسفير ناجح وبين هوايته كعالم ومؤرخ كبير.

وهذا كتابه في تاريخ جامع القرويين يعطينا صورةً صادقة للحياة العلمية والاجتماعية والحضارية في مدينة فاس بوجه خاص وفي المغرب العربي بوجه عام. وقد حرص المؤلف على اظهار ما تبقى من هذه المظاهر الحضارية القديمة في عصْرنا الحديث فربط الماضي بالحاضر وقدَّم لنا عملا متكاملا لهذه المؤسسة الجامعية العلمية التي كانت ولا تزال مركز إشعاع علمي وديني وسياسي في بلاد الغرب الاسلامي.

والواقع ان هناك أكثر من حافز دفعني الى التقديم لهذا الكتاب، فهناك حافز الحبّ العميق الذي اكنّه للمغرب وتاريخه وحضارته، وهناك حافز الأخوة الصادقة التي تربطني بمؤلف الكتاب منذ زمنٍ بعيد، ثم هناك حافز الايمان بقيمة هذا الكتاب الذي جمع بين العمق والأصالة والشمول فجاء فريدًا في بابه. ولا اعتقد أن أحدًا أقدم على مثل هذه المحاولة الجريئة من قبل.

والواقع أن موضوعًا مثل هذه الموضوعات الحضارية المتشعبة يتطلب من مؤلفه الكثير من الجهد والقراءَة المتّصلة لاستخراج كلّ ما يتصل به من معلومات. وقد أعان الله مؤلف هذا الكتاب فاستطاع أن يطلع على جميع المصادر الأصيلة التي تفيده في بحثه: فإلى جانب المراجع المعاصرة والمخطوطات النادرة، اعتمد أيضًا على مدونات النوازل الفقهية والحوالات الحبسية وكتب الرحلات والتاريخ والمعاجم إلى جانب الآثار والعُملات القديمة والنقوش المدونة على جدران هذا المسجد ومرافقه. وبهذا العمل الشاق تمكن الدكتور التازي من إخراج أول دراسة علمية مستفيضة عن هذه الجامعة التي تعد من أَقدم جامعات العالم...

٩ – ٥ – ١٩٧٢ الدكتور أحمد مختار العبادي



مـدخـل

في مدينة فاس من المغرب الأقصى، على العُدوة الغربية التي تنتسب الى الوافدين عليها من القيروان، يحتضن نصفُ هكتار هناك قلبَ المدينة النابض الذي ظل يهيمن بما يتملكه من حيوية وفعالية على كل اجزاء الامْبراطورية المغربية الفسيحة الأرجاء المتباعدة الأنحاء.

كان ذلك القلب هو «جامع القرويين» الذي يرجع اليه الفضل كل الفضل في استمرار الوجود الإسلامي بهذه الديار، وفي حياة الحَرْف العربي بسائر أطراف إفريقيا ...

فان دوره لم يقتصر على استقبال المؤمنين صباحَ مساءَ لأداء صلواتهم ومناسكهم، ولكنه تجاوزه إلى المركز الذي كان مصدر إشعاع فياض على مختلف جهات المغرب الكبير، وعلى بعض بلاد المشرق وعلى مدن الأندلس ...

ولما قال المؤرخون إنه «أقدم جامعة» كانوا يقصدون أنه المعهد الوحيد الذي استمر في أداء رسالته المقدسة دون أن يتعثَّر فيما تعثرت فيه الزّيتونة من مَثُلات، وما حلّ بالأزهر الشريف من نكبات وما أصاب المدرسة المستنصرية من أزمات ...

ظلت القرويين بعيدة عن التيارات العاتية التي غيّرت من معالم عواصم المشرق: بغداد ودمشق والقاهرة، فاحتفظت من أجل ذلك بكل ملامحها وملامسها، فما تزال بها الى الآن آثار من عهد الأدارسة الفاتحين، وآثار من فترات تنافس الفاطميين والأمويين، وآثار من أيام الزناتيين، ودولة المرابطين، والموحدين، وبني مرين، وبني وطاس، والسعديين، والعلويين.

كل له فيها أمثولة يعتز بها ... وكل لها عليه دالّة يفتخر بها، فإما أنها زادت من سنده، وإما أرشدته الى طريق رشيد، أو اقنعته باختيار سديد.

لقد استغنت وأَثْرت حتى نافست مداخيلها ميزانية الدولة نفسها بما توفرت عليه من جليل العقار، وفسيح الأَرضين والغابات، وحتى لاضطرت الدولة أحيانا الى الالتجاء الى مال أوقافها، لتسدد به خصاصها، وتغطي به عجزها، وكل ذلك الطريف والتالد من ثروتها إنما كان يقبل بعد التّحري الدقيق

في طيب مصدره وحلال مورده ، سُنَّة عرفتها القرويين منذ أول يوم من حياتها ، ولكثرة ما تعزَّز جانبها كان الموسرون من أهل البلاد يضعون في « مستودعها » نفائسهم وكرائمهم ...

كانت الجامع الوحيد في دنيا الإسلام الذي يتوفر على أقدم صومعة ثبتت الى الآن، وعلى نفس التصميم الذي خط لها منذ أحد عشر قرنًا، هذه الصومعة التي كانت قدوة لسائر مآذن المدينة الثمانمائة، لأن مرصدها وغرفتها، كان كلٌّ منهما على التوالي مرصدًا حوى أقدمَ الساعات المائية في العالم: ساعة ابن الحبَّاك، وساعة القرسطوني، وساعة الجاي، الى الرمليات والأسطرلابات، كانت متحفًا تبارى العلماء والموقتون في ترتيبه وتزويده بما يساعد على استجلاء الظواهر الجوية، وقد اقترن اختراع الساعات العصرية في أوربا بظهورها في غرفة الصومعة، الأمر الذي يدل على مزيد العناية بها ...

والقرويين الجامع الوحيد في العالم الذي يتوفر على أثرى وأقدم منبر عملت فيه أيدي الفنانين من العلماء الذين كانوا يزاولون دروسهم بين أركان الجامع ... منبر تنافس على اعتلائه كبار الشخصيات من أجل الخطبة عليه، يعتبرونه مجلبة لحسن الذكر، ولنباهة الشأن، وقد سعوا لاكتساب هذه المأثرة ولو ليوم واحد حتى لا تفوت عليهم الفرصة .

وقد انعكست على قباب الجامعة المضلعة والمقربصة والدائرية، وعلى أكاليل سواريها وعقود أقواسها وأفاريز أبوابها، انعكست عبقرية الفنانين المغاربة، فأبدعوا فيها ما شاء الابداع، وصَاغوا على تلك الألواح ما حيّر المهتمين بالآثار وشككهم في مقاييسهم ...

ولا بدّ أن ترجع بذاكرتك الى أروقة قصر الحمراء بغرناطة عندما تتجول ببصرك في صحن القرويين الفسيح الذي تقابلت على جناحيه الشرقي والغربي ظُلَّتان بديعتان تقومان على سواري من رخام، رشيقة القوام، لتحميا الفوَّارتين المتسامتَتين على الخصة الوسطى .

وهي الجامع الوحيد الذي توفر على خمسة مصادر للماء، لتسديد حاجاتها وحاجات مرافقها طيلة فصول العام، ولم نعلم عن شبكة للمياه متقنة التخطيط محكمة التوزيع كالتي سمعنا بها عند تزويد القرويين بهذه المادة الحيوية، وحتى في أحلك أيام الجفاف بفاس ظلت القرويين المعقل الوحيد الذي يتوفر على الماء ...

وقد ضمت رفوفُ خزانتها العلمية الكبرى ومكتبتها الأحمدية من عيون المخطوطات ونوادر الموضوعات ونفائس العلوم ما كان حديث المجالس في وقتها، وردّدته مختلف المستندات وحجج الوقف، مما يعطي فكرة عن المواد المدروسة والكتب المستعملة، وقد ازدهرت الحياة الفكرية بها حتى عقدت سوق اسبوعية بالمزاد العلني للمخطوطات، في الجانب الشرقي الغربي من الجامع، وحتى أنشئ ثلاثة وثلاثون

فرعا للخزانة بعدد المساجد الصغرى التي كانت تابعة للقرويين.

واذا كانت المباني تقاس بمداخلها فان للقرويين ثمانية عشر بابًا كانت مثلا في العظمة والروعة والاتقان، وفيها ما كان ملبّسًا بالصفر مطرزًا بالنقوش التي تحمل عبارات الشكر والثناء، وتسجل أسماء الصانعين.

وقد تهافت الناس على حريم القرويين، لأنه أقرب تُربة الى الجامع، ولأنه أكثر إنارة وأوفر عناية، وسكنه القضاة والعدول والمؤقتون والمفتون والأئمة والخطباء والوراقون والكتبيون والعلماء والأطباء.

وقد شيّدت الى جانب القرويين طائفة من المدارس الداخلية لاستقبال الطلاب، توفرت على عدد من قاعات الدروس، وقد طرزت ووشيت بروائع الفسيفساء، وغدت لوحات فنية تسحر النظارة، مما جعل المختصين ينعتون إحداها بأعجوبة فاس.

آوت آلاف الأسر من مختلف الجهات المغربية، وإليها يرجع الفضل في تجمع أكبر عدد من العشائر والقبائل والمدن المتباعدة في مدينة فاس، بل إنها أغرت طائفة كبرى من الأندلسيين والإفريقيين، ووجْدنا الى جانب هؤلاء واولئك نفرًا من الفرس والكرد والعجم وجدوا ضالّتهم في الاقتراب منها.

وجامعة القرويين هي وحدها التي عرفت منذ تاريخ قديم بعادة تنصيب سلطان للطلبة ربيعَ كل عام: يمتطي الجواد الأميري، وترفع فوق رأسه مظلة السلاطين، ويأمر بتأليف حكومة له من بين زملائه، ويزوره عاهل البلاد في يوم مشهود من أيام سلطنته التي تدوم زهاء الاسبوع!

وقد عرفت القرويين نظامًا دقيقًا في أيام دراستها وعطلها، وتقاليد فريدة في حلقات دروسها، فكانت منها الحلقة ذات الأستاذ الواحد، وذات الأستاذين. وكانت منها الحلقات التي لا يحضرها الا المعمّمون، والحلقات التي لا يؤذن فيها للأحداث بالحضور.

واذا كانت فاس قد عرفت انها (كرسي المملكة)، فلأن جامع القرويين، بما يتبعه من مئات الفروع المنبثة في أرجاء المدينة، عاد يتوفر – في فترة من الفترات – على مئة وأربعين كرسيًا علميًا، يغشاها الناس من مختلف الطبقات، وعاد من المألوف المعهود أن على الطلبة من غير فاس أن يقصدوا القرويين اذا كانوا يريدون لصيتهم أن يعلو، ولعلمهم أن يذكر.

كان لها الفضل في حماية السند والإسناد بالمغرب، وسنّ نظام القيّم على الفنّ والمشرف على الكتاب، واحياء تقاليد الإجازات العلمية التي ظلت معروفة بأركان القرويين الى أن عوضتها في بداية هذا العهد الشهادة الجامعية.

اعتمد العلماء فيها على مؤلفات المشرق، وعلى الكتب المترجمة في المرحلة الأولى من تاريخ القرويين : مرحلة التشييد، ولكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يعتمدون على مؤلفاتهم هم في المرحلة الثانية : مرحلة الأَوْج ، ثم في المرحلة الثالثة : مرحلة التنظيم ، لمّا ظهرت المطابع الحجرية حيث أخذت فاس تبعث بمؤلفاتها الى المشرق.

وقد كان لعلمائها طريق خاص بهم في التأليف غير ما كان معروفًا لزملائهم في المشرق، وهذه ناحية أخرى تُعطي فكرة عن تميز الشخصية المغربية، على نحو ما تميزت به في اختيار المذهب المالكي ، وفي اختيار العقيدة الأشعرية ، واختيار تلاوة ورش ورواية ابن سعادة ، وابتكارهم للعمل الفاسي.

وقد ساعد التنافس فيما بين علمائها على خلق حركة علمية كان لها جدوى على سوق الفكر بفاس بما ألهبته من حماس وأذكته من مشاعر.

وقد كان للملابس الجامعية البيضاء التي تعود علماء القرويين ارتداءها قصة وطنية رائعة، فيها تعبير عن أمجاد للاسلام أيام عزته، ولذلك نجد التقاليد المغربية تتمسك باللون الأبيض في أفراحها وأتراحها، مقتدية في ذلك بالظهير الذي أصدره بنو مرين منذ قرون...

وقد تحدث بجدواها على الاستشراق معظم الأجانب الذين كتبوا عنها : استفاد منها سيلفيستر الثاني في عهودها السابقة. وأخذ عنها كْلِينار وكولْيُوس وأندري، وتصدَّر أبناؤها لتدريس العربية في جامعات أروبا القديمة في عهودها اللاحقة.

ولم يقتصر فضلها على أولئك العلماء الأعلام ممن درجوا بين أساطينها، ولازموا زواياها، واعتلوا كراسيها، ولكنه تعداه الى الفضليات من نساء فاس اللاتي كن يقصدن الأروقة الخاصة التي تشرف على المجالس العلمية، فكانت العرائس في خدورهن على بينة من أمور دينهن ودنياهن، لأنهن تَلقّين في دُور الفقيهات ما تلقته هؤلاء بدورهن عن شيوخهن.

وعندما نحاول أن نستعرض أمامنا بعض اولئك المشايخ من العلماء والعالمات ممن عرفتهم فاس ، وحلق عليهم طلبة القرويين ، فاننا سنجد أنفسنا أمام معجم طويل لعدد عديد من الرجالات الذين يكوّنون وحدهم عشرات المجلدات.

عليها كان المغرب يعتمد في تكوين مختلف أُطُره، وبها تخرج كبار العلماء ورجال القضاء ممن زاولوا عملهم في مدينة فاس نفسها، أو في مدن أخرى من المغرب وافريقية والاندلس، ومنها صدر السفراء الى أقاصي البلاد فكانوا مثلاً في الاخلاص والصراحة والنصح.

وقد كان هناك جسر آهلٌ بين علماء فاس وعلماء المشرق، يتبادلون المشورة فيما بينهم في أهم ما جدّ في البلاد، كان هذا أيام المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسين والسعديين والعلويين.

وظلت بلاد حوض البحر المتوسط، وخاصة منها تونس وطرابلس والاسكندرية نقاط لقاء لرجالها مع مختلف العلماء هنا وهناك، ولذلك نجد لفاس ذكرًا على كل لسان، ونجد للمذهب المالكي ظهورًا قويًا في هذه الجهات ومنها الاسكندرية، بالرغم من أن مذهب الدولة هناك كان غير ذلك.

وكل الشخصيات المغربية التي لمعت أسماؤها بالمشرق، كانت تنتسب الى هذه القرويين: ابن العربي - ابن بطوطة — ابن خلدون — المَقَّري — ممن أوردنا ذكرهم في معجم رجال الجامعة مختصرين الحديث عنهم.

وكانت القرويين العتبة المقدسة التي جعلها زوار الأمبراطورية المغربية في صدر مزاراتهم لهذه البلاد، تيمنت بتحيتها سفارة صلاح الدين الأيوبي الى المغرب، وتردد عليها سفراء الأندلس وتونس فعقدوا لهم بها مجالس علم رفعت من سمعتهم وزادت في حُظوظ نجاحهم.

وقد ارتبط تاريخ المغرب الدبلوماسي والدولي بهذه الجامعة، فلا نكاد نجد حركة فاصلة في ماضي المغرب دون أن نجد لعلماء القرويين فيها اليد الطولى، فان استجابة المرابطين لنجدة الأندلس لم تكن الا بعد فتوى صادرة عن رجال هذه القرويين، وإن أول سفارة من المغرب الى المشرق إنما كانت برئاسة علم كبير من أعلامها، تحدث الى أقطاب بغداد وعلماء الاسكندرية.

كانت القرويين الجامع الوحيد الذي يُهدى اليه نصيبه من المعارك البطولية التي كان المجاهدون يخوضون غمارها بنخوة وعزة، وهكذا نجد على طول بلاطه الأوسط عددًا من «الأجراس» التي اقتلعها الجنود من أعالي الكنائس القشتالية بعد أن حولوها الى ثريات رائعة، وبعد أنْ لم يبق من معالمها الأُولى إلا حروفٌ لاتينية باهتة.

واستفادت القرويين في أيام حروب المغرب الدفاعية على نحو ما استفادته أيام اطمئنانها واستقرارها، ولو أنها توجهت في تلك غير وجهتها في هذه، بما اقتضته المصلحة، ودعا اليه الواجب.

وقد ظلت القرويين القلعة التي ترتطم عليها مخطَّطات الاستعمار من قديم، وإن من يُعْنى بتتبع تاريخ البلاد السياسي سيقف على أن القرويين كانت وراء كل المقاومات، ووراء كل المواقف الشريفة. وقد كان أول سوء تفاهم بين القصر الملكي و «الإقامة العامة» بسبب هذه القرويين التي كان المحتلّ ينظر اليها على أنها شجىً ينبغي التخلص منه.

ذلك هو جامع القرويين الذي شدّني اليه رحم لا تبلى، حيث نشأت على مرأى منه ومسمع، وحيث قضيت فيه ردحًا من أزهى أيام صباي وشبابي طالبًا وأستاذًا.

فاذا تمثّل في الضمير رأيتُه وعليه أغصان الشّباب تميد!

وتلك هي أهم النقاط التي حاولت أن اقدمها في البحث الذي أضعه بين يديكم.

وقد شعرتُ بالغبطة تملأ جوانحي يوم انطلقت نحو الخطوة الأولى في طريق إعداده لأني رأيت فيه برورًا بذلك العهد الشريف الذي جمع بيني وبين تلك الأماكن.

وقد كان يتراءى لي في أول الأمر أن اقتحام الموضوع لن يكلف جهدًا، لأن شخصية القرويين كانت من الشهرة بحيث كانت توحي بأن كلَّ شيءٍ في المتناول.

بيد أن قلة المصادر وانعدام المراجع كانت بالغة، فباستثناء ابن ابي زرع في روض القرطاس، والجزنائي في جنى زهرة الآس، وابن القاضي في جذوة الاقتباس، لم نجد أمامنا شيئًا يذكر.

ولهذا شعرت بصعوبة المهمة بمجرد ما استوعبت ما حرره الثلاثة مما كان يحتاج بدوره الى الكثير من التّصحيح والتّنقيب، فقد نقل الأول جلَّ معلوماتـه عن مصادر مفقودة وغير معاصرة لأيـام التأسيس الأولى ... ونقل الثاني معظم كتاباته عن الأول، وكان الأمر في الثالث على نحو سلفه باستثناء معلومات إضافية عن ايامه هو.

وقد اعتصرت من مدونات النوازل الفقهية وكتب المعاجم ما أضفى بعض الضوء على محاولتي، لكنه كان ضوءًا باهتًا أيضًا لا يفي بالضالة المنشودة.

وقد دفعتْ بي الحاجة الى اقتحام ميدان آخر كان بالنسبة الى موضوعي سندًا لا أنساه، وضّح لي بعض الغموض، ووضع أصابعي على مواضيع أخرى، وأعني به ما يسمى عندنا في المغرب (الحوالات الحُبُسية): أي حجج الوقف، هناك اعتكفت مع تلك الأوراق المتلاشية التي عاث فيها الزمن، وهناك حيث تتبعت واردات القرويين والتزاماتها، حيث تعقبت زواياها بالوصْف والتدقيق، وتملّيتُ من تاريخ كان بالنسبة الينا مجهولاً غير معروف.

يضاف الى كل هذا تعقب المخطوطات والنوادر المغربية سعيًا وراء الحصول على بعض ما قد يكون كتب من لدن طلبة القرويين القدامى ممن هاجروا من الديار أو وقعوا في أيدي القراصنة الأجانب الذين كانوا يتجولون في البحر المتوسط.

وقد عثرنا على ما أعطانا صورًا صادقة عن معالم القرويين سواء من الناحية التاريخية أو الفكرية،

وكان ذلك مكتوبًا فعلاً بأقلام قوم دونوا مذكراتهم خارج البلاد فبقيت محفوظة مكتوبة ... وقد أسهم بعض الكتاب بفصول أو مقالات متناثرة هنا وهناك مما كان – في واقع الأمر – لا يخرج عما عرف مما تحدثت عنه المصادر المألوفة، على ان هناك مصدرا آخر لا انكر جدواه على بحثي، ذلك ما حرره بعض الأجانب عن تاريخ فاس وجامعة القرويين، فان في هؤلاء من كتب بأسلوب سياحي، وفيهم من حرر كتابته بروح انتقامية، على ان فيهم من كان موضوعيًا في التعريف بهذه الجامعة ورجالها وان كان عدد هؤلاء قليلا.

كان علي – لتجهيز كتابي – ان استشير أكثر من خمس مئة مصدر، وان اتعقب العملات القديمة، وان اتبين كل حرف منقوش على جدران البيت لأحقق تاريخا أو أكشف جديدًا، في ظروف متتابعة من الزمن، وفي ظروفٍ متباينةٍ في المكان كذلك!

وكان علي أن أقوم بعشرات الرحلات الى عين المكان الذي عرفتني سائر زواياه ومختلف دروبه، وكل درجة في مئذنته، وقد كان في هذه الرحلات ما تم عبر الفرات والمحيط.

ومع هذا كان علي أن أقوم بمكاتبة العشرات من رجال الفكر والعلم ممن كنت اتوقع ان في الاتصال بهم فائدة للبحث، كان فيهم من يقيم بالقاهرة والاسكندرية وبغداد، وفيهم من كان يقيم بالديار الأوربية على أن فيهم من كان يأوي الى القارة الأمريكية، بالاضافة الى عدد منهم من علماء المغرب الكبير ورجالات من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب.

وقد احسست كذلك بتشعب الأمر زيادة عندما عقدت العزم على توضيحه بالصور والوثائق والرسوم، فهنا كان علي أن أصحب المصورين لادلهم على اللقطات التي اريد، وكان علي أن اطرق الجهات المختصة لاتزود بأكبر عدد ممكن من الوثائق والرسوم كان فيها ما كان خاصًا بمالكيه، وفيها ما نصب دونه حجاب كثيف.

هذا وقد قسمت الكتاب ثلاثة أبواب حسب الترتيب الزمني للعصور التي مرّ بها جامع القرويين، كل باب مقسم الى خمسة فصول، وقد تضمن كل فصل عددًا من الموضوعات الأساسية، وقد ذيلت كل باب من الثلاثة بملحق يضم ترجمة مائتين وخمسين شخصية من أهم الشخصيات التي كانت لها صلة بالقرويين.

وقد خصصت قسما من الكتاب للرسوم والوثائق والصور... واذا كانت الأبواب الثلاثة قد احتوت على ما يصل الى ست مئة وسبعين صفحة، فان هذا القسم يتضمن زهاء أَربع مئة لوحة اعتمدت فيها اختيار الوثائق والرسوم والصور التي من شأنها ان تدقق نظرتنا الى هذا الجامع التاريخي الكبير.

ومع هذا فاني اعترف بأن القرويين على الرغم من كل تلك المادة، من كل تلك السنين، كانت تزداد أمامي شموخًا وتعاليًا وامتناعًا بمقدار ما كنت أحاول التعمق في تاريخها ...

وقد تجلى لي بالفعل ان مسَّها يعني تناول جهات المغرب كلها بما فيها المدن والقرى والسهول والجبال ويعني تناول جوانب تاريخ المغرب كلها بما فيها تاريخه الاقليمي وتاريخه الدولي، وان تناولَها يعني إثارة كل دفائن الماضي بما فيها النواحـي السياسية والاجتماعية ... ويعني الاستعداد للرحلـة مع التاريخ الى جهات بعيـدة جدا عن الساحة المغربية ! إلى الحرمين، إلى القدس، إلى بغداد والشام والقاهرة. إلى الاستانـة ومشمولاتها ... الى مجاهـل افريقيـا ... كان يعني الاطلاع عـلى بعض التقارير السياسية التي كان يرفعها الدبلوماسيون الأجانب عن المغرب سواء الى سطوكولم وكوبنهاكن وامستردام ومدريد وليشبونة وصقلية والفلامنك وواشنطون وبتسبورغ وهامبورغ، أو إلى لندن وباريس.

لكل ذلك فاني أبادر الى القول بأن ما جاء في دراساتي هذه عن القرويين لا يعدو ان يكون تقديما متواضعا لهذه المؤسسة التي ما تزال تتطلب منا المزيد من التقعر في البعث والتعمق في الدرس والتفرغ الكامل والاستيعاب الشامل.

وبعد ... فأود أن لا تفوتني هذه الفرصة دون أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل الذين ساعدوني في التعرف على هذه «المعْلَمة التاريخية الكبرى» بما اسدوه إلي من جليل الافادات ... سواء منهم الذين اقتبست من مؤلفاتهم، واعتمدت على وثائقهم أو اهتديت برسائلهم أو اقتحمت عليهم مكتباتهم الخاصة والعامة فكنت أجد فيهم سواء بالمغرب أو المشرق قلوبًا مفتوحة ومساعدات غير مشروطة ...

ولا أنسى أن أذكر أساتذة لنا كان لهم فضل التدليل على الطريق وفضل التشجيع على المضيّ فيه وبخاصة رجال الجامعة الذين لم استغن أبدًا عن شرف صحبتهم أينما كنت وحيثما حللت.

وأوثر بالاعتراف بالجميل للاستاذ الدكتور احمد مختار العبادي الاسكندراني الذي كان يعطيني نفسا كلما شعر بأني استصعب المسالك، ولكأنما كان حريصا على تجديد اللقاء الشريف بين فاس والاسكندرية اللتين ظلتا وفيتين لبعضهما عبر التاريخ...

لقد دأب على ارضاء رغبةٍ كنت اتوق اليها من زمان، تلك إحياء ذكرى عهد مضى تأرجت بذكره جنبات التاريخ عندما كان علماء المغرب يعتزون باجازات لهم نالوها من مشايخ الاسكندرية بالذات، من أمثال الامام ابن العربي سفير المغرب الى بغداد الذي عرج على هذه الديار منذ القرن السادس ليحمل معه إجازة الامام الطرطوشي ...

وأخيرًا فاني لاعتذر سلفا عن تقديم كتابي على ما هو عليه مما قد يكون محلّ ملاحظة في بعض فصوله فأن الظروف الَّتي تميزت بها سنواتي الأخيرة كانت تعكس آثارها على تصميم الكتاب الذي كنت لا أرضى عنه في بعض الأحيان، وقد حفز بي الى التعجيل بنشره، اقتناعي بأن انتظار الحصول على الأحسن قد يفوت الفرصة لإدراك الحسن، وكلي أمل في ان القراء والنقَّاد سيلتمسون لي العذر، وانهم سوف يعملون على تسديد الثغرات، وتصليح الهفوات.

د. عبدالهادي التازي

بعض المراجع العربية

الكتب

ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، نشر كوديرا ، مجريط ١٨٨٧.

ابن الأبار : معجم اصحاب الصدفي ، نشركوديرا مجريط .

ابن ابراهيم (العباس) : الإعلام في تاريخ مدينة مراكش.

ابن الأحمر : نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان (مخطوطة) دار الكتب المصرية قسم التصوير.

ابن الأحمر : روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط ١٩٦٢.

ابن الأحمر : مستودع العلامة ومستبدع العلاّمة تحقيق وتعليق محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت التطواني . تطوان ١٩٦٤.

الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن ١٨٩٤.

أرسلان (شكيب) : الحلل السندسية، نشر المهدي الحبابي، مصر ١٩٣٦.

الاسحاقي (الشرقي) : الرحلة، (مخطوط) في مجلدين، الأول في خزانة القرويين الكبرى.

أشباخ (يوسف) : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، تعريب محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٨.

الإصبهاني ابو الفرج : مقاتل الطالبيين ، نشره أحمد صقر ، ١٩٤٩ .

الإصبهاني العماد الكاتب :خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء العراق) : تحقيق وشرح محمد بهجة الاثري وجميل سعيد. بغداد

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنبياء .

اكنسوس : الجيش العرمرم.

أمين (حسين) : المدرسة المستنصرية. بغداد .

الأهواني (احمد فؤاد) : التربية في الاسلام .

بروفنصال (ليفي) : الاسلام في المغرب والاندلس القاهرة ترجمة د. محمد عبد العزيز السالم ومحمد صلاح الدّين حلمي (مصر).

ابن بشكوال : كتاب الصلة . مجريط .

ابن بطوطة : الرحلة، نشر DEFREMERY و Sanguinetti ، باريس

البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر البارون دوسلان، الجزائر ١٨٥٧ .

بلافريج وعبد الرحمن خليفة : الأدب الاندلسي، تطوان ١٩٤١.

البلغيثي : الابتهاج بنور السراج (شرح منظومة القاضي المساري) .

بناني (محمد) : شرح رجز للشيخ عبد الرحمن الفاسي، حول الاسطرلاب ...
بناني (الحاج أحمد) : فاس في سبع قصص .
البيذق (الصنهاجي) : كتاب أخبار المهدي ابن تومرت، نشر بروفنصال، باريس ١٩٢٨ .
بيرم : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، القاهرة ١٣١١ .
التاجوري عبد الرحمن : تنبيه الغافلين عن قبلة الصالحين والتابعين.
التازي (عبد الهادي) : القرويين في احد عشر قرنا، طبعة فضالة ١٩٦٠ .
التازي (عبد الهادي): جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، مطبعة فضالة (المحمدية) ١٩٦٧ .
التازي (عبد الهادي) : نموذج من حياة (مهيّأ للطبْع)
التازي : أمير مغربي في ليبيا، (تحت الطبع) .
التنبكتي (احمد بابا) : نيل الابتهاج بتطريزالديباج . طبعة ١٣٢٩ بمصر.
التّنسي (محمد بن عبد الله) : نظم الدرر والعقيان في شرفاء بني زيان.
التيجاني : الحاج عمر الفوتي، طبعة مصر ١٣٨٣ .
ابن جبير : الرحلة ...
جُحا (شفيق) وشهلا (جورج) : الأرقام العربية والهندية.
الجزري : كتاب في معرفة الحيل الهندسية (مخطوط بمتحف الفنون الجميلة بمدينة بُوسطن).
الجزنائي : جنى زهرة الآس، نشر الاستاذ بيل (الجزائر) ونشر الاستاذ ابن منصور (المغرب).
جمعية العلماء المسلمين الجزائريين : سجل المؤتمر (١٣٦٩)
بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح ... الرباط .
بوجندار : الاغتباط في تاريخ الرباط ، مخطوطة بالمكتبة العامة بالرباط
جواد (ناجي) المحامي : قصة الوقت . بغداد .
الجيلالي (عبد الرحمن) : تاريخ الجزائر العام. الطبعة الأولى ١٩٥٣ م ١٣٧٢ هـ الجزائر.
ابن الحاج : رياض الورد . مخطوط بالخزانة العامة .
ابن الحاج (حمدون) : الدّيوان ... (مخطوط) بالمغرب (المكتبة الملكية)
ابن الحاج (احمد) : الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولاي الحسن محفوظ بالمكتبة الملكية.
الحجوي (محمد) : الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي. المغرب .
الحجوي (محمد) : الفتح العربي (المغرب) .
الحجوي (المهدي) : حياة ابن الوزان. (المغرب)
حجي محمد : الزاوية الدلائية، طبع الرباط .
ابن حزم : طوق الحمامة، نشر بيرشي. الجزائر.
الحضرمي (محمد بن ابي بكر) : السلسل العذب والمنهل الأحلى. مخطوط بالمكتبة العلمية الصبيحية (سلا) .
الحفناوي (محمد) : تعريف الخلف برجال السلف. الجزائر ١٩٠٦ .
الحفني : الموسيقى العربية وأعلامها . (القاهرة).

الحلبي (احمد) : الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس، ١٣٠٠ هـ ١٣١٤ هـ.
ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. (الجزائر).
الحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، نشر ابن تاويت ١٩٥٢. (القاهرة).
الحميري : الروض المعطار، نشر بروفنصال ١٩٣٧. القاهرة مطبعة لجنة التأليف.
الحوّات (سليمان) : البدور الضاوية (مخطوط) بالمغرب.
خالص (صلاح) : المعتمد بن عباد الإشبيلي. بغداد (١٩٥٨).
ابن خاقان : قصائد العقيان في محاسن الاعيان.
الخشني : قضاة قرطبة وعلماء إفريقية.
ابن الخطيب : روض التعريف بالحبّ الشريف (مخطوطة بالمكتبة العامة بالرباط).
ابن الخطيب : الإحاطة في اخبار غرناطة، نشر عبد الله عنان، القاهرة. المجلد الأول
ابن الخطيب : رقم الحلل في نظم الدول – طبع المغرب.
ابن الخطيب : اعمال الاعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام (نشر بروفنصال). بيروت
ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني.
خفاجي (محمد عبد المنعم) الأزهر في الف عام القاهرة.
ابن خلدون (يحيى) : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (نشر : بيل).
ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة طبعة بولاق (مصر)
ابن خلدون (عبد الرحمن) : العبر وديوان المبتدأ والخبر. طبعة (مصر).
ابن خلدون (عبد الرحمن) : شفاء السائل لتهذيب المسائل (نشر ابن تاويت الطنجي) ١٩٥٨. انقرة
خليفة (حاجي) : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون – استنبول.
دافيدسن : افريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال م. أحمد.
داود (محمد) : تاريخ تطوان ... (المغرب)
الدباغ (عبد الرحمن) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. (تونس).
ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب. مصر
دُوزي : ملوك الطوائف. (مصر)
ابن دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام.
ابن الزبير : صلة الصلة : نشر بروفنصال، الرباط ١٩٣٨.
زبيس (سلمان) : القباب التونسية في تطورها.
زبيس (سلمان) : بيوت أَذِنَ الله أن ترفع. تونس
ابن ابي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس. طبعة فاس
الزركلي (خير الدين) : الأعلام. القاهرة الطبعة الثانية.
ابن الزيات : التشوف الى رجال التصوف. الرباط (نشر الاستاذ فور)

الزيات : تاريخ الأدب العربي. مصر– القاهرة .
الزياني (ابو القاسم) : ألفية السلوك في وفيات الملوك.
الزياني (ابوالقاسم): الروضة السليمانية (مخطوط بالخزانة العامة) في ملوك الدولة العلوية ومن تقدمها من الدول الاسلامية.
الزياني (ابو القاسم) : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا، نشر وزارة الأنباء، تحقيق عبد الكريم الفلالي.
ابن زيدان (النقيب) : إتحاف أعلام الناس المطبوع منه خمسة مجلّدات (المغرب) .
ابن زيدان (النقيب) : المنزع اللطيف في تاريخ السلطان المولى اسماعيل الشريف (مخطوط).
ابن زيدان (النقيب) : العزّ والصولة في معالم نظم الدولة .. المجلدان، المطبعة الملكية ٩٦١ – ٩٦٢.
ابن زيدان (النقيب) : اليمن الوافر الوافي في امتداح الجناب المولوي اليوسفي . المغرب
ابن زيدان (النقيب) : الدرر الفاخرة في مآثر العلويين بفاس الزاهرة. المغرب
السائح (محمد بن عبد السلام) : لسان القسطاس بتاريخ مدينة فاس (مخطوط).
السائح (محمد بن عبد السلام) : الغُصن المهصور في تاريخ مدينة المنصور (مخطوط).
السائح (محمد بن عبد السلام) : تاريخ السلفية بالمغرب... مخطوط.
السبتي (محمد بن القاسم الأنصاري) : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار، ١٩٦٩ (الرباط)
السبكي : «طبقات الشافعية الكبرى» المطبعة الحسينية – مصر.
السّخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. مصر ١٣٥٣ .
السراج (محمد) : تراجم شيوخ القرويين منذ أول مجلس علمي (مخطوط).
سركيس يوسف : مُعجم المطبوعات العربية والمعرّبة، مصر ١٩٢٨. القاهرة.
سرور (محمد جمال الدين) : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة الطبعة الثالثة .
السفياني : الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية.
سكيرج : إرشاد المتعلم والناسي، في صفة أشكال القلم الفاسي (هيسبيرس ١٩٣٢) ١٩٦٦.
المولى سليمان : آل الفاسي.
المولى سليمان : الخطبة (نشر ابراهيم الكتاني، المطبعة الجديدة، فاس سنة ١٩٥٢).
المولى سليمان : رسالة في الرد على من قال بأفضلية بني اسرائيل على العرب (مخطوط) بالخزانة العامة رقمه ٢٦٠٠/د
ابن السنوسي (محمد) : الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية. ليبيا.
ابن سودة (التاودي) : النوازل الفقهية. المطبعة الحجرية. (عام ١٣٠١).
ابن سودة (عبد السلام) : دليل مؤرخ المغرب الأقصى. تطوان.
ابن سودة (عبد السلام) : إزالة الالتباس عن بيوتات سكان مدينة فاس (مخطوط).
ابن سودة (عبد السلام) : قضاة فاس من زمن الأدارسة الى الوقت الحاضر (مخطوط).
السوسي (المختار) : المعسول.
السوسي (المختار) : الالغيات .
السوسي (المختار) : خلال جزولة.

السوسي (المختار) : سوس العالمة.
السوسي (المختار) : رد على كولان الذي ينفي الجامعية عن القرويين قبل عهد بني مرين (مخطوط).
السيوطي : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. القاهرة
الشرفي (عليّ) : حول ماء فاس (مخطوط)
شفري (فريد) : التأثيرات الاسلامية الغربية على العمارة المصرية.
ابن شقرون : مظاهر الثقافة المغربية مطبعة الرسالة - الرباط.
شلبي (أحمد) : تاريخ التربية الاسلامية، ١٩٥٤. (القاهرة).
الشنتمري (الأعلم) : شرح الشعراء الستة. باريس
الشنقيطي : الوسيط في تراجم أدباء شنجيط (نشر بعناية فؤاد سيد). القاهرة.
ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالامامة، نشر عبد الهادي التازي (بيروت ١٩٦٤).
الصبّاغ : سلك الفرائد واليواقيت في الحساب والفرائض والمواقيت. (فاس المطبعة الحجرية).
الصحراوي (عبد القادر) : جولات في تاريخ المغرب.
الصديقي محمد : إيقاظ السريرة في تاريخ الصويرة.
الصعيدي عبد المتعال : تاريخ الإصلاح في الأزهر. - القاهرة.
الظبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. مجريط.
ابن ابي الضياف : تاريخ تونس. تونس.
طارّو (جان وجيروم) : أزهار البساتين في أخبار الاندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين، تعريب أحمد بلافريج ومحمد الفاسي، الرباط ١٣٤٩.
أبو طالب (عبد الهادي) : وزير غرناطة، طبع دار الكتاب بالدار البيضاء.
الطاهري : تحفة الإخوان في شرفاء وزّان. (الخزانة العامّة).
طوقان (قدري) : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ١٩٤١.
ابن عاصم (الأندلسي) : تحفة الحكام في نكث العهود والاحكام.
ابن عامر : تونس عبر العصور. (تونس)
عبد السلام ألأمير : درّة السلوك (مخطوط) بالخزانة الملكية.
عبد اللطيف ابراهيم : سلسلة الدراسات الوثائقية. (القاهرة).
بنعبد الله (عبد العزيز) : الطب والأطباء بالمغرب. الرباط.
بنعبد الله (عبد العزيز) : المعجم التاريخي. الرباط.
ابن عبد الملك : الذيل والتكملة (مخطوط) بالخزانة العامّة رقمه ٢٦٤٦. د.
عبد الوهاب (ح. حسني) : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية. مكتبة المنار ١٩٦٤.
عبد الوهاب (ح. حسني) : خلاصة تاريخ تونس (١٣٤٤) تونس.
عبده (محمد) : الإسلام والتجديد (١٩٣٥).
ابن عذارى : البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب. ليدن - ١٩٤٨.

ابن العربي : العواصم من القواصم. - الجزائر.
ابن عسكر : دوحة الناشر. محفوظة.
ابن عطية : المعيار.. محفوظة بالخزانة العامة ٦٣٣ / د.
علماء الشباب : يوم شوقي بفاس (٢٨ نوفمبر ١٩٣٢). (٢٤ رجب ١٣٥١)
العلمي (محمد) : حل العقدة. (فاس).
العلمي (محمد) : الحاشية على شرح الفشتالي على رسالة المارديني. (فاس).
العلمي (ابن الطيب) : الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب.
العلوجي (عبد الحميد) : مؤلفات ابن الجوزي - بغداد.
علوش والركراكي عبد الله : فهرس المخطوطات.
العمري (ابن فضل الله) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مصر ١٩٤٢.
عنان (عبد الله) : تاريخ الجامع الأزهر. القاهرة.
عياض : الغنية في ذكر مشيخته (مخطوط).
العياشي (أبو سالم) : الرحلة العياشية. (طبعة فاس).
العيدروسي : تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر. بغداد ١٩٣٤.
ابن عيشون (الشراط) : الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس (مخطوط) بالخزانة العامة.
أبو العيون (محمود) : الجامع الأزهر. القاهرة.
ابن غازي : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون - المطبعة الملكية، الرباط ١٣٨٤ - ١٩٦٤.
غرنيط (محمد) : فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان ١٣٤٧. (فاس).
الغزالي : فاتحة العلوم.
غلاب (محمد) : الفلسفة الإسلامية بالمغرب.
غنيمة (محمد) : تاريخ الجامعات الإسلامية. شهوان (١٩٥٢).
الفاخوري : تاريخ الأدب العربي. بيروت.
الفاسي : مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن.
الفاسي (عبد القادر) : الأجوبة الكبرى (طبعة حجرية). ١٣١٩
الفاسي (عبد الرحمن) : الأقنوم.
الفاسي (العربي) : شفاء الغليل في القبلة لأمة التنزيل.
الفاسي (احمد بن محمد بن عبد القادر) كتاب الحايك (تطوان).
الفاسي علال : الحركات الاستقلالية (القاهرة).
الفاسي العابد : الخزانة العلمية بالمغرب.
فالترهينز : المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري. ترجمه عن الالمانية الدكتور كامل العسلي (منشورات الجامعة الأردنية).
ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، فاس ١٣١٦.

ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس مجريط .
الفشتالي : مناهل الصفاء في أخبار الشرفاء نشر عبد الله كنون (المغرب).
الفضيلي (ادريس) : الدرر البهية في الفروع الحسنية والحسينية.
فكري (احمد) : المسجد الجامع بالقيروان. دار الآثار العربية – القاهرة .
ابن الفوطي ؟ : الحوادث الجامعة في المئة السابعة، أخرجه مصطفى جواد (المؤلف مجهول) – بغداد .
القادري : نشر المثاني ، المقصد الأحمد .
القادري (ابن الخياط) : التحفة القادرية في التعريف بشرفاء أهل وزان (مخطوطة).
القادري : التقاط الدرر ، مخطوط بالخزانة العامة.
ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس ١٣٠٩ .
ابن القاضي : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور (مخطوط) تحت رقم ١٠٥٧ .
القباج (محمد) : الأدب العربي في المغرب الأقصى – الرباط .
قداح (نعيم) : إفريقية الغربية في ظل الاسلام.
القصر الملكي: انبعاث أمة (مجموعة خطب جلالة الملك) المجلدات الست – المطبعة الملكية.
القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء . ليبسك طبعة بيروت .
القلصادي: كشف الأسرار في حساب الغبار.
القلقشندي : صبح الأعشى، مصر ١٩١٨. دار الكتب.
ابن قنفذ : أنس الفقير وعز الحقير ، نشر محمد الفاسي وأدولف فور. الرباط .
الكانوني (محمد) : تاريخ اسفي وما اليه.
الكانوني : شهيرات المغرب (مخطوط).
الكتاني : السّرب المحتضر. طبعة فاس الحجرية.
الكتاني (محمد بن جعفر) : الرسالة ، شرحها الشيخ المدني بن الحسني مخطوطة.
الكتاني (محمد بن جعفر) : سلوة الأنفاس.
الكتاني (محمد بن جعفر) : الأزهار العاطرة الأنفاس المخطوطة بالخزانة العامة (رقم ٣٣٥٤).
الكتاني (ع.ح.) : التراتيب الإدارية، الرباط ١٣٤٦ .
الكتاني (ع.ح) : مَاضي القرويين ومستقبلها (مخطوط بالخزانة العامة) رقم ٣٣٥٤.
الكتاني (ع.ح) : فهرس الفهارس.
الكتاني (ع.ح) : أوقاف القرويين وناظرها (مخطوط) رقم ٢٩٢٩
الكتاني (ابراهيم) : مذكرات حول بداية الحركة الوطنية (مخطوط).
الكتاني (المنتصر) : القرويين أقدم جامعة في العالم محاضرات جامعة دمشق ١٩٦١ .
كتلة العمل الوطني : مطالب الشعب المغربي ، مطبعة الإخوان المسلمين ١٩٣٤ .
كتلة العمل الوطني : مفاخر العلويين – طبعة الرباط .
كحالة (عمر) : معجم المؤلفين ١٩٥٧. دمشق.

كراتشكوفسكي : دراسات في تاريخ الأدب العربي .

كرد علي (محمد) : الإسلام والحضارة العربية . القاهرة .

الكردودي : رسالة في ان حرب النظام واجب على هذه الأمة .

الكعاك (عثمان) : محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، معهد الدراسات العربية الاسلامية ١٩٥٨ .

الكلالي (ابو سالم) : تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع في مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان لمدعي استحقاق الفتوى آجليان (مخطوطة بالخزانة العامة ضمن مجموع رقم ك / ١٥٧١ . نشرها الاستاذ محمد المنوني من مجلة البحث العلمي يناير ١٩٦٦) .

كنون (محمد التهامي) : أجوبة الشيخ كنون طبعة فاس الحجرية ١٣١١ .

كنون (عبد الله) : التعاشيب . المغرب .

كنون (عبد الله) : النبوغ المغربي ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦١ .

كنون (عبد الله) : مشاهير رجال المغرب (المغرب) — الرباط .

كُوسطي : بيوتات سلا ، ترجمة بلقاسم (مخطوط بالخزانة العلمية (الصبيحية) لمدينة سلا .

ماء العينين : الجأش الربيط في تاريخ شنقيط .

المحبّي : خلاصة الأثر في رجال القرن الحادي عشر . القاهرة .

ابن ابي حجلة المغربي : ديوان الصبابة .

ابن ابي حجلة المغربي : الإصليت (مخطوطة بالمكتبة الملكية) .

محمد بن عبد الله (السلطان) : الفتوحات الإلاهية . تقديم الشيخ الرئيس المدني ابن الحسني .

محمد بن عبد الله (السلطان) : مسانـد الأئمة ، منشورات الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية ، تقديم الفريد البستاني . تطوان .

محمود (حسن احمد) : قيام دولة المرابطين ١٩٥٧ . القاهرة .

المراغي (أبو الوفاء) : المراغي الشيخ القاهرة

المراكشي (عبد الواحد) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، نشر محمد الفاسي ، ١٩٣٨ ، (المغرب) ثم محمد سعيد العريان ومحمد العلمي ١٩٤٩ . (القاهرة) .

المراكشي محمد بن عثمان : الجامعة اليوسفية في تسع مئة سنة .

ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن .

مرزوق (محمد عبد العزيز) : بين الآثار الاسلامية . القاهرة .

ابو المزايا : المقاصد الأربعة (مخطوط) .

معروف (ناجي) : تاريخ علماء المستنصرية . بغداد ١٩٥٩ . المستنصرية وأساتذتها —

المسعودي : مروج ومعادن الجوهر مطبوع بمصر وباريس .

المشرفي : فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان ، مخطوط بالمكتبة الزيدانية .

المعمري (محمد) : نبراس الإسلام في غضون التاريخ العام ، المطبعة الملكية ١٩٦٥.
المقري : نفح الطيب الطبعة الأزهرية ١٣٠٢ وطبعة دار صادر ، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس ١٩٦٨.
المقري : روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٣٧٣ – ١٩٦٤ .
المقري : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. القاهرة لجنة التأليف.
المكناسي : درة الحجال في أسماء الرجال ، مخطوط بالخزانة العلمية الصبيحية ، سلا.
الملزوزي : نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك ، المطبعة الملكية ، تعليق ابن منصور مؤرخ المملكة.
ابن الملقن : طبقات الأولياء ، مخطوط يحققه الأستاذ عبد الله الجبوري .
ملين (محمد) : عصر المنصور الموحدي ، الرباط ١٩٤٦.
المنوني (محمد) : العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين ، تطوان ١٩٥٠.
المنوني (محمد) : ركب الحاج المغربي.
ابن الموقت : السعادة الأبدية .
ابن الموقت : الانبساط بتلخيص الاغتباط ، مصر ١٣٤٧.
مؤلف مجهول : تأليف مبارك في ذكر الملوك الأدارسة ، الأصل في كوبنهاكن ، والصورة في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية.
مؤلف مجهول : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس الرباط مخطوط بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٧٢٢.
مؤلف مجهول : مفاخر البربر نشر معهد الدروس العليا. الرباط .
مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، مصر ١٩٥٨.
مؤلف مجهول : رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا ، طبعة بيروت ١٩٥٧.
مؤلف مجهول : بيوتات فاس في القديم.
مؤلف مجهول : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، نشره ابن ابي شنب. الجزائر ١٣٣٩ – ١٩٢٠
مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرتية ، نشر جورج كولان (المغرب).
ميارة (محمد) : نظم اللآلئ والدرر (مخطوط بالخزانة العامة رقم ك/٩٣١).
ابن ميمون : الرسالة المجازة في معرفة الإجازة (مخطوط).
ابن ميمون : رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن (مخطوط) بمكتبة بزو رقم ٥٠.
الناصري (احمد) : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، نشر ولديه جعفر ومحمد ، دار الكتاب ، بالدار البيضاء ١٩٥٤
الناصري (اليمني) : ضرب نطاق الحصار على أصحاب نهاية الإنكسا، ١٣٤٥.
الناصري (المكّي) : الأحباس . . .
النباهي : المرقبة العليا : – نشره ليفي بروفنصال – القاهرة.
نظارة أوقاف فاس : الحوالات الحبسية لجامعة القرويين (مخطوطة ، هي الآن بالخزانة العامة بالرباط).

نقرة (التهامي) : القيروان عبر العصور. تونس .
ابن هلال (ابراهيم) : النوازل .
وجدي (فريد) : كنز العلوم واللغة ١٣٢٣. القاهرة.
وزارة التربية الوطنية — إدارة الشؤون الثقافية : الكتاب الذهبي، جامعة القرويين في ذكراها المئة بعد الألف ، جمع وتنسيق عبد الهادي التازي، الكاتب العام لمهرجان عيد القرويين.
وزارة التربية الوطنية : وثائق مؤتمر جنيف التربوي ... وثائق مفتشية الآثار.
الوزاني (محمد المهدي) : النوازل (المعيار الجديد). طبعة فاس.
الونشريسي : المعيار طبعة فاس.
ياقوت (الحموي) : معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر من كل مكان.
ابن يحيى (يوسف) : تراجم صلحاء المغرب (مخطوط بمكتبة الكلاوي).
اليعقوبي : كتاب البلدان، طبعة ليدن ١٨٩٠. باعتناء دي غوية .
اليفرني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (ترجمة هوداس). باريس.
اليفرني : صفوة من انتشر. طبعة فاس.
اليفرني : المنهل السهل في شرح ابن سهل.
اليوسي : المحاضرات
اليونسكو : الوثيقة رقم 9/C/VR9

* * *

هذا الى ملف (الرسوم) العدلية و (الرسائل) العديدة المتبادلة من مختلف الجهات، مما يشتمل على معلومات جليلة.

المجلات والصحف

ابن ابراهيم (العبّاس) صناعة رجال القرويين في التأليف وأشهر مصنّفاتهم (مجلة المغرب)
ابراهيم (عبد الله) : الصوفية بالمغرب، مجلة المغرب الجديد (تطوان) ١٩٣٦ .
ابن ادريس (عبد العزيز) : في القرويين، جريدة الأطلس، العدد ١٢-٢-١٩٣٧ .
ابن ادريس (المهدي) : نشأة الأدب العربي بالمغرب، مجلة المغرب، عدد دجنبر ١٩٣٤ .
اعراب (سعيد) : المقامة الفاسية لابن محرز الوهراني، مجلة البحث العلمي، عدد شتنبر ١٩٦٥ .
اعراب (سعيد) : عبد الله بن ياسين مجدّد الإسلام بإفريقية، دعوة الحق، يونيه ١٩٦٩ .
الالغي (ابراهيم) : عناية الملوك المغاربة بالحديث الشريف من المرابطين الى العلويين، الدعوة ١٩٦٧ .
برايس : ساعات من القرن الرابع عشر في فاس، عرّبه عن الانجليزية عبد الهادي التازي، مجلة المجمع العلمي العراقي — الجزء الثالث عشر — ١٩٦٦ .
بروفنصال : كتاب طبقات علماء إفريقية، نشر ابن شنب، مجلة هيسبيريس — الجزء الأول — ١٩٢١ .
بلافريج (احمد) : اهتمام ملوك المغرب بفداء الأسرى، مجلة المغرب، نونبر ١٩٣٤ .

بكيج مدحت : الاحتفال في المغرب . جريدة اسلوبوجينة (التحرير) اليوغوسلافية . سراييفو- ٣٠ - ١٠ - ١٩٦٠ .

التازي : أقدم ساعة مائية في العالم توجد بمنار القرويين، جريدة العلم المغربية، عدد ٢٧-١-١٩٥٨ وعدد ٢٨ - ١ - ١٩٥٨ .

التازي : جامعة القرويين، مجلة العربي الكويتية عدد مارس ومايو ١٩٥٨ .

التازي : الدولة العلوية واقطاعية ابن مشعل ، دعوة الحق، يونيه ١٩٥٩.

التازي : نظرية جديدة في تاريخ بناء جامع القرويين مجلة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، المجلد السادس ١٩٥٨. مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد الثامن ١٩٥٩، مجلة الفكر التونسية السنة الخامسة، عدد ٦ مارس ١٩٦٠.

التازي : جامع القرويين، دعوة الحق، مارس، مايو ١٩٥٨.

التازي : الى الأستاذ لاندو - دعوة الحق، نونبر ١٩٥٨.

التازي : عبدالحق ابن معيشة أحد عمداء القرويين ٥٢٩ - ٥٣٣، مجلة التربية الوطنية دجنبر ١٩٦٠.

التازي : نحو تاريخ هجري موحد، دعوة الحق، عدد دجنبر ١٩٦٦ يناير ١٩٦٧.

التازي : الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، المجلد ١٤، ١٩٦٠ ٦١ - ٨٨.

التازي : الإمام داود بن ادريس من خلال الوثائق التاريخية، الدعوة، ابريل ١٩٦٠-٦٢، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد ٣٦ جزء ٢ - ٢١٢.

التازي : جامعة القرويين في ذكراها المئة بعد الألف، مجلة الاذاعة الوطنية، عدد اكتوبر ١٩٦٠.

التازي : الارقام العربية، مجلة التربية الوطنية، ابريل ١٩٦١ - مجلة اللسان العربي، عدد ٢ يناير ١٩٦٥.

التازي : العلاقات الثقافية بين روما وفاس منذ القرن العاشر للميلاد بمناسبة توأمة فاس - فلورانس جريدة العلم ٩ مارس ١٩٦٣ - ومجلة (المغرب) لوزارة الشؤون الخارجية.

التازي : توأمة فاس والقيروان أقدم توأمة عرفها التاريخ وتوأمات أخرى مجلة (المغرب) وزارة الممثل الشخصي لجلالة الملك ، مايه ، يونيه ١٩٦٥ / تاريخ بناء القرويين ، من (الكتاب الذهبي . . .)

التازي : من الوثائق التاريخية المغربية في بغداد (دعوة الحق) ابريل، ماي ١٩٦٧.

التازي : مراسيم تقديم اوراق الاعتماد على عهد السلطان المولى اسماعيل، دعوة الحق، مارس ١٩٦٩.

التازي : في تاريخ المغرب الدبلوماسي مجلة دعوة الحق (المغرب) مارس ١٩٧١ - مجلة الاتحاد (ابو ظبي) ابريل ١٩٧١ - مجلة البيان (الكويت) مايه ١٩٧١.

التازي : ٨ لقاءات مع المغفور له محمد الخامس - دعوة الحق، مارس ١٩٦٧.

التازي : ليبيا لدى الرحالة المغاربة، مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٠.

التازي : نضال السلطان مولاي يوسف من أجل حق المغرب الدبلوماسي، مجلة اللقاء، عدد مارس ١٩٦٩.

ابن تاويت (محمد) : أدب الدولة المرابطية والموحدية، مجلة البحث العلمي، عدد مايه ١٩٦٤.

التجيبي : الحسبة، جورنال آسياتيك، ابريل ١٩٣٤.

الجراري (عبد الله) : أقدم جامعة؟ المغرب الجديد ٥ يونيه ١٩٣٦.

ابن جلون (عبد الكريم) : محاضرة حول القانون الإسلامي، جريدة العلم.

ابن جلون (عبد المجيد) : قصة (مجلة المغرب) الوزير الممثل الشخصي لصاحب الجلالة . . .

الخليلي (محمد صديق) : المزاول الشمسية، مجلة التربية الإسلامية (بغداد) العدد ١٢ ، كانون الأول ١٩٦١.

جمال الدين (محسن) : حول المستشرق بندلي جوزي، مجلة وزارة المعارف العراقية، نيسان ١٩٦٠.

الجندي (أنور) : التقاء المغرب بالمشرق، البحث العلمي، مايه ١٩٦٤.

جواد (مصطفى) : آثار بني العباس في العراق، مجلة الهلال، السنة ٤١ يونيه ١٩٣٣/ جامع القرويين وجامع البصرة، الكتاب الذهبي ... مجلة العلم والحياة آذار ١٩٦٩ بغداد

الحجوي (محمد) : المرأة المغربية المثقفة، مجلة المغرب، أوت، دجنبر ١٩٣٥.

الحجوي (المهدي) : الأسلوب الكتابي وتطوره في عهد الأدارسة، ذيل عدد ٩ محرم ١٣٥٢ وعدد ١١ ربيع الاول ١٣٥٢ من مجلة (المغرب).

الحجوي (محمد المهدي) : القرويين والعلويين، مجلة المغرب، عدد خاص بالقرويين، نونبر، دجنبر ١٩٣٦.

حجي (سعيد) : ابن الوزان الفاسي، مجلة المغرب، نونبر، دجنبر ١٩٣٤.

حجي (سعيد) : سلطان الطلبة بمناسبة نزهته المقامة الآن بفاس ومراكش. مجلة الثقافة المغربية، عدد ٦، ١٢ مايه ١٩٣٨.

حجي (محمد) : المراكز الثقافية المغربية أيام السعديين، البحث العلمي، عدد دجنبر ١٩٦٥ ، ويناير ١٩٦٦.

حركات (ابراهيم) : حضارة الأدارسة، دعوة الحق، مارس ١٩٦١ .

حركات (ابراهيم) : فاس في ثورة دائمة، عدد يبراير ١٩٦٢.

ابن الحسني (المدني) : مغربيات، مجلة الهداية الاسلامية ج.ع.م. القاهرة، المطبعة السلفية، جمادى الأولى ١٣٤٨.

ابن الحسني (عبد الكريم) : تحية جامع السنة الى جامع القرويين، الكتاب الذهبي ص ١٥٨ — ١٧٢.

الدباغ (محمد عبد العزيز) : جامع الأندلس بفاس، دعوة الحق، أكتوبر ١٩٦٢ .

الدباغ (محمد عبد العزيز) : دور المرابطين في توحيد المغرب واقرار العقيدة السلفية، دعوة الحق، يونيه ١٩٦٩.

الدرقاوي (محمد الامين) : المناهج التعليمية عند ابن خلدون، دعوة دجنبر ١٩٦٥ وما بعد.

دراويس : جامعة ليدن بهولاندا (الكتاب الذهبي).

الرحالي (الفاروق) : القرويين وكلية مراكش (الكتاب الذهبي.)

الزغاري (محمد) : الكتاتيب القرآنية، ذيل مجلة المغرب، عدد ٩ المحرم ١٣٥٢ وعدد ربيع الأول ٣٥٢ مايو ١٩٣٣.

زمامة (عبد القادر) : نشأة الأدب العربي بالمغرب (دعوة) مارس ١٩٥٩.

زمامة (عبد القادر) : مشاهير أنساب فاس وبيوتاتها، البحث العلمي، عدد دجنبر ١٩٦٤ ويناير ١٩٦٥ — مجلة تطوان ١٩٦٢.

زمامة (عبد القادر) : الأمثال المغربية، شتنبر ١٩٦٥ يناير ١٩٦٦.

زمامة (عبد القادر) : بين الزياني واكنسوس مقارنات دعوة مارس ١٩٦٧.

زمامة (عبد القادر) : اسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس، مجلة اللسان العربي عدد غشت ١٩٦٦.

زمامة (عبد القادر) : الكلمات القرآنية الجارية مجرى الامثال بالمغرب (دعوة الحق) يناير ١٩٧٠

زنيبر (محمد) : كيف نشأت التقاليد العلمية بسوس، البحث العلمي الثالث شتنبر ١٩٦٤.

الزهيري (قاسم) : الممالك الاسلامية القديمة في افريقيا السوداء، دعوة الحق، مارس ابريل مايه يوليو ١٩٦٢.

ابن زيدان : العلويون وتعليم البنات ، مجلة المغرب، غشت شتنبر ١٩٣٥.

ابن زيدان : ازدهار العلوم على عهد العلويين، مجلة المغرب عدد ١٩٣٦.

السائح (حسن) : المناهج الدراسية بالمعاهد الاصلية ، الكتاب الذهبي. قصة سلطان الطلبة ، جريدة آخر ساعة ٢٣ مارس ١٩٦٣.

السالمي (احمد) : شعر المولودية في مملكة غرناطة والمغرب من القرن الثالث عشر الى القرن السابع عشر

السراج (محمد) : المركز الاجتماعي لعلماء جامعة القرويين، الكتاب الذهبي.

سرهنك (اسماعيل) : كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار ، النشرة التربوية (تونس) العدد الثاني ابريل ١٩٦٠

شبّانة : الازدهار الاجتماعي عصر الفاطميين، دعوة الحق، شتنبر ١٩٦٦.

الشرايبي (عبد الهادي) : جاذبية الوطن، مجلة السلام تطوان للشيخ محمد داود مارس ١٩٣٤ المغرب / مجلة (الرسالة) المصرية عدد ١٠ يونيه ١٩٣٥.

الشرقي (علي) : محاسن فاس، محاضرة القيت في المؤتمر الثامن لمعهد الدروس العليا، ابريل ١٩٣٣ ذيل مجلة المغرب عدد محرم ١٣٥٢ وربيع الاول ١٣٥٢.

ابن شقرون (الحاج احمد) : القرويين بين الامس واليوم (الكتاب الذهبي) ص ١٢٢.

الشنقيطي (محمد الأمين) : جامعة القرويين بين القديم والحديث، الكتاب الذهبي ص ٨٩ – ٩٢.

الشياطمي (محمد) : نظرة على مدينة صفرو، مجلة التربية الوطنية، عدد ٩ يونيه ١٩٦٠.

الشيال (جمال الدين) : الصلات الثقافية بين الاسكندرية والمغرب (الكتاب الذهبي...).

الصبيحي (محمد) : شهيرات النساء، مجلة المغرب، نونبر ١٩٣٥.

الصحراوي (عبد القادر) : العُلماء وبيعة المولى اسماعيل، دعوة الحق، عدد مارس ١٩٦٧.

صليبا (بندلي) : أقدم مدرسة كلية علمية في العالم، العدد ١١ من السنة الأولى من (الهلال) المصرية في باب المراسلات، أول يوليه ١٨٩٣ الموافق ١٧ ذي الحجة ١٣١٠.

الطنجي : موقف ملوك الدولة العلوية وفخرها المولى اسماعيل من مؤسسة الاحباس، مجلة المغرب، مايه ١٩٦٣.

ابن عاشور (محمد الفاضل) : فاس من خلال المخطوطات التونسية، مجلة المغرب، دجنبر ١٩٦٥ ويناير ١٩٦٦.

العبادي (أحمد مختار) : الموحدون والوحدة الاسلامية، مجلة التربية الوطنية، مارس ، أبريل ١٩٦١.

بنعبد الله (عبد العزيز) : مؤسساتنا الجامعية بين جامعات العالم، جريدة (العلم) ، عدد ٢٢ – ١٢ – ١٩٥٧ وعدد ٢٣ – ١٢ .

بنعبد الله (عبد العزيز) : الفن المعماري بالمغرب في العصرين المرابطي والموحدي، جريدة العلم، عدد ١٩٥٧/٨/١٨ وفي عهد المرينيين، العلم، عدد ١٩ – ٨ – ١٩٥٧ وفي عهد السعديين والعلويين ، العلم، عدد ٢٠–٨–١٩٥٧.

بنعبد الله (عبد العزيز) : الحكومة المغربية في فجر القرن العشرين للدكتور محمد الحبابي، جريدة العلم ٢٧ – ١٢ – ١٩٥٧.

ابن عبد الوهاب (الحسن) : تاريخ القضاء بشمال المغرب على عهد الحماية، البحث العلمي ، شتنبر ١٩٦٤ ، ويناير ١٩٦٥ وشتنبر ١٩٦٦.
العراقي (ابن رشيد) : اكتشافات هامة في خزانة القرويين، مجلة المغرب، عدد مارس ١٩٣٤.
ابن العربي (الصديق) : شخصيات مسيحية بالمغرب ، مجلة تطوان ، المجلد الأول.
عزّام (عبد الوهاب) : الشيخ الخالدي، مجلة الرسالة المصرية، العدد ٨٤ / ٧ ذي القعدة ١١ يبراير ١٩٣٥ وعدد ١١ مارس ١٩٣٥.
عزمي (محمود) : تحقيقات الأهرام في بلاد المغرب. الاهرام ٢٧ – ٣ – ١٩٥١.
العلويّ (صالح) : هل تأثر الفقه الاسلامي بالفقه الرومي او الحقيقة هي العكس، الرسالة المصرية عدد ١٣ مايه ١٩٣٥.
علي (زكي) : ساليرنو أقدم جامعة في أروبا ج ٥ من (الهلال) المصرية، السنة ٤١ مارس ١٩٣٣ – ٥ ذي القعدة ١٣٥١.
العمراني (عبد الله) : فاس وجامعتها ، البحث العلمي، مايه، دجنبر ١٩٦٧.
عواد (كوركيس) : المدرسة المستنصرية ، مجلة سومر ، عدد يناير ١٩٤٥ .
غلاب (عبد الكريم) : المسجد خلية اجتماعية ، دعوة ، دجنبر ١٩٥٩ .
الفاسي (عبد الواحد) : الخطبة والخطباء بفاس ، المؤتمر الثامن لمعهد الدروس العليا ، ذيل مجلة المغرب عدد ٩ المحرم ١٣٥٢ وعدد ربيع الاول ١٣٥٢ .
الفاسي (محمد) : الدراسة في القرويين أيام الوطاسيين ، مجلة رسالة المغرب ، العدد ١١ – ٣ شعبان ١٣٦٢ – ٥ غشت ١٩٤٣ – مجلة المغرب ، صالح ميسة ١٩٣٧.
الفاسي (محمد) : دور القرويين في جعل فاس من بين العواصم الاسلامية الكبرى – الكتاب الذهبي ص ١٠٩.
الفاسي (محمد) : الخزانة السلطانية وبعض نفائسها ، البحث العلمي ، شتنبر ١٩٦٤ – يناير ١٩٦٥ وشتنبر ١٩٦٥ ويناير ١٩٦٦ .
الفاسي (محمد) : ذكرى وفاة السلطان المولى اسماعيل، مجلة تطوان (بدون تاريخ).
تاريخ الدراسات اللغوية بالمغرب الأقصى، دعوة، يوليو ١٩٦٠ .
الفاسي علال : ماضي القرويين، مجلة المغرب ، العدد الثالث ، سبتمبر ١٩٣٢.
الفاسي علال : للحقيقة والتاريخ، الرسالة المصرية ، العدد ٨٨/ ٦ ذي الحجة الموافق ١١ مارس ١٩٣٥.
الفاسي (عبد الرحمن) : محاولة للدفاع عن بر العدوة، مجلة المجمع العلمي العراقي، م ١٧ سنة ١٩٦٧.
الفاسي العابد : خزانة القرويين ونوادرها، المجلّد ٥ معهد المخطوطات العربية ٥ مايه ١٩٥٩
الفاسي العابد : حياة ابن عبد الملك المراكشي دعوة يناير يبراير ١٩٥٩.
الفاسي العابد : حَوْل كتاب الخزانة العلمية بالمغرب ، دعوة الحق ، ابريل ١٩٦١ .
الفاسي العابد : مخطوط نادر لابن طفيل . مجلة التربية الوطنية ، ابريل ١٩٦٢.
فرج (عبد الملك) : ابن زهر مجلة المغرب
الكتاني (ع.ج.) ماضي القرويين وحاضرها. مجلة المغرب، العدد الثالث. مجلة المغرب ١٩٣٢.

الكتاني (ع.ح.) : المكتبات الإسلامية ، المغرب ١ يوليه ١٩٣٢ وعدد ٢ غشت ١٩٣٢.
الكتاني (ع.ح.) : انتخاب السادات العلماء ، أخبار تلغرافية ، العدد ١٠٩ / ١٠ مايه ١٩١٤.
الكتاني (ادريس) : سلطان الطلبة ، مجلة الرسالة المصرية ، العدد ٢٨٧ ، ١٩٣٨.
الكتاني (ادريس) : الأسرة المغربية التقليدية ، تكوينها ، عاداتها ، تقاليدها ، البحث العلمي، يناير ١٩٦٨ .
الكتاني (ابراهيم) : جولة في المخطوطات العربية باسبانيا، دعوة، نونبر ودجنبر ١٩٦٦.
الكتاني (ابراهيم) : الكتاب المغربي وقيمته، البحث العلمي ، يناير وغشت ١٩٦٥ ، ومجلة اللسان العربي ، غشت ١٩٦٥ .
كنون (عبد الله) : الحياة الفكرية في عصر المرابطين ، مجلة التربية الوطنية عدد ٦ – شهر مارس ١٩٦٠
كنون (عبد الله) : جامع تاعياشت، مجلة التربية الوطنية ، عدد مارس ١٩٦٨.
كنون (عبد الله) : فيلسوف مغربي من عهد الموحدين ، مجلة التربية الوطنية مايه ١٩٦٠.
كنون (عبد الله) : عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت ، البحث العلمي ، شتنبر ١٩٦٦.
الكعاك (عثمان) : الجامعات المغربية وأثرها في جامعات اروبا، البحث العلمي دجنبر ١٩٦٥ – العدد ٢٧ اكتوبر ١٩٦٥ .
لاندو (روم) : حول القرويين، مجلة رسالة المغرب ، ١١ يونيه ١٩٥١ .
المنجّد صلاح الدّين : نوادر المخطوطات بالمغرب : مجلة معهد المخطوطات العربية مايه ١٩٥٩.
ابن منصور (عبد الوهاب) : الطبيب ادراق ، دعوة الحق، مايه ١٩٥٨.
المنوني (محمد) : مكتبة الزاوية الحمزاوية، مجلة تطوان ١٩٦٣ .
المنوني (محمد) : مدخل الى تاريخ القرويين العلمي، مجلة التربية الوطنية ، ابريل ومايه ١٩٦٣ – الكتاب الذهبي.
المنوني (محمد) : وصف المغرب أيام السلطان ابي الحسن المريني ، البحث العلمي، العدد ١ يناير ١٩٦٤، ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي (مجلة اللسان العربي) يونيه ١٩٦٤ .
المنوني (محمد) : الطباعة الحجرية الفاسية ، مجلة تطوان ١٩٦٥.
المنوني (محمد) : نظم الدولة المرينية ، البحث العلمي عدد ٢ – ١٩٦٤ ويناير ١٩٦٥.
أساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي، البحث العلمي، عدد دجنبر ١٩٦٥ .
المنوني (محمد) : ترجمة مغربية لفهرس الاسكوريال، البحث العلمي، العدد ٦ شتنبر ١٩٦٥ .
المنوني (محمد) : كراسي الاساتذة بجامعة القرويين دعوة الحق يبراير ومارس ١٩٦٦ وما بعد.
المنوني (محمد) : مظاهر يقظة المغرب الحديث ، العدد التاسع، شتنبر ١٩٦٦.
المنوني (محمد) : علاقات المغرب بالمشرق مجلة تطوان المجلد .
المنوني : فاس الجديد (البحث العلمي) دجنبر ١٩٦٧ .
ابو مهدي : المغرب في المؤتمر الدولي للمهندسين المعماريين ، العلم ، العدد ٦ مايه الى ١١ منه ١٩٥٧ .
مونتس (حسن) : المدارس الإسلامية للمؤرخين العرب محاضرة، ألقاها في فاتح دجنبر ١٩٥٩.
النيفر (الشاذلي) : مساهمة القرويين في اللقاح العلمي بين المغرب وتونس (الكتاب الذهبي).
هوديكين (توماس) : تومبوكتو خلال القرون الوسطى، مجلة التربية الوطنية ، سابع إبريل ١٩٦٠.

بعض المراجع غير العربية

E. AMANN et A. Dum : l'Eglise au pouvoir des laïques T. VII de l'Histoire de l'Eglise 1940.

E. Aubin : Le MAROC d'aujourd'hui ; Paris 1904.

D. BADIA, Y, LEBLICH : (ALI BEY) : VIAJES Por Africa Y ASIA.

Barcelona 1943 P. 61 et suiv.

A. Bel : Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la Mosquée d'el-Quaraouiyne à Fés, Fés 1918 Inscriptions arabes de Fés, Paris 1919.

G. Charmes : Une ambassade au MAROC, Paris 1887.

B. Cheneb : Etudes sur les personnages mentionnés dans l'Iidjaja du Cheikh Abdelkader el Fassi.

G. Delphin : Fas, son université et l'enseignement superieur musulman, Paris 188.

G. Deverdim : Inscriptions arabes de MARRAKECHE 1956.

G. Deverdim : MARRAKECHE 1959.

Dien le fils et Jaribc : Les Allumes, Paris 1915.

Dozy : Suppléments aux Dictionnaires Arabes. . Ley-de 1881.

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne. .

ELLIOUS Bocthon : Dictionnaire Français arabe, Revu et augmenté par caussin De Perceval.

J. ERCKMANN : Le maroc moderne, 1885.

Fister : Etudes sur le règne de Robert le Pieux 1885.

H. Gaillard : une ville de l'Islam : Fés 1905.

L. Godard : Description et Histoire du MAROC, Paris 1860.

Hubert-Jaques Les journées sanglantes de Féz, Paris 1913.

JEAN-Leon l'Africain : Description de l'Afrique. Nouvelle Edition Traduite de l'ITALIEN Par A. Epaulard, Paris 1956.

O. JONES : Plan, élévations, détails de l'Alhamra.

La Voix : Catalogues des monnaies musulmanes de la bibliothèque nationale.

C.J. Le Flon : Gerbert, humanisme et chrétienté du Xe siécle 1946.

R. LE TOURNEAU : Fes Avant le Protectorat 1949.

LUCCIONI : Les bibliothèques du Habus au Maroc 1940.

MADRAS (DIDIER) et B. Maslow : Fés, capitale artistique de l'Islam ; case 1948 / . Promenade au MAROC.

G. MARÇAIS : MANUEL d'art musulman 2 vol Paris 1925-1927.

G. Marçais et Poinssot : Objets Kairouanais : Reliures, verreries, cuivres 1948.

MARMOL-DE l'Afrique, Trad. de Nicolas Perrot d'Ablancourt 3 vol Paris 1667.

A.G.P. MARTIN : quatre siècles d'histoire Marocaine Paris Alcan 1923.

P. MARTY : Le MAROC de demain 1925.

B. MASLOW : Les mosquées de Fés et du Nord MAROCAIN PARIS 1937.

L. Massignon : Le Maroc dans les premières années du XVI siécle 1906.

M. des Mazières : Sur la Terre du Maghreb, la vie et la mort du Frère André de spolete martyr Franciscain a Féz au XVI.

A. Moulieras : Fes, Paris, 1902 le Maroc inconnu 22 ans d'exploration dans cette contrée mystérieuse de 1872 à 1893.

Nicolas Clénard : correspondance Pupliée par Alphonse Roersch. Bruxelle 1940.

Oskar Lenz : Timbouctou, voyage au MAROC, au Sahara et au soudan, Trad Paris 1886. Vol 2.

Ould Hamidoun (Mokhtar) et Heymowski (Adam) catalogue provisoire des manuscrits mauritainiens en langue arabe préservés en Mauritanie, Nouakchott et Stockholm 1965-1966. (مكتبة الاستاذ المحامي هلال ناجي – بغداد –)

PERES-Sempérés : repertoire.

PICAVET : Gerbert, un pape philosophe d'après l'histoire et la légende 1867.

PRICE DEREK J. DE solla : Science since Babilon.

L. PROVENÇAL : Séville musulmane au début du XII siècle.

L. PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne musulmane Paris 1950.

L. PROVENÇAL : La fondation de Fés in Annal de l'institut d'Etudes Orientales IV, Alger 1938.

L. Provençal : Les historiens des Charfa Paris 1922.

L. Provençal : La fondation des Fés en Annal de l'institut d'Etudes orientales IV Alger 1938.

L. PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne musulmane Paris 1950.

CH. Ricard : La vie du Pacha el Baghdadi Paris 1936.

H. TERRASSE : Mosquée de Taza Histoire du Maroc 2 vol casa 1950.

H. TERRASSE : La grande mosquée des Andalus a Fés.

TERRASSE : La mosquée d'Al-Quarawiyin à Fés librairie C. Klincksiel Paris 1968. 1968.

Jet J. THARAUD : Féz ou les bourgeois de l'Islam Paris 1930.

F. Weisgerber : le Maroc il y a 30 ans April 1928.

J. Windus : a journey to mequinez, the residence of the present emperor of Fez and morocco, on the occasion of commandar stewart's embassy thither for the redemption of the British captives in the year 1721, London 1725.

المجلات والمتنوعات

A. BEN ABDELLAH : Role culturo-social des mosquées et medersas. Revue ALI-STIQLAL 23, Avril 1960. RABAT.

M. BERDELLAH ET M. NENY : medinat Fas, conférence Promenade du 14 Févrièr 1954, Edition Amis de Fés.

J. BERQUE : Ville et universitée, Aperçu sur l'histoire de l'école de Fés in Réne historique de droit Français et étranger 1949 N. I. P. 64-117.

BRESSOLETTE : conférence sur la medersa sahrig, donnée le 20 Mars 1930 (Les amis de Fés).

BUTIN : Quarawiyn, in revue coflunt, RABAT 1959.

G. CHORVIN : Les relations de la France Avec le MAROC Hesp 1957 T. 44-3 et 4 TR.

J. CAILÉ : Ambassade et missions marocaines aux Pays-Bas Hesp, Tamduda IV Fas 1.

J. CÉLÉRIER : les conditions géographiques du développement de Fés, in Hesp. T. 19 1934 P. 1-19.

G. S. COLIN : au sujet d'IBN AL WAZZAN in Hesp 1935 T 20 Fas, 1, II p. 94

DE CENIVAL : La légende du Juil IBN Mech'al et la fête du sultan des Tolba à Féz, Hesp 1925 2 Ta ;

G. DEVERDUN : une Nouvelle inscription idris-side de 263 H. in Melanges d'histoire et d'archeologie de l'occident musulman. T. I. Articles et conférences, Hommage à G. MARCAIS 1957.

M.A.Hlakim :collection"maghrib" Breve Historia de la litérature marroqui, Al-lijaï P. 119.

L'INSTITUT DES H. E. M. Publications, imprimerie de l'étoile, RABAT.

LECLERC : Les fondoqs de Fés, Revue France-Maroc, 15-1-1917 p. 20.

R. LE TOURNEAU : Note sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour dans le royaume de Fés 1540-1541 Hesp. 1 et 2 Trim 1934 p. 45-63.

LE TOURNEAU : Yusuf Ben Tashfin, second Fondateur de Fés ? mélanges Mohamed el-Fassi, publiés à l'occasion du 12ème anniversaire de l'Université Mohamed V 1957-1967 P. 77.

MAGHREB : Protestation des Oulema, Révue MAGHREB (Paris) No 7 et 10,2 me année April 1933 P. 21-22.

G. MARCAIS : Remarques sur les positions des entrées latérales dans les mosquées d'orient et d'occident (mélange d'histoire. .T.I.1957 p. 119-130.

MAROC-Presse : la visite de S.E.Al-Fassi à la quarawiyne No de 25 Jan. 1956.

MICHAUX-BELLAIRE : Description de la ville de Fés, in arch Mar. XI 1907-L'organisation des finances du MAROC Arch. Mar.

E. PAUTY : Le plan de l'université Quarawiyne à Fés Hesp.IV 1923 P. 539.

J. PEDERSON : Masdjid (ENCYCLOPEDIE DE L'Islam).

H. PÉRÉS : La poésie à Fés sous les Almaravides et les Almohades. Hesp 1934 T. XVIII P. 9-16.

PÉRÉTIÉ : Les medrasas de Fés. Archives Marocaine XVIII 1912 p. 257-372.

D.J.S. PRICE : Mechanical water clock of the 14 the century in Fez, Morocco of print from ITHACA 26 VIII 21 X 1962 Herman PARIS.

L. PROVENÇAL : La fondation de Fés. Annales de l'institut d'Etudes orientales, Faculté des lettres Alger IV, 1938.

D. RENAUD : Sciences exactes. . in Hesp 1932 T XIV les chiffres arabes, Hesp. 1944 T.31.

RÉSIDENCE GÉNÉRALE : La restauration de la mederssa seffarine et la future bibliothèque de Quarawiyne a Fés, Bull-d'information et de docu-10 Fév. 1940 P. 6.

P. RICARD : La grande mosquée cathédrale el Quarawiyne, siège de l'université musulmane de Féz, France-Maroc No 3-15 Mars 1918 et 15-Oct. P. 32.

R. CAMPANAS CAUTIVAS, Andalus Madrid vol XVIII 19 1953 Fas 2 p.

P. RICARD : Une description de Fés au XVII siécle. France-Maroc Mars 1921 P.40.

SLOUCH : Les juifs de Debdou, Revue du Monde Musulman T. XVII Paris 1913.

LA SOURCE : Quarawiyyine entre son passé et son avenir cahier No 5 Faits et idées, 1950.

A. TAZI : La société marocaine et l'enseignement traditionnel, conférence donnée à Toumlilin 1958, Faits et idées 20 Oct. 1958 No 92 P. 32.

A. TÉRÉLLE : Les medersas de Fés, Archives Marocainnes vol XVIII-1912 P. 257-372.

H. TERRASSE : Le jamaa Al-Gnaiz de la mosquée d'Al-Quarawiyne. Hesp 1934 p. 212.

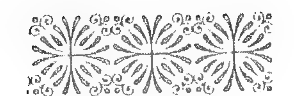
H. TERRASSE : Chapiteaux Oméiyades d'Espagne à la mosquée d'Al-Quarawiyne de Fés Al-Andalus vol XXVIII Madrid 1963 Fas 1 P. 211.

VIALA : Le mécanisme du partage des successions, en droit musulman Hesp. 1932 T. 14 P. 87.

E. H. VOLLET : Sylvester II ou Gelbert la grande Encyclopédie.

G. WIET : Max Van Berchem, Hesp 1925 Fasc 4.

G. Weit : Une lettre de l'Almohade Murtadâ au pape INNOCENT IV Hesp 1926 I.T.



الباب الأول

جامع القرويين على عهد الادارسة والزناتيين والمرابطين والموحدين

الفصل الأول

* القرويين الاولى في عهد الادارسة
* ميلاد دولة الأدارسة في المغرب الاقصى
* تأسيس العاصمة : فاس
* بناء جامع القرويين
* مرافق القرويين الاولى :
البئر – المئذنة – المحراب – المنبر الفاطمي

ميلاد دولة الأدارسة بالمغرب

٤ رمضان ١٧٢ - ٦ يبراير ٧٨٩ .

ظلت البيعة التي عُقدت في اعقاب حكم بني امية بمكة ، ونصت على أحقية محمد النفس الزكية بالخلافة . ظلت الأساس الذي يرتكز عليه استمرار مناهضة الاشراف الطالبين للولاة العباسيين بني عمهم ولا سيا وقد حضر البيعة وباركها وزكاها منذ البداية زعماء هؤلاء ، وفي صدرهم أبو العباس السفاح ، وابو جعفر المنصور . ولهذا فان موقف بني العباس بعد انهيار الدولة الأموية كان في نظر بني هاشم تنكرا للعهد يقتضي المعارضة أحيانًا ، والمواجهة أحيانًا أخرى. وقد شهد الشرق نتيجة لذلك اصطدامات بين هؤلاء وأولئك، وبين انصار هذا الفريق وذلك الفريق ، واحتدم النزاع عندما وقف بعض الأقطاب الاعلام من أمثال الامام مالك الى جانب النفس الزكية مؤكدًا ان امامته اصح من امامة المنصور ، الأمر الذي ادى الى المحنة المعروفة التي عاشها [1] الامام مالك، لذلك توجه المنصور بكل وسائله للاجهاز على منافسه الأول ، تارة بالإغراء ، وأخرى بالوعد . ولما أعجزه كل ذلك، بعث اليه بجيش كثيف بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى الذي كان ابو العباس قد جعله ولي عهده بعد المنصور وهكذا استشهد النفس الزكية على مقربة من المدينة المنورة سنة خمس واربعين ومئة [2] وتنفس المنصور الصعداء حين وضع أمامه رأس الشهيد ، وكان يعتقد دون شك أن دولة بني العباس قد استراحت الى الأبد من كل المنغصات.

بيد انه لم يمض الا زهاء عشرين عاما حتى تعرضت دولة بني العباس لثورة أخرى تستهدف كذلك الأحقية التي ما فتئ آل البيت يطالبون بها. لقد ذهب محمد النفس الزكية ، ولكن الفكرة لم تذهب . وهكذا نرى اهل المدينة المنورة يبايعون الحسين بن علي بن الحسن ونرى الاشراف يلتفون حوله ، وعبثا حاول الخليفة إسكات الناس... وامام ازدياد المقاومة الطالبية العلوية ، اضطر العباسيون الى قمع الحركة ، وعهد الخليفة موسى الهادي الى محمد بن سليمان بن علي احد كبار قادته العسكريين بالمهمة ، وزوده بكل ما يمكن من مال ورجال وعتاد ، وكانت المعركة هذه المرة بضواحي مكة على ثلاثة أميال منها في المكان المعروف بفخ، [3] وقد أسهم فيها عدد مهم من أنصار الحسين ، وآل بيته ، وعلى رأسهم عمه الإمام إدريس [4] . ولقد كان لفصل الحر أثر قوي في استسلام الكتائب الطالبية حيث ظلوا مجدلين ثلاثة أيام ، لم يواروا حتى أكلتهم جوارح الطير... واستشهد الحسين ... وعلى خلاف المنصور فقد اقشعر جلد الهادي عندما وقع بصره على رأس [5] الحُسَيْن رضي الله عنه ، كانت الحادثة تصادف يوم السبت الثامن من ذي الحجة يوم التروية عام تسعة وستين وألف (١٠ يونيه ٧٨٦) .

* * *

لقد استطاع الإمام إدريس بمساعدة مولاه راشد أن يجد - مع حجاج إفريقية [6] مركبا عبر به البحر الأحمر الى بلاد النوبة ، ومن ثمة الى مصر فبلاد طنجة ، وألقى عصا تسياره في مدينة وليلة [7] حيث فتحت له القبائل البربرية صدرها. كان هذا الإقليم قد عرف الإسلام قبل هذا التاريخ ، ولذلك لم يكن ذكر آل البيت غريبًا عنه ولا بعيدًا ، ولذلك أيضاً اقترن خبر وصول إدريس بالمسرات والأفراح ، ولم يكن صعبًا على الإطلاق أن يحصل على ...عة السكان وفيهم صاحب البلاد إسحاق الأوروبي المعتزليّ بعد ستة أشهر من وصوله ، بلْ إنه ورد في وقت أزمع فيه لسكّان على اختيار قائدٍ من آل البيت للاستقلال عن الخلافة في المشرق ... لقد بويع يوم الجمعة رابع شهر ...مضان ١٧٢ (٦ يبراير ٧٨٩) فتم بذلك إنشاء الدولة العلوية المغربية ، ولكن هل نسي الامام رسالة أهل بيته ؟

لقد ألقى جانبًا بكل متاعب الماضي ومآسيه، وهب منذ اليوم الموالي يفتتح الحصون ويعبّد للبلاد ، في جنوب المغرب «تادلة» وفي شرقه (تلمسان) ، وهنا في تلمسان بني مسجدًا جامعًا نقش على منبره العبارات التالية : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما امر به ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومئة [٨].

خمس سنوات فقط بعد وقعة فخ استطاع فيها امير علوي ان ينشئ بالمغرب مملكة مستقلة عن الخلافة ، خمس سنوات فقط كانت كافية لتحقيق مثل هذا النصر الباهر ! ان تلمسان هي باب افريقية ، ومن ملك الباب يوشك ان يدخل الدار !

كان هارون الرشيد يتلقف أخبار المغرب ولكن بمرارة زائدة ، لقد كانت أول ضربة قاصمة توجه لاستقرار دولة بني العباس في المشرق ، صحيح انها فقدت بالأمس اقليم الأندلس عندما استطاع عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢) ان يفلت من تعقب العباسيين ليكون له في الأندلس دولة مستقلة ، بيد ان ذلك تم في ظروف قلقة كان فيها العباسيون في حالة سطو على كيان بني أميّة ، أما افلات ادريس فقد تم في عز الدولة واستقرارها ! أما ادريس فهو من آل عليّ ولا بد ان كسبه سيفوق كل تصور ، وعظم الأمر على الخليفة واغتم لهذا الحدث غما شديدا [٩] حتى لقد فكر في المخاطرة بارسال جيشه الى مجاهل هذه البلاد ، ولكنه اذعن أخيرًا للهاجس الأسود الذي خطر ببال وزيره وظهيره يحي بن خالد البرمكي (ت ١٩٠) [١٠].

كان يتلخص في انفاذ عميل لاغتيال الامام ادريس ! كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لاجتثاث اصول هذه الدوحة التي كان يتصور هارون الرشيد ظلالها وفروعها وخمائلها. ولم يخطر ببال الخليفة انه بعمله ذلك قوّى من مكانة بيت ادريس في المغرب، وأظهرهم أمام الناس قاطبة على انهم ضحايا ظلم وغدر، وقد ظل اسم الشمّاخ، الذي قام بعملية تسميم الامام، مقترنا بكل معاني الخسة والضعة، ولهذا ايضا اجمع المغاربة على عدم الانفضاض من حول الأمل المتبقي لديهم، والذي كان يتمثل في الحدث السعيد الذي تنتظره الأميرة المغربية كنزة زوجة الامام الشهيد، والذي ارادت العناية الالاهية ان يتم يوم الاثنين الثالث من رجب عام سبعة وسبعين ومئة (١٤ أكتوبر ٧٩٣).

تأسيس العاصمة : فاس

شهر ربيع الاول ١٩٢ هـ .

(٤ يناير ٨٠٨ م)

لقد كان تقدير هارون خاطئا حقا، فقد لفت بتدبيره انظار الناس الى اصالة آل ابي طالب، واكتسب الوليد ادريس الثاني منذ البداية قلوبا تهفو الى رؤيته يتبوأ مكانة ابيه الراحل، ولقد تضافرت جهود المربين الذين كانوا يسهرون على تثقيف الأمير وتدريبه، ولم يكتمل سن العاشرة حتى اخذت له البيعة على نفس المنبر الذي بويع عليه والده بمدينة وليلة، وتم ذلك يوم الجمعة مهلّ شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين ومئة (١٠ مارس ٨٠٢).

ان وليلة أمست غير كافية لايواء كل الناس الذين يردون على الامام، ليس من جهات المغرب فحسب ،

ولكن من الأمكنة البعيدة النائية ... ورد عليه خمس مئة فارس من افريقية، ومن الاندلس مئات الاسر من بني قيس ، ومن الأزد ومن الخزرج، وبني يحصب، وحتى من فارس وردت عليه عدة وفود ... وهكذا لم تمض خمس سنوات على اخذ البيعة له حتى شعر بالحاجة الى بناء مدينة لسكناه وسكنى خاصته، ووجوه دولته ، تكون أكبر مساحة وأعذب ماء وأجمل موقعا، بعيدة عن قيظ الصحراء ورطوبة البحر واذى المستنقعات وعواصف الجبال، وركب في خاصة من قومه، وأخيرًا وقع اختيار وزيره عمير بن مصعب الازدي[11] على هذه الغيظة الملتفة الأشجار، المطردة العيون والأنهار التي نالت استحسان الامام ، ودفعت الستة آلاف درهم[12] لبني الخير أصحاب الأرض، وأشهد عليهم في صك حرره كاتبه ابو الحسن عبد الله بن مالك المالكي الانصاري الخزرجي سنة احدى وتسعين ومئة (٨٠٧ م). واذا كانت الفسطاط والقيروان نفحتين زكيتين من الصحابة والتابعين فان الله آثر مدينة فاس بأن تكون من آل البيت الاقربين، وأن تضفي عليها هذه النسبة من قبسها وانوارها، وفيضها وأسرارها[13]. لقد ورد ادريس غداة غرة شهر ربيع الاول من سنة اثنين وتسعين ومئة (٤ يناير ٨٠٨ م) على عين المكان ليختط شوارع العاصمة وأبوابها وجسورها.. وقدموا للإمام الشاب فأسًا بديعة مصنوعة من ذهب وفضة ليفتتح بها أعمال التشييد والبناء ... ورفع إدريس يديه الى الله ضارعا : «اللّهمّ اجعلها دار علم وفقه ...» لقد وضع ادريس الحجرة الاولى للمدينة، ولكأنما وضعها لحي جامعي دائم الحياة ، فقد بلغ عدد الكراسي العلمية بها في بعض الأحيان مئة وأربعين كرسيًا[14]، تعاقب عليها كبار العلماء والفقهاء والأدباء والاطباء ... ولكأنما وضعها لمركز ديني ظل على مر الزمن قبلة للمؤمنين يحجون إليها من مختلف الآفاق، لتصفية نفوسهم، وتبيين طريق وجهتهم ... ولكأنما وضعها لقاعدة سياسية ما انفكت صاحبة الحل والعقد في كل التطورات الهامة التي شهدتها الدولة ، وما انفكت تسهم بالحظ الأوفر في تسيير شؤون البلاد وتدبير أمورها في الداخل والخارج ... ولكأنما وضعها لسوق تجارية قصدها الناس بتحفهم ونفائسهم وراحوا وهُم أكثر ما يكونون كسبا وغبطة ... ولكأنما وضعها لدار صناعة تجلى فيها جمال الذوق وسلامة المزاج.

لقد صاغ الهواة محاسنها في نظمهم ونثرهم ، كل التفت الى ناحية ، وكل أخذ بناصية ، حتى ليخيل الى المرء أنه أمام «فاسات» عديدة وليست فاسًا واحدة ، وحتى بعض الذين روّحوا عن انفسهم بما خيل اليهم أنهم نالوا به منها، حتى أولئك ، كانوا يعكسون سمو قدرها وعلو مقامها ، كانوا يشيدون بعمق مخبرها وجمال مظهرها ، أو بطيّها وزيّها على حد تعبير الشاعر ابن عبدون، (ت ٦٥٩)[15] لقد عُني قوم بوفرة منابعها ومياهها ، وتخلل عيونها الصافية في المدارج والمنعطفات ... وسحر قوم بالتميز البيّن بين فصولها ، والتدرج الليّن بين وداع موسم واستقبال آخر ، هي في الشتاء غيرها في الصيف ، وهي في الخريف غيرها في الربيع ، فما تراه في هذه المناسبة من ألوان زاهية تعوضه المناسبة الثانية بمفاتن غيرها ... وقد سحر قوم آخرون بما احتضنته المدينة من مباهج الشرق والغرب ، فعادوا يلتمسون فيها ما ضاع من ليالٍ في بغداد وأيام في إشبيلية ، كل زاوية من زواياها ، وكل خلية من خلاياها وجد فيها الهواة مادة صالحة للحديث ، وحتى المقابر التي تسودها الكآبة، ويغشاها عادة الشعور بالمصير، فانها تكون في فاس مدعاة لجولة ممتعة في تاريخ أولئك الرجال الذين زودوا هذه المدينة بالرّوح التي ما انفكت سارية فيها عبر الأحقاب والدهور.

العُدْوَتان

وقد أنزل إدريس في المنطقة الشرقية من المدينة ضيوفه الذين وردوا عليه من الأندلس، فعرفت الى الآن بعُدْوَة الأندلس، ثم بعد نحو من سنة، أي في أول شهر ربيع الثاني من سنة ثلاث وتسعين ومئة (٢٢ يناير ٨٠٩) خصص الضفة الغربية بإقامته هو مع فريق آخر من الذين وردوا عليه من القيروان، فعُرفت بعُدْوَة القرويين [١٦]، واقتضت همة إدريس أن يجعل من تلك «الغيضة» المركز الديني والعاصمة السياسية والسوق التجارية، فشجع الناس على التعمير، ونُودي فيهم «أن يسارعوا الى إحياء الأرضين، فان كل من بنى موضعًا واغترسه قبل أن يتم تسوير العدوتين، كان له أن يتصرف فيه تصرف الملاك، وهو له من الله عطاء.» وهكذا تبارى الناس، وتنافسوا في بناء عاصمتهم [١٧]... وقد أشرف الإمام بنفسه على بناء جامع الأشياخ بعُدْوَة الأندلس وقد كان من ست بلاطات، ثم على بناء مسجد الشرفاء بعدوة القرويين وقد كان من ثلاث بلاطات [١٨].

وكما كان منه رضي الله عنه عندما ورد لاختطاط المدينة، فقد صعد المنبر لما اكتمل بناء مسجد الشرفاء وسُكنت المدينة، ليخطب في الناس، ويضرع الى الله بصالح الدعاء لفاس: «اللهم وفق سكانها للخير، وأَعِنْهُم عليه، واكفهم مؤونة اعدائهم، وأَدِرَّ عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف الفتنة والنفاق ...».

وقد كان لاتخاذ الإمام داره بعُدْوَة القَرويين أثر كبير في ازدهار العدوة هذه، وكثرة حركتها، وتعدد مرافقها. وقد نعتها اليعقوبي – نتيجة لذلك – بالمدينة العظمى، وأنشد فيها محمد بن اسحاق البَجَليّ [١٩]

يا عدوة القرويين التي كرمت   لازال جانبك المحبور ممطورا
ولا سرى الله عنك ثوب نعمته   أرضٌ تجنبت الآثام والزورا

* * *

بناء جامع القرويين

كان في عداد المهاجرين القيروانيين، الذين التجأوا الى فاس منذ الأيام الأولى للامام ادريس بن ادريس، فريق من أسرة فهرية لم يلبث أن التحقت به بقية افراد الاسرة في أيام الامام محيي الدين يحيى الأول حفيد ادريس (٢٣٤ – ٢٤٩)؛ ومن بين هؤلاء الفقيه ابو عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني الذي ادركه اجله بعد وصوله، فترك ثروة طيبة كريمتَيْه فاطمة ام البنين ومريم [٢٠] ويتأكد ان السيدتين كانتا على جانب من العلم والفضل معا، فقد تأثرتا بقول النبي عليه السلام: «من بنى مسجدًا يبتغي وجه الله بنى الله له مثله في الجنة [٢١]» وعزمت كل منهما على تحقيق مشروع ظل الى اليوم شاخصًا ناطقا يرفع من شأن المرأة المسلمة الى الأبد. فلقد كثر الواردون فعلا على فاس أيام الامام يحيى الذي امتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت اثار ايامه، واستجدت فاس في العمران، وبنيت بها الفنادق للتجار والحمامات وسائر الأرباض، ورحل اليها الفقهاء والعلماء وسائر الناس من الثغور القاصية، لقد أمست بالناس حاجة الى مسجد جامع كبير، فان جامعَ الاشياخ بالعدوة الشرقية، ومسجد الشرفاء بالعدوة

الغربية، كلاهما أُضحى لا يفي بحاجة الناس ، وقد وقع اختيار الست فاطمة على حقل كان مما صار لاحد رجال الفضل من (هوارة) عندما نادى الامام ادريس الثاني بتعمير العاصمة منذ حوالي نصف قرن ، ثم ورثه ابناؤه من بعده ، كان الثمن ستين اوقية[٢٢] ، فدفعتها فاطمة من مالها الحلال الطاهر وأخذت تستعد للبناء في جزء من الحقل.

ونلاحظ منذ البداية حرص فاطمة على أن لا ينفق على هذا الجامع الا من موارد نظيفة الاصول ، وكان ممّا أضفى البهجة عليها دون شك أن اكتشفت بالمكان معدنا للحجر والرمل الأصفر ، وقد ابتدأت ام البنين حفر الأساس في اول شهر رمضان من سنة خمس واربعين ومئتين (٣٠ نوفمبر ٨٥٩) ، ونذرت لله ان تصوم شكرا لله حتى يتم البناء ، وقد أكبر الامام يحيي مبرة ام البنين على مقربة من عرينه ، فكان يطالع البنّائين بنفسه الى جانب العلماء والفقهاء .

كان تصميم القرويين مربّعا على نحو ما عرف في معظم المساجد الاولى ، الا ان تربيعه لم يكن تاما فان عرضه أكبر من طوله ، وتذكر المصادر القديمة ان طوله كان يبلغ مئة شبر وخمسين شبرا (حوالي ١٦٠٠ متر مربع)[٢٣] لقد كان يتألف من اربع بلاطات افقية تمتد من الشرق الى الغرب موازية لجدار القبلة ، ومن اثنتي عشرة بلاطة عمودية تنزل من الجنوب الى الشمال، خمس غربي البلاط الأوسط الممتد من المحراب للصحن وست شرقي البلاط المذكور[٢٤] ، وعند نهاية قاعة الصلاة كان يوجد الصحن الاول للمسجد ، وقد كانت القرويين تتوفر على أربعة أبواب : بابان متسامتان ، احدهما في اتجاه باب ابن حيون شرقا ، والثاني في اتجاه باب الكتبيين غربا. والبابان الباقيان ينفتحان على الجهة الشمالية من جهة الصحن[٢٥].

ذلك جامع القرويين ، الذي يمتاز دون سائر مساجد العالم الاسلامي بانه اول بيت لله تشيده فتاة مسلمة، فقد كان المعهود حتى ذلك التاريخ ان تقوم الدولة نفسها ببناء المساجد ، العاهل أو من يمثله ، وقد دخلت فاطمة التاريخ بفعلها العظيم هذا ، في مدينة تعد اول عاصمة للاسلام في هذه الديار ، ولا بد ان لهذه الخصائص اثرًا فيما أطبقت عليه الموسوعات الدولية من ان فاسًا تعد في صدر المدن المقدسة ، بل انها تأتي في المرتبة الرابعة بعد مكة المكرمة ومدينة الرسول وبيت المقدس[٢٦].

مسْجد الإمام داود بن إدريس

كل تلك المعلومات عن تاريخ بناء القرويين مستقاة من ابن ابي زرع نقلاً عن أبي القاسم بن جنون في تاريخه (المفقود) لمدينة فاس، وقد حذا حذوه الجزنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في تاريخه العبر ، وابن القاضي في جذوة الاقتباس[٢٧] ، وغير هؤلاء ... وتلك رواية تاريخية لا يقبل الباحث الشك فيها بسهولة ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة لدولة الأدارسة، عبارة عن لوحة منقوشة ، عثر عليها عند أعمال الترميم مدفونة في ناصية البلاط الذي كان فيه المحراب القديم للقرويين أول الأمر ، لوحة من الأرز طولها أربعة أمتار وسبعون سانتيما ، مكتوب فيها بخط كوفي قديم : «إن الله وملائكته يصلون على النبيّ يا أَيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ، شهد الله أنه لا آله إلا هو ، سبحان الله العظيم ، بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتي سنة، مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله وأكرمه وكلأه ونصره نصرًا عزيزًا، وفتح له فتحًا مبينًا»

وكلنا يعلم أن الامام داود بن إدريس كان أميرًا على (تازة) بتكليف من أخيه الإمام محمد، ويكاد اسم داود يضيع [٢٨] لولا عناصر ثلاثة :

أولها اليعقوبي الذي يفيد أنه كان في وقت من الأوقات واليًا على عُدوة الأندلس ، وأنه كان يدافع يحيى بن يحيى صاحب عدوة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى [٢٩].

ثانيا الدرهم الموجود في المكتبة الوطنية بباريس ، وهو يحمل اسم الإمام داود بن إدريس [٣٠].

ثالثا هذه اللوحة التاريخية التي تحتفظ بها الآن أروقة المركز الرئيسي لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية بالرباط.

كنت كتبت بمجرد وقوفي على اللوحة كلمة في بعض المجلات العلمية بالمغرب والقاهرة وتونس واسبانيا [٣١] وكان قصدي إثارة انتباه المعنيين ، لعلهم يساعدون على استجلاء أمر اللوحة ... وكان في بعض السادة الفهرية من اكتفى بالتشكيك في مضمونها [٣٢] ، وفي الباحثين من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان الى آخر ، وغرزت هنا ، وأن ذلك تم بالذات في عهد الوطاسيين عندما رجع النفوذ الى الشرفاء الأدارسة الجوطيين [٣٣] ، الا أن هناك من لا يزال يعتمد عليها باعتبارها وثيقة معاصرة ، وقد وجدت في مكان يشبه أن يكون المكان الذي ينبغي أن تكون فيه ، ولأن بعض المؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبي والبكري وابن عذارى تحدثوا عن فاس بمسجديها العتيقين : الأشياخ والأشراف ، لكنهم لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذي نقله ابن أبي زرع [٣٤].

والحقيقة أن تجاهل أمر اللوحة لا يتناسب وأمانة البحث العلمي ، ولذلك فان التوصية بتركها جانبا أمر لا يسوّغه أيّ اعتبار ، أما أمر نقل اللوحة من جهة ثانية الى القرويين ، فهو الاحتمال الذي تعززه من ناحية «مدافعة» الإمام داود ليحيى بن يحيى حفيد أخيه محمد للاستيلاء على عدوة القرويين ، ومن ناحية أخرى توفرنا على عدد من الحالات تم فيها نقل أشياء مشابهة الى أمكنة أخرى صونا لها من الضياع [٣٥] .

* * *

وأريد أن أنبه ختامًا على ما نقله الدكتور أوسكار لانز Lenz الذي رحل الى فاس منذ نحو من قرن ، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل إنه عثر عليه فوق «صفيحة فضية» مغروزة في أحد جدران المسجد ، وانه توجد ضمن هذا النص العبارة التالية : «بني يوم الخميس من سنة ست وثلاثمائة أول شهر ربيع النبوي.» والحقيقة أن رواية الدكتور لانز تخلو من كل سند ملموس سيما مع ما حكاه عن الطالب إدريس الذي زوده بهذه الوثيقة ، ولم يكتمه أنه وجد «صعوبة» في الوصول الى قراءة بقية النقش ، الأمر الذي يقرب الى أساطير السواح أكثر مما يهدف الى الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم أن أول ربيع الأول يوافق حسابيا يوم الثلاثاء، وليس يوم الخميس ...[٣٦].

* * *

مرافق القرويين الأولى

١) الماء : كان في أول الأعمال التي فكر فيها القائمون بأعمال البناء الاطمئنان على الماء الذي يقوم به المسجد، وقد توفقوا في إنباط بئر شماليَّ المسجد ، في منطقة قريبة من الصحن القديم أصبحت بعد هي منطقة الصحن

الحالي، وقد ظل المسجد يعتمد على هذه البئر طوال القرون الأولى ، وما يزال موقع البئر معروفا الى الآن لدى قيّمي المسجد ينعتونه بالبئر المغمور[ة].

٢) الصومعة : كانت الصومعة الأولى متطامِنة الإشراف كما يقول الجزنائي ، يعني أنها لم تكن مرتفعة ، وذلك فيما يظهر جريًا على العادة المتبعة في القرون الثلاثة الأولى للاسلام من تجنب نصب صوامع للمسجد بالمرة، اقتداءً بمسجد النبي عليه الصلوات والسلام ولم يخرج عن هذه القاعدة غير جامع القيروان (٣٧)، وقد كانت الصومعة تقع حيث توجد العنزة الحالية (٣٨) ، أعني عند نهاية الصحن القديم ، مسامتةً للمحراب تمامًا كالحال في مسجدي القيروان وقرطبة .

٣) المحراب : كان المحراب القديم يقع في ناصية البلاط الذي يتقدم البلاط الذي تعلوه الثريا الكبرى اليوم، وقد كان الصناع نقشوا على قبته أرصادًا وأشكالًا، لدفع الهوام الضارة عن المسجد (٣٩). وقد نصبت قبلة المسجد على سمت القبلة التي خطها الإمام إدريس لمسجد الشرفاء ، بعد القيام بمشورة العلماء والفقهاء ، وقد أُثر عن شيوخ خدمة القرويين أن التربة التي فرش بها المحراب جلبت من الكعبة.

٤) المنبر الفاطمي : ٣٠٧ هـ ٩١٩ – ٩٢٠ : لقد أسست فاس منذ ان توزعت كلمة اسباط الامام ادريس، محطّ الأنظار من كل ناحية، فمن جهة الشرق توجهت اليها اطماع الدولة الفاطمية التي كانت تريد ان تجعل من فاس مركزا خاضعا لنفوذها، ومن جهة الشمال تطلعت اليها آمال الامويين في الاندلس ، وبالرغم من ان اصحاب البلاد كانوا يرغبون ، باصرار، في الاحتفاظ بعدم انحيازهم على الأقل – بازاء هؤلاء واولئك، فان الضعف الذي شعرت به البلاد على اثر توزع الكلمة اسلم البلاد لموجة من القلاقل والفتن ظلت تشكو منها حقبة من الزمن ، فلقد استسلم – تحت الضغط – يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس ، وقبل عقد صلحٍ سنة ٣٠٥هـ اتفق بمقتضاه مع عبد الله المهدي على ان يخطب باسمه على المنابر، لقد اصبح المغرب منذ هذا التاريخ حليفا –اذا شئت ان تقول – للفاطميين، وكانت فاس قد بلغت اوجها على عهد الامام يحي بن ادريس المذكور من حيث البناء والعمران ، لانه كان فعلا أوسع ابناء ادريس ملكا وأكثرهم عددا ، ولذلك غدت العاصمة فاس وجها مشرقا لذلك الملك الواسع ، ازداد عدد قاصديها من مختلف الجهات ومن سائر الطبقات . وقد كان في صدر ما تحقق بعد ذلك الصلح ان استجاب والي المدينة سنة ٣٠٧ هـ ٩١٩ م لرغبة الفقهاء والعلماء في نقل الخطبة (٤٠) الى القرويين عوضا عن مسجد الشرفاء. إن جامع القرويين وان كان أكبر مساحة من مسجد الشرفاء الذي عرفنا انه من ثلاث بلاطات، لكنها ظلت منذ تأسيسها مقتصرة على اقامة الصلوات الخمس ، والظاهر ان الناس لم يكونوا قبل هذا الوقت من الكثرة بحيث يضطرون الى اتخاذ القرويين مسجدا جامعا ، لكن لمّا كثرت العمارات واتصل البناء في ارباض المدينة، رأى الناس ضرورة ذلك، وهكذا صنع الوالي منبرا من خشب الصنوبر، ويمكن ان نتصوّر هذا المنبر من ست درجات على نحو منبر جامع الاندلس الفاطمي الأموي الموحدي (٤١)، وقد كان اول استاذ صعد المنبر خطيبا هو الفقيه ابو محمد عبد الله الفارسي ، هذا ولا أعتقد أن هناك سببًا سياسيًا كان وراء تحويل أمر الخطبة من مسجد الشرفاء الى جامع القرويين، فان روايات المؤرخين صريحة في أن سعة هذا الجامع وصغر ذاك المسجد كانا الباعثين الرئيسيين على نقل الخطبة، فليس ثمت من داع للتفكير في الانتقاص من المسجد الذي أسسه الادارسة سيما أن شخص الإمام إدريس ظل مكان تبرك وتكريم وتقدير ، ولا بد بعد هذا أن نؤكد

ما كنّا أشرنا اليه من أهمية عدوة القرويين على عدوة الاندلس ، فان كثافة السكان التي تميزت بها تلك على هذه واضطرار الناس الى استبدال المسجد العتيق بجامع فاطمة ، كل ذلك كان يعني أنها بالفعل «مدينة عظمى» كما يقول اليعقوبي.

هل نقضت القرويين الأولى؟

ولا بد أن نتساءل هل القرويين الثانية ستقوم على هذه البناية الاولى أم التوسعة كانت تقتضي نقض التصميم الأول كليةً؟ إن الذين قاموا بالزيادة في القرويين من بعد احتفظوا ما أمكنهم الاحتفاظ بالتصميم الأول ، نجدهم - بصرف النظر عن استبدالهم الصحن القديم ، واستغنائهم عن الصومعة الأولى - قد تمسكوا بالبلاطات الإدريسية التي كانت أكثر اتساعا من البلاطات التي زيدت من بعد (٤٢) ، ويمكن معرفة الحدود الشرقية والغربية للجامع الأول بالسلسلة الممتدة من السواري المقنّتة الشكل التي تميز المساحة السابقة عن المساحات اللاحقة ، هذا ، وقد احتفظ البلاط العمودي الأوسط بسعة المحراب . ٤ أمتار بين سواريه التي تبلغ سعتها ستين سنتيما في الأقل ... وهكذا ، فان تصميم المسجد الإدريسي فرض نفسه - عبر التاريخ - على شكل قاعة الصلاة التي نشاهدها حاليا ، فان المشرفين على الزيادات تركوا من بعدُ البلاطات الإدريسية على حالها كما أبقوا البلاطات موازية لجدار القبلة ، بل انهم راعوا عدم تساوي عدد الأقواس في الجانب الغربي مع عددها في الجانب الشرقي.

تعليقات الفصل الأول

(١) مقاتل الطّالبيين ص ٢٣٢ – ٢٩٩ الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية. مصر ١٩٤ .

(٢) تطبق المصادر المشرقية على ان وفاة الامام النفس الزكية كانت بضواحي المدينة ، وفي هذا التاريخ ، وهو ما في ابن خلدون والاستقصا ولذلك فان ما يفيده ابن ابي زرع في الانيس المطرب من ان النفس الزكية سلم في هذه المعركة وظهر بعدها حتى حضر معركة فخ سنة ١٦٩ محل نظر وقد احسن الجزنائي صنعا في جنى زهرة الآس عندما كان يتحدث عن أسباب مقدم الادارسة للمغرب . مقاتل الطالبيين ص ٢٩٩ الأنيس طبعة حجرية، فاس ص ٤ و ٥ جنى زهرة الآس طبعة الرباط ص ١٠ – ١١. الاستقصا ١ و ١٥٠.

(٣) يذكر الأستاذ السفير خير الدين الزركلي : في الإعلام ٢٦٥/٢ أن الشيخ محمد حسين نصيف كتب تعليقاً على كلمة فخ في نسخته من تاريخ ابن خلدون ٣، ٢١٥ قوله : « فخ ، هو المسمى اليوم بالشهداء بمكة ، أو الزاهر ، وسمي بالشهداء لدفن الحسين بن علي به هو وأنصاره من أهل البيت ». الأعلام ٢، ٢٦٥.

(٤) مقاتل الطالبيين ص ٤٥٦ .

(٥) نرى أن بطل معركة فخ كان هو الإمام الحسين ، وليس النفس الزكية ، راجع التعليق رقم ٢

(٦) مقاتل الطالبيين ص ٤٨٨.

(٧) مدينة عتيقة تقع في سفح جبل زرهون ، على بعد ثمانية وعشرين كيلومترا من مكناس ، وقد عرفت منذ أيام الجزنائي بقصر فرعون ، لأن بعض المغاربة يظن أنها من بناء القبط . ومؤسسوها الأولون غير معروفين ، ولكن المدينة كانت معروفة قبل مجيء الرومان الى المغرب ، وكانت إحدى عواصم الملك البربري جوبا الثاني (٢٥ ف. م ٢٣٠ أو ٢٤ ب.م. ملك موريطانيا) ، وبعد الاحتلال الروماني (٤٠ – ٤٥ ب. م) أصبحت وليلة Volubulis حاضرةً من حواضر موريطانيا الطنجية ، وكان يقيم بها الحاكم الروماني للاقليم . ثم بدأ شأنها يضعف في نهاية القرن الثالث الميلادي بعد وفاة الامبراطور بروبوس (٢٧٦ – ٢٨١ م)، ولكنها لم تخل نهائيا ، بل ظلت مسكونة من بعض النصارى البربر الى نهاية القرن الثامن الميلادي، وعرفت في هذه الفترة باسم وليلة أو وليلي ، ثمّ انتعشت لفترة محدودة عند دخول الاسلام واستقرار الإمام إدريس بها ، ولكنها لم تلبث أن خلت وخربت بعد انشاء ابنه الامام ادريس الثاني لمدينة فاس ، وهي الآن من أهم المشاهد الأثرية في المغرب .

(٨) لم يبق من اثر لمسجد ادريس الا اطلال من مئذنته بتاكرارت (تلمسان القديمة) وتاكرارت كلمة بربرية بمعنى المحلّة العسكرية انشأها المرابطون بعد قاعدتهم الاولى مراكش التي كانت تحمل ايضا اسم تاكرارت ، ويسميها الجيلالي باكادير ، تاريخ الجزائر العام طبعة ثانية ١، ٢٤٧ ، جنى زهرة الآس ٢٧ .

(٩) الانيس ص ٨ ، الآس ١٤ .

(١٠) « جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي» ص ٧ .

(١١) الانيس ص ١٣ – ١٦ – الآس ١٨.

(١٢) ستة الاف درهم فضة تساوي ست مئة دينار ذهبي ، ومن المعلوم ان الدينار على العهد الادريسي يساوي الفا واربع مئة وخمسين فرنكا ، فيكون مجموع المال المدفوع في بقعة فاس ثمان مئة وسبعين الف فرنك ، وليس القصد الى الفرنك اليوم ، ولكن الى الفرنك في أوائل القرن العشرين . الآس ٥٦ – : الاتحاف ١٠ – ١١. — Le Maroc dans les premières années de XVI siècle (monnaie) page 99 — 100 — 101 — 102.

(١٣) جامع القرويين ، الكتاب الذهبي ،١٥٩ .

(١٤) راجع البحث الآتي بعنوان المدينة ذات الأربعين والمئة كرسيّ .

(١٥) الاشارة الى قوله المشهور :

إن تفتخر (فاس) بما في طيّها ... وبأنها في زيّها حسناء

يكفيك من (مكناسة) أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء !

(١٦) كلمة القَرويين تخفيف للفظ « القيروانيين » نسبة الى القيروان ، وهو معهود في كتب الفقه والنوازل ، كما قالوا في النسبة الى جيلان : الجيلي، ويرد تارة موصوفًا ، وأخرى غير موصوف : كقولهم : الشيوخ القرويين ، ومذهب القرويين ، وبذلك سلم هيكل لفظ (القرويين) ، وبقي على هيئته

لا تنال منه معاول العوامل وإن اختلفت عليه ... ولا بد أن نشير الى أن بعض المشارقة ربما فهموا أن اللفظ جمع لكلمة قروي نسبةً الى القرية ، وربما ينطقون بالقاف مضمومًا . وقد يفهم هذا أيضًا من شعر بعض المغاربة ، وهو يتحدث عن جامع القرويين :

وبنت مسجدًا لأهل القُرَى فَا　　طِمةُ السعد عنصرًا للرشاد

تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ١١ ، ١٨ ، ابن فرحون ، الديباج ، ترجمة احمد الهواري ، نيل الابتهاج ، نبراس الاسلام ١٩٦٥ ص ٢٨.

(١٧) يشك الاستاذ بروفنصال في تأسيس الإمام إدريس بن ادريس وهو ما يزال حدثا مدينتين توأمتين وفي مكان واحد متقارب ، ولا يفصل بينها من الزمن غير سنة واحدة ، ويقوي من شكه وجود درهم محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس مضروب بفاس سنة ١٨٩ هـ ، ودرهم آخر في مدينة كاركوف ضرب بها سنة ١٨٥ هـ ، هذا الى نُقُولٍ تاريخية قديمة في أبرزها ما نقله ابن الآبار في كتابه الحلّة السيرَاء عن المؤرخ القرطبي الرازي (ت ٣٤٤) من أن ادريس الأول هو الذي أسس مدينة فاس ... كذلك في أبرزها ما روي عن ابن سعيد من صريح العبارة بأن اقدم المدينتين من تأسيس إدريس الأول الخ . وهو، أي بروفنصال ، يرى لكل ذلك أن بناء فاس تم على مراحل : فأولاً أسس إدريس الأول مدينة ذات طابع بربري سنة ١٧٢ ، وثانيًا وبعد واحد وعشرين عامًا حل إدريس الثاني فأسس عدوة القرويين ، ثم في سنة ٢٠٢ أسكن اللاجئين الأندلسين في مدينة أبيه ، اوانئذ غلب عليها الطابع العربي الأندلسي .. هذا ملخص نظرية الأستاذ بروفنصال ، ومع اعتقادنا بان المسكوكات من الأدلة التاريخية القاطعة التي لا تقبل الدحض، فانه لا بد من مزيد تروٍ في الموضوع سيما ونحن نتصور المنافسة بين المئات من الأسر على تشييد العُدْوَتين التوأمتين في ذلك المكان والزمان.

La fondation de Fés. Annales de l'institut d'études orientales IV, 1938
P. 23 — 52... FEZ Avant le Protectorat 1947 p. 33 — 34.

(١٨) يرجع الفضل الى البكري في اعطائنا فكرة عن جامع الأشياخ ، ومسجد الشرفاء ،ولا يصح بحال أن يكون وصفه ذلك لجامع الأندلس والجامع القرويين ، فان عدد بلاطات القرويين مثلا أربع ، كما تطبق عليه الروايات ... وثمت شيء آخر فان البكري تخطّى الحديث عن أيام الإمام يحي الذي شيَّد الجامعان المذكوران في عصره ، أغفلها نهائيا ، ولهذا فان الجزنائي في زهرة الآس أخطأ عندما فهم أن البكري كان يصف جامع الأندلس ، وانما وصف البكري كلا من جامع الاشياخ ومسجد الشرفاء .

(١٩) كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٠ ص ١٣٧.
كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب .

(٢٠) هذه الرواية التي اقتصر عليها الجزنائي في زهرة الآس ص ٤٥ ، وقد صدر ابن ابي زرع برواية اخرى تذكر ان فاطمة وردت مع زوجها من افريقية ، فتوفي زوجها واختها ، وبما ورثت عنهما بنت جامع القرويين (الأنيس ص ٤٥) . ويلاحظ من جهة أخرى ان ابن ابي زرع يذكر ان ورود الأسرة من القيروان كان ايام المولى ادريس ، على حين يجعلها الجزنائي ايام الامام يحيى ، ولهذا نرى بعضهم يجمع بين الروايتين بان اول ورود الاسرة كان ايام ادريس على حين ورد الباقي ايام الحفيد .

(٢١) رواه البخاري في (كتاب الصلاة) عن عثمان ، وعنه رواه الامام احمد في المسند ، والترمذي في باب فضل بنيان مسجد ، والنسائي ، وابن ماجة ورواه مسلم بلفظ : من بنى مسجدا لله تعالى بنى الله له بيتا في الجنة ... وقد روى الحديث عن ابن عباس بلفظ : «من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتا في الجنة»...

(٢٢) تساوي الاوقية درهما واحدا ، وهذا يساوي في اوائل القرن العشرين فرنكا وخمسة واربعين سانتيما

(٢٣) اختلف مقياس الشبر باختلاف الأيدي التي اتخذته مقياسا ، وقد رأى (Marçais) انه عشرون سانتيما كما قدره (Pauty) باثنين وعشرين سانتيما ، ووجد اخرون انه يساوي (٢٤) او (٢٦) او (٢٨) اما الشبر هنا فانه حسب تقدير (Terrasse) يصل الى حوالي ٣١ سانتيما ، فقد حَدَّدت – في نظره – السواري المقنَّنة الشكل معالم المسجد الأول .

(٢٤) يتساءل طيراس عن أسباب هذا الاختلاف بين جناحي الجامع : أتم بناء الجامع الاول على يد معلمين في مرحلتين ، ام تعرض لاصلاح آخر قبل الزيادة الزناتية .

٢٥) Remarque sur les positions, les entrées latérales dans les mosquées d'orient et d'occident mélanges d'histoire et d'archeologie de l'occident musulman (T. I.) P 119–130.

٢٦) Encyclopedia britanica vol. 9, P. 210 London 1960.
UUSI tietosanakirja T. 5 helsinki 1966.

(٢٧) الأنيس ص ٣٣ طبعة فاس : الآس ص ٤٥ طبعة الرباط .
العبر ٤ طبعة بولاق ص ١٥. الجذوة ص ١٩.

(٢٨) الحروف المنقوشة بجامع القرويين في خدمة الآثار . مجلة كلية الآداب الاسكندرية المجلد ١٤ سنة ١٩٦٠ صفحة ٦١ – ٨٨.

الإمام داود بن إدريس من خلال الوثائق التاريخية ، مجلة مجمع اللغة العربية دمشق ، المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢ ، دعوة الحق ، عدد ابريل ١٩٦٠ .

(٢٩) La voix: catalogues des monnaies musulmanes de la Bibliothèque nationale, Page 69 No 921.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية : العدد الثامن ١٩٥٩ ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .

مجلة الفكر التونسية ، السنة الخامسة ، عدد ٦ مارس ١٩٦٠ ،

مجلة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد .

المجلد السادس ١٩٥٨ ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٣٢) علال الفاسي : محاضرة في فاس بدعوة من قدماء تلاميذ القرويين. العلم عدد ١٢ – ١٢ – ١٩٦٤ .

(٣٣) Une nouvelle inscription idrisside, mélanges d'Histoire et d'archeologie T. 2P. 72.

(٣٤) فتح نقاش في موضوع تأسيس القرويين منذ أواخر سنة ١٣٥٣ (اوائل ١٩٣٥) فقد قال الاستاذ عبد الوهاب عزام في حديث عن الشيخ الخالدي : إن القرويين من تأسيس الإمام إدريس ، وكان الأستاذ علال الفاسي صحح الخطأ بأن المؤسسة سيدة فهرية ، وقد وقفت في هذا الصدد على مخطوطة تفيد أن نسبة القرويين لأم البنين أمر ليس محل اتفاق بين المؤرخين ... الرسالة المصرية ، عدد ٧ قعدة ١٣٥٣ ١١ يبراير ١٩٣٥ ، وعدد ٥ حجة ١٣٥٣ ١١ مارس ١٩٣٥ ايضا .

مخطوطة بالخزانة العامة للكتّاني برقم ٣٣٥٤ .

(٣٥) ولنذكر على سبيل المثال اللوحة المغروزة الآن بمحراب مسجد أبي مدين من حومة الرميلة، وهي للشيخ الدقاق السجلماسي دفين خارج باب عجيسة ، فقد نقلت اللوحة لما سقط الجدار الى سيدي ابي مدين ، وليس الدقاق مدفونا في الرميلة. وقد صنعت عنزة بفتح النون (حاجز من خشب) برسم أن تكون للمدرسة الرشيدية بفاس البالي بعد أن نقش عليها أبيات من الشعر ، ولكنها نقلت في ظروف غامضة الى الجامع الكبير بفاس الجديد.. ونقل السلطان اسماعيل قبّةً من ضريح المولى إدريس ، وجعلها في مسجد أبي البياض أسفلَ عقبة بن صوال . وقد حكى بعض سفرائنا القدامى ، لا يحضرني اسمه ، أنه لما كان بمدينة سبتة وقف على رخامة ، فاقترح على حاكم سبتة ان يسلمها له ، فبعثها هذا الى تطوان ، قال : وهي الآن بالجامع الكبير بالبلاط الأول بعد الصحن عن يمين المستقبل... السلوة ١٠٢،٣ الدرر الفاخرة ص ٣٤ .

فاس الجديد ، البحث العلمي دجنبر ١٩٦٧ ص ١٨٣ .

ابن بطوطة : الرحلة ج ٤ الطبعة الفرنسية ص ٣٧٥ ، الاستقصا ٥ ص ٣٩ .

(٣٦) Voyage au Maroc, Paris, 1086 vol 2.

تاريخ بناء القرويين الكتاب الذهبي ص ١٣٦ – ١٣٧ – ١٣٨ .

(٣٧) كان السبب في ذلك الاحتياط على حريم المسلمين، وقد كان بعض من ولي الحسبة يأمر بجعل عصائب على عيون بعض المؤذنين حين أذانهم بالنهار ، وقال أبو العباس المبرد في كامله : كان سبب هدم خالد بن عبد الله منارات المساجد حتى حطها عن دور الناس ما بلغه عن بعض الشعراء من مجون القول ، جنى زهرة الآس ص ٥٤ .

(٣٨) عبارة روض القرطاس « صومعة بموضع القبة التي على راس العنزة الآن . وعبارة جنى زهرة الآس و « بمؤخره صومعة حيث هي العنزة الآن » . وبهذا لا يبقى محل لتساؤل الأستاذ طيراس : أكانت منتصبة في جنوب ، أمْ شمال الصحن الحالي . ؟

P. 10. la mosquée Al-Qaraouiyin à Fez 1698.

(٣٩) يظهر أن نصب الطلاسم بالمحراب كان في أول الأمر من عمل بعض الصناع ممن كانوا لا يرون حرجا في ذلك من الناحية الشرعية ، ومن المعلوم أنه بالرغم من وجود فرق بين السحر والطلسمات عند الفلاسفة ، فانهما معا محظوران شرعًا ، وإن كان الجزنائي لا يرى في ذلك حظرًا. هذا ونلاحظ أن موقع المحراب القديم حرره الجزنائي أكثر مما حرره ابن ابي زرع ، وهو ما حاولنا تفسيره هنا عندما ركزنا على أنه كان يوجد في البلاط الذي يتقدم بلاط الثريا ، وليس في بلاطها هي نفسها .

الجزنائي ص ٥٥ – ابن خلدون ١ – ٤١٤ – ٤١٥ .

le Plans de l'université Qarawiyine.à Fez Hesp 1923 P. 315.

(٤٠) صدّر صاحب جنى زهرة الآس بهذا القول ، وهو ان الخطبة نقلت من جامع الأشراف للقرويين سنة ٣٠٧ بعد نحو من ستين سنة على تأسيسها ، ويذكر بعد هذا ان هناك من يقول ان الخطبة نقلت سنة ٣٢١ هـ ٩٣٣ م يعني في الوقت الذي نقلت فيه الخطبة الى جامع الاندلس من مسجد الأشياخ ... هذا اما صاحب الأنيس فيغفل التاريخ الذي صدر به الجزنائي ، ويذكر بالاضافة الى تاريخ ٣٢١ احتمال تاريخ ٣٤٥ ، (٩٥٦–

٩٥٧) ويظهر ان الصواب مع ما صدر به الجزنائي ، فان كون عدوة القرويين عاصمة ، وتهافت الناس عليها قبل غيرها ، كل ذلك جدير بأن يقدم نقل الخطبة فيها الى ذلك التاريخ المبكر. الأنيس ص ٣٣ – الآس ص ٣٥ – ٣٦ – الاستقصا، ١٦٦.

(٤١) La mosquée d'Alndalus, Page 40.

(٤٢) يلاحظ أن سعة البلاطين الادريسيين المتوسطين في التصميم الحالي، سواءٌ أحسبت من جهة القبلة أم من جهة الصحن ، أكثر منها في البلاطات الأخرى ، فان معدل اتساعهما أربعة امتار وعشر سانتيمات ، والبلاطات المضافة بعدُ كان معدل اتساعها ثلاثة أمتار وسبعين سانتيما ، وقد كان من المفروض أن تكون البلاطتان الادريسيتان المتطرّفتان في نفس اتساع الاولين لولا التغيير الذي دخل على الجدار الذي يحدهما ، ومع ذلك احتفظت بسعة ثلاثة امتار وخمسة وتسعين بالنسبة الى البلاطة التي من جهة المحراب وثلاثة امتار وستين سانتيما بالنسبة الى البلاطة المجاورة للصحن .

La mosquée Al Qaraouiyine A Féz, Page 10 — 19.

الفَصْلُ الثَّانِي

القرويين الثانية في عهد الزناتيين

* الزيادات المعمارية والعمرانية في القرويين الثانية
* الصومعة
* المنارات
* سيف الامام إدريس .
* المنبر الاموي
* جلب الماء للجامع
* قبة العنزة
* الثريا الكبرى .

الزيادات المعمارية والعمرانية في القرويين الثانية

٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م

ولكن القرويين الواسعة أصبحت ، بعد نحو من قرن من تأسيسها ، تشكو الضيق ، وتتوق الى يد الاصلاح وقد كان الذي تولى ذلك هذه المرة الأمير احمد بن أبي بكر الزناتي الذي ثار ضد حامد بن حمدان الهمداني ، داعيًا لبني مروان منذ سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) ان القرويين دائما محك لاظهار كل تقدير وعطف على مدينة فاس ، لذلك كان في صدر الاعمال التي قام بها الأمير الزناتي ، وقد استقرت به الأحوال ، وأمست البلاد حليفة لبني أمية في الأندلس ، ان كتب الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، يستأذنه في توسعة الجامع وترميمه إذْ عدد السكان في نمو مطرد ، وقد اعتدّ الناصر ذلك الاقتراح تكريما له من حليفه وتشريفا ، ولم يكتف بالاذن لعامله ابي بكر ، ولكنه أسهم بالعمل بمال كثير من اخماس غنائم الروم [١] .

وهكذا زاد فيه الأمير من الجهات الثلاث ، الغربية والشرقية والشمالية ، مع اقتفائه طبعاً الخطوط الكبرى للقرويين الاولى [٢] ، فمن الجهة الغربية مددت البلاطات بمعدل اربع أقواس ، ومن الجهة الشرقية بمعدل خمس أقواس ، مع العلم ان المساحة في كلتا الجهتين واحدة تقريبا. أما من جهة الشمال ، فكانت زيادة مهمة ، فلقد اضيفت الى قاعة الصلاة ثلاثة أساكيب (بلاطات افقية) في مكان الصحن القديم مضافا اليها ذات اليمين وذات الشمال الزيادة التي دخلت على الجهتين ... وعلى أثر هذه الاساكيب اعدّ الصحن الجديد ، هذا الى ما اضيف في كلّ من غربي الصحن وشرقيه من جناحين يحتوي كلاهما على أربع بلاطات عمودية من خمس اساكيب قصيرة [٣] وقد نصبت الصومعة وسط الجناح الغربي للصحن تقريبا ... وفي مؤخر هذا الصحن أضافوا [٤] بلاطا افقيا واحدًا مرتفعا ، يتقعر قليلاً من جهة الركن الشمالي الغربي ، وهكذا اتسعت قاعة الصلاة طولا وعرضا ، وأخذت تحتوي من الآن على ٢١ بلاطة من الجدار الشرقي للجدار الغربي ، وعلى ١٣ اسكوبا من جدار القبلة للجدار الشمالي. أما مساحة الصحن فان المعلومات التي يقدمها الجزنائي تفيد انها كانت اصغر من مساحة الصحن الحالي : ينقصها بلاطان من شرقه ، ومثلهما من غربه ، وكانت هذه الاربع مسقفة داخلةً في قاعة الصلاة كما قلنا [٥] .

وبحسب هذا التصميم الجديد ، اكتسبت القرويين فيما يظهر أربعة أبواب أخرى : بابين غربيين في محل باب العدول وباب الصالحين الحاليين ، وبابين شرقيين مسامتين للأولين ، أولهما في محل باب ابن حيون الحالي ، وثانيهما في محل باب السبع لويات ، هذا الى بابين صغيرين شمالي المسجد من جهة الصحن ، عرف أحدهما باسم باب الحفاة.

وقد بلغت مساحتها بعد هذه الزيادة أربعة آلاف متر مربع .

١) المئذنة : كان فيما اكتسبته القرويين بمناسبة الزيادة فيها من قبل الأمير الزناتي المئذنة التي ما تزال شاخصة الى الآن ، والتي تعدّ أقدم منارة ثبتت في الغرب الاسلامي وبقيت نموذجا للصومعة المربعة التي استوحاها الفن الافريقي آنذاك من شكل الكعبة المشرفة التي صعدها بلال رضي الله عنه للأذان بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند افتتاحه مكة المكرمة ، وما يزال الطابع الخاص الذي يميز صوامع المغرب عن غيرها هو هذا التربيع الذي ظلت القرويين القدوة الأولى فيه بعد جامع القيروان.

تبلغ سعة كل جهة من جهاتها الأربع أربعة أمتار وخمسة وتسعين سانتيما ، مع العلم ان سمك جدرانها ،

يصل الى نحو من خمسة وتسعين سانتيما ، ويبلغ علوها حتى مكان الأذان زهاء ثلاثة وعشرين متراً وخمسة وعشرين سانتيما . أما علوها الكامل حتى قمة القبة فيصل الى ستة وعشرين متراً وخمسة وسبعين [٦] ، سانتيما ، وتمتاز بان قبتها أو « العزري » كما يسميه المغاربة ، على خلاف المآذن الأخرى ، ليست مربعة ،ولكنها على شكل نصف كرة ، وقد جعل فيها الأمير الزناتي من الجهة الشرقية (الصحن) نافذة في أعلاها تحتوي على قوسين ، تتوسطهما سارية صغيرة ذات طابع اندلسي ، وتدخل هذه النافذة الضوء للمنار الثاني ، وتحتها كوتان مستطيلتان ، تعلو احداهما الأخرى ، وتحت هذا (باب السطح)[٧] الذي حجبت رؤيته بسبب الرواق الغربي الذي بني في الصحن على عهد السعديين كما جعل في أعلى الصومعة من جهة الجنوب (القبلة) نافذة مثل التي سبق الحديث عنها ، وتحتها كوة واحدة مستطيلة ، وتحت هذا نافذة في أعلاها ثلاثة عقود، وقد جعل عليها شباكا من خشب لمنع تعشيش الطيور ، أما الواجهة الغربية والشمالية ، ففي كل منهما نافذة بسيطة ، وجعل للصومعة بابا من جهة القبلة غشي بعد بصفائح من النحاس الأصفر ، وقد كتب عليه في مربعة بالجص ، وغشاه باللازورد : « بسم الله الرحمن الرحيم الملك لله الواحد القهار هذا ما أمر به أحمد ابن أبي بكر بن أحمد بن أبي سعيد عثمان بن سعيد الزناتي ، هداه الله ووفقه ابتغاء ثواب الله تعالى وجزيل احسانه ، وابتدأ العمل في هذه الصومعة في يوم الاثنين غرة رجب من سنة أربع واربعين وثلاثمائة ، وفرغ من بنائها وتشييدها في شهر ربيع الآخر[٨] سنة خمس وأربعين وثلاثمائة » (يوليه غشت ٩٥٦) وكتب في طرف المربعة : « لا آله الا الله محمد رسول الله » ، وجعل مربعة أخرى من جهة الصحن كتب فيها : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ».

وقد تحدث عن هذه النقوش جميع المؤرخين ، ويتأكد أنها كانت باقية في عهد تأليف جذوة الاقتباس أواخر عام ١٠٠٧ ، ونلاحظ اليوم أنها اختفت نهائيا ، ويظهر أن تاريخ هذا الاختفاء يرجع فقده الى أيام السعديين عندما شيدت القبة التي تحت الصومعة ، والنقش الوحيد الذي تمكنت من الوقوف عليه هو ما يوجد على الباب المطل[٩] على القبة المذكورة ، وقد كتب على جانبيه : « لا إله الا الله محمد رسول الله ». وهي لا ترى الا عندما تخرج اليها من النافذة .

٣) المناران : الأول والثاني : وبعد البيت الصغير الذي جعل يسار مدخل (باب الصومعة) جعل الأمير ابو بكر عند الدرجة الثامنة والثمانين بيتاً صغيرًا ، يعرف اليوم باسم (المنار الأول) ، أعد لمبيت المؤذنين الذين يراعون أوقات الليل وانصداع الفجر ، لإقامة الأذان في وقته المعين ، كما جعل فوق هذا عند الدرجة المئة بيتا أصغر ، يعرف بالمنار الثاني أو القبة العليا[١٠] ، وفي هذا المنار نصبت أول ساعة مائية للقرويين على ما سنرى[١١] وهذان الحجرتان هما غير الغرفة التي بنيت بعدُ على عهد بني مرين. ومنذ هذا التاريخ وُضعت في الصومعة ساعات رملية وساعات شمسية ، ومنذ هذا التاريخ أيضًا عرفت منار القرويين عددًا من الاعلام في فنّ التوقيت وعلم الفلك، من أمثال أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشلبي (ت ٦٢٨) ، وأبي الحجاج يوسف السقطي (ت ٦٣٥)[١٢] .

وهذا ما يفسّر لنا السر في اقتداء جميع مساجد فاس عامة ، وجامع الأندلس خاصة ، بتوقيت صومعة القرويين وأذانها في آناء الليل وأطراف النهار ، وبما يصدر عنها في رصد الأهلة منذ التاريخ المبكر ، فان عناية المتقدمين بها جعلها قدوةً على ممر العصور.

٤) سيف الإمام إدريس : ويتفق ابن ابي زرع والجزنائي على أن الأمير أحمد بن أبي بكر ورد عليه بعض حَفَدَة إدريس عندما فرغ من بناء الصومعة ، وردوا يتخاصمون سيف جدهم الإمام ، وأراد كل واحد أن تكون له ميزة امتلاكه ، فحاول الأمير أن يصلح ذاتَ بَيْنِهم. ولما تمسك كل منهم برأيه ، سألهم عن استعدادهم لبيع السيف له ، وسألوه عما سيصنع به؟ فأجابهم أنه يريد أن يجعله في أعلى الصومعة تبركًا به ، وهنا استنامت قلوبهم إليه ، فوهبوه له . وقد حلى به فعلا أعلى الزج الذين زين بالتفاحات الذهبية وبالهلال ، ويذهب بعض المعلقين من المؤرخين الى أن هذا السيف هو أحد سيوف الإمام علي بن أبي طالب ، استصحبه معه الإمام ادريس ، وتضافرت الروايات التاريخية على استمرار وجود السيف [١٣] ، وقد تجاوز الحديث عن السيف ميدان التّاريخ الى سوق الأدب ، فتبارى الشعراء الإنشاد حوله ، الأمر الذي كوّن ما يمكن أن نسميه «أدب السيف » ، تحدث عنه زهاء خمسة وخمسين شاعرًا في ندواتٍ تأرّجَتْ بذكرها جنبات فاس [١٤].

٤) المنبر الأموي ٣٨٨ ﻫ ٩٩٨ م : لم تمض على المنبر الفاطمي ثمانون سنة ومع ذلك استدعى التعويض بآخر من قبل بني أمية ، وهذا وحده كاف لتفسير عدم الاستقرار الذي شهدته العاصمة بعد تفرق كلمة بني إدريس ولتفسير التنافس المستمر على فاس بين الفاطميين والمروانيين أو للتعبير الصادق عن ثبات البلاد ، وعدم اطمِئنانها أيّ تبعيّةٍ لهؤلاء أو اولئك.

وهكذا فبُعَيْد نصب المنبر الأول سنة ٣٠٧ من قبل والي المدينة والخطبة عليه لصالح الفاطميين، بُعيد ذلك ثار على ذلك الوالي أحمدُ بنُ بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجُذَامي، وأسلم السلطة مجدَّدًا لابن أبي العافية حليف بني مروان ، الأمر الذي اتبعه شيعة المهدية بغارة انتقامية ، لم يقلعوا فيها عن فاس حتى سمعوا بآذانهم اسم أبي القاسم بن عبد الله المهدي على منبر القرويين. إن الحلقات لم تنته بعد ، فقد تمكن الجذامي من العودة إلى فاس وارجاع ذكر الأمويين اليها سنة ٣٤١ ﻫ. وهنا خرج القائد جوهر من القيروان سنة ٣٤٧ ليقاوم «الوجود الأموي» بمدينة فاس ، ساعده في ذلك زيري الصنهاجي ، وقبض على الأمير أحمد الزناتي ، ومن المؤسف أن المتنافسين على البلاد وجدوا في تنافس قبيلتي صنهاجة وزناتة عنصرًا خصبًا للتلاعب بوحدة البلاد واستقلالها واستقرارها . وفي هذه الاثناء ظهر الأمير الحسن بن كنون من أسباط الإمام إدريس محاولاً أن يستغل تلك الخلافات فيجد وسيلة بين خصمَّها لكي يسترجع حق الأدارسة في الحكم.

حالف الأمير الحسن زيري بن عطية ، ولكنه – وهدفه ما عرفناه – اضطر الى أن يمد يده الى المروانيين . وقدم بلكين بن زيري فنسف دعوة بني مروان ، وأصابت الشريف الحسن شرارات من الحرب الضروس ، فانه لم يكن متحمسًا للأمويين بالدرجة التي كانوا ينتظرون ، وهكذا قبض عليه في الجولة المروانية المعاكسة سنة ٣٦٣ ﻫ، وسيق إلى قرطبة ، ومنها أمسَى في مصر حيث استطاع مرة أخرى أن يعود الى المغرب حليفا للفاطميين مع بلكين، مطالبًا بالأحقية التي كانت لأسلافه ، لكن الأمويين جمعوا كل قواتهم للاجهاز النهائي على هذا البطل المغوار سنة ٣٧٥ ﻫ ، ونصب الوزير حسن السلمي عاملًا لبني مروان على المغرب ، وأوصى خيرًا بالزعماء القدامى ، وفي صدرهم زيري بن عطية الذي دعي سنة ٣٧٨ ﻫ لزيارة قرطبة حيث قلده المنصور بن ابي عامر ولاية فاس سنة ٣٨١ ﻫ . بيد أن النزعة المغربية المتمثلة في حب الاستقلال ، والميل الى عدم الانحياز لم تلبث أن انعكست على سلوك زيري ، وقد مهد لذلك بمنع ذكر اسم المنصور على منبر القرويين ! وخرج المنصور بنفسه من قرطبة

نحو المغرب ، ومن الجزيرة الخضراء أجاز ابنه عبد الملك المظفر ، وكانت حروب عنيفة سنة ٣٨٧ هـ لم يشهد المغرب مثلها ، وتمكن عبد الملك المظفر من دخول فاس دخولا حافلاً وسلخَ شوال ٣٨٧ هـ ٤ نوفمبر ٩٩٧ م ، وكتب المظفر لوالده يبشره بالاستيلاء على العاصمة. وتعبيرًا عن البهجة بالأندلس قرئ نص الكتاب على منبر جامع الزهراء في قرطبة الذي كان يضاهي منبر القرويين في فاس ، وأعتق المنصور زهاء ألفي مملوك شكرًا لله ، وفيما كان المظفر ينتظر تهنئة والده المنصور بفتح مدينة فاس مترقبا مرسوم تقليده ولاية مدينة فاس ، قام بتشييد المنبر الجديد ، المنبر الأموي. لقد اختفى منبر الصنوبر ، وعوضه منبر من عود الابنوس والعناب ، واذا كان الأولون قد اغفلوا تسجيل أسمائهم على ذروة المنبر ، فان هؤلاء اليوم خلدوها في هذه الكلمات : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، هذا ما أمر بعمله الخليفة المنصور سيف الاسلام عبد الله هشام المؤيد بالله اطال الله بقاءه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن ابي عامر وفقهم الله تعالى وذلك في سنة « ثمان وثمانين وثلاثمائة [١٥] » ولا شك أن عِظَمَ الفرحة أخذ بلب المظفر وهو يستمع من على منبر القرويين الجديد يوم الجمعة سلخ ذي القعدة سنة ٣٨٧ [١٦] (٣ دجنبر ٩٩٧ م) يسمع اسمه واسم والده واسم العاهل الأموي ... انها تزكية نادرة فعلا .

* * *

٥) جلب الماء الى الجامع : (٣٨٨ – ٩٩٨ م)

بيلة باب الحفاة – سقاية الشباك .

إنه ليستغرب المرء أن تظل القرويين على كبرها وأهميتها مقتصرة على البئر التي أنبطتها أم البنين ، وأن يظل المصلون معتمدين على الحَبْل والدَّلْو طيلة هذه المدة ، ولكننا عندما نستعرض تلك الفترات العصيبة التي مرت بها العاصمة لا بد أن نعرف جيدا بواعث هذا الإهمال ، وقد كان مقام أبي مروان عبد الملك المظفر بين ظهرانَيْ أهل فاس فرصة طيبة للتفكير في جلب الماء من أعالي المدينة ، من جهة باب الحديد من الوادي الذي يعرف بوادي حسن ، وهو اسم قديم لجدول من جداول وادي فاس ينزل من أعالي المدينة ، من ناحية حديقة بوجلود الحالية جنوب غربي القرويين ، إلى أن يصل الى وادي شاين مليح بحومة زقاق البغل ثم درب القبور فالقطانين فالشماعين ، ثم الى (معدة) يمين الخارج من باب هذه السوق الشماعين ، ومن هنا قصدوا به المستودع الذي وقع عليه الاختيار لتتوزع منه المياه وهو (المعدة) التي تقع عند نهاية الدكاكين التي كانت هناك في بداية نهج بوطويل والتي كانت مراكز أيضاً للعدول والموثقين في ذلك التاريخ .

كان أول ما أحدثه المظفر عند باب الحفاة يمين الداخل للباب ، بيلة [١٧] مغشاة بالرصاص في طولها سبعة وعشرون شبرًا (ستة أمتار تقريبا) رتبت في قسمها الأول مقاعد ثابتة يجلس عليها المتوضئون . أما القسم الباقي منها ، فان الماء ينساب فيه الى ساقية افترشت برخام مُشكَّل الألوان : الأزرق والأخضر والأحمر ، يغسل فيها الحفاة – من خدم وصبيان – أرجلهم عندما يبتغون دخول المسجد ... وهذه البيلة قد يعبر عنها في بعض الجهات بسقاية الشبّاك ، لكونها تقع عند هذا الباب ، الذي كان عليه شباك خشب ذو أربع خوخات ، ثم بعد هذه البيلة ظهر له أن يحدث خارج باب الحفاة يمينها أيضًا سقاية مستطيلة يقضي القاصدون للمسجد عند أطرافها بعض حاجتهم المستعجلة ، وما تزال الى الآن مقصودة لهذا الغرض .

وأخيرًا أعد ميزابًا [١٨] في مكان بجانب السقاية هذه ، تقصده السابلة للسقي والشرب ، وكان يعرف الى العهد

القريب باسم (معدة الكرّابة)[١٩]. لقد خفف من الضغط الذي ظلت البئر تشعر به طيلة الفترات الماضية ، واكتست القرويين شبه ميضأة.

٦) قبة العَنَزة

ويتأكد أن عبد الملك المظفر كان يعتزم المضي في طريقه نحو ارضاء كل حاجات الجامع ، وتلك ظاهرة نلاحظها على كل الذين تولوا زمام الأمور بهذه البلاد ، فكلهم كان يتوق الى أن يترك فيها تذكارًا له يعرف به على الدوام .

لقد عمد المظفر الى البلاط الأوسط يريد تحليته بالقباب الرفيعة ، فابتدأ بقبة العنزة التي كسيت بخطوط مضلعة ملتوية تشبه حرف الزاي باللّاتينيّة ، كالشأن في القبة الموازية لها التي تقع على مدخل باب الصفر الموالي لباب الحفاة ، ويظهر أنه كان يريد أن يقضي على كل أثر من آثار الشيعة قبله ، فعمد الى بعض التماثيل والطلاسم[٢٠] التي نصبت على قبة المحراب في عهد أولئك ، عمد اليها وحَوَّلها الى أعلى هذه القبة تعبيرًا عن «الوجود الأموي» بالقرويين ، وقد ظلت هذه الطلاسم الى أيام الموحدين ، فهُم الذين محوا معالمها .

٧) الثريا الكبرى :

وكانت مناسبة أخرى لتزيين البلاط الأوسط بثريا فخمة عظيمة ، تضافرت على إبداعها أيدي العمال المغاربة ، وقد ركّبوها حيث توجد الآن الثريا الكبرى في المكان الذي يسبق البلاط الذي كان يقع فيه المحراب الزناتي تمامًا ، على تقاطع باب الصالحين والأولياء ، ومن المهم أن نعرف أن هذه الثريا أدركها البلى بانقضاء القرن السادس لكثرة تداول تشغيلها . ولهذا نرى الموحدين فيما بعد يحاولون أن ينسجوا ثانية على منوالها ، وهي التي نراها إلى اليوم شاخصة[٢١].



تعليقات الفصل الثاني

(١) ابن ابي زرع – ص ٣٤، الجزنائي ص ٥٧ ، ابن خلدون ٤ – ١٤٠ .

(٢) يلاحظ ان البلاطات الزناتية كانت اقل سعة من الادريسية ٣ م ٦٠ عوض ٤ م ...

(٣) يلاحظ ان سعة هذه البلاطات وسعة اقواسها تختلف عن البلاطات والاقواس التي زيدت في عهد الزناتيين، الأمر الذي يؤكد مختلف التغييرات التي دخلت على الناحية .

(٤) جنى زهرة الآس ٤٧ القرويين ، دعوة الحق ، مارس (مايه) ١٩٥٨.

التازي : جامعة القرويين ، مطبعة فضالة (المحمدية) ١٩٦٠ ص ٧ .

(٥) قالت جنى زهرة الآس ص ٦٦ : وفي ايام القاضي أبي عبد الله محمد بن داود (ت ٥٢٨) زيد في الصَّحْنِ بناء بلاطين من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية كذلك .

(٦) يقيس ابن ابي زرع سعة كل وجه من الصومعة بسبعةٍ وعشرين شبرا فيتجمل في الاربع جهات مائة وثمانية أشبار ، وهو الذي في ارتفاعها . وكذلك – يقول ابن ابي زرع – يجب ان تكون من حيث البناء والنظر الهندسي، وان الذي تعطيه القياسات السابقة يؤكد ان علوها الكامل أكثر خمس مرات من سعة وجهها ، فتقديرات روض القرطاس تقريبية . الأنيس ص ٣٤ – الآس ٤٧.

(٧) نعتقد انه قبل انشاء (غرفة المؤقت) التي منها ينفذ اليوم للسطح ، كان المنفذ عن طريق هذا الباب ومن هنا نتأكد من اهمية الشكوك التي اثيرت حول تحديد مساحة الصحن الاول ، وقد اهمل طيراس هذا الباب الذي كان في الامكان ان يستفيد منه لتبديد شكوكه.

(٨) جنى زهرة الآس ص ٤٧ : ربيع الاول .

(٩) هذا هو باب السطح القديم كما تقدم .

(١٠) في هذا المنار كانت توضع أيضًا بعض الأغراض التي يتوقف عليها المؤذن من ملابس شتوية : الخيدوس (البرنس) والقباقب : احذية خشبية.

(١١) كان ذلك عام ٦٨٥ هـ كما سيأتي .

(١٢) روض القرطاس ٤٨ .

(١٣) قرأت في كتاب للاستاذ مارتي Le maroc de demain أن السيف اختفى ، وكان الأستاذ يتكلم سنة ١٩٢٥ ، وقرأت في مخطوطة أستاذنا المرحوم القاضي السائح : «لسان القسطاس بتاريخ مدينة فاس» أنه أي السيف ما زال ماثلا الى الآن ، وكان يتحدث عام ١٩٤٥ ، وقد حدث في أواخر عهد الاستعمار الفرنسي أن انفصل السيف عن نصله ، فأخذ يتحرك ذات اليمين وذات اليسار، فقالت العامة : إنها إشارة من المولى إدريس على أبناء البلاد بالجهاد ، وكثر الحديث وذاع حتى أخذت الادارة تهتم بالموضوع ، لكنه لم تمض الا أيام حتى وقع السيف ، وهنا ألحت مصلحة الآثار على تسليم السيف لإجراء تحليل عليه ، إنهم يعتقدون أن من البعيد بقاء الحديد كل هذه المدة تحت وهج الشمس وشدة القر، وبعد لأْيٍ أُرغم السدنة – بعد أن رسموا مقياسة (٤٧ سانتيما) على جدران المنار الأول والثاني – أُرغموا على إعارته بضعة أيام، وقد رجع – او ما يقاربه على حد قول شيخ المؤذنين – حيث ردّ الى مكانه القديم بعد أن صُبّ (جَامُور) صنع خصيصا لهذا «الباقي» من السيف. هذا، ويذكر التاريخ أن رجلًا صعد المنار يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول من عام ستة عشر وسبع مئة ، وتسلق ذروة الصومعة ، وأزال السيف من أعلاها ، لكنه لم ينجح في الاستيلاء عليه ، فقد هاج الجمهور ضد المحاولة ، ولقي الرجل جزاءه. ويحكي صاحب الدار النفيس عن نفسه أنه صعد هذا المنار يوم الأحد سابع عشر المحرم عام ثمانية وتسعين وألف بعد صلاة الظهر ، ليقف على حقيقة السيف ، فرأيته – يقول المؤلف – كما ذكر مسمرًا في وسط الهلال المصنوع من الصفر ، وتحته التفافيح وقدرته قدر ذراع ونصف تقريبًا ، وله حد من الجهتين ، لكن وجدته نصلاً ليس له مقبض ، وربما كان أزيل عنه قبل التَّسْمير ، ولا شك أن هيئَتَه هيئةُ السيف طولاً وعرضا وسمتا وسمكا ... قال : ومدة وضع هذا السيف في المنار من يوم وضع الى يومنا هذا سبع مئة واثنتان وخمسون سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام ، ورأيته مستقبلا الى القبلة بحدّه لا بسمكه وفي ذلك إشارات جليلة ، منها أنه مرفوع على رؤوس أهل فاس . المقري : زهرة الآس ص ٥٤ .

(١٤) قال الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر في كتاب (نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان) : اجتمع بي في شهر ربيع الأول من عام أربعة وستين وسبع مئة بجامع القرويين من مدينة فاس ، جماعة من طلبتها الأذكياء وأدبائها النبلاء ، فتكلموا في السيف ، فكان أول من افتتح باب المقال للشعراء ابو العباس احمد بن يحيى بن عبد المنان الخَزرجي (ت ٧٩٢) وقال :

أنكر السيف بالمنار بفاس ... قائل إن ذاك داعي اغتمام

لا يرعك الحسام سلَّ عليها ... جنة الخلد تحت ظل الحسام

ثم تلاه ابو عبدالله محمد بن موسى الماجري فقال :

يقولـون زجـرًا : إن فاسا قضى لهـا ... بذلتهـا سيف المنـار المشيـد
لقـد اخطؤوا في زجرهم ضل سعيهم ... هـل العزّ إلاّ تحت ظل المهند ؟

ثم قال أبو المكارم الأستاذ النحوي مندبل بن اجروم الصنهاجي :

شامـوا بفـاس سيف إدريسهـم ... فـوق منـار لا لأمـر مخـوفْ
بل أشعروا بقـول خـير الـورى ... جنتـكم تحـت ظـلّ السيوفْ

وقال ابو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المعروف بالربيب :

بسيف منـار بفـاس غـدت ... محاسنهـا دانيـات القطـوف
فيا زاجـر الغم عفـوا الآلـه ... وجنتـه تحت ظـلال السيـوف

وقال أيضًا :

ومـا خص إدريس المنـار بسيفه ... لغم ، ولكـن كي يعـم نـداؤه
مشيرا أجيبـوا داعـي الله تأمنـوا ... ومـن لم يجب داعيـه هـذا جزاؤه

وقال أيضًا :

سرّ فاس لفارس قـد بـدا في ... وضـع إدريس بالمنـار حسامـه
فهم العـز للنـداء فـأورى ... نـاره معلمًـا وشال عـلامـه

وقال الأستاذ أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الصنهاجي المليلي :

ألممْ بفـاس ، ولا تسمـع لقائلهم ... سيف المنار كساهـا ثوب مكتئب
أمـا ترى الشمس رانت تحت كاتبها ... والسيف أصدق أنبـاء مـن الكتب !

وقال الكاتب أبو العباس أحمد الأنصاري الخزرجي المعروف بالدباغ :

سيف إدريس بالمنـار بفـاس ... ليس للغم ، لا ولا للمخافـةْ
إنما كـان وضعـه السيف فيهـا ... معلمـا أنها مقـر الخلافـةْ

وقلت (يعني نفسه) : الأمير أبا الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت ٨٠٧) :

ومـا السيف في رأس المنـار لذلـة ... بفـاس ، ولكـن أمـره أيمـا أمـر
رآهـا ابن إدريس مقـر خلافـة ... فجرده عزمـا لأملاكهـا الغُـرّ

وأنشد أبو الفضل بن باشر التسولي :

قـل لمن أنكـر الحسام بفـاس ... وادعـي الغم قـول ذي تجـريح
سيف إدريس في المنـار شهـير ... شهـرة الدين بالأذان الصحيـح

وأنشد فيه ابن باشر أيضًا :

قـل للذي أنكـر السيف الذي اشتهرا ... عـلى المنار فـما أبدعت تنكيتـا
من خالف الصلوات الخمس يعـدمه ... إن الصلاة كتاب «كان موقـوتا»

وأنشد ايضا ابن باشر على لسان السيف :

وليس ارتفاعـي في المنـار لكربـة ... ولكنـه كي يعلم الحـق جاهلـه
أَحُضُّ على الخمس التي فـاز أهلها ... ومن حاد عن أوقاتهـا أنا قاتلـه !

وأنشد فيه الكاتب مسعود بن أبي القاسم بن أبي طالب :

قالوا: بجامع فاس سيف إدريسا ... وكلهـم قـائـل زورًا وتلبيـسا
ما جعْلُه غـير طِلَّسْمٍ لساكنهـا ... لكي ينـال بهـا الأحـزان والبُـوسا

ويشير لما روي من ان وفرة خيراتها قد تعكس الهمّ على سكانها ، تحقيقا لحكمة ابن عطاء الله : « ليقل ما تفرح به يقلّ ما تحزن له ».

وقد أنشد أبو زيد عبد الرحمن المكودي رادًا على أبي طالب :

قال قوم : سيف المنار بفـــاس هو طِلَّسْمُ ذلـــةٍ وهــــوان
اخطؤوا لـيس ذاك الا لعــــزّ بهرتْ منه سائــر البلــدان

وأنشد فيه الفقيه أبو العلاء ادريس بن رشيد الفِهْرِيّ :

سَلَّ إدريس بالمنـــار حُسامًـــا منبئًـــا ذاك عــن شديــد العقاب
داعيًـا للصلاة إن لــم تجيبــوا فحقيــق الجــزاء ضرب الرقــاب

وأنشد فيه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد الفخار المشهور بالحياك :

شهرة المشرفي فــــوق المنــــار عــزة للـــورى وديــن النبـــي
سيف إدريس محمــد للأعـــادي وانتصار الملـــوك في المشرفـــي

وأنشد الأديب أبو عثمان سعيد السدراتي المعروف بشهبون :

لإدريس سيف أظهر الدين والهـدى بأفــق منــار للأذان تشيّــدا
فمـن ظـن أن الذل أورثنـــا بـه فهــل ذل إلا ظالم ضلّ واعتـــدى

وقال أبو محمد عبيد الواحد الزيتوني :

من يحسد النـاس في فاس يقول لهم بسيف إدريس غــم النـاس في فــاس
تعسًا لقائلهم ، بـل سيفـه شرف علا كما قــد علا ادريس في الناس

وقال الشيخ أبو محمد عبد الغفار البوخلفي :

ذكـرت ولم أكـن للذكـر ناس عجـائب سيف إدريس بفـــاس
فلم يـك بالمنــار سدى ، ولكـن ليدفع عن حماهـــا كل بـــاس

وقد أنشد فيه الجزنائي مشيرًا إلى أن السيف لم يجعل هناك الاّ لتسجيل إسم ادريس

سيف إدريس منتضى بالمنـــار لالغــم النفـــوس والأغيـــار
إنمــا جعْــله هنـــاك ليبقــى خالــدًا ذكـره مـــدى الأعصار

ومما أنشد فيه ابو العباس أحمد بن عبد الحيّ الجلبي الفاسي :

حسام لإدريس بن إدريس منتضى عــلى الجامــع القَرْوِيّ في الليــل قد أضا
إشارتــه أغنــت لبيبًـــا بقولهـــا تشير بتفضيـــل لإدريس مــرتضى
تقول : أنا سيف العناية قـــائـــم لإدريس بالأمــر الذي كان قــد قضى
ووصفي على رأس المنـــار علامــة عــلى أن مبنـى حكمه الدهر ما انقضى
وتوجيــه خــدي نحو قبلــة أحمد بمعـنى الصراط المستقيم تعــرضا

وأنشد فيه أيضًا :

لإدريس سيف بالمنـــار طويـــل وعنــد تعــدي المعتديـن يصول
تجــرد زجــرًا للبغـــاة ومــرشدًا لكي يعــدلـوا عــن بغيهم ويزولـوا
وبشَّرَ قــومـــا آخـريـن بنَصْره ففــي حالتيــه للأنــام رســول

نشر فوائد الجمان . الدرّ النفيس . الأزهار العاطرة الأنفاس .

(١٥) هذه رواية الجزنائي في جنى زهرة الآس (ص ٥٥) وهي التي تتفق مع الاحداث التاريخية التي مرت بها البلاد . وفي الأنيس : أن ذلك تم سنة ٣٧٥ هـ بعد مقتل الحسن بن كنون . ابن ابي زرع ص ٣٦.

(١٦) الاستقصا ، ١ ص ١٩٨ .

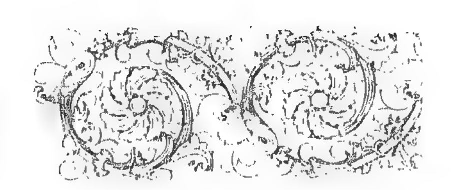
(١٧) البيلة : كلمة دخيلة Pila de agua ، وهي عند بعضهم مرادفةً للخصة، ومن الناس من يرى أن القسم العالي هو الخصة، في حين أن البيلة المكان الذي يجتمع فيه الماء أسفل ، وفي الناس من يعتقد العكس : البيلة فوق وينزل الماء في الخصة . Dozy P. 137

(١٨) الميزاب – كلمة فارسية ، وهي القناة ، انظر مادة (وزب) .

(١٩) الكرّابة – كلمة مغربية عربية الأصل جمع كرّاب صاحب القربة الذي يسقي الناس ، أي السقّاء .

(٢٠) الأنيس ص ٣٥ جنى زهرة الآس ٥٤)

(٢١) الأنيس ٤٢ – الآس ٦٩ .



الفَصْلُ الثَّالِثُ

القرويين في عهد المرابطين والموحدين

* الزيادات المعمارية والعمرانية في القرويين الثالثة
* السواري
* الفن المرابطي بجامع القرويين
* الكلمات المنقوشة
* العَنزة
* السطح
* السقف
* توسيع الصحن وتزليجه
* تكييف الهواء
* جامع الجنائز
* منبر المرابطين
* المستودع
* دار الوضوء وجلب الماء للمرة الثانية
* الخصة الحسناء
* إنارة القرويين
* الثريا الكبرى
* الثريا الصغرى أو ناقوس كنيسة وبْذة .

الزيادات المعمارية والعمرانية في القرويين الثالثة

شيئان اثنان اهتم بهما المرابطون عندما تسلموا الحكم بالمغرب (٥٢٨ هـ) (١١٣٤ م) ، اولهما : بناء عاصمة لهم تكون قريبة الى ديارهم بالصحراء ، ثانيهما العناية بجامع القرويين بفاس ، باعتباره اهم جامع في العاصمة الاولى للاسلام بالمغرب الأقصى.

فبعد ان بدأ القاضي السبتي سنة (٥٠٥ هـ) (١١١١ م) بتوسعة كل من الجناحين الغربي والشرقي للصحن ، لاحظ الناس ان كثرة العمارة بالمدينة تقتضي عملية كبرى ، الأمر الذي كان السبب في الاجتماع الذي ضم العلماء والأشياخ ، وذلك في مطلع سنة (٥٢٨ هـ) (١١٣٤ م) . لقد استقر الرأي على ان يتوجه القاضي ابو عبد الله محمد ابن داود [١] الى امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (ولّي ٥٠٠ – ٥٣٧ هـ) ليوضح له ضرورة الزيادة في القرويين والقيام فيها بالاصلاحات التي تقتضيها الحال ، وأطلعه على ما اكتشفه من أوقافٍ للقرويين بقيت في أيدي النظار والوكلاء ، وان هذه ستكون فرصة لارجاع املاك الجامع اليه ، ولا شك ان العاهل المرابطي تقبل هذا الاقتراح بسرور كامل ، فقد كان يريد ان يقوم بعمل للقرويين من شأنه ان ينسيها تلك الساعات الرهيبة التي شاهدتها غداة دخول المرابطين [٢] . وقد صدرت الأوامر بشراء عدد كبير من الديار التي تجاور جنوب القرويين (جهة المحراب) وبعض الاملاك التي في الطرف الأعلى من جهتيها الشرقية والغربية ، تم الشراء بأحسن الاثمان ترضية للناس ، ومع ذلك حاول بعض السكان من اليهود [٣] ان لا يسلموا متاجرهم ، لكن الفقهاء اقتدوا بعمل الخليفة عمر (رضي الله عنه) حينما زاد في المسجد الحرام – فأصدروا الفتوى بتقويم الأمكنة وارغام اصحابها على تسلّم المبالغ . وكما كان في القرويين الاولى فقد احتاط المسؤولون في البناء ما أمكنهم حتى تسلم هذه الزيادة من أيّ شائبة من شوائب الشبهة والريبة ، وقد استخرجت من أعماق أرضها الصخور والرمال ، بل اعتمد في البناء على نفس البئر التي انبطتها فاطمة بالقرويين الصغرى .

كانت الجهة التي نالها القسط الأوفر من الزيادة هي جهة الجنوب ، فقد زادوا فيها ثلاثة اساكيب من احدى وعشرين قوسا ، وقد اعتمد التصميم نفس الترتيب الذي كان للمسجد الادريسي ثم الزناتي بحيث تبعه حتى في عدم التساوي بين عدد الأقواس الموجودة في غرب البلاطة الوسطى وشرقها ، وقد كانت المسافة بين السارية والسارية ثلاثة أمتار وسبعين سانتيما بالنسبة الى الاسكوبين الأولين. أما بالنسبة الى الثالث الذي يجاور القبلة فقد بلغ العمق ثلاثة أمتار وتسعين سانتيما ، وكان كل جانب من السواري المربعة يبلغ ٧٠ سانتيما ، وهكذا اربت مساحة القرويين مع كل هذه الزيادات على نصف الهكتار [٤] .

وان المادة الوحيدة التي اعتمدها العمال في الزيادة هي الآجر في السواري وفي الأقواس . أما الجدار المحيط بالمسجد، فقد استعملوا فيه معجون الرمل والجير (Beton) ، وليس من البعيد ان يكونوا قد استخرجوا من تلك «الرمال والصخور» في الجامع ما صنعوا به اجرا صالحا للبناء . وهكذا نجمع بين الأقوال التي اطبقت على ان المواد المستعملة لم تتعدّ باطن القرويين وبين الحقائق التي أثبتها التنقيب عند عمليات الترميم الحديثة.

هذا وفي هذه الزيادة فرشت ارض الجامع كلها ، وحفرت فيها بالوعات تستوعب ماء الغسل عند الحاجة وذلك امعانا في تنظيف الجامع [٥]

وكما قلنا في الحديث عن القرويين الأولى فان سائر الدلائل تشير الى أن المرابطين احتفظوا بالقرويين الثانية في أكثر خصائصها العامة ، ويدل على ذلك مثلًا وضع البلاط الأوسط وما يلاحظ فيه من بعض اعوجاج، فلو أن القرويين قامت دفعة واحدة لأمكن ملاحظة الانسجام التام بين أجزاء المسجد ، هذا إلى أن تحليل المواد التي تقوم عليها بعض السواري في ذلك البلاط ، وخاصة ذات الشكل الاسطواني منها ، دل على أنها زناتية ، أضف الى هذا أن بعض التيجان التي تكلل بعض تلك السواري يحاكي ما يوجد منها في قرطبة ، وكل ما أدخله المرابطون من تغيير على شكل القرويين الثانية هو أنهم رغبة في إكتساب المحراب منظرًا أبهى وأكمل ، عمدوا الى البلاط الأوسط فزادوا في ارتفاعه وقوّوا بعض سواريه في الجزء المتقدم من الجامع . أما باقي المسجد فقد بقي على ما كان عليه بالرغم من أن القاضي كان يعتزم تغيير مكان الصومعة الزناتية (٦) ، ويمكن للمرء أن يلاحظ الفرق بين البلاطات السبع الزناتية والثلاث المرابطية ، إذْ تمتاز الأولى بغلظ سواريها وقصرها ، وتمتاز الثانية في الأكثر – برشاقتها وطولها .

ما تسعه القرويين من المصلّين

هذا ، ولكثرة الاهتمام بالقرويين عرضت بعض الكتب لما يمكن أن يسعه من المصلّين ، ان البلاط الواحد يسع أربعة صفوف ، في كل صفٍّ مئة مصلٍّ وستون مصليًا ، تلك ست مئة وأربعون ، أضفها الى مئة وخمسة وعشرين بين السّواري ، يكون المجموع سبع مئة وخمسة وستين مصليًا في البلاط الواحد ، تضرب في عدد البلاطات الست عشرة يكون المجموع اثنيْ عشر ألفا ومائتين وأربعين مصليًا . فاذا أسقطت قاعدة الصومعة وبعض الجهات مما لا يمكن أداء الصلاة فيه ، بقي اعتبار اثني عشر ألف نسمة . هذا رأي الجزنائي في جنى زهرة الآس ، وهو جد معقول ، أما صاحب الأنيس ، فيرى أن القرويين تسع اثنين وعشرين ألفًا ومئة وإحدى وأربعين نسمة ، تنقص قليلاً أو تزيد قليلاً (٧) .

سواري القرويين

جلّ السّواري التي تقوم عليها بناية القرويين تتكوّن من قطع الآجر (٨) فهي مربعة القاعدة في معظم الأحوال ، وفيها القديم الذي ركّب من أسطوانات صخرية ، وفيها المفصّص الشكل (٩) ، والمضلّع كذلك (١٠) ، وبالاضافة الى هذا يوجد عدد من السّواري الرخامية نقلت مع أكاليلها من الأندلس كالحال في السواري الأربع التي تقوم عليها قوس المحراب والسواري الخمس التي تتوزع على أبواب الرواح الرابطة بين قاعة الصلاة وجامع الجنائز ، والسواري الثلاث التي تحمل قبة جامع الجنائز المقربصة (١١) .

أما عدد السواري التي في الجامع ، فان ابن أبي زرع الذي ألف روض القرطاس عام ٧٢٦ يذكر أن عددها مئتان واثنتان وسبعون ، لكنا نجد الجزنائي الذي ألف جنى زهرة الآس حوالي سنة ٧٦٢ يتحدث عن ثلاث مئة سارية ، ونجد آخرين ينهونها الى ثلاث مئة وأربع وخمسين سارية (١٢) .

والواقع أن لكل واحد من المتكلمين وجهة نظر تعتمد على التاريخ الذي عدّد فيه سواري المسجد .

يوجد من السواري بحسب تسلسل الأساكيب من الشرق للغرب العدد التالي : الصف الأول ١٩ – وفي كل

من الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع : ٢٠ – وفي العاشر : ١٩ – والحادي عشر : ٧ – وفي كل من الثاني عشر والثالث عشر : ٦ – وفي الرابع عشر : ٨ – وفي الخامس عشر : ١٧ – وفي السادس عشر : ٥ – وفي السابع عشر : واحد ، ذلك : ٢٤٨ فاذا أضفنا ١٣ التي في جامع الجنائز والخمس في أبواب الرواح وأربع في باب المحراب ، وواحدة في رواق باب الحفاة ، وواحدة في باب المجلس العلمي حيث كان باب الحدودي كان المجموع ٢٧٢ ، وهو ما في القرطاس.

اما العدد ٢٨ الذي يزيده الجزنائي ، فقد تجمع لديه من تقصيه حساب بعض السواري الناتئة بالجدارين الشّرقي والغربي مع اضافة بعض العمدان المستطيلة التي بجامع الجنائز.

على أن هنالك عددًا آخر من السواري القديمة يمكن اعتباره في الحساب ، وهو النوع القصير الذي يتوسّط الخلوة وبعض نوافذ الصومعة ، أو الذي يحمل أعالي بعض القباب المقربصة التي تقع في البلاط الأوسط . وبعد هذا يكون علينا أن نضيف نحن السواري التي زيدت بعد هذه الفترة التي كان يتحدث عنها صاحب روض القرطاس وصاحب جنى زهرة الآس ، ونعني بها السواري التي أنشئت في أواخر العهد المريني والسعدي والتي تصل الى زهاء العشرين (١٣)

ويذكر الجزنائي أنه من الاتفاق الغريب في سواري القرويين أن الذي يطوف بالثالثة منها المنتصبة عن يمين الواقف مستقبلا تحت الثريا الكبرى ، يمكنه أن يبصر ، وهو يدور فيها ، جميع أبواب الجامع التي بداخله (١٤).

الفنّ المرابطي في جامع القرويين

كان الطابع الذي يميّز القرويين الأولى ، وكذلك القرويين الثانية ، هو طابع البساطة ، لم تخرج عن ذلك في كل المرافق التي عرفتها الى ما قبل ظهور دولة المرابطين ، ويكفي الوقوف أمام الصومعة الحالية التي تعد أقدم بناء بقي الى اليوم ، فانها نموذج حيّ لكل مظاهر التقشف التي كانت معروفة في سالف العصور ، وثمة أثر مهم من الآثار التي وجدت مغروسة في جدار القبلة ، وأعني بها اللوحة التي نقش عليها بالخط الكوفي تاريخ بناء مسجد الامام داود بن إدريس ، فهذه اللوحة أيضًا تعبير واضح عن البساطة التامة التي كان الأقدمون يستشعرونها في صناعاتهم وفي كتاباتهم ، ونعتقد أنه لو بقي أثر ما من آثار العهد الزناتي لما أمكن الخروج بنتيجة غير التي خرجنا بها اليوم ، والتي تشهد ببساطة الفن على العهود المتقدمة الأولى ، ومنذ الوقت الذي ظهرت فيه دولة المرابطين ظلّ المغرب – وهو مركز القوة الحية للامبراطورية – البقعة التي تحتوي على أكثر المباني المعمارية ، الأمر الذي نمّى من اطلاعنا على الفن الذي يعزى لدولتهم ، وأن ما اكتشف من هذا الفن في جامع القرويين بالذات ليفوق كل ما عرف الى الآن ، ويرجع الكثير من الفضل الى بعض الذين عُنُوا بالمسجد الجامع من الناحية الآثارية ، فهم الذين دلّونا على بعض ما يكمن في هذه المعلمة التاريخية الكبرى بالرغم من أن الفائدة كانت محدودة ، بل مقتصرة على مرحلة معينة من تاريخ القرويين (١٥)

نحن نعلم أن المرابطين أبْدَعوا أيّما إبداع في القباب المجاورة للمحراب ، لقد نقشوا عليها – كما يقول ابن أبي زرع (١٦) بالذهب واللازورد وأصناف الأصبغة على غاية من الجمال والكمال ، وكان ذلك يبهت الناظر من حسنه ، ويشغل المصلين . فلما دخل الموحدون المدينة يوم الخميس الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة اربعين

وخمس مئة (٤ شتنبر ١١٤٥) خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن ينتقد عليهم الموحدون تلك النقوش وذلك الزخرف الذي فوق المحراب ، لأنهم أي الموحدين نزعوا إلى التقشف والتقلل ، فقيل لهم : إن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي يدخل المدينة غدًا برسم صلاة الجمعة مع أشياخ الموحدين فخاف الفقهاء لذلك وبات الحمامون تلك الليلة فأطبقوا على ذلك النقش والتذهيب بالكاغد ثم لبسوا عليه بالجبص فاختفت تلك النقوش وصارت بياضا.

لقد بقيت ملامح ذلك الجمال مكسوفة ، وأنفاسه مكتومة زهاء ثمانية قرون أو تزيد ، كنا نقرأ عن «أصناف الأصبغة» التي استعملها الفنانون المغاربة في إعداد لوحاتهم ، ولكنا لم نعرف أنها كانت تعتمد الأحمر القاني والأزرق الناصع والبنفسجي الغامق الا منذ سنوات قلائل ، ان النقوش وأنواع الوشي والتطريز[١٧] وان توزيع الأضواء والظلال على كل تلك الفنون ليشهد بالثروة الندية التي تحلى بها ذوق العامل المغربي ، فأسدى للمعنيين بتاريخ الفن المغربي الأندلسي الخير الكثير.

لقد غير المرابطون من شكل القرويين التي كانت على عهد الزناتيين ، لكنهم بذلوا أقصى جهدهم في الابقاء على أصولها الأولى ، وذلك باحتفاظهم منذ البدء على تصميم «البلاطات الموازية لجدار القبلة» الذي كان نفس التصميم في القرويين الأولى والثانية ، ومع ذلك حرصوا – عند اضافتهم البلاطات الثلاثة – أن يبرزوا عملهم هم أتم إبراز عن طريق البلاط الأوسط الذي ينزل من المحراب في اتجاه العنزة ، لقد امتاز هذا البلاط عن بقية البلاطات بما احتواه في الداخل من روعة متناهية ، وفي الخارج بما تميز به من مقدّمه من علوّ ملحوظ ... لقد عرفنا السرّ الذي جعل العمال المغاربة[١٨] يصلون بهذا السقف المرتفع على النحو الذي ذكرنا ، بين ستة أساكيب : ثلاثة سرابطية وثلاثة زناتية ، فان القرويين الزناتية التي خلفت مسجد فاطمة كانت قصيرة العمد منحدرة السقف ، فحتى يحتفظ الصناع للمسجد برونقه ما أمكن شعروا بالحاجة الى رفع سطح مقدّم البلاط الأوسط إخفاءً للفرق. وهكذا لم يظهر هناك أثر لقصير أو طويل ، واستطاعوا بفضل ذلك الترقي المتدرج للقباب أن يتحفوا النظارة بقاعة صلاة كأنما قامت دفعة واحدة – كما أنهم بذلك اتبعوا تقليدًا معروفًا في المساجد المغربية يعمد الى إبراز البلاطة الوسطى لتدل من خارج أيضًا على اتجاه القبلة كما هو الحال في مسجد القيروان ومسجد قرطبة.

إن هنا العدد الوافر من الأشكال المختلفة للأقواس ، فبالاضافة الى الأقواس العتيقة ذات العقد الواحد التي تعمّ قاعَة الصلاة ، وحوالي الصحن وعند الأبواب الخارجية ، نلاحظ الأقواس المتضاعفة العقود التي تتناثر هنا وهناك ، وفيها ما يحتوي على خمسة عقود مختلفة المقاييس ، وفيها ما يحتوي على أحد عشر عقدًا فيها الصغير والمتوسط وفيها أقواس أخرى يحتوي كل عقد منها على عقود أخرى ، وعند مدخل الأبواب التي تنفذ لجامع الجنائز نلاحظ من جهة الجامع أقواسا على شكلٍ حلزوني ، لكن يتحول المنظر من جهة صحن جامع الجنائز الى شكل لقوسين توأمين، على أن هناك مجموعةً من الأقواس تتخذ أشكالا أخرى لا تقل متعة عن الماضية.

* واذا ما تجولنا في هذه القباب الممتدة على طول البلاط الأوسط ، نشاهد دون شك معالم الفنّ متجلية في سائرها ، وأن ما أبدعتْه عبقرية العامل المغربي منذ ذلك التاريخ المبكّر في هذه القباب وخاصّة ذات الأبعاد الكبيرة منها ، جعل رجال الآثار يتشككون في أقدمية القباب المماثلة في معبد (بّالاتين La Palatine) في باليرمة ، التي يرجع تاريخها الى سنة ١١٥٠ م ، وتعود قباب القرويين الى تاريخ ١١٣٧ م. تمتد على طول البلاط الأوسط طائفة من القباب فيها المضلّعة وفيها المقربصة . فابتداء من القبة التي في داخل المحراب مثمنة الشكل ، تليها قبة

محاذية للمحراب على شكل مربّع ، تأتي بعدها القبة المستطيلة ، ثم قبة مربعة مقربصة ، ثم قبة مضلّعة ، تأتي اثرها قبّة دائرية مقربصة ، وبعد سقف عاطل نشاهد القبة المضلعة التي أحدثها العلويون ويأتي بعدها سقف عاطل أيضًا ، وأخيرًا يختم البلاط الأوسط بالقبة المقربصة التي عوضت القبّة الزناتية.

ويلاحظ أن قاعدة تلك القباب المقربصة تقوم على أقواس محمولة على سوارٍ قصيرة ذات تيجان تتخذ أشكال سعف النخل ، ويمكن أن نشاهد في القبة ذات الابعاد الكبيرة لوحات ثَرية بزخارف من زهور أو كتابات ، وفي داخل المحراب أقواس مماثلة مزدانة بأشكال سعفية في تركيب متناسق الأجزاء من كل جهة .

وعند القبة التي ترتفع مباشرة بعد العنزة ، نلاحظ بساطة أفاريز الأقواس البارزة ، وفي القبة الدائرية والقبة المضلعة تسود الأفاريز الهندسية المتعانقة على قاعدة من نجوم سداسية ، وفي القبة المقربصة المربعة يتخذ الإفريز شكلاً مربعًا ذا عقود مزدانة بالزهور الجميلة ، وهي تكتنف النقوش التي حملت وثيقة التأسيس .

واذا ما حاولنا أن نوازن بين مختلف القباب ، فسنجد أن القبة المحاذية للمحراب تمتاز بأنها أثرى وأغنى من حيث تطريزُها ووشيها ، فهي كالحال في القبة المستطيلة تحتضن لوحات فنية رائعة منقوشة فيها ما نقش بالخط الكوفي ، وفيها ما نقش بالكتابة النسخية ، وعلى كل هذا تتعانق أشكال الزهور لتكوّن منظرًا أخاذًا ، وفي القبة الدائرية نلاحظ باقات بارزة من زهرات الاقنتا ، وقد أحاطت — في أوضاع مختلفة — على ثلاث طبقات تعلو إحداها الأخرى .

ومع هذه الثروة التي تتزايد في اتجاه القبلة يلاحظ رجال الآثار ما طبع قبتين أُخْرَيْن من بساطة : القبة المضلعة المرابطية حيث الثريا الكبرى ، فإن قمّتها لا تحتوي إلاّ على عقود وأفاريز تتخذ أشكالاً هندسية بسيطة. والقبة المربعة الشكل التي تحتوي على شماسيات جميلة ذوات رسوم مزهرة جميلة.

واذا انتقلنا الى الأفاريز المتشابكة شاهدنا في أسفل مختلف القباب أشكالاً هندسية محكمة المقاييس والأبعاد ، وفيها ما يكوّن نجومًا متقنة التقدير والتخطيط .

واذا ما حاولنا أخيرًا أن نستعرض الخطوط الكوفية والنّسخية بما يشاركها في أغلب الحالات من زهور استوقفتْنا هذه المجموعة الرائعة من اللوحات المطرّزة هنا وهناك .

لقد كان الخطّ الكوفي أكثر استعمالًا من سواه على مختلف الجهات ، وفيها ما يظهر عليه طابع القدم كالحال في الخطوط التي في داخل قبّة المحراب ، على أن أكثرها يقوم على ساق طويلة مشجّرة ، وكثيرًا ما يُملأ الفضاء بين الحروف بأشكال تحاكي النخل ، وهكذا تزيد هذه النباتات في المنظر الرائع لتلك اللوحات ، دون ان تؤثر في أشكال الحروف ، الأمر الذي بلغ بالخط الكوفي قمته في التوازن والتناسق.

واذا كانت الكتابة الكوفية قد سيطرت على جلّ الجهات الموشاة ، فان الخط النسخي يحتل درجة ثانوية ، حيث يقتصر على بعض الجهات في القبة المربعة الموازية للمحراب والقبّة المستطيلة.

واذا ما انتقلنا الى عنصر الزخرفة النباتية الذي افرغ فيه العمال المغاربة جهودهم ، فسنجد أنفسنا أمام حقول تتألف من باقات ممتعة ومتنوعة من النباتات والزّهور ، ألم يقل ابن عبّاس مخاطبًا أحد الفنانين : «إن أَبيت الا

أن تصنع ، فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح) [١٩]

هناك أشكال مختلفة من سعف النخل المضلّع والبسيط . هنا كذلك عدة أحجام لجوز الصَّنَوبَر الذي تطرز به بعض الفراغات ، على أن هناك نوعًا من الزهور ، هو زهر الاڤنتا يبدو في حلة زاهية ، وقد وشّيت به القبة الموالية للمحراب ، وبعض القباب الأخرى ، وبخاصة القبّة المستديرة الشكل التي تضمّ مجموعة متعددة من هذا النوع من الزهور المحبّب الى النفوس ، وكأنَّ الصناع التزموا أن يجدوا لكل لوحة تركيبًا خاصًا قائمًا بذاته ، بل انك لتجدهم في اللوحة الواحدة حريصين على التنويع والتشكيل سواء أكان الأمر يتعلق بالسعف أم بالاڤنتا ، وكأنما لكل لوحة شخصيتها ، الأمر الذي اعطى لكل هذه الفنون قيمة لا تقدر .

الكلمات المنقوشة

ويمتاز ما نقش على مختلف القباب بأنه لا يتضمّن بعض الآيات الشريفة والعبارات الدعائية حَسْبُ ولكنه أيضًا يحتوي على وثائق قديمة لها وزنها بالنسبة الى تاريخ القرويين.

لقد نقشت على الأقواس الثمانية بداخل قبة المحراب كلمات بخط كوفي حروفه باهتة ، تبيّنا منها بعض الآيات : «وقل رَبِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْق.» .

وقد تضمنت واجهة المحراب والقبة التي تحاذيه نصّين تاريخيين :

الأول — داخل شكل مثمّن في أعلى الواجهة ، وفيه ما يلي : «عمل عبد الله بن محمد وكمل بحمد الله وحسن عونه في شهر رمضان المعظم احدى وثلاثين وخمس مائة» .

الثاني — وهو بين أفاريز تحيط بالقبّة المربعة ، ونصّه : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسول الله مما أمر بعمله عن أمر الملك العادل الآمر بالخير والفضل أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين ، أدام الله له أسباب التأييد والتمكين الفقيه المشاور الأجل الامام القاضي الأفضل أبو محمد عبد الحق بن عبد الله ابن معيشة الكناني أدام الله توفيقه فعمل ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم وعنده تعالى وجلّ حسن الثواب وكريم المئاب فرحم الله من قرأه ودعاه الى الله سبحانه في عاجل القبول واعظام الاجر والمجازاة له يوم النشر والحشر ، وكان اتمام ذلك كله بحمد الله وعونه في سنة احدى وثلاثين وخمس مائة » .

ويلاحظ أن هذه الوثيقة حجب بعضها بسبب شماسيتين حديثي العهد . وهكذا سقطت بسبب الشماسية الأولى كلمات (حمن الرحيم وصلى الله على رسول) ، وبسبب الشماسية الثانية (دل الآمر بالخير والفضل أمير ال) ، ويحيط بالشماسيات القديمة الثلاث تحت هذه الوثيقة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يسبّح له فيها بالغُدُوِّ والآصال رجالٌ. الآية» ثم تحيط بفتحة المحراب الآية : «يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدُوا واعبدُوا ربكم».

واذا ما رفعت بصرك الى أعلى القبّة شاهدت مجموعة من اللوحات الفنية الرائعة التي تحتوي على عدد من الآيات والكلمات ، فيها ما نقش بالخط الكوفي أو بالخطّ النسخي ، وفيها ما هو على شكل أقواس . وفيها ما هو على شكل مربّعات ، فتحْتَ قمة القبّة وعلى مقربة من الباقات المنتظمة هناك نجد لوحات تحمل كلمات : «الحمد لله — الشكر لله — العزة لله — اليسر بالله — الله أكبر — الخ الخ».

وتحت هذا أقواس متتابعة ، بالخط النسخي ، تحمل الآية الشريفة : «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرضَ في ستة ايام» (سورة الاعراف الآية ٥٤)، والآية : «ما كان ابراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين »، وآية : «ومن يبتغي غيرَ الاسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين»، وآية : «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» ، وآية : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاتِه ولا تموتن الا وانتم مسلمون..»، وتحتها لوحات مربعة تحمل كلمات بالكوفي : «توكلت على الله ، حسبي الله – السجود لله – الشكر لله – القدرة لله – الخ ...» تحتها مباشرة لوحات مقوّسة نقشت فيها بالكوفي سورة الاخلاص والمعوذتين ، ثم الآية : «لخلقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس» سورة غافر الآية ٥٧.

أما القبة ذات الأبعاد الكبيرة ، وهي التي تلي هذه ، فقد احتوت وثيقتين تاريخيتين بالاضافة الى ما يوجد هنا من لوحات مكتوبة بالخطوط الكوفية والنسخية.

فعلى طول الحاشية السفلى الدائرة بها نقشت بالخطّ الكوفي وباللّون الأبيض ما يلي : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد رسوله الكريم أرسله بالهدى بشيرًا ونذيرا وعلى آله الطيّبين الطاهرين وسلم تسليما ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين مما أمر بعمله عن أمر الملك العدل الآمر بالخير والفضل أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين أدام الله له أسباب التأييد والتمكين ، الفقيه الإمام الأجل المشاور (٢٠) القاضي الأفضل أبو محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الكناني أدام الله توفيقه ، فعمل ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم وعنده تعالى وجلّ حسن الثواب وكريم المثاب ، فرحم الله من قرأه ودعا الى الله سبحانه في عاجل القبول وإعظام الأجر والمجازاة له يوم النشر والحشر ، وكان إتمام ذلك كله بحمد الله وعونه وتوفيقه ومنّه في شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة».

وفوق هذا بعد البسملة والتّصلية الآية الشريفة : «في بيوتٍ أَذِنَ الله أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمه» سورة النّور الآية ٣٦ – ٣٩ .

وعلى أحد التيجان التي تكتنف بعض الجهات في الآية الشريفة اسمُ الصانع الذي اشتغل في هذه القبة على النحو التالي : «عمل ابراهيم بن محمد رحم الله من دعا له بالرحمة».

وفوق هذا لوحات فيها ما نقش بالكوفي ، وفيها ما نقش بالنسخي. فعلى بعض الأقواس السفلى تقرأ الآية : «آمَنَ الرسولُ بما أُنزل اليه من ربّه» سورة البقرة الآية ٢٨٥ ، تحيط بها مربّعات بالكوفي : «العزّة لله – الملك لله – البقاء لله – بالله توفيقي بالله – العظمة لله – القدرة لله –». ثم فوق هذا أقواس أخرى تحمل الآيات : «الله لا آله الا هو الحيّ القيوم ... لا أكراه في الدّين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله» سورة البقرة الآية ٢٥٦ ، وتكتنف هذه الآية مربّعات بالكوفي في أعلاها نجمة مثمّنة .

وفي جهات موالية على مقربة من الزّهور المتناثرة هنا وهناك ، نجد لوحات ذوات أقواس مفصصة ، وقد نقش عليها بالكوفي : «ومن يَتّقِ اللّهَ يجعَلْ له مَخْرَجًا» الطلاق الآية ٣ ، وتحتها لوحات أخرى نقشت عليها بالتوالي : سورة الاخلاص ، والمعوذتين ، لا آله الا الله ، والمعوذتين الخ الخ .

ونلاحظ بعد هذه القبة المستطيلة أن اهتمام الصناع بالنقوش أخذ يضعف ، فقد اقتصرت القبّة الرابعة على

نقش الآية الشريفة بالخط الكوفي : «تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك» الفرقان الآية ٢٥ » . وفوق هذا يوجد تحت بعض اللوحات الفنية رسم بالخط الكوفي القديم (بركة ونعمة شاملة) – الله وحده لا شريك له لا اله الا الله محمد رسول الله الحمد لله – الشكر لله – العزّة لله – الله أكبر – .

وبعد القبة المضلّعة التي تحتضن الثريا ننتقل إلى القبة السادسة ذات التصميم الدائري ، وقد نقش على لوحة فيها ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد صنع هذه القبة سلمة بن مفرج » .

وبعد قبة الخشب تأتي القبة الثامنة المضلعة ، لكنها تتأخر عن أيام المرابطين [٢١] ، وبعد قبة الخشب التاسعة تأتي القبة العاشرة التي عوضت قبة عبد الملك المظفر ، وقد نقش على دائرتها حديثا : « لا قوة الا بالله... » .

العنزة :

واختتم البلاط الأوسط هذا بنصب «عنَزة» ، كانت ألواحًا بسيطة لكنها احتوت على بعض النقوش ، ولم يستطع التاريخ أن يعطينا عنها أكثر من النص الذي كان على أعاليها : «صنعت هذه العنَزة في شهر شعبان المكرم سنة أربع وعشرين وخمسمائة [٢٢]» وهذه كانت عنزة المرابطين.

السطح والسقف :

ويعلو قاعة الصلاة سطح من القرميد يتألف من منحدرين متقابلين ، يمنع انحباس مياه الأمطار وتجمعها، وذلك لئلا تتلف السقوف.

أما من الداخل فيتراءى منظر الركائز المتساند بعضُها الى بعض على الشكل الذي يحفظ المسجد من كل ميل.

ولا شك أن السطح والسقف معا تعرضا لعدة اصلاحات وتغييرات ، بَيْدَ أن التصميم القديم خارجًا وداخلاً ظل هو الشكل المحتفظ به.

توسيع الصّحن وتزليجه :

منذ الزيادة الثانية في القرويين ظل الصحن على ما كان عليه ، فحدثت به على مرور الزمن بعض الفغرات، عاقت استواءه ، وأمست غير مناسبة للاصلاحات القائمة على قدم وساق ، ولهذا تطوع أحد العرفاء من رجال البناء أبو عبد الله محمد بن صخر بمساعدة العريف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الخولاني ، وافترش الصحن من ماله ، وعلى العادة المتبعة في كل عمل يمس هذا الجامع التزم ابن صخر لدى قاضي الجماعة أبي عبد الله بن داود بان المال الذي ينفق على المشروع موروث عن والده ، وانه لا شبهة فيه تسيء للقرويين ، والتزم الى جانب هذا أن لا يبقى في الصحن تقعير ولا احدِوداب، وأنه إن صُبَّتْ في أعلاه قُلّة ماء انحدرت الى أسفله ، وهكذا تم تزليجه من نوع من الآجر يعرف الى الآن باسم «البجماط» ، ويذكرون على سبيل التدقيق أن الصحن استوعب اثنتين وخمسين الفا وتسع مئة وأربعًا وسبعين آجرة ، لأن طول الصحن من شرقه الى غربه مئتا صف وثلاثة وأربعون صفا ، وفي كل صف مئتا آجرة وثمان عشرة آجرة [٢٣] . وزاد القاضي ابن داود في الصحن بلاطين من جهة الشرق، ومثلهما من جهة الغرب [٢٤] .

تكييف الهواء في فصل الحر :

ومن الطريف أن ينقل الينا التاريخ طريقة لتكييف الهواء في صحن القرويين تحاكي نفس الطريقة التي كان البغاددة يستعملونها مما تحدث به مهيار الديلمي في رائيته عن الطّنبلنب الذي كان بعض الخواص يستعملونه من نسيج فيه فرج ينفذ منها الهواء ، مستعينين بحبال يجذبونها بها ، فيلطف أذى الحر(٢٥) .

لقد نصب القاضي ابن داود على الصحن مظلات من شقق الكتان ، تنشر عليه كل يوم جمعة في أزمان الصيف ، لتحجب الشمس عن المصلين الذين يفضلون البقاء بالجامع على الالتحاق ببيوتهم ، وذلك بأن جعل في أطنابها حبالا تجري في بكرات موثوقة بالرفوف الدائرة على جوانب الصحن ، ترتفع بها المظال مدة الحاجة اليها، ثم تحط وتزال وتوضع في المخازن الى وقت الحاجة اليها عندما يعود الصيف، وقد جعل في مواضع من المظلات فُرَجا يدخل منها الهواء العليل ، وبقيت تشتغل لذلك أعواما حتى تمزق المظل ، وأهمل النظر فيه بعد حصار دولة الموحدين «مدينة فاس واغراقها (٢٦) ، وقد حرك ذلك النوع من الترفيه على المسجد بعض الشعراء على ذلك العهد ، فانشأ يقول مخاطبا قاضي المدينة :

تبهجــت الدنيــا بعدْ لك في الورى   وفسَّحْــت لما ضاق بالخلــق جامعــا
شكا صحنــه شمس الظهيرة صاحيا   فأظللتــه ظلا عــن الوهــج دافعــا

ولم يكن الصحن فناء يصلي فيه المؤمنون ويعطون فيه الدروس صيفا حسب ، ولكنه كان أيضا بمثابة تلك البطائح التي كان المؤمنون في العهد الاسلامي الاول يجتمعون فيها للتداول ، وفعلا فان تصميم الصحن مساعد جدًّا على مثل هذه التجمعات بما يحتوي عليه من الأروقة المرتفعة التي تحيط به ، وهنا وقف في العنزة الاستاذ ابن المرحل بعد سقوط قرطبة سنة ٦٣٦ ﻫ واشبيلية سنة ٦٤٥ ، وقف يلهب حماسة الجمهور بقصيدة مؤثرة رائعة ، بعد صلاة جمعة من السنة الثانية والستين وستمائة (٢٧) :

جامع الجنائز :

كان في ضمن مشروع القاضي ابن معيشة ان يخصص مقدم القبلة لعدة مرافق كان يرى انها ضرورية ، فقد خطط لبناء جامع للجنائز خروجا من الخلاف حول نجاسة الآدمي الميت ، واتقاء بروز شيء يلوث المسجد ، وكان يرى بناء مقصورة للامام في مقدم القبلة تخصص لراحته واستعداده ، كما كان من رأيه بناء مجلس للقاضي داخل هذه المنطقة ، لكن ابن معيشة صرف عن الحكم منذ سنة ٥٣٣ ﻫ قبل ان ينهي أعماله ، ولقد عجز القاضي الذي خلفه ان يكمل أعمال الأول فبقيت موقوفة الى ان ولي قضاء المدينة سنة ٥٣٧ ﻫ الشيخ الفقيه ابو مروان عبد الملك ابن بيضاء القيسي، فعندئذ سأل عما كان ينوي ابن معيشة انجازه ، فاستأنف العمل فيه ، وهكذا اكتسبت القرويين مصلّى للجنائز يعد أقدم جامع من نوعه في كل بلاد المغرب (٢٨) . لقد شيد على شكل مثلث في وضعه الأول ، متصلا بالشارع العام عن طريق بابين كبيرين باب الخلفاء وباب المصلّى ، وفي غرب هذا المثلث قبة مربعة مقربصة يحميها رواق سقف بالقرميد ، تنافس في فنونها قبة المحراب . ولما كانت ناحيتها الجنوبية مسدودة ، فأن كلا من جهاتها الثلاث الأخرى كانت مزدانة بأقواس جلبت سواريها المرمرية وتيجانها من الأندلس (٢٩) ، وتحت هذه القبة يوضع النعش . وقد احتفظت الجهة القبلية بأقواسٍ نقش عليها بعض آيات من سورة يس التي جرت العادة

بالتبرك بتلاوتها على الأموات ، اعتبارًا بما ورد في فضلها من آثار (٣٠). ويمتد ممر «من باب الخلفاء» في اتجاه مقصورة الامام يكون صحن جامع الجنائز ، وعليه تفتح أبواب الرواح الثلاثة التي تنفذ من قاعة الصلاة الى هذا الجامع

مقصورة الامام :

أمَّا مقصورة الامام أو حجرة الجامع كما يسميها ابن ابي زرع ، فتتعدى مساحتها الخمسة أمتار ، وسقفها يحتوي على قبة في أعلاها شماسيات ، وكانت بها رفوف توضع فيها بعض المخطوطوت التي يرجع اليها الامام ، وتوجد سقاية من رخام ذات ماء معين يأتيها ، فيما يظهر ، من المصدر الذي تستفيد منه بِيلّة باب الحفاة ، كما توجد ميضاءة يجري فيضها الى دار الشامي في درب عقبة السبطرين ، وللمقصورة باب من جامع الجنائز بالاضافة الى بابها للجامع ، وان الذي يتتبع تاريخ المقصورة سيجد انها – مع كونها محل استعداد للخطيب يوم الجمعة أو الامام قبل خروجه للصلاة كانت محلا لناظر الأوقاف يحاسب فيها أعوانه على ما سنرى.

مجلس القاضي :

كان مجلس القاضي عن يمين الداخل من باب الخلفاء ، وما يزال أثره الى الآن بعد الإصلاحات الجارية ، وتعبّر بعض الرفوف الموجودة هنا عن وجود خزانة الكتب التي كان يستعين بها القاضي على أحكامه . ولا شك أن معالم المحكمة القديمة قد دخلها تغيير ، ومع ذلك فان كل الدلائل تشير الى أنها كانت هنا . واذا عطفت بعد هذا على يمينك فستجد بيتًا صغيرًا مجاورًا للباب الثاني لجامع الجنائز ... لا بد أن له صلة بالمجلس ، وقد ظل الى ما قبل بضعة أعوام مجلسا لمفتش الخزانة الكبرى للمخطوطات ، يراقب فيه الكتب المعروضة للبيع بالمزاد العلني ، حتى اذا كان هناك نادر من الكتب النفيسة اقتناه للخزانة ، وإذا كانت هناك شبهة في تملك المخطوط صادره . ويحكي خدمة المسجد من الطاعنين في السن أن بهذه الحجرة كان يوجد مكيال وميزان ومقياس ، وكان يجلس فيها بعض أعوان القاضي من المعروفين بالأمانة والنزاهة ، وذلك ليفضُّوا النزاعات المتعلقة بالمكاييل والموازين والمقاييس.

منبر المرابطين ٥٣٨ هـ - ١١٤٤ م

هذا هو المنبر الذي عوض المنبر الأموي الذي كان بديلا للمنبر الفاطمي ، ويعدّ أول تحفة في العالم الإسلامي كله ، وقد صنع في مدينة فاس نفسها ، وتولى العمال المغاربة تركيب أطرافه ، وهو يحتوي على تسع درجات ، يصعدها الخطيب بين ساريتين من عود ثمين أدكن ، يؤكد رجال الآثار أنه من شجر الأبنوس. وهو علاوة على أنه تحفة ، أقدم مثل للمنبر المغربي ، وقد حليت جوانبه برسوم هندسية في غاية الدقة والروعة ، وكل قطعة منه تختلف عن الأخرى في زخرفها وفي شخصيتها ، هنا النجوم المثمنة والأشكال المختلفة ، وهنا رسوم السعف وجوز الصنوبر ، وإن المرء ليدهش أمام هذه العبقرية النادرة التي نظم بها هؤلاء الفنانون هذه القطع الشعرية المتمثلة في أنواع الزخرف والوشي التي لا يتمكن المرء من تبيُّن أجزائها الا بمزيد امعان ويقظة[٣١] . وقد نقشت على بعض جهات المنبر آيات بالعاج بالخط النسخي والكوفي ، ومع أن الأيدي تضافرت مع الزمن على النيل من هذا العاج ، فقد بقيت منه جوانب سالمة ، في علوه ثلاثة أمتار وستون سانتيما ، وفي عرضه واحد وتسعون سانتيما ، وستجد فيما بقي

محيطًا بمدخل المنبر من الآيات الشريفة المطرزة بالعاج على عود الأبنوس قول الله : (يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ ولتنظُرْ نفسٌ ما قدّمت لِغدٍ، واتّقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون ، ولا تكونُوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أنفُسَهُمْ ، أولئك هم الفاسقون . لا يستوي أصحابُ النار وأصحابُ الجنّةِ ، أصحابُ الجنّةِ هم الفائزون . لو أنزلْنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعًا متصدّعًا من خَشْيَةِ الله ، وتلك الأمثال نَضْرِبُها للنّاس لعلّهم يتفكّرون ، هو اللهُ الذي لا آله إلاّ هو عالِمُ الغيبِ والشّهادة ، هو الرّحمٰن الرّحيم ، هو الله الذي لا آله إلا هو، الملِكُ القُدّوسُ السلامُ المؤمِنُ المهيمنُ العزيزُ الجبّارُ المتكبّر ، سبحانَ اللهِ عما يُشركون ، هو اللهُ الخالقُ البارئُ المصوِّر ، له الأسماءُ الحسنى، يسبّح له ما في السمٰوات والأرض وهو العزيزُ الحكيم.) ١٨ - ٢٤ م الحشر ٥٩).

كل هذه الآيات منقوشة هناك ، ولكن أطرافها الأولى والأخيرة رفعتها الأيدي ! ويوجد الى جانب الخط النسخي آيات بالخط الكوفي العتيق : (إنَّ الأبرار يشرَبون من كأس كان مِزاجُها كافورًا عينًا يشرَبُ بها عبادُ الله يفجّرونها تفجيرًا ، يوفون بالنَّذْر ويخافون يومًا كان شرُّه مستطيرا) «الانسان ٦ - ٧».

لقد أمر السلطان علي بن يوسف بن تاشفين قاضي القضاة أبا محمد عبد الحق بن معيشة الغرناطي الكِناني بصنعه ، لكنه لم يتمّ في أيّام هذا ، وتمَّ في أيّام الفقيه القاضي أبي مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي ، وتؤكد كتب التاريخ القديمة (٣٢) أنه صنع من أصناف الخشب الرفيع : من عود الصندل والنارنج والعناب والأبنوس ، وان تطريزه كان من صادق العاج ، وكان الذي تطوّع بصنعه ونجره بيده علامة فاس وأديبها الشيخ أبو يحيي العتاد (٣٣)، وقد بلغت جملة النفقة عليه من مال الأوقاف المتخرج من النظار ، ثلاثة آلاف وثمان مئة دينار وسبعة أعشار دينار فضة ، أي ما يفوق أربعة ملايين من الفرنكات القديمة (٣٤) ، وقد تم كل ذلك في شعبان من عام ثمانية وثلاثين وخمس مئة بحسب ما كان منقوشا (٣٥) في أعلى ذروته بالعاج أيام كل من صاحبي الأنيس والآس ، ولكنه لم يبق اليوم من شعبان إلا حرف النون . ونظرًا لقيمته العظيمة صُنِع له غِشاءانِ : أحدهما من جلد معزى ، والثاني من نسيج كتان ، يزالان عنه كل يوم جمعة . وجعل للمنبر ، علاوةً على الغلافين ، بيت على مقدار حجمه ، يستر فيه سائر أيام الأسبوع ، ولا يخرج الا يوم الجمعة ، أو عندما تقتضي الظروف ذلك ، ويتدرج على سكة خاصة لذلك، وتلازمه دائما الحربَة التي يعتمد عليها الخطيب عوضا عن السيف الذي كان الخلفاء يتخذونه ، اظهارا للقوة ، وتنبيهًا للمسلمين بين الفينة والأخرى .

وقد ظل هذا المنبر محل عناية زائدة من سائر الملوك الذين مروا بتاريخ المغرب ، وكان محل تنافس بين رجالات العلم والدين ، حتى لكان يكفي لتألق اسم أو ظهوره ان يكون له ذكر - ولو مرة واحدة - على منبر القرويين، وحتى ليكفي لتزكية أي حكم ان يتلى اسمه على منبر القرويين ليكتسب رضاء الناس(٣٦).

مستودع الأوقاف ٥٨٠ هـ - ١١٨٤م

وان الثروة العظيمة التي أصبحت القرويين تكسبها من الأوقاف التي ما فتئ المؤمنون يغدقونها على هذا الجامع الأعظم ، وأخذت تنافس خزينة الدولة نفسها ، أصبحت تقتضي من المسؤولين احتياطًا زائدًا على الأموال المُدَّخَرة، ومن هنا كانت فكرة بناء «المستودع» ويعني - دون شك - بالمستودع ما يعني في اللغة : الخزينة التي تجعل فيها الودائع الثمينة ، والمستودع المقصود بالكلام هو المخزن الحصين الذي يوجد الآن تحت الرواق الذي بنيت فيه

بعدُ مكتبة أبي عنان العلمية في الركن الشرقي الشمالي لجامع القرويين ، ويسمى الناس الرواقَ الذي يقع فوق المخزن بالمستودع مجازًا ، لكن المستودع الذي نريد الحديث عنه هو الهُرْيُ الذي يوجد تحت ... ولقد جعل عهد الموحدين في أيام الفقيه أبي محمد يشكر الجورائي (٥٥٨ – ٥٩٨ هـ) ليوضع فيه مال الأحباس وأوقافه ، وكان الناظر المشرفَ على بنائه الفقيهُ أبو القاسم عبد الرحمٰن بن حميد (ت ٥٨١ هـ) ، وقد حفر قاعته ونحتها الى أن وصل الى الأرض الصُّلبة ، ثم جصص الأرض بالرمل والجير ، وجعل له طاقين[٣٧] لإدخال الهواء : أحدهما من الرخام ، والثاني بناه من الرمل ، كما نصب للمستودع بابين : أحدهما من خشب ، وثانيها ملبس بالحديد على الوجه المحكم والعمل الوثيق . وزيادة في الاحتياط جعل لكل باب منها ثلاثة مفاتيح ، وأسند كل مفتاح الى وكيل على حدة ، حتى لا يفتح المستودع الا بحضور الثلاثة ! وجعل في داخل المستودع صناديق كبيرة عليها اقفال وثيقة ، ووضع فيها أوقاف الجامع كلها . وقد اغتبط الناس بهذا «البنك» الجديد ، فتهافتوا على (العميد) يطلبون منه إيداع أماناتهم في المستودع المذكور ، فاستجاب لرغبتهم ، فكان التجار وأرباب المال يطمئنون على مُدَّخَراتهم هنا. وقد استمر العمل بهذا المستودع حقبة من الزمن.

جلب الماء وإنشاء دار الوضوء ٥٩٦ هـ – ١٢٠٠ م

جلب الماء

بالرغم من جلب الماء الى باب الحفاة على عهد عبد الملك المظفر سنة ٣٨٨ هـ ٩٩٨ م ، ظَلَّ صحن القرويين عاطلا من كل أثر للماء ، حاشا البئر التي أنبطتها فاطمة ، وكانت – كما سبق أن قلنا – معتمدًا للمرابطين في توسعتهم للمسجد ، وقد علمنا – بمناسبة تفريش الصحن – ما يؤكد خلو فناء الجامع . ويظهر أن جلب الماء للصحن كان في عداد منها المرابطين لولا أن الأيام أدركتهم على كل حال فقد عرفت مدينة فاس شبكة مـــاء جديدة أمدت القرويين[٣٨] بفيضٍ من مياه العيون الصافية لم تنضب عبر السنين ، وكان القصد هذه المرة الى مرفقين هامين من مرافق الجامع : أولهما دار كبرى للوضوء ، فان المثل الفاسي يقول : «الميضاة سبقت الجامع !» ، ثانيهما : تزويد الجهة الشرقية للصحن بخصة تغني نهائيا عن البئر ، وتساعد المؤمنين على أداء مناسكهم في راحة ويسر.

لقد قدم الى مدينة فاس أبو عمران موسى بن عبد الله اليازغي[٣٩] ، فاتصل بالفقيه الصالح أبي محمد يشكر الجورائي وصحبه طويلا ، ثم أبدى له الرغبة في أن يقوم بعمل يعود على الجامع بخير يذكر به ، فانه يتوفر على مال طيب حلال اكتسبه من الحرث والماشية . ولما كانت شروط الإنفاق على هذه العتبة منذ الأول أن تكون المصادر نظيفة ، فقد التمس اليازغي من الجورائي أن يساعده على تحقيق رغبته ، وتوجهت نيته على الخصوص لبناء دار كبرى كاملة للوضوء تكون عونًا للمصلين. فلما تأكد من حسن نيته وصفاء قلبه ، استحلفه بين محراب القرويين ومنبرها زيادة في التثبيت ، ثم دعا له بالخير. وهنا اتجه اليازغي الى فندق[٤٠] كان قبالةَ باب الحفاة ، فاشتراه ونقضه ، ثم شرع في بناء دار الوضوء . ولما كانت المياه الواصلة الى هذه المنطقة في وادي حسن غير كافية ، ولا صالحة لما كان يأمله السيد اليازغي ، فقد شمر عن ساق الجد للبحث عن الماء، وأعلم بمواضع شتى في المدينة كان يستشير فيها أهل المعرفة والنظر ، ولكنهم في الأخير لم يروا أصلح له من عين خومان التي تنبع من مكان يعرف الى الآن بجرنيز ، لا تبعد عن دار الدبغ الموجودة هناك[٤١] ، فاشتراها بأضعاف قيمتها ... وهنا احتاج الى مساعدة رجال الدولة ليأذنوا له بعمليات الحفر اللازمة لإيصال الماء ... فتوسل بالفقيه يشكر الجورائي لدى الملك الناصر

الموحدي ، فأجابه الملك لذلك ، وأصدر ظهيرا[٤٢] بالاذن في ذلك ، لقد وجد العين المذكورة تنفجر من فوارتين في حجر صلد يجتمع الماء منهما في بيتٍ مقبو كبيت الحمام ، فجعل بجانبه صهريجا مربعا ، طول كل جهة منه عشرة أشبار (متران وستون سانتيما) ملبسا بألواح من الرصاص زيادة في حصر الماء الخارج من البيت المقبّو ، ثم أخرجه منه على شباك من رصاص يشبه خلية النحل الى قواديس من رصاص قطرها زهاء ثلاثين سانتيما ، ثم مرّ بها في وسط عقبة الدخان ثم الى القرسطون[٤٣] ثم قبلة مسجد الشرفاء ثم سماط سوق القيسارية ثم سوق الحرارين ثم تربيعة القراقين[٤٤] الى ان وصل الى المعدة التي بآخر العدول الموثقين الذين كانت دكاكينهم تمتد الى الحانوت السادسة ، بعد ان تعطف الى طريق بو طويل ، وتنتهي عند سقاية الشباك التي أنشأها عبد الملك المظفر. هناك في آخر الدكاكين كانت – وما تزال – معدة المياه ، وهي من الرصاص ، ينصبّ منها الى صهريج مربع من رصاص كذلك ، ومنها يفترق الماء الى مختلف مرافق المسجد[٤٥] ، وكانت مناسبة لادخال اصلاحات على توزيع المياه ، فقد كان بالأمس من الوادي ، وأصبح اليوم من ماء العين ، فللقرويين : باب الحفاة والخصة الحسناء ، وحوّل الوادي الى دار الوضوء.

دار الوضوء :

لقد جعل في دار الوضوء خمسة عشر بيتا ، لكل بيت مصراعان ، وفتحت في السقف احدى عشرة نافذة لدخول الضوء ، كما فتحت كوات فوق أبواب البيوت ، علق فيها مصابيح من الزجاج تسرج في اثناء الليل ، يدخل بعض نوره للبيت ، ويتوزع البعض على فناء دار الوضوء ، وفي كل بيت أنبوب من نحاس ينصب فيه الماء في نقير منحوت في حجرة طولها شبران (٥٢ سانتيما) وعرضها شبر (٢٦ سانتيما) وعمقها نصف شبر (١٣ سانتيما) ، وفي سمك دار الوضوء قبة جبص مقربصة العمل مرقشة بأنواع الأصباغ ، وقد علق في وسطها ثريا كبرى لها قوارير من زجاج تسرج في أول الليل وآخره أيضا ، وقد جعل اليازغي في وسط الدار بيلة من الحجر الأحمر[٤٦] طولها عشرون شبرا (٢٠ ,٥م) وعرضها خمسة أشبار (٣٠ ,١م) وفي وسطها ذراع مجوف ركبت فيه شبه تفاحة من نحاس مموه بالذهب ، فيها عشرون ثقبا ينصب منها الماء الى البيلة ، وقد ادار المعلمون بهذه البيلة مقاعد لجلوس المتوضئين ، وجعل بينها وبين البيلة منفذا ينحدر منه الماء المستعمل في الوضوء الى ممر دائر بذلك ، وكل هذا من الرخام الأبيض وحتى يضمن سير دار الوضوء بما يلزمها من إنارة مستمرة ، وصيانة دائمة ، وتنشير[٤٧] بين الفينة والأخرى ، شيد بجانبها مصرية خاصة بسكنى القيم على دار الوضوء وخصصت له أوقاف تساعده على الاستعانة بمن شاء لضمان سير المرفق الجديد.

الخصّة الحَسْناء ٥٩٩ هـ – ١٢٠٣ م

هذه هي الخصة الأولى التي اكتسبتها القرويين في[٤٨] الصحن ، واختاروا لها موقعا الركنَ الشرقي منه في المنطقة التي كان بها بئر القرويين الأولى[٤٩] ، ولا بد أن نقف على وصف مدقق لهذا المرفق الذي يتألف من شيئين ، أولا : البيلة المستطيلة المرتفعة الملتصقة بالجدار ، ثانيًا : الفسقية التي تقع تحتها مجاورة لها ، ويرجع تاريخهما معًا إلى أواخر القرن السادس الهجري ، عهد الموحدين ، بيد أن الفسقية الحالية ليست هي بالضبط ما كانت عليه ذلك العهد. أما البيلة التي في المنطقة ، فما تزال تنطق مع ما حولها من آثار ببعض الأوصاف التي رددتها بعض

كتب التاريخ القديمة.

ويتجلى من خلال التصوير الذي نعتها به المتقدمون أنها كانت آية في الإبداع والاتقان، تضافرت عليها جهود المهندس أبي عمران موسى بن حسن بن أبي شامة[٥٠]، وكان الذي تولى الإنفاق عليها من ماله الخاص هو الفقيه الجليل أبو الحسن السجلماسي، وكان من أهل اليسار والإيثار، ولم يتم الشروع في العمل إلا بعد استشارة الفقيه الصالح أبي محمد يشكر الجورائي الإمام الفعلي لجامع القرويين وخطيبها الشرفي، ولكنها كملت دون أن يحضر لها، فقد توفاه الله في الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٩٨ هـ (= ١٢ غشت ١٢٠٢).

صنعت هذه البيلة المستطيلة من رخام أبيض، لم ير مثله في الحسن والصفاء، وترتفع عن الأرض بنحو ستة أشبار (١٠٥٦ سانتيما)، وفي سعتها ثلاثة أشبار (٧٨ س)، وفي عمقها كذلك ثلاثة أشبار.

وجعل مما يقابل الواقف نحو البيّلة شباكا من المرمر الخالص يتركب من ثلاث قطع، الأولى ذات ثمانية واربعين خاتما، والثانية ذات اثنتين وثلاثين خاتما، والثالثة من أربعة واربعين، تلك مئة وأربعة وعشرون، وما يزال هذا الشبّاك يعرف اليوم عند سدنة البيت وأعوانه بـ«الشبّاك المرخوم» ولقد نقش تحت هذا الشباك في حجر بخط مغربي:
«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما يعملون، كمل في شهر جمادي الأخيرة سنة تسع وتسعين وخمسمائة (١٥ يبراير ١٥ مارس ١٢٠٣)»

وقد جعلت تحت هذا في الواح من الرخام خمسة أنابيب يصب منها الماء في البيلة المذكورة، ثم ينحدر الماء من البيلة بعد أن تمتلئ في عشرين ثقبا من جهة الشمال وعشرين من جهة اليمين الى الفسْقية القريبة منها التي كانت هي الأخرى آية في الفن والإبداع.

لقد كانت من نحاس أحمر مموه بالذهب الخالص، وقامت على ساق من نحاس أحمر مموه كذلك بالذهب ومنقوش، يرتفع عن الأرض بنحو المتر.

والطريف في التصميم ان الساق كانت مقسومة نصفين، يصعد الماء المنحدر من البيلة في النصف القائم من الساق، فيفور في وسط الخصة بواسطة تفاحة مذهبة، فيها عشرة أنابيب، فيملأ الخصة، ثم يغور منها الماء بعد امتلائها في ثقوب معدة لذلك بجوانبها، لينحدر في النصف الثاني من الساق المذكورة، ولا تزال البيلة والخصة مملوءتين بالماء تجريان ولا يسيل على الأرض منهما قطرة واحدة. وقد جعلت رهن المصلين والواردين أكواب كذلك مموهة بالذهب ربطت بسلاسل من نحاس دائرة بها للشرب متى مالت النفس الى ذلك[٥١].

تلك هي الخصة التي كانت تثير اعجاب الناس، فيجلسون الى جانبها، ينظرون وينتظرون. لقد جلب الماء اليها من (المعدة الكبيرة) التي أصبحت مستودعا للمياه بعد بناء دار الوضوء الكبرى، وذلك بعد ان شق في الصحن – لاول مرة – بقواديس، ثم اعيد تفريشه، وهذه هي «الخصة الحسناء» التي تغنّى بذكرها بعض الشعراء، وكانت محل تبرك من لدن العامة منذ انشاءها[٥٢].

وقد بقيت البيلة المستطيلة وخاصة الشباك المرخوم، بَيْدَ أن الخصَّة نالت منها يد البلى، ولذلك لم تلبث أن استدعت تغييرًا تعرف تفاصيله في الباب الثاني.

إنارة القرويين :

وإذا كانت الأيام قد استعجلت المرابطين قبل أن يتمكنوا من إنارة القرويين بما يلزم ، فانها — أي القرويين — شهدت أيام الموحدين إصلاحات هامة في هذا الصدد ، وقد أتى ذلك من وجهة نظر ذائعة في أوساط الفقهاء، تهدف الى « تكثير السرج وتغليظ الفتائل ، لأن في الاضاءة بهاءً للدين ، وأنسًا للمجتهدين ، ونفيًا لمكان الريبة، وهداية للسابلة ، وتنزيهًا لبيوت الله من وحشة الظلام(٥٣)» ، ولم تكن الإنارة لتقتصر على داخل البيت ، ولكنها كانت تتعداها الى ضواحيه ، فكان المؤمنون يشعرون قبل الوصول إليه بالانشراح يعلو صدورهم والبهجة تشملهم، فلقد نصب في خارج الجامع بدائرته في مواضع معروفة أربعون سراجًا وسامرة ، وكانت وظيفة الوقاد (٥٤) أو «اللَّمْبَجي» كما يسمونه في الشرق وظيفة مطلوبة ، إذْ كان صاحبها يشرف على عدد من الأعوان ، كما كانت تحت تصرفه دائما كميات وافرة من الزيت والفتائل والآلات، وهو الى هذا يعدّ من المرضيّ عنهم لأنه يسرج بيوت الله ، وكان له بيت خاص به على مقربة من الجامع وجرايات مهمة من أوقاف الجامع .

وعلى الوقاد أن يستعدّ منذ العصر لكل ما يلزم، فهناك آلافٌ من المصابيح التي تنتظر منه الزيارة ، وهناك عشرات من الثريات عند الأبواب وفي البلاطات وعند منعطفات الصومعة ومناريها الأوسط والأعلى ، لقد بلغ عدد الثريات مئة وثلاثين ثريا ، جميعها من النحاس ، وكل واحدة لها شخصيتها وطابعها لونا وصناعةً وشكلاً ، منها ما يعلو البلاط الأوسط على القبتين المواليتين ، ومنها ما كان معلقا على الأبواب الرئيسية للجامع ، بالاضافة الى مراكز السرج الموزعة على الأقواس والزوايا حتى لتشعر إذا ما اتّفق لها أن تسرج جميعها أنك في يوم أغرّ الأيام ! وكثيرًا ما كان يتحقق ذلك ، وبخاصة في المناسبات الكريمة كليالي شهر رمضان وليلة السابع والعشرين منه وليلة المولد النبوي ، وفي المصابيح ما هو من صنع محلي من معامل الزجاج بفاس ، لكن فيها ما جلب من العراق ، وفيها ما جلب من بعض جهات أروبا (نابوليات).

الثريا الكبرى

عوضت هذه الثريا الكبرى بأُخرى زناتية تحاكيها ضخامةً وروعة ، كانت نصبت هنا عند التوسعة الثانية للقرويين بمناسبة مقام عبد الملك المظفر بمدينة فاس على ما تقدم . لقد كانت الليالي نالت منها فتقرر استبدالها أيام الناصر الموحدي سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٤ م بأخرى مثلها ، وتقع الثريا هذه على ملتقى البلاطين ، الأوسط الممتد من المحراب للعنزة والبلاط الذي يتسامت عليه باب الصالحين من الناحية الغربية وباب السبع لويات من الجهة الشرقية تحت قبة مضلعة ، وهكذا. فلما كانت أيام أبي عبد الله الناصر رابع ملوك الموحدين ، اقترحها القاضي الخطيب أبو محمد عبد الله بن موسى المعلم ، فصنعت من أنقاض الثريا الزناتية ومن صرف الأوقاف ، نقضها وصهرها من جديد ، وزاد عليها من النحاس قدرًا مهما ، واستأجر الصناع ، فتضافرت جهود المعلمين من أهل فاس على إبداعها ، وأتوا حقا بالرائع من الفن ، هذا في هندسته ، وذاك في خطه ، وهذا في وشيه . وهي عديمة المثال في الشرق كله ، ولا يمكن أن تضاهيها إلا ثريا « تازة »(٥٥) ، لقد قامت بسبع مئة وسبعة عشر دينارًا فضيًا ودرهمين ونصف الدرهم على ما حقق ابن أبي زرع(٥٦)، أي بما يفوق مليونا من الفرنكات . وقد كان عدد قناديلها خمس مئة وعشرين(٥٧) قنديلا ، ويفوق وزنها سبعة عشر قنطارًا ونصف القنطار ، والذي يملأ قوارير سرجها من الزيت قنطار واحد وسبع قلل (سبعون ليترا تقريبا) . هذا ، وفي قطرها متران ومئة وخمسة وعشرون سانتيما ، ويقدر

الأقدمون محيطها باثنين وثلاثين شبرا(٥٨). لقد علقت الثريا بواسطة ساق تحتوي على مجسم ذي ست زوايا وكرتين، وفي قاعدته شبه شمعدان يحمل بعض المصابيح .

يتكون هيكل الثريا من مخروط يحتوي على اثني عشر طوقًا تتفاوت سَعَةً ، وهي تتدرج متصاعدة ، وبذلك أمن معدن أطرافها من التآكل بلهب الفتائل المشتعلة تحته ، إن الطوق الأول الأكبر يحتوي على أربعة وخمسين مسندا للمصابيح ، والطوق الثاني على تسعة وأربعين ، والثالث على خمسة وأربعين . ثم ٣٩ ، ثم ٣٦ ، ثم ٣٠، ثم ٢٥ ، ثم ١٩ ، ثم ١٤ ، ثم ١٠ ، ثم ٤ ، ثم ٢ ، المجموع ثلاث مئة وسبعة وعشرون .

وقد حدّد مسطحها الأسفل بإكليل مسنّن ، وتظهر من داخلها قبّة مضلّعة من اثني عشر جناحًا ، وازدانت زوايا القاعدة بفصوص نائتة ، وتتصل القاعدة – وهي أضيق من المسطح – بمساند ذات نقوش مزهرة ، ولا يوجد جزء من أقسامها ، حتى الداخلية منها ، خِلوًا من الوشي والزخرف، ومن غير أن يشوش ذلك على أشكال الكتابة أو الزّهور .

ونلاحظ على قطع الإكليل الذي يحيط بأسفلها زخارف منوّعة فيه خطوط بالكوفي ، كما أن فيها مربعات ذوات نجوم ، وأقواسا مفصصة ، وفي الدّاخل يطغى النقش بالخطّ النسخي ، ويكتظ بباقات من السعف والجريد، والحقيقة أن الثريا الكبرى تقدم الينا مجموعة ثمينة من اللوحات الفنية الرائعة .

أما ما تحتويه من نقوش ، فان الثريا تعدّ آية بما حوته من أنواع الخطوط الكوفية والنسخية ، ففي الدائرة الأولى نقش على طول الدائرة كلمات العظمة لله ، وفي الدائرة الثانية بالكوفي كذلك العزة لله ، وفي دائرة ثالثة بالخط النسخي السعادة والإقبال . وبجانب هذه الدوائر أفاريز نقشت عليها آيات شريفة . ففي الإفريز الأول منها بخط كوفي واضح تملأ فراغ الحروف فيه بعض الزخارف : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمدٍ وآله وسلم تسليما . يا أيها الناس اتّقوا ربكم واخشَوْا يومًا لا يَجْزِي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئًا ، إن وعد الله حق ، فَلاَ تغرّنّكم الحياة الدنيا ولا يغُرّنّكم بالله الغَرُور . إن الله عنـــدَه علمُ الساعة ، وينزّل الغيثَ ، ويعلَمُ ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا ، وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموتُ ، إن الله عليم خبير » . (لقمان ٣٢ – ٣٣ – ٣٤) : «لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبل لرأيتَهُ خاشعًا متصدّعًا من خَشْيَة الله . وتلك الأمثال نضربُها للنّاس لعلهم يتفكرون ، هو الله لا آله الا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا اله الا هو الملك القُدّوس السّلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبّارُ المتكبّر سُبْحانَ اللهِ عما يُشْرِكون . هو الله الخالق البارئُ المصوّر له الأسماء الحسنى ، يسبّح له ما في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . (الحشر ٢١ – ٢٢ – ٢٣ – ٢٤ –) : «إن الله وملائكته يصلّون على النبيّ يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّمُوا تسليما» . (الاحزاب ٥٦ م) .

أما الإفريز الثاني من الثريا ، فقد نقش بخط مجوهر ، قد يغوص كذلك في الزهور والأشكال السعفية «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : الله نور السموات والأرض ، مَثَلُ نورِه كمشكاةٍ فيها مصباحٌ ، المصباحُ في زجاجة ، الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ دريّ يوقَدُ من شجرة مباركة زيتونةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّةٍ . يكاد زيتها يضيء ولو لم تَمْسَسْهُ نارٌ ، نورٌ على نور ، يَهْدي اللهُ لنوره مَنْ يشاء ، ويَضرِبُ الله الأمثالَ للناس ، واللهُ بكلّ شيء عليم ؛ في بيوتٍ

أَذِنَ الله أن ترفَعَ ، ويذكَرَ فيها اسمُه ، يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجالٌ ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يومًا تتقلّب فيه القلوب والأبصار ليَجْزِيَهُمْ الله أحسنَ ما عملوا ، وَيَزِيدَهم من فضله ، والله يرزُقُ من يشاءُ بغير حساب ». (السورة رقم ٢٤ الآية ٣٥ – ٣٦ – ٣٧) » إنما يُعَمِّر مساجدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بالله واليومِ الآخِرِ ، وأَقامَ الصلاةَ وآتى الزكاة ، ولم يَخْشَ إلاَّ اللهَ ، فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين» (١٨ م التوبة ٩) ، إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أَيّها الذين آمَنُوا صلّوا عليه وسلموا تسليما ».

أما الإفريز الثالث ، فيحتوي على اثنيْ عشر جناحًا ، كل جناح يتخذ شكل مرمى كرة ، اذا ضربت جوانب المرمى الثلاثة في اثني عشر يتحصل ستة وثلاثون ، كل جانب من هذه الجوانب الست والثلاثين يحتوي على نقش بالخط الكوفي ، يقرأ فيه : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صلي على محمد وآله ، إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لا يات ٍ لأولي الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً ، سبحانك فقِنا عذابَ النار ، ربَّنا إنَّك من تُدْخِلِ النار فقد أخزيته ، وما للظّالمين من أنصار ، ربَّنا إننا سمِعنا مناديًا يُنادي للإيمان أَنْ آمِنُوا بربّكم ، فآمنّا ، ربّنا فاغفِرْ لنا ذنوبَنا وكفِّر عَنا سيئاتِنا ، وتوفَّنا مع الأبرار ، ربّنا وآتنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلك ، ولا تُخْزِنا يومَ القيامة إنك لا تُخْلِفُ الميعادَ ، فاستجاب لهم ربُّهم أنّي لا أُضيع عملَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى ، بعضُكم من بعض ، فالذين هاجروا وأُخرِجوا من ديارهم وأُوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأكفِّرَنّ عنهم سيّئاتِهم ، ولأُدْخِلَنَّهم جنّاتٍ تَجْري من تحتها الأنهارُ ثوابًا من عند الله ، واللهُ عندَهُ حسنُ الثواب . لا يغُرَّنَّك تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد ، مَتاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ ، لَكِنِ الّذين اتَّقَوْا ربَّهم لهم جنّاتٌ تَجري من تحتها الأنهار خالدِينَ فيها نُزُلاً من عند الله ، وما عند الله خيرٌ للأَبرار ، وإنّ من أهل الكتابِ لَمَنْ يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل اليهم خاشعين لله ، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربّهم ، إن الله سريع الحساب ، يا أيّها الذين آمنوا اصْبِرُوا وصابِروا ورابطُوا واتّقُوا الله ، لعلكم تُفْلِحُون» (١٩٠ – ١٩١ – ١٩٢ – ١٩٣ – ١٩٤ – ١٩٥ – ١٩٦ – ١٩٧ – ١٩٨ – ١٩٩ – ٢٠٠ آل عمران ٣).

أما الإفريز الرابع ، ففيه الآية الشريفة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : «إنَّ الذين يتلُونَ كتابَ اللهِ ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا ممّا رزقناهم سرًّا وعلانيَّةً ، يرجون تجارةً لن تبورَ ، ليوفِّيهم أُجورَهم وَيَزِيدَهم من فضله ، إنّه غفور شكور ، والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقًا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير» (٢٩ / ك فاطر ٣٥) .

أما ساق الثريا فتعتبر قطعة جد مهمة ، لأنها علاوة على ما تحويه من فنون رائعة ، فانها تحمل تاريخ الثريا الأول : « هذا ما أمر به الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو عبد الله ابن الخليفة الإمام المنصور أمير المؤمنين أبو يوسف ابن الخلفاء الراشدين أدام الله تأييدهم وعزهم » ، وتحت هذا نقشت الآية : « يا أيّها الذين آمَنُوا اركَعُوا واسجدُوا واعبُدوا ربّكم وافعَلُوا الخيرَ لعلّكم تُفلحون ، صدق الله العظيم». وتحت هذا أيضًا نقشت الوثيقة التالية : « طبعت هذه التربة(٥٩) بمدينة فاس حرسها الله ، وكان الفراغ منها في شهر جمادي الأولى سنة ستمائة ». وتحت هذا التاريخ طبقة أخرى نقش عليها : « وأَنَّ المساجِدَ لله فلا تَدْعُوا مع الله أحدًا (٦٠). صدق الله ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

هذه هي الثريا الكبرى التي ظلت مناطًا لسائر الملوك يرونها العين المبصرة للجامع الأعظم ، فكانوا عبر الأعوام يتعهدونها بما يجب(٦١).

وكما كانت للملوك والأمراء مقصدًا، فقد بعثت في الأدباء والشعراء روحًا من التنافس انعكست على ما سجلوه من بديع الشعر وطريف الأدب(٦٢).

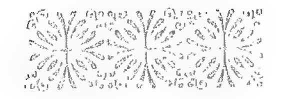
الثريا الصغرى او ناقوس كنيسة وبذة

والى جانب (الثريا الكبرى) التي صنعت بمدينة فاس ، نجد ثريا صغرى ، كانت في الاصل ناقوسا ، حمل في احدى المعارك التي جرت في الاندلس بين الموحدين والمشركين ، وهو ما يوجد في القبة التاسعة ابتداء من قبة المحراب ، الثانية من جهة العنزة ، وقطر الجرس لا يعدو ٥,٦٧٥ وقد كُسِيَ بثلاث حاملات للقناديل ، وأُغلقت فتحته التحتية بمُوشُور مسدّس الزوايا ، تحمل كل زاوية فيه قرصا(٦٣). وقد نقش على الحُدود الستة :

« وصلى الله على سيدنا محمد ، لله العزة والرسول – صلى الله على محمد ، العزة لله والرسول ونقش في الخدود الستة للدائرة التحتية ، « الملك لله ، العزة لله » – الخ الخ .

ويظهر ان اول اشارة الى استيلاء الموحدين على النواقيس من اسبانيا ، هي الاشارة التي اوردها المؤرخ ابن صاحب الصلاة في كتابه (تاريخ المنّ بالإمامة). فقد ذكر ان الموحدين لما نزلوا مدينة (وبذة) سنة ٥٧٦ هـ حملوا تسعة نواقيس معهم ، وقد اختفى بعد ذلك التعرض لمصيرها . ومن المفروض ان تكون قد وزعت على المساجد الكبرى بمختلف جهات المغرب ، وفي صدرها جامع القرويين(٦٤).

ويذكر طيراس ان اسم العاهـل الموحدي الناصر نقش على مقبض هـذه الثريا على نحو مـا قلناه عن الثريا الكبرى(٦٥): «هذا ما امر به الخليفة الامام امير المؤمنين ابوعبدالله بن الخليفة الامام المنصور امير المؤمنين ابو يوسف ابن الخلفاء الراشدين ادام الله تأييدهم ونصرهم.»



تعليقات الفصل الثالث

(١) هذا ما في ابن ابي زرع ، وعندما اختصر الكلام الجزنائي اصبح القاضي ابو محمد عبد الحق بن معيشة هو المكلف من قبل العلماء بالمهمة ، ومن المعلوم ان ابن معيشة تولى القضاء بعد ابن داود . الأنيس ص ٣٦ ، الآس ٦٧ .

(٢) الاستقصا ٢٧ .

(٣) يتحدث البكري (٤٦٠) عن نشاط اليهود في فاس قبيل بناء القرويين الثالثة . فيفيد ان نسبة عددهم في هذه المدينة كانت اعلى منها في كل مدينة اخرى ، هذا وفي فاس حارة تحمل اسم فندق اليهودي ، ولكنها لا تقع كما يقول طيراس شمال القرويين مباشرة ، بل هي بعيدة عنها ... البكري ص ١١٥ .

(٤) يقدر الجزنائي المسافة من شرقي القرويين وغربها بثلاثمائة وثمانين شبرا ، وبثلاثمائة شبر ، من الجنوب الى الشمال . فاذا ما اضفنا مساحة جامع الجنائز واذا ما دققنا الحساب في الركن الغربي الشمالي بلغت المساحة ، ٥,٤٧٩,٦ م٢ ، هذا ويلاحظ هنا ان ابن ابي زرع يذكر ان الزناتيين اولا زادوا من ناحية الشرق والغرب والجنوب ، من غير ان يعطي تفصيلات أكثر ، ولكن الجزنائي يقول ان الزناتيين زادوا فيه اربعة بلاطات من الغرب وخمسا من الشرق، وبعد الصحن زادوا بلاطا واحدا ، اما عند الزيادة المرابطية فيقول ابن ابي زرع : ان التوسعة تناولت ايضا الشرق والغرب حيث زادوا في الناحية الشرقية بلاطين ، وفي الغربية بلاطا من القبة الى المزغ (المزدغ)؟. ويجعل صاحب جنى زهرة الآس التوسعة المرابطية مقتصرة على البلاطات الثلاث التي زيدت في الجنوب ، الأنيس ٣٤ ، ٣٨ ، جنى زهرة الآس ٤٧٨ — ٦٦.

(٥) نذكر من ذلك القادوس الرخامي الاثري الذي يوجد قرب المحراب بين سارتي البلاط الأوسط وهو من ثلاثة عشر ثقبا ينفذ منه الماء في اتجاه حجرة الخطيب التي تقع ظهر المحراب ، ونذكر ان يوم غسل القرويين كان يحسب له الحساب ، اذ يتنافس عليه بصفة خاصة دور الدباغة : شوّارة، كرّنيز ، رحبة التبن ، عمالها وصناعها يتهافتون على توزع هذا الأمر الذي يعتقدونه من التكريم.

(٦) الأنيس ٣٩ .

(٧) على ما نعرفه مما يسعه المتر المربع فانه لا يمكن تقبل الأرقام التي ساقها صاحب الأنيس (ص ١٤١). ولقد أجحف مارتي في قوله إن القرويين لا تسع أكثر من خمسة آلاف نسمة ، كما أفرط روم لاندو إذْ ادّعى انها تسع مئتي ألف نسمة ! ويعجبني في مثل هذه الدعاوي تحفظ الادريسي. وتعقب ابن خلدون على بعض المؤرخين عندما يبالغون في إعطاء بعض الارقام ... ابن خلدون ص ٩ .

Paul Marty: Le Maroc de Demain. Paris 1925.

التازي : الى الأستاذ لاندو ، دعوة الحق ، نونبر ١٩٥٨ .

(٨) يتحدث القرطاس عن استعمال الحجر في البناء الأول ، وهو الشيء الذي لم يلاحظ عند التنقيب ، والذي قد يحمل على الاعتقاد بأن هناك تغييرًا طرأ على البناية الأولى .

(٩) توجد من هذا النوع أربع سوارٍ في البلاط الأوسط ، اثنتان متقابلتان في الأسكوب الاول الذي يلي العنزة ، واثنتان متقابلتان كذلك في الأسكوب السادس من جهة العنزة جوار الثريا الكبرى .

(١٠) يلاحظ أن جلّ هذه السواري يحدّد القرويين الأولى ، راجع تصميم القرويين

(١١) أجمل التيجان الأندلسية الأمويّة هو الذي يكلّل السارية التي في باب الرواح الوسطى ، وكلها شاهد على ثروة الفن الأموي وجماله.

Chapiteaux Oméiyades d'Espagne à la Mosquée d'Al-Qaraouiyne à Féz.
Al-Andalus,vol.XXV III 1963,fasc.page 211-217.

(١٢) Voyage au Maroc,p.164-165.

(١٣) سنرى في الباب الثاني من الكتاب أن بعض الأمراء من بني مرين أضافوا الى الجامع الخلْوة والأسبوع الأعلى ، كما زاد فيه السعديون قبتي الصحن.. وكلّ هذه الزيادات تحتوي على سوارٍ جديدة ...

(١٤) لا بدّ من الاضافة الى هذا أن نسمع عن (السارية المجهولة) التي تحدث بعض الناس عن أنها توجد حوالي الثريا الكبرى ، والتي يروي أن القطب أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولي ألف كتابه (دلائل الخيرات) عندها فلقد تحدث رجال التصوّف عن تلك السارية قائلين : « لوْ علمت العامة موقعها لتقاتلوا عليها ! » الجذوة ٢٠٣ أعلام مراكش ٩٨،٤ .

(١٥) La Mosquée d'Al-Qaraouiyine à Féz,p.26-28.

(١٦) الأنيس المطرب ص ٣٨ ، جنى زهرة الآس ص ٦٨ .

(١٧) يتحدث صاحب روض القرطاس وجنى زهرة الآس عن النقش بالذهب ، لكن التنقيب يؤكد أن معالم التذهيب قد اختفت منذ زمن بعيد.

(١٨) يعتقد طيراس أنه كان لزاما على المرابطين أن يجلبوا الفنّانين من الأندلس لتحقيق هذا الغرض ، ونحن وان كنّا لا نفرق بين أجزاء الامبراطورية المغربية نعلم أن الاندلس كانت تحتاج الى الفنانين من المغرب للعمل في الأعمال الكبرى بالأندلس ، ولنذكر على سبيل المثال جامع إشبيلية الأعظم الذي استقدم اليه الفنانون من فاس ومراكش . ابن صاحب الصلاة : المّن بالامامة : ص ٤٧٤ .

(١٩) التراتيب الإدارية ٢ ، ٦٦ – ٦٧ .

(٢٠) خطة الشورى على عهد المرابطين يتولاها فقهاء يختارهم القاضي من أهل المدينة المعروفين بالتضلع من العلم وبالورع في السلوك ، وقد كان عدد المشاورين أربعة ، اثنان يشتركان في مجلس القاضي ، واثنان في المجلس الجامع لطلاب المشورة ، ولهؤلاء المشاورين رئيس . قيام دولة المرابطين.

(٢١) القبة الحالية ترجع الى عهد العلويين ، وقد نقشت على دائرتها الآية : « في بيوت أَذِنَ الله أن تُرْفَعَ ويذكر فيها اسمه» الآيات.

(٢٢) العَنَزة (بفتح النون) يعرّفها القسطلاني في ارشاد الساري (٤٠٢,١) : مثل نصف الرمح أو أكبر لها سنان كسنان الرمح ... ثم قال (٣٦٥,١) : كنصف الرمح لكن سنانها في أسفلها بخلاف الرمح فانه في أعلاه . وفي حديث أبي جحيفة الذي رواه الشيخان وأصحاب السنن (... ثم رأيت بلالا اخذ عنزة فركزها وخرج النبي صلى الله عليه وسلم في حلة حمراء مشمّرا فصلى الى العنزة بالناس ...) وتطلق في المغرب ، مع تسكين النون ، على الحاجز الذي يحمي حرم المصلي في صحن الجامع ، وهي في القرويين عبارة عن ألواح الارز المنقوشة التي تستوعب سعة الاسكوب يستقبلها الامام عند صلاته بالناس ايام الصيف ، والكلمة تكاد تكون مجهولة الاستعمال في المساجد المشرقية. روض القرطاس ص ٤٠ ر التراتيب الادارية ١ ر ٨١ .

(٢٣) من اهتمامهم بالقرويين أنهم أيضًا استقصوا عدد القرميد الذي زلج به سطحها : فذكروا أن صفوف القرمود تبلغ سبعة وعشرين ألفا ، في كل صف سبع عشرة قرمودة ، ولم يغفلوا عن نوع القرمود الذي يلحمون به بين السقفين العالي والذي تحته ، فقدروه بـ ٨٣٠٠ ، فليكن مجموع القطع ٤٦٧٣٠٠ . الأنيس ٤١ .

(٢٤) ابن ابي زرع : الأنيس ص ٣٩ الجزنائي : جنى زهرة الآس ٦٦ .

(٢٥) نحن نتحدث طبعا عن عصر يسبق بكثير ظهور هذه المكيفات الحديثة على اختلاف انواعها ، ولكنا كنا نعيش أيضا أشكالاً أخرى من المبردات ، ولا بد أن نرجع الى الاسماء التي كانت معروفة منذ القرن الخامس : العروس ، راووق النسيم ، وباد بيج (باللغة الفارسية تعني محرك الهواء) وقد اشتهر من هذه الأنواع كلها الطنبلنب الذي يشبه – في بعض أشكاله – هذه المظلة التي نصبت على صحن القرويين ، وهو الذي ورد في شعر مهيار الديلمي (ت ٤٢٨) .

ولـولا الـذي فعـل الطَّنْبَلَنْبُ	لقـد أنجد المـدح فيـه وغارا
ولكنـه خافـر للذِّمَـا	م جاورتـهُ فأساء الجـوارا !

الأنيس ص ٣٩ الآس ٦٦

(٢٦) كانت هذه البكرات ما تزال ظاهرة على عهد ابن ابي زرع والجزنائي . الأنيس المطرب ٣٩– ٤٠ ر ٣٣ الآس ص ٦٧.

(٢٧) اورد القصيدة صاحب الذخيرة السنية ومما جاء فيها :

استنصر الديـن بـكم فاستقدموا	فـانـكم ان تـسلمـوه يسلـم
لاذت بكـم انـدلس نـاشدة	بـرحم الديـن ونعـم الـرحـم
لا تسلمـوا الاسلام يـا اخواننا	وأسرجـوا لنَصْره وألجمـوا
واسترحمتكم فارحَمُـوها انـه	لا يرحـم الرحمان مـن لا يـرحم
مـا هـي الا قطعـة مـن ارضكم	واهلها منكم وانـتم منهـم !
لكنهـا حدّت بكـل كافـر	فالبحـر مـن حدودهـا والعجم

لهفا على اندلس من جنة — دارت بها من العدى جهنم
استخلص الكفار منها مُدُنا — لكل ذي دين عليها ندم
قرطبة هي التي تبكي لها — مكة حزنا والصفا وزمزم
وحمص ، وهي اخت بغداد ، وما — ايامها الا الصبا والحكم

(٢٨) جوامع الجنائز قليلة بالمغرب اما في المشرق فتكاد تكون مجهولة اذا ما استثنينا مسجد دمشق ، وينص ابن عبدون على انه كان بمسجد اشبيلية الأعظم جامع للجنائز ، وقد كان البروفيسور ليفي بروفنصال تساءل عن هذه الجوامع هل هي من أثار المرابطين ؟

(٢٩) Hesp. 1934 Fasc. 1 – 2. P. 212.

(٣٠) عن انس رضي الله عنه : من قرأ ياسين عدلت له عشرين حجة ولابن الجوزي نظر فيه : الموضوعات لابن الجوزى ج ١ ص ٢٤٦ – ابن الآبار : المعجم ص ١٩٥ .

(٣١) La mosquée Al-Qaraouiyin à Fez.

(٣٢) الأنيس المطرب ص ٣٨ الآس ص ٥٥ – ٥٦ .

(٣٣) تنعت كتب التاريخ أبا يحيي العتاد بالإمامة في الأدب واللغة ، وتذكر أنه روى عنه جملة من أهل فاس وغير فاس ، كان فيهم أبو محمد ابن زيدان ، هذا الى باعه الطويل في تطعيم الخشب ، ويجب أن نؤكد هنا على ما دأب عليه بعض رجال الآثار من نسبة كلّ عمل فنّي رفيع الى الفنانين الأندلسيين ، ونرى هنا على سبيل المثال أن الاستاذ طيراس يشك في أن يكون الفقيه العتاد هو صانع هذا المنبر الذي له مثل هذه الأهمية ، ويُكبر ان يحقق أديب واستاذ مثل هذا العمل الرائع ، فلا بدّ أنّ المنبر آتٍ إما من قرطبة ، وإما صنعه قوم وردوا منها وكانوا يعملون بإشراف العتاد . لا نريد أن ننتقص بهذا من مركز الأندلس في هذا الباب ، ولكن الذي نبتغي إثباته أن فاسًا كانت منذ البداية مقصد العباقرة في العلوم والآداب والفنون من كلّ الجهات ، وانها منذ أن ربطها التاريخ بالأندلس وبغير الأندلس ظلّت مدرسة لشتى الصنائع ، وهذا المنبر بالذات كان من عمل عالم من علماء فاس ومشايخها المعروفين ، كما نرى ، وسنرى أنه عندما أراد الموحدون بناء منارة اشبيلية الشهيرة سنة ٥٦٧ ﻫ ، استُقدم لها العرفاء والصناع من مدينة فاس ، ومع هذا فنحن على علم ، بالعدد الوافر الذي نزل العُدوة عبر السنين للمشاركة في بنائها ... تاريخ المنّ بالإمامة ص ٤٧٤ .

(٣٤) بهذا قدر المبلغ الجزنائي ص ٥٥ – ٥٦ – أما ابن ابي زرع فيذكر مبلغ ٣٠١٧ درهم ، ص ٣٨.

(٣٥) يعتقد طيراس أن هذا النقش ما يزال موجودا . Massignon: Le Maroc dans les premières années page 99–100–101—102

(٣٦) ورد على مدينة فاس سنة ٦١٥ ﻫ الفقيه الموقت ابو الحجاج يوسف السقطي ، فحاول ان يقدم نفسه للناس ، ولم يجد لذلك أحسن ولا اوفق من ان يتصدى للخطبة بالقرويين . ولما كان ذلك من التعذر بمكان ، التمس من قاضي المدينة ان يتوسط له لدى الخطيب الرسمي للمسجد الفقيه الشلبي ، فاقترح القاضي على الامام الشلبي ان يتنازل له جمعة واحدة للخطبة على منبر القرويين ، وكان لسان حال السقطي يردد القولة التي أثرت عن بعض متأخري امراء بني أمية : «بايعوني اليوم واقتلوني غدا» . !

وفي هذا الصدد نذكر ايضا انه لما صرف ابو الفضل المزدغي عن منبر القرويين ، رأى في ذلك قضاء مبرما عليه ، فتوسل بقصيدة رقيقة للعاهل المريني ابي الحسن ، في جملة ما يقول فيها :

أأبعَدُ عنكم دون فعل كبيرة — وأمنع قصراً من صعود المنابرا ! ؟
ولو كنت يا مولاي اعلم ان من — رقى منبرا مثلي يكون مناظري :
لما طمحت نفسي لشيء من العلا — وألزمتها بين الصفوف الأواخر !

وعندما عزل ابو العباس احمد بن سعيد الحبّاك عن الخطابة بمنبر القرويين ثم عفي عنه وطلب للخطبة بمنبر جامع الأندلس ، ابى قائلا :

ان كانت جرجتي لم تثبت فان قبولي للاندلس من قلة الهمة ، لان منصب الخطابة بالقرويين اشرب منه ، وقبول الانتقال من الأعلى الى الادنى انحطاط في الهمة .

ومن جهة أخرى فقد تليت على هذا المنبر رسائل وتعينات ، كان لها القول الفصل في جل مراحل التاريخ المغربي ، وعليه قرئت الرسالة المفتوحة التي بعث بها في المحرم هـ العامل العزفي الى سائر جهات المغرب ليستنهض الناس للجهاد ، وعليه تلي بلاغ انتصر الذي احرز عليه ابو يوسف يعقوب في غزاته مع نونة (Nuno) يوم السبت ١٥ شهر ربيع الاول ٦٧٤ هـ ، وعليه تلى ظهير تعيين الشيخ الطالب ابن الحاج يوم الاربعاء ١٧ ذي القعدة ١٢٧٢ هـ وعليه كذلك تلى ظهير التّهدئة الذي وجه بحضور القاضي الشريف ، وادريس السراج عامل المدينة لبعض الذين ثاروا على الأمين ابن المدني بنيس . الانيس ص ٤٨ ، الآس ص ٦١ – ٦٢ الذخيرة السنية ص ١١٢ – ١٧٣ الروضة ، مخطوط ص ٧٥ (ب) . الانحاف ١ – ٢ – ٣١٤ ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(٣٧) في جنى زهرة الآس خمسة .

(٣٨) تتمتع فاس بشبكة ماء جد دقيقة منذ تاريخها المبكر ، وهي تكوّن الشريان الذي يبعث في المدينة الحياة Hes 1934 T. 18 Fas I.

(٣٩) الأنيس المطرب ص ٤٤ – الآس ص ٧٠ – ٧١ .

(٤٠) يذكر طيراس أن الفندق كان ملكا لابن حيون ، ولا أدري مصدره في ذلك .

(٤١) المكان هو الآن قبالة الخارج من دار الدبغ تحت المكتب المزوق هناك ، على مقربة من ضريح سيدي موسى ، وتتعرض الحوالات الوقفية القديمة دائما لعين ماء القرويين سواء عند ذكر العقار المحبس على القرويين أو عند ذكر المسايد (المكاتب) المخصصة لتعلم الأطفال ، وهي تقول إن العين هي الآن تحت المكتب الحديث البناء المعروف في المصاري من حومة جرنيز ، والذي يقع جوار أروية هناك ، أنظر الحوالة الإسماعيلية لسنة ١١١٥ .

(٤٢) كلمة الظهير في الاصطلاح المغربي القديم والحديث تعني المرسوم الملكي .

ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة ص ٤٢٨ – ٤٢٩ .

(٤٣) القرسطون – ميزان للأشياء الدقيقة من دواء وزعفران ولؤلؤ ومرجان .

بهجت الاثرى – الالفاظ الحضارية – مجلة مجمع اللغة العربية يبراير ١٩٦٩ ص ١٤٧ .

(٤٤) تربيعة القراقين هي السّوق المربع الذي تقع بابه مقابلة تماما لباب القرويين المعروف بباب الموثقين .

(٤٥) الانيس ٤٥ – الآس ٧٢ .

(٤٦) يذكر المختصون ان هذا الحجر الأحمر جلب من ضواحي مدينة صفرو ، ويعوض الرخام الاحمر في بعض مباني فاس .

(٤٧) جرت العادة بتنظيف الماء بالنشارة ، ولذلك كان هناك مخزن على مقربة من القرويين يتوفر باستمرار على كميات تُذَرُّ عند منبع المياه لتصفيتها .

(٤٨) الخصة في الاصطلاح المغربي تعني مجموع شيئين اثنين : الانبوب الذي يتفجر منه الماء نحو الأعلى ، والحوض الذي يتجمع فيه الماء بعد صدوره عن الانبوب ، ويجمع على خصص أو خصّات .

(٤٩) نحن نعلم أن البئر نعت منذ البداية بأنها في الصحن ، وكان القصد الى الصحن الذي كان صحناً أيام أبي زرع ، لا الصحن القديم الذي كان أيام الأدارسة ، فان هذا أمسى منذ التوسعة الأولى الزناتية داخل قاعة الصلاة ، وليس من المناسب أن يعتمد الناس عليه وهو داخل قاعة الصلاة ، فإن المفروض أن تكون فاطمة انبطتها في منطقة قريبة من الصحن القديم ، أي حيث يوجد الصحن الحالي . ويؤيد هذا أن سدنة البيت الى الآن يعرفون موضع « البئر المغمورة » على حد تعبيرهم ، وهي لا تبعد عن موقع خصة العين ...

(٥٠) ابن أبي زرع ص ٤٠ – الجزنائي ص ٧٢ .

(٥١) أثارت هذه الاكواب نقاش بعض الفقهاء الذين كانوا يسترشدون بما شُرح به قول الشيخ خليل في مختصره آخر فصل الطاهر : (وفي المغشى والمموه والمضبب ، وفي الحلقة واناء الجوهر قولان) .

(٥٢) فيها يقول القاضي الكاتب ابو عبد الله محمد بن القاضي ابن عبد الرحمن محمد بن يحيي بن احمد المغيلي عندما كان تشوق الى فاس بعد ان اولى القضاء ، في مدينة ازمور :

يا جنـةَ الخلـد الـتي أربت على — حمص بمنظـرها البهـيّ الأجمـــل
غـرف على غـرف ويجـري تحتهـا — مـاء ألـذّ مـن الرحيـق السلسل !
وبجـامـع القرويّ شُرِّف ذكـره — أنسٌ تَـذكُّـره يهيـج تململـــي !
وبصحْنه زمـن المصيف محـاسن — فمَـعَ العشيّ الغَـرْب فيه استقبلِ
واجلسْ ازاء الخصة الحسْنـا به — واكـرعْ بهـا عنّي فديتُـك وانهـل

والى جانب الشعراء فان العامة ما فتئت تعتقد الخير في التبرك من الشرب منها باعتبارها مكرعا للعدد العديد من العلماء ورجال الفضل .

جني زهرة الآس ٣٢ – ٣٣ – مستودع العلامة ٤٨ جذوة الاقتباس ١٤٥ درة الحجال ١ر٢٧٣ .

٥٣) الجزنائي : الآس ص ٧٩ .

(٥٤) المصدر السابق ص ٧٦ – ٧٩ .

(٥٥) تزن الثريا التازية ٣٢ قنطاراً ، وبها ٥١٤ مركزاً للقناديل ، وقد كلفت ثمانية آلاف دينار ، وعلى لسانها أُنشد :

أنا الثريـا الـتي تـازا بي افتخـرت — عـلى البلاد فمـا مثـلي الزمـان يـرى !
في عـام أربعـة تسعون تتبعهـــا — مـن بعد ست مـن المئين قد سطرا

القرطاس ص ٢٩٨ .

(٥٦) الأنيس ص ٤٢ ، وذكر الجزنائي انها قامت بمبلغ مئة دينار وسبعة عشر ديناراً وخمس الدينار انظر ص ٦٩ .

(٥٧) هذه تقديرات الجزنائي ص ٦٩ .

(٥٨) كان الشبر هنا يساوي عندهم تقريباً واحداً وعشرين سانتيا اذا ما أردنا التوفيق بين القطر الموجود وبين مقياس الدائرة التي اعطوها . وذلك بضرب العرض في العدد ١٤ر٣ .

(٥٩) كذا .

(٦٠) ١٨ / ك الجن ٧٣ .

(٦١) الى جانب اسم الملك الناصر الموحدي المنقوش على الثريا ، يوجد اسم السلطان المولى اسماعيل جد الملوك العلويين الذي أصلحت في عهده الثريا الكبرى على ما يأتي في الباب الثالث .

(٦٢) من ذلك ما حكاه ابن رشيد الفِهري المُتوَفّى سنة ٧٢١ ﻫ في فهرسته ، قال : كنت مع الفقيه الأستاذ أبي القاسم المزياتي تحت إيقاد الثريا بعد صلاة المغرب ، وأخبر الاستاذ أبو القاسم بقدوم الأستاذ ابن عبدون (ت ٦٥٩) ، فقال لنا أبو القاسم : قوموا بنا الى لقائه ، فالتقيناه وهو داخل للمسجد ، وسلمنا عليه ، فاستقبل الثريا وهي مسرجة ، فقال المزياتي مرتجلا :

انظُـرْ الى ثريـــة نورُهـــا — يصدَعُ باللألاء سُجْـــفَ الغَسَقْ

فقال ابن عبدون :

كأنهـــا في شكلهـــا ربـــوة — انتظـم النـــور بهـــا فاتّسَقْ

فقال ابن المرحّل (ت ٦٩٩ ﻫ) :

أُعيذهـا مـن شرّ مـا يتقـي — وفَجْـأَة العـين بـرب الفَلَـقْ

وقال محمد بن خلف :

باهـى بهـا الإسلام ما أشرقـت — كأساتها عنـد مغيـب الشَّفَـقْ !

ومما رواه الجزنائي :

تحـكي الثريّا « الثريـا » في تألقها — وقـد لواهـا نسيمٌ وهي تتّقـدُ
كأنهـا لـذوي الإيمـان أفئـدةٌ — مـن التخشع جـوفَ الليل ترتعدُ !

(٦٣) نقدم الشكر الى السيد عبد الرفيع التازي للعون الذي اسداه الينا بهذا الصدد ...

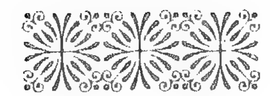
(٦٤) المنّ بالامامة ص ٤٩٦ (تعليق رقم ٤).

(٦٥) يبقى بعد هذا الحديث عن الأجراس والثريا الباقية ، وجلها ان لم تكن كلها يرجع فيما يظهر الى العهد المريني مما سنتحدث عنه في الباب الثاني من الكتاب .

الفصل الرابع

ابواب القرويين والمناطق المحيطة بها

- باب الموثقين
- باب الشماعين
- باب الوراقين
- باب الاولياء الغربي
- باب الصفر الاعلى
- باب الخلفاء
- باب مجلس القضاء
- باب الفرخة
- باب الحدودي
- باب الخلوة
- باب الصالحين الشرقي
- باب ابن حيون
- باب ابن عمر
- باب الساباط
- باب الخصة
- الباب الاصغر
- باب الصُفر الشمالي
- باب الحفاة
- الابواب الداخلية
- باب ابن رقية
- حرم القرويين
- انارة الحرم



أبواب القرويين الحالية

واذا كانت عظمة البيوت تتجلى في أبوابها كما يقولون ، فأن للقرويين الثالثة أبوابا ظلت مثار انتباه الناس من حيث روعتها وضخامتها ومن حيث تنوعها واختصاصاتها ، وقد حاولنا ان نقدم وصفا لأبواب القرويين الاولى وأبواب القرويين الثانية ، وفي هذا الفصل نحاول ان نخصص الحديث بالأبواب الحالية التي تضافرت جهود عدد من رجال القرويين على صنعها ، فظلت تتحدى التاريخ الى اليوم . . . ويلاحظ بادئ بدء أن هناك اختلافًا في العدد الذي ذكره المؤرخون القدامى ، فعدّها ابن ابي زرع سبعة عشر باباً ، وجعلها الجزنائي ثمانية عشر باباً ، والوزّان واحداً وثلاثين بابا[1] . وكما تصورنا الأمر عند الحديث عن السواري ، فان كل واحد كان يعتمد في عدّه على اعتبار خاص ، فابن ابي زرع يهمل باباً استغنى عنه[2] ، والوزان يضيف الى الأبواب الخارجية الأبواب الداخلية في المسجد .

لكن الذي نريد أن نعتمده هنا هو العدد الذي ذكره الجزنائي ، فهو أقرب الى الواقع من غيره ، ومع هذا لا نهمل الحديث عن الأبواب التي تفصل بعض المرافق عن بقية المسجد .

ومن الطريف أن نسمع عن الرباع الموقوفة التي كان ينعم بها الشخص المختص بصيانة الأبواب وفتحها وإغلاقها بحسب الحاجة ، فقد كانت تحت تصرفه حانوت بالقراقين ذات بابين هي الثانية عن يسار الداخل من سماط الموثقين ، كما أنه كانت تحت تصرفه مصرية للسكنى بالسقاطين[3] .

ومن الملاحظ أن معظم الأبواب لها من الخارج مقارع من حلقات معدنية كبيرة ، منها ما نشب في خاتم بسيط ، ومنها ما علق على قطعة منقوشة مزخرفة .

أما الأقفال من داخل المسجد ، فإنها زكاريم تتالف من قطعتين : إحداهما عمودية والثانية أفقية ، وينشب طرف إحداهما بالأخرى عند الإغلاق ، ونلاحظ من جهة أخرى على ظاهر الأبواب الخشبية صفوفا أفقية من مسامير حديد ذوات رؤوس نصف كروية ، وقد ركّبت عليها من داخل الجامع ركائز على شكل أفقي تتلاقى عليها المسامير .

وفي أسفل بعض الأبواب صفائح حديد ذوات فروع خمسة حفظا من العين فيما يظهر وهي ترجع الى العهد القديم .

الأبواب الداخلية

وهناك داخل القرويين أبواب تفصل قاعة الصلاة عن صحْن مصلى الجنائز ، تسمى ثلاثتها : أبواب الرواح ، وتقع في جدار القبلة عن يمين المحراب ، فالباب الأول يفتح على البلاط العمودي الثاني من الجهة الغربية ، والباب الثاني يليه يسرته يفتح على البلاط العمودي الرابع كذلك ، ويفتح الباب الثالث على البلاط السادس . والأبواب الثلاثة اذا أوصدت حجبت مصاريعها السواري عن رؤية الذين هم في قاعة الصلاة .

الباب الأول يجاور باب الخلفاء ويُسمى باب الرواح الأعلى ، تتوسطه سارية رخامية واحدة متوجة ، جلبت من الأندلس نقشت بين تلك التيجان كلمة (محمد نبيّ) ، وهناك صفيحة من الرصاص تربط بين السارية والسقف وتستريح السارية على عتبة الباب الذي يصعد اليه من صحن الجنائز بدرجتين ، ومن القرويين بدرجة واحدة ، وقد فتحت في أعلى الباب نوافذ ثلاث للضوء .

والباب الأوسط به ثلاث سوارٍ أندلسية كذلك مع تيجانها ، اثنتان مدفونتان تقريبا في الجدار والثالثة ملونة ، والفاصل هنا بين السارية وبين السقف قطعة من خشب ، والسواري الثلاث تقع على العتبة التي ترتفع زهاء ستين سانتيما عن الأرض ، وفوق الباب هذا نافذتان ، وتكتنف هذين بعيدًا عنهما أربع نوافذ أخرى .

الباب الأدنى من جهة المحراب يشبه الأول ، سارية أندلسية كذلك وسطًا ، وفوق هذا الباب نوافذ ، وكل باب من الأبواب الثلاثة له مصاريع أربعة[٤] تنطوي كل اثنين منها بعضها على بعض ، وكلها منقوش على شكل مشجّر ، لكن الباب الذي في جهة المحراب يجمع بين الوشي وبين الآية ، ففي الاستطاعة قراءة هذه الآيات : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب » الآية ١٩٠ – ١٩١ من آل عمران ، وقد ابتدأ المصراعان الباقيان بتتميم الآية : «سبحانك وقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تُدْخِلِ النّارَ فقد أخزيته » الآية ١٩٢ – ١٩٣ – ١٩٤ من آل عمران ثم كلمة : « صدقت ربنا ، وبلغت نبينا ، ونحن على ذلك من الشاهدين ». وقد نقش في وسط هذه الكلمات البيتان الآتيان :

يـــا واقفًـــــا لَـــدَيَّ إن   أبـصرت مـنّي مـا تـرى
جُــدْ بالدعـــا لصانعــي   بجـــاهِ سيّـــدِ الـــورى

وفي زوايا الباب كلمة : (العزّ لله) ، وفي مقابلة البيتين الماضيين تقرأ في المصراع الآخر : (لا آله الا الله ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وتحته الآية الشريفة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يا أيها الذين آمنوا اركعوا ، واسجُدوا ، واعبُدوا ربكم ، وافعلوا الخير ، لعلكم تفلحون » الآيات ٧٧ وتنتهي الآية ٨٨ في الجهة الثانية هكذا : فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » ثم كلمات « صدق الله العظيم ، وبلغ مولانا رسول الله الكريم ، وصلى الله عليه وسلم ونحن على ذلك من الشاهدين ، اللهم اجعلنا شهداء الحق بمنك وكرمك وجودك يا ارحم الراحمين يا رب العالمين » .

باب ابن رقية :

ويرجع تاريخ نصب هذه الدفف الحمر التي جعلت على الباب القريب من المحراب حيث يخرج الى جامع الجنائز ، الى أيام العاهل الثالث من ملوك الموحدين ، فعلى عهد أبي يوسف[٥] بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن شيد الأستاذ المؤلف أبو القاسم بن الملجوم المعروف بابن رقية ، منزها على داره ، بذل فيه أموالاً طائلة ، وجعل له أبوابًا تتناسب وروعته ، ويقال إن ابن الملجوم ربما كان يتكشّف من هذه العلية على المنازل التي تقع تحته ، وخاصة مسلخ حمام مجاور ! ورفع الأمر الى أمير المسلمين ، فأحضر ابن الملجوم ، وشهد عليه بذلك ، فنفذ الأمر الى قاضي المدينة في ذلك العهد ابي محمد عبد الله التادلي فحكم بهدم العليّة ، نفذ الحكم يومَ الاربعاء ثالث شهر رجب من سنة ثمان وثمانين وخمس مئة (١٥ يوليه ١٢٩) ، ولم يلبث ابن رقية أن مات سنة (٦٠٥ هـ)[٦] ،

فتوارث الأبواب من بعده بنوه، فلم يروا أحسن لها من أن توهب للقرويين تكفيراً عن صاحبها. ويذكر صاحب الأنيس أن تاريخ تركيب هذه الدفف هو سنة سبعة عشر وست مئة. تسعا وعشرين سنة بعد هدم العلية، ويفيد أيضا أن الدفف كانت تحتوي على اسم الصانع وتاريخ صنعها ، وهو شهر رجب سنة ثمان وسبعين وخمس مئة.

وهنالك غير هذه الأبواب الثلاثة باب يفصل بين مجلس القضاة وصحن مصلى جامع الجنائز. وباب يفصل بين الزاوية التي في مقدم القبلة والصحن المذكور، والباب السادس هو الذي يخرج منه الإمام والخطيب. ويقع عن يسارك وأنت تتجه نحو المحراب ، وعندما نتجاوز هذه الجهة الى منطقة الصحن نجد الباب الذي يفتح على الصومعة ، ثم هنالك البابان اللذان يصونان «المستودع» الذي تحفظ فيه أموال الجامع وودائع الناس ، وأخيرا باب مخزن الزيت والقناديل ، والباب الحادي عشر باب مخزن الحصر وأدوات التنظيف.

الأبواب الخارجية

ومع أن أقدم باب عرف للقرويين وثبت اسمه عبر التاريخ هو باب الحفاة ، فاننا سنبدأ بالحديث عن الباب الذي يليه في القدم ، وهو باب الموثقين ، أخذاً بأيسر الطرق ، وبدءًا بالجهة الغربية للمسجد.

١) باب الموثقين :

يعدّ هذا الباب من أقدم الأبواب بعد باب الحفاة . وهو أيضًا الباب الغربي الأكبر . فأنت عندما تقطع سوق العطارين وتميل عن اليمين تجد نفسك مع سماط الموثقين الذين كانوا يكتنفون هذا الباب يَمْنَةً وَيَسْرةً . وهو مقابل لِما كان يسمّى تربيعة القراقين ، أو تربيعة الكرمة ، ويعرف اليوم بالمركظان ، ويسمّى باب الشهود . وقد بني من مال الأوقاف ايام الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى السبتي التميمي سنة خمس وخمس مئة (١١١٢ م) على ما نقله الجزنائي عن صاحب المقياس . أما القبة المقربصة التي هي في خارجه ، فقد بنيت سنة سبع عشرة وست مئة على يد الخطيب أبي محمد عبد الله بن موسى المعلم . وللباب مصراعان ، أحدهما أعرض من الآخر ، ففي سعة الأول عن يمين الداخل ٢,١٦ م ، وفي سعة الثاني ٢,١٣ م ، فعرض الباب ٤,٢٩ م . أما طوله فيبلغ ٥,٣٤ م وبذلك يكون هذا أكبر باب للقرويين(٧) .

ولقد نقش على دائرة القبة في الواجهة الغربية من جهة باب المركظان : (بسم الله ، ما شاء الله ، لا قوة الا بالله) ، لكن في الواجهة الجنوبية نقش : (الحمد لله وصلى الله على سيّدنا محمد وآله) ، أما الواجهة الشرقية فقد جددت اللوحة ، ولذلك ضاعت النقوش وأما الواجهة الشمالية فقد نقش فيها : (بسم الله ، ما شاء الله ، لا قوة الا بالله ، ثم نحت في الجبس كلمات : (العافية الباقية ، وينقل الاستاذ بيل أنه يقرأ على هذه القبة بخط مغربي تاريخ السنة التي تم فيها بناء القبة ٦١٧ (١٢٢٠)(٨) .

٢) باب الشماعين :

هذا هو الباب الرئيسي للجامع ، ويسمى كذلك لأنه يقابل سوقًا مهمةً في المدينة كانت تباع في جانب منها الشموع ، وجانب منه خصص لبيع الفواكه المجففة(٩) . وأغلب الظن أن ذلك كان يسهل على المحسنين مزاولة عاداتهم من إطعام الفقراء وتقديم الشموع للمسجد . وقد يسمى أيضًا باب الشهيد(١٠) ، وباب الفخارين القدماء. طوله ٥,١١ على عرض ٤٠٠ . وقد اتفق الرأي على أن الباب يرجع الى عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، لكن

المؤرخين اختلفوا : فابن أبي زرع يذكر أنه بني سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) وأنه كان في بداية الأعمال التي قام بها القاضي ابن داود ، والجزنائي يقول إنه بني قبل هذا التاريخ بعشر سنوات ، ويذكر ابن القاضي في الجذوة أنه بني سنة عشر وخمس مئة ، ويظهر لي أن الحق مع صاحب الجذوة ، وأن تحسينًا ما دخل على الباب المذكور بعد هذا التاريخ [١١] ، وهكذا يكون الباب نصب منذ عام عشرة وخمس مئة بعد بناء باب الموثقين . ويذكر ابن أبي زرع أنه كان هناك نقش في قبة خشبية داخل الباب المذكور يحمل تاريخ ثمانية وعشرين وخمس مئة .

ولم يزل الباب على ما بني أولا الى أن شب في هذه الناحية حريق ليلة اربع وعشرين من جمادي الآخرة من سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ، (٨ يناير ١١٧٦) ، فالتهمته النار ، واحترقت القبة التي كانت هناك من الخشب ، واحترق أكثر الباب ، وهدد المسجد نفسه لولا تضافر جهود الناس ومساعدة الجوّ البارد كذلك ، فجدد القبة والباب الأميرُ أبو حفص عمر المرتضى حفيد أمير المسلمين يوسف بن عبد المؤمن بن علي في شهر جمادي الآخرة سنة ست مئة ، وكان الناظر على بنائها ابو الحسن علي بن محمد الأزرق العطار ، والإنفاق عليها من بيت مال المسلمين ، وعلى يد القاضي ابي يعقوب بن عبد الحق[١٢]. ويظهر أن النقش المشار اليه ضاع منذ هذه الحادثة.

هذا ، وللباب ذكر في تاريخ المغرب الأدبي والسياسي على ممر الأيّام[١٣]. وقد أجمعت الكتب التي تحدثت عن هذا الباب على رواية أسطورة السُّلحفاة الضّخمة التي عثر عليها في أثناء حفر الأساس عن يسار الداخل للباب حيث الدكانة[١٤] المرصودة ، قالوا : وجدوا هنا عيْنًا تتدفق من ماء معين في تربيع من ثمانية أشبار على مثلها ، وقد اقبي عليها ، وملأت السلحفاة كل المساحة ، متربن على مثلها : قالوا : وقد استشار القاضي ابن داود فقهاء المدينة لذلك العهد ، فأجمعوا على تركها حيث هي واعادة الأقباء عليها[١٥].

٣) باب الوراقين :

وهذا الباب الثالث الذي يعرف أيضًا باسم باب الكتبيين ، طوله ٣/٣٢ على ١ م ٨٥ س ، وقد فتح في أواخر دولة الموحدين أيام أبي يعقوب يوسف المستنصر ، وكان القاضي لذلك العهد هو أبو يعقوب يوسف بن عمران ، وقد تم في سنة ٦١٧ هـ وقد كانت عليه قبة مقربصة بالجبص ، وسمي كذلك لأن الدكاكين التي تقابله كانت جميعها مخصصة بالوراقين والكتبيين الذين يبيعون الكتب أو ينسخونها ، لقد كانت صناعة الوراقة انتقلت بمعظمها كتبا وكتابا الى مدينة فاس على مقربة من القرويين[١٦]. وقد ذكر ليون الأفريقي أنه كان هنا ثلاثون دكانًا لبيع الكتب ، وقد سمي هذا الباب بباب العدول الصغير لأن الدكاكين التي كانت بالأمس للكتبيين أصبحت مكانًا للعدول ، وإن كانوا أي العدول غادروا اليوم هذه المنطقة كليّة الى المحْكمة العصرية ، طوله ٣,٣٢ / على ٢,٤ .

٤) باب الأولياء الغربي :

وهذا الباب الرابع الذي يلي الكتبيين يقع اليوم قبالة المكتبة السنية الاسلامية التي كانت من قبل دارًا ثانية لآل أبي عبد الله حَسَبَ ما يوجد في بعض الرسوم العدلية القديمة ، ويسمى (باب الاولياء) لما أُثِر من أن كثيرًا من رجال الفضل لوحظ عليهم أنهم اذا أتوا المسجد من جهته الغربية دخلوا من هذا الباب ، وإذا أتوه من جهته الشرقية دخلوه من الباب الذي يسامت هذا الباب ، والذي قد يحمل هو الآخر باب «الصالحين» وليس عندي تفسير لذلك

الا أن البابين يتقاطعان على «الثريا الكبرى» حيث كانت القبلة الأولى للجامع الأعظم ، وحيث يجلس باستمرار أهل الخير كما أسلفت[17]. طول الباب ٣،٧٨ / ٢،٣٧

وقد وقفت في بعض الرسوم العدلية القديمة التي ترجع الى عهد السلطان المولى اسماعيل في سنة ١١١٥ انها لذلك الوقت كانت ما تزال تعرف بباب الصالحين[18].

٥) باب الصفر الأعلى :

وهذا الباب يرجع تاريخه الى عام ٥٣١ هـ عندما قام المرابطون بتوسعة القرويين ، وربما عرف باسم النطاعين او القطاعين ، طوله ٣,٧٨ على عرض ٢٣٧ (١).

ويسمى الباب بباب الصفر لأنه أحد الأبواب الثلاثة المغشاة بالصفر ، كما أنه يسمى باب النطاعين لأن صانع الجلد أو بائعه يسمى النطاع ، وقد علمنا أن بابًا قبل هذا كان يسمى باب الوراقين أو باب الكتبيين ، وهذا باب ينفتح على سوق الجلد ، ولا بد أن تستلزم الوراقة التوجه الى التجليد الفارع البارع والتخطيط والتذهيب ، ولا بد أن كل هذا يستلزم اتقان صناعة الدباغة ، وما تزال سمعة صناعة الجلود المغربية تضرب بسهم وافر في سائر أنحاء المعمورة، وبمرور الزمن تسرب الى هذه الجهة الخرازون : صانعو الأحذية ، فغدا المكان يسمى السبطريين المأخوذ من كلمة (Zapatero) الأسبانية التي تعني الخراز ، وقد ورد في بعض كتب التاريخ استعمال كلمة سبطري بهذا المعنى[19]. ومن أجل هذا قد يسمى الباب باب السبيطريين .

لقد نقشت على الباب اشكال ، فيها النجوم السداسية ، وفيها المضلعات والقطع المزخرفة المزدانة بالمسامير المفضضة ، ويحتفظ بخرصتيه اللتين تتألفان من قطعة اسطوانية ذات ستة فصوص . وقد نقش على خرصتي الباب بالخط النسخي كلمات : (بسم الله الرحمن الرحيم ، ما صنع للمسجد الجامع بمدينة فاس عمرها الله) ، والى جانب هذا تكتنفُ البابَ على صفيحة من نحاس آية شريفة بخط نسخي كذلك : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) . . . ثم كلمات : (الملك لله ، العافية الكاملة) ، وتحيط بالباب صفائح من عرض عشر سانتيات على طول ١٥ سم وقد حفر عليها كلمات : (الغبطة المتصلة) .

٦) باب الخلفاء :

هذا الباب كان يترجل منه الخلفاء الى الجامع بقصد الصلاة ، وعلى بابه يقدم اليهم التمر والحليب تحيةً لهم[20] ، وانما اختاروه لأنه يؤدي عن طريق الصحن الصغير الى مقصورة الامام حيث ينتظر الخليفة هناك شهود صلاة الجمعة[21]، والباب من طول ٣,٨٢ على ٢,١٤ ، وهو الاول في الجهة الجنوبية ، وهو كسابقه ملبس بالصفر ، ويعد الوحيد الذي يحمل اسم الصانع وتاريخ الصنع بخط نسخي ، فهو « عمل عبد الواحد عام واحد وثلاثين وخمس مئة[22] كما يوجد في يمين خرصة الباب ، وعن يسار الخرصة الثانية كذلك نفس العبارة ، وقد نص على ان صنعهما بمدينة « فاس حرسها الله » مع عبارات : (بسم الله الرحمن الرحيم ما صنع للمسجد الجامع ، الغبطة المتصلة والسعادة) ثم تفاحات وسطًا نقش عليها دائرا بها كلمات (اليمن والاقبال والسعادة – العز والتأييد والنصر والعون – البركة الكاملة) ، عدد التفاحات بالباب يبلغ ستين ، في كل مصراع ثلاثون ، وينبغي التنبيه على انه نقش

على جانب الباب تاريخ اصلاح الباب سنة ١٣٧٦ (١٩٥٦ – ١٩٥٧)(٢٣).

٧) باب مجلس القضاة :

ويسمى هذا الباب كذلك ، لوجود مقصورة القاضي سابقًا عن يسار الداخل من الباب ، وربما سمي أيضًا باب مصلى الجنائز ، وقد يسمى باب الكتب لأن سوقًا للكتب بالمزاد العلني تعقد هنا منذ القدم ، والباب ليس مغشًّى بالصفر كسابقيه ، لكنه من الأبواب الكبيرة ، فان طوله ٣,٦٧ على ٢,٤١ ، وهو كغيره من الأبواب الكبرى له مغلاق عتيق داخلي ، ويرجع تاريخ الباب الى سنة ٥٣٨ هـ عند الفراغ من توسعة القرويين . وقد تعرضت هذه المنطقة لحريق شب على مقربة من باب السلسلة سنة ٦٤٦ هـ فتأثر الباب من ذلك ، واستدعى إصلاحه ، وهذا غير الحريق الذي شب سنة ٥٧١ هـ فأضرَّ بباب الشماعين(٢٤).

٨) باب الفرخة :

بهذا الاسم يعرف في الحوالات القديمة ، وهو يقع تحت الساباط في أول الدرب الذي يؤدي الى ما كان يعرف برائقة ابن الغرديس التي تقع في جانب فيه اليوم طائفة من بناية الخزانة الكبرى لجامعة القرويين ، وقد أُغلق هذا الباب فيما بعد وعوض بباب حديث(٢٥)، لكنهم تركوا عليه شباكًا يدل عليه وعوضوه بباب كذلك صغير ، ينفذ منه الى ساحة ابن الغرديس ، وكان الباب في القديم يستعمل من لدن أغوات المسجد كباب خلفي يستعينون به عند الحاجة، وربما وجدوا الدخول منه أسهل لفتح الأبواب الكبرى من داخلها ، ولذلك يسمى أيضًا باب (الفرْخَة) يعني باب المفتاح، وربما سمي كذلك (باب الستر) لأنه أيضًا – وهو تحت الساباط المظلم – باب لمن يدخلون للخصومات وأداء اليمين من الرجال والنساء متسترين عن عيون الناس(٢٦). ويظهر أن سكنى المتعهد للابواب كانت هنا في مدخل هذه الساحة ، في مصرية هناك تتصل مباشرة بجدار الجامع(٢٧).

٩) باب الحدودي :(٢٨)

١٠) باب الخلوة :

هذا أول باب في الجهة الشرقية، وإنما عرف في القديم بالباب المدرج الغريب لأنه يصعد اليه في تسع درجات ، وفي الواقع ان كل الأبواب التي تقع في الجانب الشرقي هي ذوات أدراج، لكنّ لهذا الباب ترتيبا خاصا دون سائر الأبواب الشرقية الأخرى ، وقد اشتهر أيضًا باسم (باب الخلوة) لأن زاوية القراء بنيت فيما بعدُ على مقربة منه ، وهو من طول ٣,٣٩ م على ٢,١١ م ، ويرجع تاريخه الى أيام الزيادة المرابطية ، ولكنه جدد عند ترميم الجدار الشرقي في صدر دولة بني مرين كما سنرى.

١١) باب الصالحين الشرقي :

هذا الباب هو الذي ينفتح على البلاط الذي تقع فيه الثريا الكبرى ، وهو يسامت (باب الأولياء) في الجهة المقابلة على ما أسلفناه ، وقد يسمى باب السبع لويات لأنه قريب من الدرب الذي يحمل نفس الاسم ويقابل الفران القديم الذي يقع على زاوية المنعطف ، ومقياس الباب ٣,٧٥ م طولا على ٢,٧ م. وقد جدد مثل سابقه.

١٢) باب ابن حيون :

هذا من الأبواب القديمة ، طوله ٣٧٥ على ٢,١٨ م ، وقد عرف بهذا الاسم : (ابن حيون) والقصد الى المحسن الكبير الشيخ عبد الملك ابن حيون الأندلسي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ، ٢٩ ، ويقابل جانبًا من الباب بانحراف فندق الرصّاع الذي ينسب لسيدي عبد المجيد[٣٠] ، وقد جدد مثل سابقه سنة ٦٨٢ هـ.

١٣) باب ابن عمر:

وهذا الباب يعرف في القديم بباب ابن عمر ، وهو النجار الذي صنعه[٣١] ، طوله ٣,٢٥ م/٢,١٨ م، ويقابل طائفة من فندق التطاونيين الذي عرف في القديم باسم فندق ابن حيون على ما في زهرة الآس ، ويرجع تاريخ الباب الى اوائل أيام الموحدين في عهد أبي يعقوب يوسف ٥٧٦ هـ (١١٨٠ - ١١٨١) أيام الإمام ابي محمد يشكر الجورائي ، وهكذا تأخر فتح هذا الباب عن الباب الذي يسامته بنحو سبعين سنة ، وقد جدّد في صدر دولة بني مرين . وأنشئت به - فيما بعد - معدة لتوزيع فيض المياه...

١٤) باب الساباط :

أما في الجهة الشمالية للمسجد ، فان أول باب فيها لا يثير الانتباه كثيرًا ، لأنه باب صغير ، وقد كان بابًا خاصًّا تصعد منه النساء الى الرواق الذي يعلو (المستودع). إن أثر الباب ما يزال ظاهرًا الى الآن وان كانت صلته بالرواق قد قطعت ، وهو يقع قبالة «دار الأئمة»، ولقد بقي الى ما بعد هذا التّاريخ بكثير.

١٥) باب الخصّة :

أما باب الخصة فيعد من الأبواب القديمة كذلك ، طوله ٣,٣٥ م على نحو مترين عرضا ، ويرجع الى تاريخ يتقدم تاريخ إنشاء «الخصة الحسناء» ، أي انه يرجع الى العهد الزناتي منذ بني البلاط الأخير ، وهو يقابل بانحراف الدار الموقوفة على الأئمة.

١٦) الباب الأصغر:

وهذا باب آخر خاص كذلك بصعود النساء الى رواقهن الذي يعلو المخزن الأوسط بالجامع ، وهو مدرج أيضًا ، ومع أن الباب استغني عنه بيد أن آثار قوسه ما تزال ظاهرة على الجدار ، وبحسب الاشارات الظاهرة فان عرضه لا يبلغ المترين.

١٧) باب الصفر الشمالي :

وهذا ثالث الأبواب المغشاة بالصفر ، بقي من خرصته القاعدة فقط ، طوله ٣,٩٦ على نحو ٢,٥٥ م ، ويسمّيه الجزنائي (باب العميان) لكثرة ملازمتهم للقعود فيه ، إنه قريب من السّاباط الذي يظلّلهم ، والباب يحمل اسماً ثالثاً هو(باب الورد[٣٢]) ، وقد ظل الباب مكان عناية من الحاكمين ، ولهذا نراهم يخصّصونه بقبةٍ في مقابلة قبة العَنزة [٣٣] ، وقد جددت مراراً . . .

١٨) باب الحفاة :

وهناك في الحقيقة بابان : باب خارجي ، وباب داخلي ، والأول ذو مصراعين من شباك خشبي قديم ، يسمى عند المغاربة (عين حمام). ولقد فتحت في أعلى هذا الباب خمس نوافذ كذلك من عين حمام[٣٤]، بعد هذا الباب تجد البيلة المغشاة بالرصاص التي تنسب الى المظفر العامري ، وبعد هذه البيلة نلاحظ معالم الباب الداخلي، وهو ذو مصراعين عظيمين، عرضه أكثر من طوله كما هو ملحوظ[٣٥]. وبعد هذا الباب الثاني يقع الرواق الذي يفصل بينه وبين الصحن ، ويعد الباب أقدم باب في القرويين ، لأنه يرجع الى عهد الزيادة التي زادها الزناتيون بمساعدة الأمويين، بيد أنه لم يكن من أول الأمر بابًا للحفاة ، ولم يصبح كذلك إلا في الأيام التي كان يقيم فيها بفاس المظفر العامري ، وقد كانت للباب التفاتة أخرى على عهد الموحدين في النصف الثاني من القرن السادس أيام الإمام أبي محمد يشكر الجورائي (٥٥٨ – ٥٩٨) إذْ زاد في اتساعه أكثر[٣٦] من قبل وعرضه أكثر من طوله، إذ ان طوله ٣,٦٢ م نحو أربعة أمتار عرضا .

حَرَم القرويين

عرفت وثائق فاس وعادات فاس وأمثال فاس ، تقديرًا كثيرًا لا لجامع القرويين وحده ولكن أيضًا للحريم الذي يلتف بها ويلمّها أويقترب منها ، حتى لَغدت أثمان الدوروالدكاكين ترتفع وتنخفض على مقدارقربها أوبعدها من الجامع ، وقد عرف في أمثال فاس : «كأنه يملك دارًا بزنقة حجامة ، أو بالسبع لويات ، أو درب ابن جيون[٣٧]» وهي دروب قريبة من القرويين شماليها وشرقيها . ومن الملاحظ منذ البداية أن المنطقة القريبة من القرويين كانت تخصص غالبًا للسادة الذين لهم صلة للقرويين من عدول وموثقين ووراقين وكتبيين ومجلدين ، ودور القضاة والأئمة والمؤقتين والمؤذنين ، كما أن المحترم من المراكز الصناعية هو الذي يقترب من ناحيتها.

وتبتدئ الناحية الغربية بسماط العدول ، وهو يشتمل على دكاكين الموثقين التي كانت تمتد آنذاك طول السماط من حيث بنيت بعد «محكمة القاضي» الى باب الشماعين ، وكانت هنا دالية عنب تظلل دكاكين العدول المتقابلة[٣٨]، وقد احتفظت حجج الوقف بوصف طريف لهذه الناحية ، وأعطت بعضها أسماء العدول الذين تعاقبوا على هذه الأمكنة[٣٩] ، وقبالة باب الكتبيين حيث كانت الدارُ التي سكنها من بعدُ الشيخُ المنجور العلامة المشهور[٤٠] وعلى أثرها مصرية سكنها عدد من عيون الطلاب وعرفت بمصرية الحاجة[٤١] ، ثم المكتب المحمل هناك على دكان كتبي قبالة باب الأولياء حيث سكن عدد من أعيان الطلاب[٤٢].

وعن يسار الخارج من باب الصفر الأعلى توجد سلسلة من الدكاكين يبلغ عددها سبعة ، كانت في الأصل جميعها تقريبًا وقفًا على الجامع[٤٣]، لكن أكثرها اليوم مملوك ! فقد نصت حجج الوقف على أن بعضها لنظر المفتي لصالح الضعفاء والمحتاجين ، وبعضها لصالح المؤذنين[٤٤]. وعن يسار الخارج من باب الخلفاء ست دكاكين أخرى أيضًا ملاصقة لجدار المسجد ، وضعها بنفس وضع الدكاكين السبعة السابقة[٤٥] ، ويأتي بعد هذا باب مصلى الجنائز الذي يوجد عن يساره حانوتان كانا في القديم اروى يقف بها الذميون لشراء الجلد.

وعلى أثر هذا تجد عن يسارك تحت ساباط دربًا على يمين الداخل اليه مصرية رقم ٢٢ تتصل بدار اللاّيريني وهي محملة على الساباط المذكور، وبعد هذه المصرية مصرية أخرى تحمل رقم ٢٤ ، ثم دويرة صغيرة رقم ٢٦ ، وبعدها الباب القديم الذي كان ينفذ الى رائقة ابن الغرديس ، وبجانب الباب القديم نصب باب جديد يؤدي إلى ساحة الخزانة الكبرى ، ثم تقع المصرية التي تتصل مباشرة بالجامع على مقربة من باب الخوخة (الباب الأصغر) الذي استغني عنه ، وكان يوجد يسار الداخل للدرب المذكور.

وقد اصبحت رائقة ابن الغرديس سوقًا للاحذية كما يستفاد من ابن الوزّان الفاسي(٤٦) وبعض هذه السوق كان وقفًا على الضعفاء مما جعل لنظر المفتي ، وبعضه وقفًا على أولاد الغرديس حَسَبَما يوجد في الحوالات القديمة. وقد تعرضت هذه الجهة لتغييرات عديدة(٤٧).

وعن يسار الخارج من باب المجلس العلمي(٤٨) تقع سقاية الصفارين الحالية(٤٩) التي يليها مخزن صغير ثم دار الحاج أحمد الجرندي(٥٠) ثم الى السبع لويات(٥١) التي كانت مساكن لعدد من أعيان فاس من علماء وأطباء وقضاة كذلك ، وعلى الركن يقع فرن السبع لويات «الذي يعد أقدم فرن في فاس» ، بل يقال إنه أقدم من القرويين(٥٢). وفوق الفران أروى كانت في الأصل دارًا ، وقد تحولت الأروى اليوم الى دكانين ، تقابلهما زنقة أو درب الطرون(٥٣).

وفي درب الطرون المذكور توجد إحدى الدور الثلاثة المخصَّصة للعرائس في فاس، وقد اعدت بفرشها وأثاثها لزواج المقلين من الأشراف والفقراء(٥٤)، والدار تحمل اسم دار العافية تفاؤلاً للذين يقترنون بها(٥٥).

وقبالة باب القرويين تقع بانحراف دار الخصة التابعة لوقف الجامع(٥٦). وبعد المكتب المحمل على الساباط الذي كان في وقت من الأوقات «كُتّابًا» في يد الفقيه التاودي بن العربي العافية ، يوجد على اليمين فندق الرضّاع(٥٧)، ثم يأتي على اليمين درب ابن حيون الذي كان يعرف بدرب الغماري(٥٨) ثم فندق ابن حيون ويعرف الآن باسم فندق التطاونيين.

دار الصهريج :

وفي ركن الطريق عند المنعطف «بيت النساء» الذي يتوضأن فيه قبل التحاقهن بالجامع(٥٩)، ويسمى «دار الصهريج» لأنه يحتوي على صهريج ، والدار بحكم أنها تتصل بزنقة حجامة أيضًا تعد أنسب مكان لفضليات هذه الناحية يؤدين فيها شعائرهن على النحو الذي يجب ، والبيت قريب أيضًا من درب ابن حيون ودرب السبع لويات الذي ينفذ الى حومة البليدة ، انه مركز حسن الاختيار.

دار الأئمة :

وكما كان للقاضي بيت بزنقة حجامة(٦٠) في أغلب الظروف ، فقد خصص بيت للأئمة منذ العهد المرابطي والموحدي ، هذا البيت في جوار دار الصهريج عن يسار الخارج من المدرسة المصباحية الحالية(٦١) وقد سكنه سائر الذين تعاقبوا على إمامة هذا الجامع الأعظم ، وهو البيت الذي تردد الإمام ابن الحاج (ت ٦٥٣) في سكناه – تورعًا – إلا بشرط أن يضيف الى الإمامة خياطة حصر الجامع(٦٢)، ويذكر سدنة الجامع أنه كان هناك باب ينفذ من أعلى دار الإمام الى المستودع(٦٣).

المخزن :

وقبالة دار الأئمة يلاحظ باب كان في القديم ينفذ الى الرواق الخاص بالنساء ، وبعد أن استغني عن هذا الباب صلح كمخزن لبعض شؤون الجامع ، ولا صلة لهذا المخزن اليوم بالقرويين ، وعليه يحمل جانب من خزانة ابي عنان العلمية التي أسسها هنا .

مصرية القيم :

وبعد المدرسة المصباحية وميضآتها توجد « المصرية » التي بنيت خصيصاً للشخص الذي يقوم على دار الوضوء الكبرى المحدثة على عهد الموحدين كما سلفت الإشارة الى ذلك.

حانوت الأواني :

والى جانب السقاية التي في بوطويل كان هناك حانوت وضع فيه عدد من مواعين الفخار ، أعد ليوهب للاطفال أو للخدم الذين يحدث أن تنكسر لهم الأواني هناك حتى لا يتعرضوا لعقاب أوليائهم[٦٤].

حوانيت الموثقين :

وأثر حانوت الاواني كانت تبتدئ مباشرة حوانيت الموثقين ، كان العدول يتلقون فيها الشهادة ، وبعد فترة من الزمن استعملت هذه الحوانيت مخازن لبعض آلات الحبس كما ورد في الحوالات الوقفية القديمة.

إنارة الحرم

وقد حرص الأقدمون على أن يولوا هذا الحمى أكبر عنايتهم ، فزودوه بعدد من السوامر بلغت في عهد الجزنائي اربعين[٦٥] نذكر منها العشر الأساسية ، الأولى سامرة تقابل باب سوق العطارين ، والثانية متصلة بباب دار الصهريج على مقربة من فندق ابن حيون ، والثالثة تقابل درب ابن حيون بحائط الجامع ، والرابعة بباب السبع لويات ، والخامسة بالصفارين ، والسادسة بعقبة السبطرين تقابل زنقة دار الشامي التي كانت بها مقصورة القرويين ، والسابعة سامرة بزنقة صفايرة قبالة باب الخلفاء ، والثامنة بالشماعين تقابل باب القرويين ، والعاشرة في النقطة التي تصل بين الشماعين وبين الطريق المؤدية الى الحرم الادريسي.

* * *

تلك صورة عن بناية القرويين في العصر الأول ، عهد الأدارسة والزناتين والمرابطين والموحدين ، ونحن نرى انها استكملت كل العناصر التي تجعل منها مسجدا جامعا عظيما في هذه العدوة ، وكل الدلائل تشير الى انها ، أي القرويين ، كانت محل عناية كبرى – لدى سائر الذين مروا من فاس ، جميعهم كانوا يتوقون الى ان يلتفتوا الى هذا المسجد أكثر ، وان يولوه عناية أوفر ، بالرغم من الأيام العصيبة والفتن المتوالية.

ولم يعرف هذا الجامع الشكوى ، حاشا فترات أواخر هذه المرحلة ، زهاء عشرين عامًا ، أفقدت البلاد بهجتها ، وأدخلت الكآبة فيها على النفوس ، فمن سنة ٦١٨ هـ الى سنة ٦٣٧ هـ شغلت الدولة وشغل معها الناس بصدِّ العوادي عن البلاد ، فقد خرب عدد من المساجد التي كانت تعد بالمئات ، وخرب عدد من المدارس العلمية التي تحدثت عنها كتب التاريخ[٦٦] ومئات من الفنادق وعشرات من المستشفيات ، ودور صناعة الكاغد والزجاج والمعاصر

والديار والدكاكين ومعامل الصابون ومعامل الجلد ومصانع الخزف والحياكة ، كانت فاس قد بلغت أوجها ، « وانتهت في أيام المرابطين والموحدين الى درجة من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة لم تبلغها مدينة من مدن الغرب » كما يقول ابن أبي زرع[٦٧].

ولا شك أن القرويين تأثرت بدورها من هذه الأيام ، فان جل الأملاك بفاس تابعة لها وراجعة اليها. فلما اختلفت الأحوال ، وقلت الحبايات ، قل الإنفاق على الجامع ، حتى اضطر المشرفون على سيرها أن يقللوا من إنارة جوانبها ، وتقشفوا في الإنفاق عليها ، وتلك دلالة دون شك على ما وصلت اليه الحالة في هذا الجامع ، ولا بد أن بعض الجهات فيها تداعت أو بليت أو خربت ، ولكنها مع كل ذلك ظلت محل إيثار على سائر الضروريات ، محل إكبار من سائر الشخصيات ، يحرصون على تزويدها بما تدعو اليه حاجة القاصدين للجامع ، ومن حسن الحظ أن تلك الأيام لم تطل ، فقد صرف الله الشر عن المدينة ، واستعدّت القرويين لاستقبال أيام جديدة من عمرها السعيد الرغيد . أيام أنستها تلك السنين ، وصعدت بها الى مدارج الكمال . ويستطيع المرء من خلال أعمال البناء هذه أن يلمس أيضًا جانبًا آخر غير الجانب المادي ، ذلك هو الجانب الروحي ، فان كل تلك الترميات وكل تلك التوسعات كانت في الحقيقة لضمان سير الجامعة كمسجد وكمركز أيضًا للتعلم ، وعلاوة على تاريخ البناء الشامل هناك تاريخ فكري حافل لهذه المؤسسة العظيمة ، وذلك ما نتحدث عنه في الفصل التالي :



تعليقات الفصل الرابع

١) الأنيس ٤١ الآس ٧٧

٢) نعني باب الحدودي الباب الذي يأتي الحديث عنه في العصر الثاني ايام بني مرين .

٣) بقي اسما هذين العقارين تتناقلهما حوالات الأوقاف حتى سنة ٩١٠ وسنة ٩٥٧ . انظر الحوالتين في الخزانة العامة بالرباط .

٤) يعتقد طيراس أن المصاريع كلها مرينية ، ويتأكد لدي أن المصاريع التي بباب الرّواح القريب من المحراب يرجع تاريخها الى أيام الموحدين . . .
ويظهر أن طيراس وقع في خطأ ناشئ عن ترجمة روض القرطاس . راجع التعليق حول باب ابن رقية الآتي .

٥) تذكر طبعات الأنيس المطرب لابن أبي زرع اسم ابي يعقوب بن ابي يوسف بن عبد الحق ، وهو غلط دون شك ، فان تاريخ صنع الباب على ما سنعرف هو ٥٧٨ هـ ، وتأريخ تنفيذ حكم القاضي هو ٥٨٨ هـ ، وتاريخ وفاة ابن الملجوم هو ٦٠٥ هـ ، ووقت تركيب الأبواب على ما يذكر ابن أبي زرع نفسه هو سنة ٦١٧ هـ ، وزاد في اعتقادنا الغلط أمران :

الأول : تضارب كلام ابن ابي زرع إذْ قال : الملك الذي حكم هو ابو يعقوب المريني ، مع أنه يقول إن الدفف ركبت عام ٦١٧ هـ يعني أيام الموحدين .

والثاني : أننا لم نعثر على اسم أبي محمد التادلي قاضيًا لأبي يعقوب ، وانما كان قاضيا للموحدين ، وقد توفي سنة ٥٩٧ هـ ، وقد اوقع هذا الغلط طيراس في الخطأ فذكر أن الأبواب مرينية ، وقد ذكر ابن عذارى (ت ٦٩٥ هـ) قصة الضرب على يد أبي القاسم ابن الملجوم التي كانت حديث المجالس دون شك : ابن عذارى ص ١٥٣ ، وابن ابي زرع ٤٢ – ٤٣ ، وابن الاحمر : روضة النسرين ص ٢١ .

٦) لقد نعت مؤلف الأنيس ابن الملجوم هذا بأنه هو المعروف بابن رقية كما رأينا ، ونحن نعلم أن ابن رقية كان صاحب الخزانة العلمية الكبرى التي بيعت خرومها بعد وفاته بستة آلاف دينار ، ونظرا للتواريخ المتقاربة يظهر أنها شخصية واحدة ، فهل الأمر يتعلق بوشاية دنيئة ! أو هي البشرية الطاغية ، والنفس الأمارة بالسوء ؟ مشاهير فاس.

الأنيس ص ٤٢ ، التكملة رقم ١٦٥٢ – صلة الصلة رقم ١٥٠ .

الذخيرة السنية ، النبوغ المغربي .

٧) اعتمدنا في هذه المقاييس المعلومات التي قدمتها الينا مشكورة – مصلحة الآثار (مكتب فاس) .

Description de l'Afrique p. 184

٨) انظر ترجمته بالفرنسية لجنى زهرة الآس .

٩) Description de l'Afrique 1, 192

١٠) الاشارة الى الامام عبد الواحد الونشريسي الذي استشهد سنة ٩٥٥ هـ عند هذا الباب عندما رفض ان يصادق على بيعة السّعديين على ما سنرى.

١١) الأنيس المطرب ص ٣٧ – الآس ص ٦٥ – الجذوة .

١٢) يفيد صاحب الاستبصار الذي يسمي الباب باب النجارين انه بني سنة ٥٧٨ وهو يقصد دون شكّ الى عملية تمت بعد الحريق . الاستبصار نشر سعد زغلول عبد الحميد ص ١٨٠ – ١٨١ .

١٣) تردد ذكر الباب في حديث الشعراء عندما كبت الفرس الشقراء بالأمير موسى بن ابي عنان على اثر مغادرته المسجد وممن تحدثوا ابو الحسن علي بن ذي الوزارتين محمد بن احمد بن موسى مسعود الخزاعي .

مـولاي لا ذنـب للشقراء إن عـثرت	ومـن يَلُمْها لعمـري فهـو ظالمها
قـد هالهـا ما اعتراهـا من مهابتكم	مـن أجـل ذلك لم تثبـت قوائمها !

وقال ابو عبد الله محمَّد بن الحميري الرُّنْدي :

إن الجـــواد مـــا كبـــا	إلا لمـــا فيـــه نبـــا
ذاك قبـــول مـــا بـــه	امـامنـــا تقربـــا

وقد شهد الباب حدثًا ظل كابوساً مظلما في تاريخ الدولة السعدية ، ذلك عندما ظهرت هذه الدولة حاول محمد الشيخ الحصول على بيعته ، لكن أهل فاس أبوا لأنهم يرون أن الملك الشرعي هو ابو العباس الوطاسي ، وبلغ الشيخ أن الذي يقف وراء معارضة فاس هو العالم سيدي عبد الواحد الونشريسي ، فحاول الحكام إقناعه ، ولكنه كان لا يجد مسوّغاً لخلع بيعة أبي العباس الوطاسي من ذمته ، فقرر محمد الشيخ أن يسلط عليه قراصنته، وقد كان سيدي عبد الواحد اعتاد أن يدرس صحيح الإمام البخاري بين العشاءين في القرويين ... ومع أن بعض ذوي قرابة الشيخ حذروه فانه صمم على الاستمرار في نشاطه ، وكان أن وثبت عليه جماعة تحاول اخراجه من باب الشماعين ، فأمسك بإحدى عضادتي الباب ، فضرب أحدهم يده فكسرها ، وأجهز الباقون عليه فقتلوه يوم ٢٧ سنة ٩٥٥ هـ ، ولذلك يسمَّى باب الشهيد كما سلف الجزنائي : ص ٨٠ .

المقري : نفح الطيب ١٨٧/٧ الانتهاج ص ١٨٨ – ١٨٩ – السلوة ٢ – ١٤٦ ، تاريخ السعدية الدرعية التاكمادرتية ص ١٠ – ١١ – ١٢ – ١٣ التراتيب الإدارية ١ – ٣٤ – ٣٥ الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ٢ ص ٢٦١ الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ٢ ١٠٢ .

١٤) للعامة من أهل فاس أحاديث عن الدُّكانة المرصودة ، فكثيراً ما تسمع من كبارهم : أن الصناع لما حاولوا إخراج السُّلحفاة من قبوها صاحت قائلة : « الإحراق بالنار دون الخروج من الأوكار ! ! » ومن العامة من ينصح للذي يشكو وجعاً في ظهره أن يتمطط بظهره على سطح هذه الدكانة ! ! ! هذا ، وقد اصبحت الدكانة اليوم (رتاحة) للكهرباء التي تنير الجامع . . . Maroc france, 15 Mars 1918.p.82

١٥) لا بد أمام مثل هذه الأساطير أن نذكر سخرية ابن خلدون من ترهات بعض كتب التاريخ التي تروي كل شيء وإن كان مستحيل الوقوع، على نحو ما نراه هنا : حيوان يعيش بغير أُكْسجين. وقَبْل ابنِ خلدون – فما يتعلق بالسلحفاة بالذات ، نجد الجزنائي ينتقد فتوى أولئك الفقهاء الذين أشاروا باعادة الأقباء على السلحفاة ، قائلا : إن ذلك لا يصح ، لأن السلحفاة لا يخلو إمّا أن تكون فيها حياة فلا يجوز البناء عليها ، وإما أن تكون ميتة فلا يجوز بناء المسجد على ميتة .

ابن خلدون ١ ص ٩ ، الجزنائي : الآس ص ٦٦ .

١٦) كلمة الورّاق ترد كثيراً في كتب التراجم ويقصد بها أحيانا نساخ الكتب كما ورد في البكري عند ترجمة الامام يحيى الرابع الادريسي : كان عنده عدد من الوراقين ينسخون له الكتب ... وأحيانا يقصدون بها بائع الكتب وهو ما ورد في ترجمة ابن النديم : انه كان وراقا يبيع الكتب، وحينا ثالثا يقصدون به الشيخ الذي يتصفح الأوراق امام جمع من الناس ويقرأ عليهم ما فيها من المواعظ والفوائد وعليه قول الرواة : وكانوا يورقون بالترغيب والترهيب او الذخيرة او غيرها ... وقد ورد في المعيار (٢٦٧،٨) من قومة المسجد الحزابون والمؤذنون والوراقون ... وسواء كان القصد الى بيع الكتب او نسخها ... فأن الوراقة تعتبر من توابع العمران كما يقول ابن خلدون .:. المقدمة ٣٥٢ .

١٧) وقفت في بعض الرسوم العدلية القديمة التي ترجع الى عهد السلطان المولى اسماعيل بتاريخ ١١٥ انها لذلك الوقت كانت وما تزال تعرف بباب الصالحين .

١٨) توج أعلى هذا الباب بافريز يتألف من خمس لوحات منقوشة في الجبس على نحو ما عرف عهد بني مرين ، وفوق النقوش (شوّاف) : يقي تلك اللّوحات من آثار الأمطار ، وقد نقش الصنّاع بيتاً من بردة الصنهاجي المشهور بالبوصيري (ت ٦٠٠)

(ومن تكن برسول الله نصرتُه ان تلقه الأسدُ في آجامها تجم)

ومن المعتقد أن لهذا البيت خصائص لدى رجال التصوف يرجع اليها في شرح البردة .

١٩) المقْصَد الأحمد ٢ - ٢٦٧

٢٠) جرت تقاليد المغاربة من قديم الزمن على استقبال كبار الشخصيات بالتمر والحليب عند مدخل المدينة او عند ابواب المؤسسات والبيوت الكبيرة ، وهو يرمز في صدر ما يرمز اليه - الى اشعار الزائر بأنه ، وقد شاركهم الطعام ، لا يلقى منهم غير الوفاء والامان وقد تعمدوا اختيار التمر بالذات باعتبار ان النخيل شجر مقدّس كما تعمدوا الحليب شريكا للتمر لأنه يجمع سائر المحاسن الصفاء والغذاء ...

٢١) الجزنائي : الآس ص ٧٧ .

٢٢) كان الذي اكتشف ذلك اول الأمر الاستاذ ريكار لكنه اخطأ عندما اعتقد انه الباب الذي اخذ من ابن الملجوم . الانيس ٤٢ - ٧٨.

٢٣) ومن الطريف ان نسمع عن باب الخلفاء هذا انه - وقد عدّ من عيون الآثار الدولية - رشح ليعرض في اول مؤتمر للمهندسين المعمارين بقصر شايو من ٦ مايو ١٩٥٧ الى ١٢ منه ، لقد احتل هذا الباب مكانا رفيعا بين الآثار المعروضة ، ووضع عند مدخل الرواق الذي خصص للنماذج والصور التاريخية المرشحة من مختلف الدول ... ولقد وقف امامها طويلا كل من المدير العام لمنظمة اليونيسكو ووزير الفنون الجميلة بفرنسا وتقدما - في صدر من تقدم - بالتهاني للملحقنا الثقافي لسفارة المغرب آنذاك .

٢٤) الآس ص ٧٧ وتروي الذخيرة السنية أن الشيخ أبا محمد الفشتالي شاهد النار وهي تتصاعد من بين السبطرين نحو مصاريع الجامع ، وأنه تضرع إلى الله قائلاً : ارجعي بإذن الله !.

٢٥) كان ذلك سنة ١٩٢٤ - Les mosquées de Fes p. 168

٢٦) الفرخة بتسكين الراء تعني في الاصطلاح المغربي القفل من خشب يكون له مفتاح خشبي كذلك ينتهي بلسان ، ولها اصل بالعربي .

٢٧) نعرف ان مجلس القاضي كان بهذه الناحية منذ العصر المرابطي . الجزنائي ص ٧٨ .

٢٨) هذا الباب يرجع تاريخه الى العصر المريني ، والحديث عنه يستوفي في موضعه. فيما بعد

٢٩) وردت الإشارة الى الشيخ أبي مروان عبد الملك ابن حيون في الأنيس ٤٧ ، وزهرة الآس ص ٧٧ ، وفي كتاب (ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم) لمؤرخ مجهول ، وقد وقفت على حوالة من عام ٩٢٢ تردد صدى وصية الشيخ عبد الملك المذكور بالثلثين للأسرى والثالث الباقي للمساكين ، وعند غلاء الأسعار يحول ثلثا الأسرى ليستعين به الفقراء على الغلاء ، وابن حيون هذا هو من ذرية الحافظ أبي علي حسين بن محمد ابن فيروه الصدفي من شيوخ القاضي عياض الذي تحتفظ الجغبوب بنسخة للبخاري بخطه . وهو بالذات الذي خلع على الشاب عبد الله بن موسى المعلم برنساً أبيضَ عند تعيينه خطيبا على منبر القرويين ، وليس القصد الى محمد بن علي بن حيون كما في السلوة ، فان هذا من أهل القرن التاسع (مشاهير فاس ، بيت الغماري). السلوة ١ ص ٢١١ .

٣٠) كان العارف عبد المجيد البادسي يسكن في هذا الفندق ، وقد توفي سنة ١٠٠٤ - الصفوة .

٣١) الآس ص ٧٧ .

٣٢) سمي كذلك لان أحد المصلين كان ورد على القرويين فحبس حصانه عند الجدار فلما خرج وجد عددا من الناس ينتقدون صاحب الحصان الذي تركه يوسخ باب المسجد بفضلاته ، فنذر له ان يجدد بناء الباب وعوضا عن ان يصب على الرمل والجير بالماء العادي كان يستعمل ماء الورد امعانا في تكريم المسجد فعرف الباب منذ ذلك الوقت بباب الورد . France maroc 1918

٣٣) جددت قبة هذا الباب في عهد السلطان عبد الحق بن أبي سعيد آخر ملوك دولة بني مرين عام ٨٤٨ بواسطة الحاجب ابن زكرياء يحيى الوطاسي ، على ما سيأتي في الباب الثاني .

٣٤) سمي باب الحفاة لأن الفقراء من المؤمنين الحفاة الأقدام يدخلون منه ليتمكّنوا من غسل أقدامهم في البيلة الممتدة عند مدخله وقد التبس هذا الباب على الاستاذ طيراس بالميضأة المجاورة ، فظن أن هذا الباب باب لها .

٣٥) راجع الفصل الخاص بجلب الماء للقرويين للمرة الأولى .

٣٦) الأنيس ١٤٥ ، الآس ص ٧٠ - ٧٢ .

٣٧) سئل الامام التازغدري عن مسئلة تعويض دار بني بشير الخربة بدرب ابن حيون من فاس المحبسة على القرويين ، فأجاب أنه لا يصح ؛ لأن هذا الموضع أغبط مكان في البلد ، المعيار ٧ ص ١٤١ (وبجيرانها تغلو الديار وترخص) ، المقري : أزهار الرياض ص ١ - ٢٤ .

٣٨) كان هذا منذ عهد المكودي شارح الألفية ، واستمر الى ما قبل العهد الأخير ، السلوة ١ - ١٨٧ .

٣٩) نقصد الى الحوالات التي تسلسلت منذ بداية القرن العاشر ، كانت دون شك صورة لما كان عليه الحال أيام المرابطين والموحدين .

٤٠) صارت دارُ الشيخ المنجور الى الشريف ابي حفص الامراني الذي حبّسها على بعض المؤذنين وتوجد بباب هذه الدار دكانة ، وكان مولانا ابو حفص عمر بن مولانا عبد الرحمن السجلماسي الحسني الامراني حبسها على المؤذنين الطالب محمد السلوى وعبد المجيد ، وذلك في ٢٥ جمادي ١١٥٥ .

٤١) الحاجّة بتخفيف الجيم كانت تودع فيها اللقطات الضائعة للاعلان عنها عند باب الصالحين بعد صلاة الجمعة .

٤٢) نذكر منهم الطالب السريفي : تنبيه الصغير من الولدان : البحث العلمي يناير ١٩٦٦ ص ٢٤٧ - ٢٥٣ .

٤٣) الحوالة الإسماعيلية سنة ١١١٥ .

٤٤) الأولى عن يسار الخارج من القرويين في ملك أولاد السلاوي اليوم ، والثانية في ملك بناني ، والثالثة في ملك الحارثي ، والرابعة في ملك السراج ، والخامسة في ملك المريني ، والسادسة في ملك العسري ، بينما الاخيرة وقف على الضريح الإدريسي ، وممن عمَّرها الكتبي سيدي عمر بن الخياط .

٤٥) الأولى بيد السلاوي ، ثم التي كانت بيد الفقيه البردعي ، ثم التي بيد السلاوي ، ثم التي بيد العسري ، ثم التي بيد الحلو ، ثم التي كانت بيد سيدي الحبيب البلغيثي .

٤٦) جنى زهرة الآس ٧٨ - ١١٠ - الوزان : وصف افريقيا ١ ص ١٩٢ .

٤٧) كانت تلك التغييرات بصفة خاصة على اثر الاستغناء عن باب الحدودي في عهد بني مرين ، وبعد تشييد مصرية الامام والخطيب في عهد الوطاسيين وتأسيس المكتبة الاحمدية في عهد السعديين من بعدهم ، وقد اصبحت الجهة برمّتها تابعة للخزانة الكبرى والمجلس العلمي : فعندما تقرر بناء دار للامام والخطيب تنفذ للجامع مباشرة ايام الوطاسيين هدمت نهائيا باب الحدودي ، وقد اتصلت بهذه الدار خزانة السعديين ، وهكذا حُدّدت القرويين من جهة الجنوب الشرقي بالدار التي صارت بناية للمجلس العلمي والتي لها بابان احدهما لداخل الجامع والثانية لساحة الصفارين ، ونذكر بهذه المناسبة ان هذا الباب الذي يفتح على الصفارين كان يوجد عن يمينه درب يحتوي على دورا ادركنا منها دار الحَبابي الموقت ، وقد ادمج هذا الدرب في الخزانة الكبرى بعد توسعتها ، كما توجد عن يساره سقاية الصفارين التي تقابل - بانحراف - شجرتي التوت اللتين ما تزالان تظلان ساحة الصفارين ...

٤٨) باب صغير مدرج ذو مصراعين يحاكي بابًا قديماً وكان في الأصل باباً لمصرية الإمام الخطيب .

٤٩) مما أمكنت قراءته على واجهة السقاية منقوشاً : « ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجُها كافوراً عيناً يشرب بها عبادُ الله يفجّرونها تفجيرا.. كمل عمل هذه؟. قعدة ؟» .

٥٠) يظهر بحسب جنى زهرة الآس أن باب الحدودي ربما كان حيث دار الجرندي الآن ، لأنه قال إن السقاية يمين الخارج من الباب ، وراجع مع هذا الحوالة الاسماعيلية لعام ١١١٥ .

٥١) الاسم القديم للممر الذي يأخذ من باب السبع لويات مارًّا على الفرن الى باب ابن حيون ، هو عقبة بن بكار في القديم .

٥٢) جعل هذا الفران - بحسب الحوالات القديمة - الى نظر القاضي ، يوزع دخله على الضعفاء والمساكين ، وهو اليوم بين ملاك كثيرين : الجاي ، ابن ابراهيم ، العلمي ، بنيس ، الازرق ، الصقلي ، والفرن يخدم دربين هامين يجاورانه : درب السبع لويات ودرب ابن حيون .
Ricard. France maroc 15 mars 1918

٥٣) زنقة الطرون هي الدرب الضيّق الذي فوق درب السبع لويات والدار المشار اليها كانت وقفاً على الاشراف القادريين.

٥٤) من جملة الأعمال الانسانية التي تنبه اليها المتقدمون الوقف على المتزوجين الفقراء ، وهي دور بفرشها وأثاثها : واحدة في عُدْوَة الأندلس في حومة العيون بيد الشرفاء الدباغيين ، وثانية بنفس العدوة من حومة الكدان قرب جامع الأندلس قبالة جامع جنائزها ، كانت الى وقت قريب زريبة في تصرف الأوقاف ، وقد أصبحت الآن في عداد فندق وحوانيت هناك . وثالثة في عدوة القرويين ، وقد ذكرت بعض المصادر «أنها بالدرب الذي أعلى السبع لويات أولى عن يسار داخله ، وهي ما تزال تصرف الأوقاف الى الآن ، وتحمل اسم «دار العافية» في الحوالات القديمة ، حول محاسن فاس (مجلة المغرب) ، الرباط ، مايو ١٩٣٣ ص ٢٠ – ٢١ – ٢٢ .

٥٥) دار العافية من وقف الشيخ ابن مروان عبد الملك بن حيون المتوفى سنة ٥٩٩ ﻫ ، ونحن نعلم أياديه البيضَ على الفقير والكسير والأسير. راجع ص ١٠٤.

٥٦) الآس ص ٧٧.

٥٧) هذا هو الفندق الذي ورد ذكره في وثيقة وقف منقوشة على رخامة مغروسة في قاعة الصلاة والدرس بمدرسة العطارين والمصباحية وكان يسكنه سيدي عبد المجيد كما سلف ، ويذكر ابن الوزان الفاسي ان بفاس زهاء مئتي فندق ، غالبها يحتوي على ثلاث طوابق ، وانها كانت في منتهى الابداع والاتقان بحيث لا تقل في العناية والمظهر عن مدارس الطلاب ١٩٠,١٠ .

٥٨)كان هذا الدرب من اهم دروب حريم القرويين . وكان يحوي على حمام داخله ، اصبح بعد أروى ، وينسب للمحسن الكبير الشيخ عبد الملك بن حيون المذكور صاحب الأوقاف المتعددة التي فيها الحبس على المنادي في الأسواق بعد الآذان لحث الناس على الالتحاق بالمسجد .

٥٩) الانيس ص ٤٤ الحوالة الاسماعيلية – الحوالة السليمانية – ابن زيدان ، الدرر الفاخرة – وقد أصبحت هذه الدار مكاناً لاجتماع المجلس العلمي على أثر حفلة التنصيب بقصر البطحاء يوم ١٦ رجب ١٣٣٢ (١٩ مايو ١٩١٤) .

٦٠) من أقدم القضاة الذين سكنوا هناك القاضي ابن الغرديس الذي نزل عليه القاضي عياض ، المقّري ازهار الرياض ١.

٦١) الانيس ص ٤٨ – الآس ٧٤ .

٦٢) كان ممن سكنها الشيخ ابن عياد ، والمقري صاحب النفح ، يقول : سكنتهُ لما توليت الخطابة والإمامة بها مضافَيْن الى الفتوى .. الآس ص ٦٠ النّفح ٢٦٥,٧ – ٢٦٨ .

٦٣) يذكر السيد ابن حمو شيخ سَدَنَةَ القرويين إنه كانت هناك قوس (خلوة) كان الشيخ ابن عباد يعتزل فيها للعبادة ، وان تلك القوس لم تختف إلا عندما جددت خزانة ابي عنان في الأعوام الأخيرة .

٦٤) كان هناك وقف مثل هذا على أبواب حفاة جامع الأندلس ، ونشير بالمناسبة الى العقار الذي كان موقوفا لغرض شراء الحبوب للطيور ايام المسغبة وتوزيعها في كديتي البراطيل بباب الفتوح وباب عجيسة .. هذا الى المال الموضوع بباب حوانيت سوق القيسارية لتسليف المحتاجين كما نص على هذا عند شرح قول ابن عاصم :

الحُبْس في الاصول جائز ، وفي مُنَـوَّع العَـيْنِ بقـصد السلـف

علي الشرفي ، مجلة المغرب ، مايو ١٩٣٣ ص ٢٠ – ٢١ – ٢٢ .

٦٥) السوامر : جمع سامرة (باللهجة المغربية) تعني الفانوس ، وقد تحمل السامرة عددا من المصابيح . الآس ٧ ،

٦٦) ابن ابي زرع : الأنيس ١٥٤ .

٦٧) الأنيس ص ٢٨ – ٢٩ .

الفصل الخامس

* التاريخ الفكري للقرويين في العصور الاولى
* فاس حاضرة المغرب
* القرويين وفاس
* القرويين اقدم جامعة
* سيلفيستر في القرويين
* التيارات المذهبية بالقرويين
* التنافس بين مراكش وبغداد
* المدارس في عهد المرابطين والموحدين
* الخزانة العلمية
* الكراسي العلمية
* الاجازات العلمية
* زي العلماء
* شروط الالتحاق بالقرويين
* طريقة التدريس
* الموادّ الدراسية
* المؤلفات المستعملة
* مركز العلماء
* رئاسة الجامعة واستقلالها ونظام القيم
* سجلات الاوقاف وموارد العلماء والطلبة
* العطل وسلطان الطلبة .

عرض تاريخي للقرويين

لكي نكوّن فكرة واضحة عن هذه المرحلة ، نرى من المفيد ان نقدم عرضا قصيرًا لبعض الأحداث التي عاشها المغرب ، فأن تاريخ القرويين الفكري ظل متأثرا بظروف الحياة في المغرب .

* * *

كان من مبادئ الدولة الادريسية ان تتمسك بعدم الانحياز أمام تنافس (الفاطميين) بافريقية ، « والأمويين » بالأندلس ، لكنها غلبت على أمرها في بداية القرن الرابع الهجري ، فمدت اليد الى القيروان ، وخطبت للفاطميين على المنابر ، وهنا أخذت قرطبة تلوح بوعودها للرؤساء الزناتيين الذين كانوا قد أخذوا بزمام الأمر بعد اختفاء الادارسة ، وظل منبر جامع القرويين ردحاً من الزمان ميدان تنافس بين قرطبة والقيروان ، حتى ساعدت المصادفات الدولية على تخليص فاس ، فقد اختلت الأمور بالأندلس أوائل القرن الخامس الهجري ، وسقطت القيروان كعاصمة سياسية في نهاية النصف الأول من هذا القرن ، وهنا رجع المغاربة الى الاستقلال التام الذي كانوا يتوقون اليه ، واستقرت الأحوال في البلاد ، وقصد العلماء والشعراء أمير فاس ، فهنؤوه ومدحوه ، ورأت (حاضرة المغرب) فاس « أعوامًا » زاهرة .

لكن اختلاف الرؤساء كدّر من صفو عيشها أياما ، وبينما الزناتيون في نزاعهم سادرون اذا بالمرابطين ينزلون على أبواب فاس ، وقد كان أهم عمل قاموا به إعادة توحيد البلاد والقضاء على البرغواطيين [1] ولقد أدى التدهور الذي اجتاح الأندلس الى قصد بابهم وطلب مساعدتهم ، وهكذا غدا المغرب أكثر من أي وقت مضى ملاذا للفقهاء ورجال العلم الأندلسيين.وما ازفت سنة ٥٤٠ هـ حتى ورد عبد المؤمن يحاصر فاسا ويقضي على المرابطين ، ويعفي من أثارهم ، وبالرغم من ان مدينة مراكش أصبحت مقر الخلافة ، ومجلسا لأعيان الامبراطورية الموحدية من أفريقية والأندلس وباقي أجزاء المغرب ، وتجمعا للقضاة والعلماء والفقهاء والخطباء والشعراء والأطباء ، ظلت فاس تشهد كل هذه الوفود جيئة ورجوعا اذ كانت الممر الطبيعي لسائر الجهات .

فاس : حاضرة المغرب

ظلت الشكوى من اهمال المغاربة لتاريخهم لازمةً لكل الذين حاولوا ان يقدموا الى المكتبة المغربية تاريخا مدققا ، وخاصة المراحل الأولى التي تقع وراء الظلال [2] ومع ذلك فان هناك نصوصًا في منتهى الروعة والبداعة عن المدينة العالمة : فاس ، ومن الملاحظ والطريف معًا أن جل الذين طوقوا جيد فاس بهذه القلائد الثمينة كانوا من غير أهلها الأمر الذي يزكي هذه الشهادات ويعطيها قيمتها الحقيقية ، لقد حلاَّها بالمدينة العظمى المؤرخ الجغرافي الرحالة اليعقوبي (ت ٢٩٢) وقال الشريف الادريسي (ت ٥٦٠) : «ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى... وهي حاضرتها الكبرى ومقصدها الأشهر ، تشد لها الركاب واليها تقصد القوافل . . . ولها من كل شيءٔ حسن أكبر نصيب وأوفر حظ . »

وتحدث عنها السفير ابن منقذ (٥٨٦) رسول صلاح الدين الى المنصور الموحدي ، بعد عودته بما أثار التقدير لها والإعجاب بها [3] .

أما عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب (٦٢١)، فقد آثرها بنصوص تبقى غرة في جبينها، وإن كان يتحدث في وقت كانت فيه مدينة مراكش هي العاصمة الرسمية للمغرب، لقد نعتها بأنها بغداد المغرب، وأنها المدينة الوحيدة التي تستطيع أن تعيش مكتفية عن غيرها، وأوضح أن المرابطين وكذلك الموحدون من بعدهم عندما اختاروا مراكش مركزًا لهم لم يقصدوا قطُّ أن يقللوا من قيمة فاس. يقول المراكشي: «إنها حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذْ كانت قرطبة حاضرة الأندلس لما كانت القيروان حاضرة المغرب، فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بعيث العرب فيها، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت ابي عامر محمد بن عامر وابنه، رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء، والفقهاء من كل طبقة فرارًا من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس، فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب، وبحقّ ما قالوا من ذلك، فانه ليس في المغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب اليها، موجود فيها، ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب، ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطنًا لهم ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة [٤]، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها، وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها الاّ ما كان من العطر الهندي — سوى مدينة فاس هذه، فانها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعو اليه الضرورة بل هي تُوسع البلاد مرافق وتملأها خيرا [٥]. هكذا بهذه الكلمات الصائبة يقدم المراكشي في المشرق فاس، وهي تؤكد القولة المأثورة: «العلم كقمح نتج بالمدينة، وصفي ببغداد، وطحن بالقيروان، وغربل بقرطبة، وأكل بفاس [٦]».

ويأتي صاحب الاستبصار (٦٧٨ هـ) ليؤكد أنها قاعدة بلاد المغرب، بل وبلاد المشرق والأندلسُ لا سيا في عهد هذا الأمر العزيز (يعني دولة الموحدين)، ومنها يتجهّز إلى بلاد السودان، وإلى بلاد المشرق، ومنها يحمل الناس النحاس الأصفر الى جميع الآفاق، وعظمت نفوس أربابها، وشمخت أنوفهم، وكبرت هممهم. قال: وانما هجاهم أبو بكر البكي لأنه لم يصل الى مراتبهم، أو كما قال، ومن الطريف أن تستمع الى صاحب الاستبصار، وهو يحاول أن يتوّصل الى اكتشاف السبب الذي جعل بعض الناس يسمحون لأنفسهم بهجو فاس — نستمع اليه وهو يقرّر أن الشح الذي قد يؤاخذ به بعض أهل فاس — إن كان — يعدّ غريزة في النفوس التي تطمح الى المزيد من الثروة والكسب ...! ومن الممتع كذلك أن نستمع اليه وهو يردّد صدى عتاب أبي الحسن بن حرزهم للبكي على ما بدر منه نحو فاس، الأمر الذي يقدّم الينا تزكية أخرى من العلاّمة ابن حرزهم، قال: ولو كان عمل الشر مهلكا لفاعله لهلك البكي لحينه..! ويختم صاحب الاستبصار بهذه الإفادة التي تلتمس بعض العذر للذين أهملوا تاريخ رجالهم: «وكان بفاس في الدولة اللمتونية علماء أغنتهم شهرتهم فيها عن ذكرهم [٧]». وقد نقل صاحب كتاب مفاخر البربر عن المؤرخ محمد بن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣ هـ) أنه كان بفاس من الفقهاء والأعلام الأجلة الأعيان الأنام ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام، إذْ هي قاعدة المغرب، ودار العلم والأدب، لكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائهم، وأغفلوا تخْليد مفاخرهم ويقول ابن أبي زرع (٧٢٦ هـ): «وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء والصلحاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم، فهي في القديم والجديد دار علم وفقه وحديث وعربية، وفقهاؤها الفقهاء الذين يقتدي بهم جميع فقهاء المغرب، لم يزل ذلك على مرّ الزمان . . .

وانتهت في أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب ، وانتهى عدد مساجدها الى سبع مئة واثنين وثمانين . . . وعدد معامل النسيج فيها الى ثلاثة آلاف وأربعة وستين معملا وعدد فنادق التجار والمسافرين الى اربع مئة وسبعة وستين فندقا ، وعدد معامل الزجاج الى أحد عشر معملا وعدد مصانع الخزف الى مئة وثمانية وثمانين مصنعا . وعدد مسابك النحاس الى اثني عشر مسبكا ، وانتهى عدد معامل الكاغد الى اربع مئة معمل[٨] . » في حين انه لم يكن مستعملا ولا معروفا في العالم أجمع باستثناء الصين [٩] .

وقد ورد في المسالك للعمري (ت ٧٤٩) « انها تشبه بدمشق وغرناطة ... وان أهلها يشبهون بأهل الاسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة ، وتغيير المنكر ، والقيام بالناموس ... » وقد وصفها الكاتب المؤرخ ابن جزى (ت ٧٥٧) : بأنها مطمع الآمال ، ومسرح همم الرجال ، ومحط رجال الفضائل ، ومثابة امن الخائف ومنية السائل ... انثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفاة ، وتسابق اليها الأدباء تسابق عزماتها الى العدات . . . فهي القطب الذي عليه مدار العالم ، وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم .

ولم تفارق تلك الصفات مدينة فاس ، وكما تحدث عنها اولئك أيام الادارسة والزناتيين والمرابطين والموحدين ، نرى طائفة من الرجال الأفذاذ يقدمونها في العصور اللاحقة على نفس الاسلوب الذي استعملته الأجيال السابقة... وهكذا نرى ابن الخطيب (٧٧٦ هـ)[١٠] وابن خلدون (٨٠٨ هـ)[١١] والعقباني (٨١١)[١٢] ، والونشريسي (٩١٤)[١٣] ، والغماري (٩١٧) [١٤] ، والوزان (٩٢٣) [١٥] ، وأبا المحاسن الفاسي (١٠١٣) [١٦] ، وابن القاضي (١٠٢٥)[١٧] ، والقادري (١٠٢٨)[١٨] ، والمقري (١٠٤١)[١٩] ، وغيرهم من أعيان العلماء والمؤرخين يتحدثون عن نفس الانطباعات التي كانت لأسلافهم ، وقد سجل التاريخ في صدر هؤلاء أسماء ملوك لم يستطيعوا كتم تقديرهم لفاس [٢٠] .

... وكما أدى النثرواجية نحو حاضرة فاس ، انطلق الشعراء في القديم والحديث بما لم يعرف لمدينة من المدن ، لقد نعتها البجلي بأنها « المدينة التي أضفى عليها الله من خلق الأنبياء[٢١] ، وأخذت جداولها بلّب الأديب الأندلسي ابن اللبّانة (ت ٥٠٧ هـ) ، فشبه عيونها بالمدام ، ووصف بيوتها الجميلة بالكؤوس [٢٢] ! وشاعر الجزائر أبو الفضل المعروف بابن النحوي (ت ٥١٣ هـ) كان يرى أن الحسن كلّه مستمد منها[٢٣] ، وشاعر مكناس (ت ٦٥٩) ، وإن كان يحن الى وطنه ، أشاد بفاس في شكلها وموضوعها ، مظهرها ومخبرها[٢٤] . وحياها الكاتب المغيلي (كاتب السلطان يوسف المريني (٧٠٨ هـ) في شعر رقيق ، وسمها فيه بأنها « جنة الخلد » ، وأشاد بالمتعة الفكرية التي يشعر بها المرء وهو يأنس فيها بجموع العلماء[٢٥] ، وآخر يصف الوفود التي ما تفتأ تقصدها طلبًا للفائدة والعلم[٢٦] ، وشاعر آخر يباهي بها الشام ، وناهيك بدمشق في سالف الايام[٢٧] !

ويقسم السلطان أبو العباس احمد بن ابي سالم المريني إن لفاس سيطرةً عليه ، ما يدري سرَّها[٢٨] . واعتبارًا لمركزها العظيم هذا كان المقام بها مما قد تكتنفه المصاعب والمتاعب ، لذلك مثلها بعضهم بالجنة « تحتف بها المكاره »[٢٩] ، وكان لتلك المصاعب ردّ فعل عند آخرين ، ظهر فيما روّحوا به عن أنفسهم[٣٠] .

لقد استمرت فاس تستقطب العواطف ، وتحبّب اليها النفوس ، بما احتضنته من أنواع المغريات التي كان من أبرزها هذه الحركة العلمية الدائبة التي تكفي وحدها لإثارة هذا التغنّي بجمالها وحسنها[٣١] .

ولو حاول الباحثون أن يستقصوا ما قيل في حاضرة فاس ، لسجلوا صفحات ذهبية وهاجة طافحة « ربما تنسي كل ما وُصفت به بغداد ودمشق والقاهرة » على حدّ تعبير علاّمة سوس الشيخ محمد المختار السوسي[٣٢].

والحقيقة أن اسم فاس يوحي بتاريخ زاخر بالحوادث والأمجاد ، برجالاتها ومعالمها ، وان اسمها لا يوحي باسم مدينة فقط أو موقع جغرافي في جهة من الجهات ، ولكنه يبعث في النفس ذكريات منارة متعالية ، هدّت باضوائها الوهاجة أولئك الغابرين ، وظلّت تضفي بإشعاعها على هؤلاء الحاضرين ، وهل عرف العالم كلّه بلاد المغرب إلا اذا قرنت باسم فاس ؟ !

القرويين وفاس

عندما يتحدث التاريخ عن حضارة مدينة ما من المدن ، فانه يقصد الى عدد من الكيانات وطائفة من المقومات جعلت من تلك المدينة حاضرة ، وفيما يخص فاس بالذات ، فهي على الرغم من انها العاصمة الاولى للدولة الاسلامية في هذه الديار ، فيها شيء آخر كان وراء هذه العاصمة ، هو قلبها وهو عصبها وهو روحها وبصرها ، هو كل شيء فيها ، ولم يكن هذا الشيء غير « القرويين » التي ظلت القلب النابض والعقل المفكر لتلك الحاضرة ، اذكر ان القاضي ابا عبد الله بن ابي الصبر لما عاتبه السلطان ابو يعقوب على تسرعه في اصلاح فندق الشماعين دون رجوع سابق اليه ، اجابه بكلمة قصيرة ، ولكنها تحمل في طياتها كل الدلائل على ما للقرويين من اثر منذ ذلك التاريخ. فقد اقتنع العاهل المغربي ، وهو يستمع الى قاضي القضاة يقول : «كرهت الخراب بقرب القرويين الذي هو عيْن فاس[٣٣] وعندما نتصور العين ، نتصور معها كل عناصر الحياة ، كل عناصر الجمال ، فان ما عرفت به فاس من تقدم اقتصادي وازدهار صناعي ورقي اجتماعي كل ذلك ، مرتبط بالعلم والثقافة ، ولم يكن هناك من مركز يمثل ذلك العلم وتلك الثقافة الا القرويين الجامعة التي يرجع اليها الفضل الاول في اعلاء شأن البيوت وتدرجها في مدارج الكمال[٣٤] ، لهذا كانت فاس مدينة للقرويين في كل ما نالته من حظوة عبر التاريخ[٣٥].

بداية التعليم بالقرويين

يخيّل اليّ انه عندما يسأل المرء عن الوقت التي بدأت فيه دراسة العلم بالقرويين ، فكأنما يسأل عن الوقت الذي بدأت الصلاة فيها ؟ لأن تلك من هذه ، لا فرق بينهما اطلاقا في نظر الاسلام. وكما يعرف ذلك من لهم صلة بدراسة تاريخ المسجد ، ان العادة التي جرى عليها الاسلام منذ ايامه الاولى ان يتخذ من المسجد الذي تقام فيه الصلوات مركزا للتعليم والتثقيف ، كما يتخذه مجلسا لمناقشة الشؤون السياسية ومحاكم لتثبيت الحقوق ، ففي البخاري عن ابي واقد الليثي ، قال : «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد اذ اقبل ثلاثة نفر ، فاقبل اثنان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفا على رسول الله (ص) فرأى احدهما فرجة في الحلقة فجلس ، وجلس الآخر خلفهم ... » ، ولهذا نعتقد ان العلماء الذين وضعوا قبلة القرويين[٣٦] كانوا أول من حلق فيها لبث العلم والمعرفة ، وكيف نتصوّر الحال في جامع لا يبعد عن بيت الإمام يحيى الاول (٢٤٩ هـ) الذي استبحر عمران مدينة فاس على عهده ورحل اليه الناس من الشرق والقيروان والأندلس ؟ لا بدّ أن يكون في أوائل الذين عقدوا مجالس علمية حافلة بالقرويين الحافظ الثقة الشاعر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التّاهرتي (٢٩٦ هـ) الذي ورد على فاس باستدعاء خاصّ من الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس الذي كان على سابق معرفة به ، تجمعهما رابطة العلم

والأدب ، وقد عرف بمجالسه سواء في بلده ، أو بالقيروان ، أو بغداد[٣٧] فكيف لا يجلس للعلم بجامع عرفنا عنه ما عرفنا ؟ هذا الجامع الذي لا يبعد أيضًا عن بيت الإمام يحي الرابع (٣٠٧ هـ) الفقيه العارف العالم الذي قصده العلماء والشعراء من كل جهات العالم الاسلامي والذي جاء في ترجمته أنه كان يتوفر على عدد من الورّاقين لا شغل لهم إلا نسخ الكتب ، وبماذا كان يشتغل أولئك العلماء والأدباء ، ولمن كان الورّاقون يشتغلون ؟ وهل كان العلماء يزاولون دروسهم في الأزقة والدروب ، أم في الفنادق والمتاجر ؟ نحن لا نرى غير هذا البيت المقدّس جديرًا باحتضان تلك النخبة المختارة من قبائل العرب وديار الإسلام . نحن على اليقين كل اليقين أنَّ البكري لو لم يتخطّ الحديث عن فترة الإمام يحي ، أو بالاحرى لو لم تضع الكراسة التي تخص هذه المرحلة ، لَكُنّا وقفنا على الشيء الكثير مما يتعلق بنشأة القرويين . والأمر كذلك لو توفّرنا على تاريخ الوراق (٥٥٥ هـ) والبرنسي[٣٨] وأضرابهما. ومع ذلك فإن كل القرائن تدل على أن القرويين عرفت حلقات علمية منذ أيامها الأولى ، وكيف يتأتى ذلك في قرطبة والقيروان ، ولا يتأتى في فاس مع أنها أي فاس ظلّت على صلة في كل الحالات ، سواء في حالة ميلها الى هؤلاء أو إلى أولئك ، ظلّت على صلة بقرطبة والقيروان ؟ وقد وصف الجزنائي الدراسة أواسط القرن الرابع الهجري بمسجد الأندلس ، توأم جامع القرويين ، فقال : « وكان جملة من الفقهاء يدرسون العلم في مواضع من هذا الجامع ، وكانوا أهل الشورى ممن يقتدى بهم ، يقصدهم الناس من أقطار البلاد ، فمن مدرس، ومن طالب مما شاء من فنون العلم ، في مجالس شتى يقصدهم الناس للفتوى وطلب العلم ، كالفقيه جبر الله بن القاسم الخ الخ ... » ونحن مؤمنون بأن إيثار مسجد الأندلس بهذا الوصف يرجع الى سبب واحد ، هو ما جرت به العادة عند فضلاء المؤلفين من التماس البركة عند ختام تواليفهم بذكر طائفة من رجال الصلاح كما قال الجزنائي نفسه : « وقصدنا البركة في سرد تواريخهم ، ونشر الرحمة عند ذكرهم[٣٩] »، والا فنحن امام جامع هام ، لاقى حتى ايام تداول الحكم بين الفاطميين والمروانيين رعاية خاصة باعتماد منبره ، وتوسعته ، وذلك مما لم يظفر به جامع الأندلس .

والا فنحن نرى المؤلّف نفسه آثر جامع القرويين بحديثه الطويل الذي استوعب منه عدة صفحات ولم ينل مسجد الأندلس غير سطور محدودة .

وان كل ما يمكن ان تتوفر عليه العاصمة موجود هنا في « المدينة العظمى » ، وليس على الذي يريد ان يقف على الفرق بين العدوتين – على انهما معا جليلتا القدر – الا ان يقف على وضعهما اليوم ، فانه صورة متوارثة للعهود الغابرة ، وانه لمن الحيف حقا ان نبني السدود ، ونضع القيود بين أجزاء بلدة بعضها يرتبط ببعض ، لكن الأمعن في التعسّف ان نقول بوجود حلقات علمية بعدوة الأندلس، ونتوقف في وجودها بعدوة القرويين ! وان نمنع اجتياز الخطيب الصدفي[٤٠] ، وجبر الله[٤١] ، ودراس اسماعيل[٤٢] ، والشيخ ابي جيدة[٤٣] ، والصّديني[٤٤] للجسر الذي يفصل بين العدوتين ! ! كما نمنع القاضي ابن ابي عيسى[٤٥] ، والخطيب الفارسي[٤٦] ، وابن ودّون[٤٧]، والأزدى[٤٨] ، من عبْر الجسر من عدوة القرويين الى عدوة الأندلس.

* * *

هذا وان اقدم رواية وقفنا عليها مما تنص نصا على الجلوس للتدريس بالقرويين في غربيّها وشرقيها ، وفي جنوبها وشمالها ، تذكر ان ابن ابي جامع الانصاري الجياني كان يعطي درسا له بالجهة الغربية من القرويين سنة (٥١٥ هـ) قبيل

قيام المرابطين بعمليات البناء فيها [٤٩]، كما تذكر ان ابا الحسن على القيسي كان يعطي بها دروسه سنة (٥٥٤ هـ)[٥٠] بل ان بعض الروايات تذكر منذ هذا التاريخ المبكر طوائف من علماء الأندلس اخذوا يشدون الرحال الى مدينة فاس ليتخصصوا في بعض العلوم كالحال في الشيخ عبد الحق بن خليل السكوني البلي (٥٨٠ هـ) الذي ورد على ابي عمر السلالقي ليأخذ عنه علم الكلام ، وعلى ابي بكر الخدب ليأخذ عنه كتاب سيبويه[٥١]، كما يذكر التاريخ ان ابن ابي عبيدة الانصاري القرطبي ، (ت ٥٨٢ هـ) درس فيها وأخذ عنه جماعة بها علوم الحديث[٥٢]، ويتحدث التاريخ عن ابي نموي الفاسي (ت ٦١٤ هـ) الذي تصدر للاقراء شرقي القرويين بعد ان كان يدرس في مسجد زقاق الرواح[٥٣] وكل اصحاب تلك المجالس اساتذة وطلابا لم يكونوا يستصعبون الذهاب الى جامع ما بفاس مهما كان ، عندما يسمعون بظهور استاذ جديد كالحال في الجماعة من الأئمة الاعلام الذين قصدوا مسجد الطالعة لحضور درس ابن تومرت ... تلك الجماعة التي كان على رأسها القاضي ابو محمد عبد الحق ابن معيشة ، كانت تضم ابن الملجوم ، واخاه ابا العباس ، وابن ابي داود ، وأحمد بن دبوس ، وعبد الرحمن بن الشكة ، وأحمد بن بيضاء ، وابن احمد ، وعبد الرحمن بن الشريف ، وابن برقوقة ، وعبد الرحمن بن زكو وابن الغرديس ، وابن المغيلي ، وابن يعبد رأسه[٥٤].

اقدم جامعة . . .

رأينا ان المسجد كان مركزا أيضًا للتعليم منذ فجر الاسلام ، وبهذا نستطيع ان نقول ان مسجد « المدينة » كان اول معاهد التعليم في المشرق ، تبعه جامع البصرة والكوفة والفسطاط ثم كانت اول قبلة اختطت بالشمال الافريقي في القيروان ، وتبعت تلك وهذه مساجد انتشرت هناك وهنا كجامع الزيتونة بتونس[٥٥] سنة ١١٦ هـ ، وجامع القرويين بالمغرب ، والجامع الأزهر بمصر سنة (٣٥٩ هـ) ، بيد ان هذه المساجد لم تظل باستمرار مهيأة للتعليم ، فان منها ما انتهت فيه الدراسة منذ وقت مبكر ، ومنها ما انقطعت منه ردحا من الزمان .

لكن جامع القرويين بفاس يتميز اولا بأنه شيد في مدينة وضع حجرها الأساسي لا برسم ان تكون معبرا او متجرًا أو مصنعا ولكن لتكون اولا وبالذات « دار فقه وعلم »[٥٦]، وثانيا استمرت الدراسة فيها بصفة مطردة منذ الفترات الأولى ، ولم تتفكك حلقاتها العلمية حتى في الفترات التي تمت فيها أعمال الترميم والبناء .

وحتى عندما اتخذ المرابطون مراكش عاصمتهم[٥٧] عام (٤٦٢ هـ) وبُنيته جامع ابن يوسف، ظلت القرويين مركز اشعاع علمي وظل قضاة « مقر الخلافة » من أمثال عيسى بن عمران (ت ٥٧٨ هـ) يبعثون ابنائهم للتزود من معينها ، وكان يتم مثل هذا في الاصقاع الجنوبية ومدن الساحل الشمالي[٥٨].

ولقد كان للقيروان الفضل الاول في تكوين جامعة فاس ، وكانت هذه لتلك بمثابة الفرع من الشجرة[٥٩]، لكن القيروان لم تلبث ان تعثرت عثرتها الكبرى في القرن الخامس بتغلب عرب بني هلال ، فأصبحت اثرًا بعد عين، وكان من شأن ذلك ان يبرز جامعة القرويين ، فتألق نجمها ، وقوي ساعدها في الوقت الذي ضعف فيه شأن القيروان التي كانت بالأمس من عمد القرويين في التلقي والأخذ . ولم يكن حظ الزيتونة باحسن حظا من الجامع الاول، فبعد السنين الزاهرة التي عرفها الجامع والتي جمعت تكرارا ومرارا بين علماء فاس وعلماء تونس في مجالس استمتع بها الملوك والأمراء ، بعد ذلك لم ترحمها الأيام فان الاسبان لم يلبثوا ان قطعوا مسيرتها اواسط القرن العاشر ، وكان

للتدخل العثماني ايضا اثره في « تتريك » التعليم بالجامع الأعظم[٦٠] ... والأزهر الشريف الذي بدأ حياته العلمية سنة (٣٦٥ ﻫ) على يد عالم مغربي[٦١] هو قاضي القضاة ابو الحسن علي بن النعمان القروي ، الذي نهض بعبء الرسالة الاسلامية بعد سقوط بغداد ، لم يلبث ان ركد بعد ظهور دار الحكمة سنة (٣٩٥ ﻫ) ، ولم ينج من التقلبات والتدخلات[٦٢] أما بغداد التي تحدث ابن جبير سنة (٥٨٠ ﻫ) عن مدارسها الثلاثين التي كان من أشهرها النظامية والتي تحدث ابن سعيد عن دور كتبها بما فيها مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي (٥٦١ ﻫ) ، فان ابن بطوطة لما زار بغداد عام (٧٢٧ ﻫ) لم يجد اثرا لكل تلك المدارس ، الأمر الذي تفسره زفرة. أرسلها ابن بطوطة على ذلك العهد في هذه الكلمة القصيرة : «سبحان مبيد الأشياء ومغيّرها»[٦٣]: وهكذا سنجد انفسنا مضطرين — احببنا ام كرهنا — ان نحشر السياسة في حديثنا عن هذا الموضوع، ان المغرب باعتبار موقعه الجغرافي، واستماتة اهله في الدفاع عن بلادهم، ظل على العموم محتفظا بمقوماته كما هي منذ آلاف من السنين، فلم تتعرض مدينة فاس وجامع القرويين للرجات التي عرفتها الجامعات الأخرى .

واذا عرفنا الى جانب هذا ان جامعة بولونية بايطالية اسست سنة (١١٥٨) وجامعة السوربون عام (١٢٠٠) واعقبتهما اوكسفورد وسلامنكا ، قدرنا اذن ما تضافرت عليه نقول بعض الاساتذة والمستشرقين والمؤرخين الأجانب ممن كتبوا في شأن فاس ، فقد كتب الاستاذ ديلفان منذ زهاء قرن يقول : « لقد كانت مدينة فاس بحق دار العلم بالمغرب ، وتعد جامعة القرويين فيها اول مدرسة في الدنيا[٦٤]، وكتب المستشرق الروسي جوزي منذ ثلاثة ارباع القرن يقول : « ان اقدم كلية في العالم ليست في اوربا كما كان يظن ، بل في افريقيا في مدينة فاس عاصمة المغرب[٦٥] ... » ، ولما كان الاخوان جان وجيروم طارو يتحدثان عن القرويين اضطرا الى الحديث عن مراحلها الأولى بهذه العبارات تحت عنوان (مقبرة الفكر) قالا : « في هذه القرويين حيث كانت تزدهر علوم الميقات وفن الجبر ، في وقت لم يعتن احد فيه بهذين الفنين ، الا في ايطاليا وحدها بل في فرنسا كذلك[٦٦]... ، ولما كان الاستاذ روم لاندو يتحدث لرسالة المغرب[٦٧] عن جامعة القرويين قال : « وقد شيد في فاس منذ ايامها الاولى جامع القرويين الذي هو اهم جامعة وأقدمها ، وفي القرويين هنا كان العلماء منذ حوالي الف سنة يعكفون على المباحثة الدينية والمناظرات الفلسفية التي قد تتجاوز دقتها ادراك فكرنا الغربي ، وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات ، ويشرحون ارسطو وغيره من مفكري الاغريق ... » وأخيرًا يتحدث عنها الاستاذ لوتورنو في كتابه الحافل عن فاس بهذه الكلمات الصادقة : « ... ويمكن الاعتقاد — وان كانت النقول بين ايدينا لا تعطي معلومات مدققة — بأن هناك دروسا كانت تعطى بكل تأكيد في هذه القرويين منذ ايامها الاولى... » وترد في ناحية أخرى من الكتاب هذه الجملة الجامعة « ... لم تعدم فاس في كل وقت من الاوقات اوساطا مثقفة كان عشها الذي ترعرعت فيه ذلك المسجد الذي يسمّى القرويين[٦٨] وذلك الواقع هو الذي انعكس على اثار الشعراء والكتاب والعلماء المغاربة ممن تحدثوا في اوائل هذا القرن عن القرويين.

* * *

ان القرويين في بدايتها ككل المؤسسات التي يرجع تاريخها الى تلك العصور القديمة ، كما رأينا كانت مسجدا صغيرا فلم يلبث ان تطور شكلا ومضمونا عبر الايام الى ما رأينا ، على نحو ما تم في جامعة السوربون مثلا ، فقد كانت في اول أمرها تعطي بعض الدروس في اللاّهوت ، يلقنها احد الرهبان في حجرة قريبة من

نوطردام بباريس ، وفي اثناء القرن الثالث عشر المسيحي بنى احد المحسنين ويدعى روبير دوسوربون منزلا لايواء طلبة اللاهوت الفقراء وذلك ما جعله يدعى من بعد بجامعة السوربون. وهكذا كان الشأن في جامعات بولونيا واكسفورد وسلامنكا .

سيلفستر في القرويين

كما نرسل ابناءنا اليوم الى دول اوربا مثلا ، كانت البلاد المسيحية تتجه في عصور الازدهار الاسلامي الى الأندلس ، لتغترف من معين الحضارة العربية والاثار الاسلامية هناك . ولما كان تاريخ المغرب قد امتزج امتزاجا وثيقا بالاندلس ، كان الطلاب الذين يردون على قرطبة العربية المسلمة أو على المدن والقرى التي في إدارتها ، لا يجدون صعوبة في اجتياز البحر ليجدوا أنفسهم في برّ العدوّة ، ومن هنا ذاع الحديث حول وصول جيربير الى المغرب ، أو بالاحرى الى مدينة فاس حيث اخذ بطريقة ما في جامعة القرويين عن مشايخها ايام كانت اوربا تعيش عصورها الوسطى .

ونعتقد انه لو قام احد بهذه الزيارة غير جيربير لأمكن ان تمرّ دون تعقيب ، بيد انه والأمر يتعلق بهذه الشخصية التي تبوأت بعد منصب البابوية وأصبحت تحمل اسم سيلفيستر الثاني [٦٩] ، لا بدّ أن يكون لها آثار جدّ بعيدة ، لأنها تمس أممًا أخرى ، وتمس ديانة أخرى ، ثم إنها تثير حساسيات من شأنها أن لا تسمح بمرور الرواية دون نقد وتمحيض ، إن لم نقل دون تزييف أو تكذيب .

ونرى أنفسنا مطوّقين بأن نجيب عن بعض التساؤلات التي أثارها زملاؤنا الباحثون ممن تناولوا هذا الموضوع ، وأحبّ بادئ الأمر أن أذكر أنَّ هذه الرواية ليست من صنع « المثقفين المغاربة[٧٠] » نسجوها حديثا اعتزازًا بجامعتهم وحبًّا في اظهار مجدها ، ولكنها رواية لأحد المستشرقين المسيحيين المتعمقين ممن كان لهم فضل قوي على الدراسات الإسلامية والعربية بما قدّموه من مؤلفات ذات قيمة كبرى من الناحية الوثائقية ، ويتعلق الأمر بالاستاذ جوزي بندلي بن صليب أو جوزي كريستوفيتش[٧١] (Jouse Ponteleimon Krestovitich.) ، فقد نشر ضمن بحوثه القيمة كلمة قصيرة ولكنها مركزة في مجلة الهلال المصرية ، في الجزء الحادي عشر من السنة الأولى في أول يوليو من سنة (١٨٩٣ م) الموافق للسابع عشر من ذي الحجة من عام (١٣١٠ هـ) ص (٣٥٦)[٧٢] كانت الكلمة بعنوان : « أقدم مدرسة كلية علمية في العالم » كان فيما قاله الأستاذ كريستوفيتش : « ... ان أقدم مدرسة كلية في العالم أنشئت لا في اروبا كما كان يظن ، بل في افريقية ، في مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب سابقا ، اذْ قد تحقق بالشواهد التاريخية أن هذه المدرسة كانت تدعى (كلية القيروان)[٧٣] وقد أسست في الجيل التّاسع للميلاد ، وعليه فهي ليست فقط أقدم كليات العالم ، بل هي الكلية الوحيدة التي كانت تتلقى فيها الطلبة العلوم السامية في تلك الأزمنة حينما لم يكن سكان باريز واكسفورد وبارو (Paroue) وبولونيا يعرفون من الكليات الا الاسم ، فكانت الطلبة تتوارد على كلية القيروان[٧٤] من أنحاء أروبا وانكلترا فضلاً عن بلاد العرب الواسعة للانخراط في سلك طلابها ، وتلقي العلوم السامية باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين والمصريين والأندلسيين وغيرهم ، ومن جملة من تلقى علومه في هذه الكلية من الأوربيين جيربرت (Gerbert) أو البابا سيلفيستر[٧٥] ، وهو أول من أدخل الى أوربا الأعداد العربية[٧٦] وطريقة الأعداد المألوفة عندنا بعد أن أتقنها جيدًا في الكلية المذكورة كما يظهر ذلك من رسالته الى الامبراطور أتون (Othon) مساعده ، التي أتى فيها على ذكر الصفر العربي ، بقوله : « إني أشبهك

بالرقم الأخير من الأعداد البسيطة العشرة الذي يزداد قيمة بوضع أعداد أخرى عن يساره ... »[٧٧]. فها نحن هؤلاء نرى أنها ليست «رواية مغربية»، ولكنها رواية عن علماء مختّصين يصح أن نعدهم مصدرا هامًا لجوانب من حياة سيلفيستر، ما تزال خفية عن بعض الباحثين، ويصح أن تكون كلماته البيّنة الواضحة جوابًا عن بعض الاستشكالات التي وقفت في طريق أولئك الكتاب، وقد نشر تلك الكلمة في مجلة صاحبها «جرجي زيدان» مسيحيّ أيضًا، وكان الذين يردون عليه منازعه في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) يتهمونه بالكيد لتاريخ الإسلام، فهو بعيد من أن يحابيه على حساب دينه.

لقد اتفقت كلمة الأوربيين الذين أرخوا لجيربير أنه قضى وقتًا طالبًا في الأندلس بين سنة (٩٦٧ م ،٣٥٦ ه) وسنة (٩٧٠ م ٣٥٩ ه)، وهم يتفقون على أنه بعث من طرف القمط بوريل (Borrel)، ودرس تحت إشراف أوتون (Othon)، بمدينة فيش (Vich) الأندلسية شمال برشلونه[٧٨]. ويعتقد أديمار دوشابان (Ad. de Chabannes) أنه وصل ايضا الى قرطبة[٧٩]. لكن بلوغه الى مدينة فاس أمر أستصعبه بعضهم، وكان ممتنعًا عند البعض الآخر.

ويذكر بعضهم: أن فاسًا كانت من الوجهة الفكرية في القرن العاشر الميلادي تلميذة لقرطبة[٨٠]، وخاضعة لها، يعني ليس من المعقول أن يقصد الطالب مدرسة فرعية ويترك المدرسة الأم، على أن بعضهم استبعد ان يكون جيربير قد تأثر في إنتاجه الفلسفي والعلمي بالعلماء العرب والمسلمين، نظرًا لتعذر ذلك من حيث اللغة، فان الأساتذة المسلمين كانوا يلقنون طلابهم بالعربية، ولم يكن جيربير يعرف العربية[٨١].

وهكذا نرى أن هؤلاء لا يستبعدون سفره الى فاس حَسْبُ، بل يستبعدون أيضا أن يكون متأثرا بالحضارة الإسلامية.

والواقع أن حياة جيربير يكتنفها كثير من الغموض، لكنها – بفضل البحوث المتوالية التي تطلع بين الحين والآخر – تنجلي شيئاً فشيئاً للمتطلّعين، وكان الأولى في نظرنا أن تكون كلمة الأستاذ كريستوفيتش خطوة في سبيل إزاحة بعض الغموض وكشف الستار عن جانب من الحقائق المتعلقة بجيربير، كان الأولى في نظرنا أن يكون للكلمة التي نشرت منذ سنة ١٨٩٣م صدى لدى بيكافي (Picavet 7) المكتوب سنة ١٨٩٧م ومن تبعه من الباحثين الذين كانوا يتوقّون الى معرفة مصدر هذا « الاختراع الاكاديمي »[٨٢].

كان مما ساوَرَ ذهني، وأنا أقارن وأفارق بين الأفكار المتضاربة في الموضوع، أن كلمة فيش (Vich) ربما التبست على كريستوفيتش بكلمة فاس، فطفق ينسب الى هذه ما لتلك، وربما كان من بواعث التباسه ذلك الحديث العاطر من طرف الوزان عن كلية القرويين[٨٣]، بَيْدَ أن تركيز الرّجل – وهو من عرفنا – على فاس عاصمة المغرب كان مما يدفع تلك الخاطرة، وماذا يا ترى كان الفرق بين فاس والأندلس على هاتيك العصور؟ هل كانت هناك حراسة مضروبة على الأبواب تسأل الناس عن أوراق تعريفها؟ إن الرغبة الملحة في التعليم التي كان يتحلى بها جيربير تقتضي منه ذلك الاستطلاع، ويكفي حديث « جوزي » برهاناً، وان من حفظ حجةً على من لم يحفظ كما يقولون. وقد ذكر شارل سينيوبوس (Charles Seignobos) في كتابه تاريخ الحضارة (Histoire de la civilisation) أن أهل « بيزة » الايطاليين كانوا ينزلون الى مدينة « بجاية » في الجزائر، ومنها تعلموا في مصانعها صنع الشمع، ومنها نقلوه الى بلادهم والى أوروبا، ولا يزال مسّمى الشمع عندهم بوجي (Bougie)، وهو اسم بجاية في نطقهم الإفرنجي

وبها أي ببجاية تعلم الرياضي والمهندس الإيطالي اليونارفيوتشي المولود حوالي سنة (٥٧١هـ ١١٧٥م) العلوم الرياضية ، وخاصة منها علم الجبر والمقابلة ، وأدخلها الى اروبا (٨٤). وما قيل عن بجاية ، نقل مثله قبل عن مدينة القيروان (٨٥) ، ولهذا فإننا على مثل اليقين من أن بلاد المغرب كانت مقصداً لطلبة أروبا منذ أن اصبح للعرب والمسلمين وجود بتلك الديار.

أما « مشكل » اللغة التي كان جيربير يتفاهم بها مع أساتذته العرب ، فاننا نعتقد أنه مشكل غير موضوع البتة ، بل إن ما قاله الأستاذ جوزي كان مما ينبغي الاستفادة منه أيضاً حول اللغات التي كان جيربير يتوفر عليها ، وكأني بأولئك الذين وضعوا نقط الاستفهام أمام معرفة المسيحيين للغة العربية ، يقارنون بين بلاد المغرب التي عرفوها أيام محنتها وأيام نكستها ، وبين بلاد المغرب التي كانت تمتد الى أروبا وكانت تفرض لغتها على الجهات التي تتصرف فيها ... لنقرأ ما يتحدث به المستشرق كونزليز بلانسية (Gonzalez Palencia) عن أيام العرب بالأندلس (٨٦) : « إن سلطان العربية تمكن من المسيحيين في هذا العصر » تدل على ذلك شكوى الفارو ١٤٣٠ – (Alvaro) كاهن قرطبة ، وفيها يقول : « إن اهل ديني لا تلذ لهم إلا قراءة الشعر والقصص العربي ، يدرسون كتب التوحيد والفلسفة الاسلامية ، لا للرد عليها ، بل لتعلّم الأسلوب العربي الفصيح ، أين من يطّلع على كتب اللاتينية غير رجال الدين ؟ واحسرتاه ! إن النابغين من الشباب المسيحي لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابهم ، يدرسون كتبها باهتمام ، وينفقون في جمعها الأموال ويصرحون باعجابهم بها فاذا خاطبتهم بما في الكتب المسيحية ، أجابوك باشمئزاز قائلين : ليس فيها ما يستحق الذكر ! يا للالم : ان المسيحيين نسُوا كل شيء حتى لغتهم (٨٧)، فلا تجد في الألف واحداً يتقن رسالة باللغة اللاتينية في حين أن عدد من يتكلم بالعربية الفصحى لا يحصى ، بل كثير جداً عدد من يؤلفون القصائد الفنية الفائقة الممتازة عن قصائد العرب . »

كذلك يشكو الفارو ، ومهما تكن في تلك الشكوى من مبالغة ، فانها على كل حال تبين مقام اللسان العربي عند المسيحيين واليهود على السواء . واذا كان الحال على ما نرى ، فكيف لا يفكر جيربير في أن يتعلم العربية ، أو يتخذ له – في الاقل – ترجماناً يهديه الى معالم الطريق ؟ على أن الذين نصبوا أنفسهم للتعليم والتثقيف من الأساتذة العرب كانوا من المقدرة والاستعداد بحيث يحسنون لغة طلبتهم سواء اكانوا مسيحيين ام عبريين ، وهكذا كنا نجد في الاندلس مدارس تضم في الوقت الواحد والمكان الواحد متعلمين من الملل الثلاث اليهودية والمسيحية والاسلام . وقد استمرت هذه المعاهد تعمل الى سقوط مدينة مرسية . فقد ذكر صاحب الاحاطة انه عام ٥٥٣ كان في بياسة عالم غرناطي يدعى عبد الله بن سهل كان يحضر دروسه جمع كبير من المسلمين والنصارى واليهود ... وورد في نفح الطيب في ترجمة الاستاذ محمد بن أحمد بن ابي بكر القرموطي المرسي انه كان من اعرف اهل الاندلس بالعلوم القديمة : المنطق والهندسة والموسيقى والطب ، فيلسوفا طبيبا ماهرا اية الله في المعرفة بالاندلس ، يقرئ الأمم بالسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمّها . ولما تغلب طاغية الروم على مرسية ، عرف له حقه ، فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود (٨٨) . لكل هذا فان الذين تحدثوا عن وصول سيلفيسترلفاس ، وعن نقله للارقام العربية (٨٩) وعن افادته لتطورّ التشريع الرومايي (٩٠) وحركة الاستشراق (٩١) ، كانوا أبعد نظراً واوسع أفقا من الذين ضربوا عليه الحصار في شمال برشلونة !

* * *

التيارات المذهبية بالقرويين

لقد عرفت هذه الجامعة منذ أن فتحت أبوابها مناقشات ومناظرات حول شتى المذاهب التي غزت مدينة فاس ، ولقد تكبّد علماؤها ومشايخها مختلف ضروب الامتحان والشدائد في سبيل نصرة هذا المذهب اوذاك ، وكان مما يزيد في تصعيد النقاش بين المتناظرين بعد اختفاء بني إدريس ، تلك الاصطدامات التي كانت تقع بين الفئتين المتنافستين الامويين والفاطميين – على كسب المغرب تلك الاصطدامات التي كانت تصيب شرارتها – في صدر من تصيب – طوائف من العلماء او المشايخ الذين يتعرضون للقمع والتعذيب والنفي سواء من هذا الفريق أو ذاك حتى بعد أن اصبح المغرب حرّاً في اختياره غير تابع لا للقيروان ولا لقرطبة فان الذين تولوا مقاليد الامر فيه لم تتفق كلمتهم على المذهب الذي يجب أن يكون شعاراً للبلاد ، وهكذا ظلت السياسة مهيمنة على عواطف الذين كانوا يطمحون الى الحكم عن طريق اختيار هذا الرأي أو إبطال الآخر لتحقيق أهدافهم …

نحن نعلم أن المغرب بالرغم من بعده مسافة عن المشرق ، فانه ظل مرتبطاً به ، مصيخاً باسماعه لما يجري فيه ، يتلقّف ما يصل اليه من آراء وأفكار بواسطة المبعوثين والرّسل ، والحجاج والرحّالة ، وكذلك عن طريق المضطهدين الذين كانوا يجدون في المغرب حماية منيعة لهم من متابعة الحكام في المشرق ، وبهذا نفسّر مزاحمة عدد من المذاهب في المغرب لمذهب السلف الذي كان منتشراً في البلاد في صدر الاسلام ، وفي صدر تلك المذاهب مذهب الخوارج الذي تلقته طائفة من المغاربة أول القرن الثاني بصدر رحب ، لِما قدّم لهم عنه من مغريات ظهرت لهم محققة للغرض الذي كانوا ينشدونه من الاسلام ، ولا سيما بعد أن شاهدوا من بعض الولاة ما لا يرضيهم ، على أن في تلك المذاهب أيضاً مذهب الاعتزال الذي تزعّمه في المشرق واصل بن عطاء ، فقد وجد هذا المذهب ايضاً ، بسرعة متناهية ، صداه في المغرب ، وامسى له رؤساء وزعماء ، ولا بّد من أن نعيد الى الذاكرة أن أول درس لقنه إدريس لحاكم « وليلة » ، كان يتعلق بمذهب المعتزلة (٩٢) ، والى جانب هذا طبعا كانت هناك بقية المذاهب المنتشرة في الوقت ، وهي مذهب الشيعة ، ومذهب أبي حنيفة ومذهب الأوزاعي ومذهب داود الظاهري . لقد ورد إدريس يحمل مذهباً غير كلّ هذه المذاهب ، فنحن على سابق علم بما ورد عن الامام مالك من مناصرة بالأمس لمحمد النفس الزكية ، تلك المناصرة التي عرضته للمحنة والعذاب ، فَلِمَ لا يدعو الإمام إدريس اليوم الى الاقتصار على مذهب مالك ؟ وهكذا جاءهم « بالموطأ » ، فنشره بينهم ، وكان يؤثر عنه قوله « نحن أحق باتّباع مذهب مالك وقراءة كتابه » ، وذلك لرواية الإمام ادريس للموطأ عن والده عبد الله الكامل (٩٣) . وكما كان موقفه مع المعتزلة عند مقدمه ، فقد ناهض مذاهب الخوارج هنا وهناك في محاولة ناجحة لجمع المغرب على كلمة واحدة ، وانه إذا كان هناك من فضل للذين سعوا من أجل مغرب موحّد المذهب موحّد العقيدة موحّد المحراب – موحّد الحرف والتلاوة (٩٤) ، فان الفضل الاكبر يرجع الى إدريس الذي استطاع أن يحمل الناس على ان يتخذوا مذهب عالم المدينة قاعدة لعقيدتهم ، ولم يكن عمل إدريس شاقاً في إقناع المغاربة بقبول مذهب مالك ، لأن كل الخصائص التي تنسجم مع طباعهم تتوفر فيه ، فهم ميالون الى الأشياء الواضحة التي لا يكتنفها غموض .

لقد فتحت القرويين عيونها اذن على مذهب مالك ، وعلى بقية باقية من المذاهب الأخرى (٩٥) ، بيد أن سائر

تلك المذاهب أخذت تتقلص يوماً بعد يوم ، ولكن من غير أن يقفل باب النقاش حول بعضها كمذاهب . ولهذا فاننا مقتنعون بأن حلقات القرويين ما انفكّت مجالاً للنّظريات الرائجة في المدينة والكوفة . وقد كان يشجع المذهب المالكي في مدينة فاس مناصرة بني أمية في الاندلس له لقد نقل أحد الحجاج لعبد الرحمن الداخل عن الإمام مالك قوله، وقد جرى ذكر عبد الرحمن : « ليت الله زيّن حرمنا بمثله ! ! » لذلك لا يختلف شعور اهل الأندلس ازاء مالك عن شعور مملكة المغرب . وقد أثار هذا حفيظة الفاطميين فلم يمض قرن من الزمن على تأسيس القرويين حتى كانت حملة جوهر المحمومة على فاس ، فقتل عدداً من المالكية ، وحمل الناس على مذهب الشّيعة ، وصحب معه خمسة عشر من أشياخ فاس رهائن ، ونصب على المحراب أرصاداً تدل على « الوجود الشّيعي » في القرويين . ثم كان رد الفعل الذي تبعه ردّ فعل آخر ، وكلّ هاتيك الردود كانت تتهاداها زوايا القرويين ومثيلاتها ، وفي أي مكان غيرها يمكن أن يجد العلماء والطلبة فيه مجلسهم ؟ إن كل الحملات التي شاهدتها فاس كانت تعكس آثارها بين أساطين القرويين وقد رأينا كيف أن احد عمال المنصور بن أبي عامر ، بعد جولة للأمويين على فاس ، فتح موضوعاً فقهياً مع الشيخ أبي جيدة ، ظل مشغلة الناس حقبة من الزمن [٩٦] . ثم رأينا أحد علماء فاس المذهبيين [٩٧] ، أبا عمران الفاسي ، كيف يصطدم مع رجال الحكم ليمسي في منفاه بالقيروان ، ويشن من ثمة حملاته بمناصرة المذهب المالكي بين ظهرالي القرويين . وقد عاشت هذه القرويين أيام المحنة التي أصابت الناس بسبب إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي، ونال بعض علمائها الكثير من المضايقة في سبيل مناصرة آراء الشيخ أبي حامد لقد رأى قوم أن بعض الأحاديث التي يتضمّنها الإحياء كانت موضوعة لا أصل لها [٩٨]، وتخوّف آخرون من أفكار الغزالي التي تتضمن آراء المتكلمين ومذاهب الصوفية مما قد يمس عقائد الناس ، وهناك فريق من الناس رأى في ظهور الكتاب تهديداً للمركز السامي الذي ينعم به الفقهاء في البلاط المرابطي ، فقد نشأت طبقة من المختصّين في فروع المذهب المالكي ، نالت مكانة عليا في الدولة ، ومن شأن كتاب كالإحياء يستمد مباشرة من كتاب الله وحديث رسول الله أن « يشوش » على هيبة الفقهاء، فأدى ذلك الى إيعاز ابن حمدين قاضي قرطبة [٩٩] لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين باحراق كتاب الإحياء، فأحرق ، وتوعدوا بسفك الدماء واستصفاء الأموال كلّ من ضبطت عنده نسخة من الكتاب ، لكن هل كان ذلك كافيا لاقناع رجال العلم ؟ إن هناك جماعة من علماء فاس الذين كانوا قد اندفعوا مع التيار أول الامر تراجعوا حين ظهرت الحقيقة للناس ونذكر من هؤلاء أبا الحسن علي بن حرزهم الذي نهج طريق علماء آخرين في جهات أخرى أفتوا بأن الايمان التي اقسم بها الناس على أنهم لا يملكون « الإحياء » لا تلزمهم ، لأنها ايمان مغتصبة [١٠٠]! لا بد أن نتصور حماسة هذا الفريق وذاك ، لا بدّ أن نتصوّر الصّدع الذي وقع في صفوف رجال العلم حول الموضوع سواء في عُدوة القرويين أو في عدوة الأندلس ، لا بدّ أن نعرف مع هذا أن القرويين في هذا التاريخ دخلت مرحلة حاسمة من تاريخها إذ أصبحت ملاذ المرابطين في الوقت الذي اختفى فيه ذكر مسجد الأندلس [١٠١].

* * *

ولم تمض إلا اعوام قلائل حتى سمع علماء فاس [١٠٢]، وأولهم عبد الحق بن معيشة قاضي فاس ورئيس القرويين وقتئذ ، الذي ما يزال اسمه الى الآن منقوشا في قبة المحراب ، في القبة المستطيلة منها ، سمعوا بوجود ابن تومرت في مسجد طريانة من طالعة فاس ، وأنه يلقي دروساً هناك ، فقصدوه ، فسمعوا منه كلاما مزيجاً بين مذهب الشيعة ومذهب الخوارج ومذهب المعتزلة ، لقد دعا ابن تومرت الى الرجوع للكتاب والسنة . إن التقليد جمود ، واختلاف المجتهدين في

المسألة الواحدة خطأ[١٠٣]؛ لقد عاش ابن تومرت مع الغزالي ثلاث سنوات في بغداد، ومن هنا نعرف انطباعاته عن الذين أقدموا على إحراق كتابه الإحياء، ولنتصور حديث المجالس العلمية بعد هذا اللّقاء المثير. فمن هنا ابتدأت الحملات على خصوم الغزالي، وانتصب عدد من العلماء في القرويين من أمثال السلالجي (٥٦٤هـ)، وابن الاشبيلي (٥٦٧هـ) لنشر العقيدة الأشعرية والردّ على المرابطين (المجسمة) قصدهم علماء من الأندلس للتخرج عليهم والاستفادة منهم[١٠٤]، بل ان الحملات تجاوزت هذا النطاق الى الميدان السياسي، فاتهم المرابطون بالضعف امام العباسيين، والاستسلام لهم بالدعاء لهم على المنابر، وارسال السفراء اليهم[١٠٥].

عرفت مجالس القرويين كلّ هذه الموضوعات بتفاصيلها وثناياها وغضونها، وانهارت دولة المرابطين لتحلّ محلها دولة الموحدين التي جدّدت الدعوة لمذهب الظاهرية، وبعثت القول بعصمة الإمام لقد أوقعوا المحنة بالفقهاء، ومنعوهم من صعود المنابر، لأنهم رفضوا نعت المهدي بالمعصوم، وإمعاناً منهم وعناداً منعوا صعود المنابر أيضاً على من لم يخطب بالبربرية، فأثار ذلك حفيظة المؤمنين[١٠٦]، فنكبوهم، وضربوهم بالسياط، وألزموهم بالايمان المغلظة أن لا يملكوا من الآن كتاباً من كتب الفقه! ويقول عبد الواحد المراكشي: شهدت منها (أي كتب المذهب) كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب لابن البراذعي، وواضحة ابن حبيب وأنا يومئذ بفاس، يؤتى منها بالاحمال، فتوضع، وتطلق فيها النار[١٠٧]. وقد طلب الى العلماء جمع أحاديث المصنفات العشرة. قال المراكشي: «وكان قصده محو مذهب مالك، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والسنة»..

علينا أن نرحل الى تلك القرون الخالية بفاس، ونشهد مجالس القرويين ووجوهها الجديدة، وعلينا ان نسال عن رجال المرحلة الذاهبة، فهل استسلموا؟ سنرى أن حظ التنازل كان ضعيفاً جداً، وأن بعض الناس آثروا المصاعب على الحياة السهلة. لقد اشترط في الخطيب على منبر القرويين أن يتحدث الى المؤمنين بالبربرية، كما اشترط فيه الى جانب ذلك أن يكون مذهبياً، أي أن يضفي على المهدي بن تومرت صفة «العصمة»! وينبغي أن نتصوّر فقهاء القرويين الذين يرون في العربية الوسيلة المقدّسة لمخاطبة الله، ويرون أن العصمة مقصورة على الأنبياء. أينَ ابنُ معيشة، وأبن الملجوم، وابن داود وابن بيضا، وابن مسونة، وابن الغرديس، وابن المغيلي أمثال هؤلاء وتلامذة هؤلاء أين راحوا؟ لقد رأينا بعض الفقهاء من العرب الكنانية لم يترددوا في التعبير عن استيائهم من الموحدين بعدم الدعاء لهم على المنابر[١٠٨] كانوا يعتقدون ذلك عقوقاً للرحم التي جمعت بين القرآن والعربية، ولذلك كان رد الفعل – إزاء هذه «السياسة الرجعية» كما يسميها الأستاذ كنون، وازاء بدعة «العصمة» – في منتهى القوة أضف الى هذا ما تهامس به العلماء من النكبة التي حلّت بعد بابن رشد الحفيد من قبل المنصور الموحدي بسبب مذاهبه الفلسفية. لقد كان الفقهاء يتبارون في حفظ الفروع حتى يقطعوا الطريق على كل الذين يريدون النيل منها[١٠٩]، وكانوا أنشط ما يكون لتعقب الآراء التي يريد الموحدون نشرها بين العامة ...

التنافس بين مراكش وبغداد

لم ينس التاريخ ما كان اقدم عليه هارون الرشيد من العمل باشارة وزيره البرمكي لجعل حدّ للدولة الادريسية بالمغرب، ومع ان ولاة المشرق على القيروان ما انفكوا يجددون الغارات والحملات من أجل اخضاع الدولة فان المغرب ظلّ – كما عرفنا – متمسكا بمبدأ الاستقلال الذي اعلنه الامام ادريس غداة تنصيبه اميرا على البلاد، ولم يكن معنى هذا بالنسبة الى المغرب قطع صلاته الروحية بالمشرق، فانه كان يقدر جيدا الوشائج التي تربطه باخوانه في اللغة والدين، ولهذا حرص على ان يبقى دائما على علاقاته ببغداد، ولهذا ايضا بعث بمجرد ما أحرز

عليه يوسف بن تاشفين من نصر مبين في وقعة الزلاقة الشهيرة بالاندلس سنة ٤٧٩ هـ – بسفارة هامة الى المستظهر بالله، على راسها الامام ابن العربي ، ليحيطه علما بظروف الواقعة ، وليستمزج رايه في وحدة شاملة بين جناحي العالم الاسلامي ، ورجع الوفد يحمل معه رسائل من الخليفة المستظهر ومن الوزير ابن جهير ومن الامام الغزالي[١١٠]، تعترف جميعا بتحلية السلطان يوسف بن تاشفين بلقب امير المسلمين الذي كان تلقّب به قبل وقعة الزلاقة بمقتضى منشور رسمي بتاريخ ٤٦٦ هـ[١١١]. وتعبيرًا من المرابطين عن حسن النية ازاء الخلفاء في المشرق، دأبوا على ذكرهم على منابر المغرب الى جانب اسمائهم هم ، لكن هذا لم يكن مما يرضي الموحدين الذين استولوا على الحكم من بعد المرابطين، فقد كان ابرز انتقاد وجهوه الى سياسة خصومهم الخارجية ان هؤلاء ظهروا بمظهر الضّعف الكبير امام بغداد في وقت كانت فيه قوى المغرب في تصاعد وتزايد[١١٢]، وكانت النتيجة طبعا ان الغي ذكر حكام المشرق على المنابر ، وان تلقّب السلطان في المغرب بالخليفة الى جانب تحليته بلقب امير المؤمنين. لكن الملاحظ في كل تلك الحالات ، سواء عندما كان المغرب يدعو لاؤلئك على المنابر او عندما عاد لحالته الاولى من الاقتصار على ذكر ملوكه ، "انه اي المغرب ظل مرهف السمع لكل ما يجد في الشرق، فانت تشعر بنوع من المنافسة ، تصل أحيانا الى صراع تختفي اثاره لتظهر مرة أخرى، وكان من المعقول جدا بالنسبة الى المغاربة ان يراقبوا مسيرة بغداد ، اذ كانوا يرغبون في دفع بلادهم الى مستوى افضل. وقد لاحظنا ان ملوك المغرب كانوا يستطيعون بواسائلهم الخاصة احضار المخْطوطات المشرقية احيانا بسرعة متناهية حتى لتفوق احيانا المعتاد(٤) ، وليس امر ظهور الاحياء للامام الغزالي في المغرب ببعيد عنا ، فقد وصل ودرس واعطى فيه الرأي في فترة جد وجيزة تفسّر لنا سرعة ورود اخبار المشرق على المغرب ، ولا شك ان عكس الحال موجود بالنسبة الى بغداد ، فقد كان الخلفاء يتخذون لهم « اصحاب اخبار » يغدقون عليهم الأموال والعطايا ، ليزودوهم بآخر التطورات في المغرب[١١٣]وقد نقل التاريخ عددا من الاخبار ، تدل جميعها على ان هؤلاء في المغرب كانوا يعدون العدة لتزعم دولة اسلامية واحدة تمتد من المغرب الى أقصى الشرق[١١٤]، كما تدلُّ على أن اولئك في المشرق كانوا يرون في المنصور الموحدي بصفة خاصة خطرًا على كيانهم ، وذلك ما جعل صلاح الدين الأيوبي يتحفظ في تحليه ملك المغرب بأمير المؤمنين[١١٥] ، والى جانب اهتمام المغرب بما ينشر من مذاهب ، وينسخ من مخطوطات هناك ، كان أيضا يعني جيدا بكل مظاهر الحضارة التي تنتقل اليه مما تسبق به بغداد ، ويبذل غاية الجهد ومختلف الوسائل ليزّود بها المملكة المغربية ، حتى لا يكون لبغداد مزية على امبراطوريته الواسعة العظيمة ، وبهذا كان يجمع بين الاستعداد من الغرب عن طريق الا ندلس ، ومن الشرق عن طريق بغداد ، وبهذا نفسر ظهور المدارس المغربية مباشرة بعد المدرسة النظامية (٤٥٩ هـ) وقبل بناء المدرسة المستنصرية (٦٣٠ هـ) . وعلى هذا نعتمد في ظهور الكراسي العلمية هنا على اثر ما بلغ من أصداء عن كراسي المعاهد البغدادية ، ومن أجل ذلك أيضا نسمع عن نصب الساعات المائية بمدينة فاس ، وفي القرويين بعد وقت قصير من ظهور ساعة المدرسة المستنصرية ، ونرى كذلك عن أشياء أخرى من محاسن ما ظهر في تلك الديار ، وهكذا كان التنافس المستمر في الماضي بين الخليفتين مبعث استفادة لجانب الحركة الفكرية بمدرسة فاس .

١ - المدارس في عهد المرابطين والموحدين

مدرسة المرابطين (٤٦٢ هـ ١٠٩٦ م) :

بعد ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظامية عرفت فاس مدارس احتضنت الطلبة الآفاقيين الذين يردون

بقصد الدرس من سائر أطراف البلاد ، تحاكي تلك المدارس ما اصطلحوا اليوم على تسميته بالأحياء الجامعية[116]، بل إن فكرة المدرسة تجاوزت فاسًا الى الجنوب ، الى السوس الأقصى حيث كانت المدرسة التي بناها وجاج بن زلو[117]. بالرغم من الأحداث الداخلية التي عصفت بفاس في الأيام العصيبة التي شاهدتها فإننا لا نلبث من حين لآخر أن نسمع أثرًا لبعض تلك المدارس مغمورًا في أثناء الحديث عن ترجمة صالح من صلحاء فاس وعالم من علمائها. سنجد بعض أصحاب التراجم[118] عند حديثهم مثلاً عن العلامة أبي زيد الهزميري ينقلون أنه دفن بفاس على مقربة من مسجد الصابرين المعروف الآن بروضة سيدي أبي مدين[119]، وقد كانت في القديم مدرسة[120]، بل يضيفون الى هذا أن مدرسة ابي مدين هي التي كانت تحمل في القديم اسم مدرسة الصابرين والمرابطين اللمتونية ، لأن يوسف بن تاشفين منهم هو الذي بناها بعد دخوله مدينةَ فاس حوالي سنة (٤٦٢ هـ) (١٠٩٦ م) ، وبحسب بعض المخطوطات المجهولة المؤلف التي نشرتها جمعية أصدقاء فاس ظلت المدرسة المذكورة تقوم بمهمتها في ايواء طلبة العلم وتثقيفهم طيلة أيام المرابطين ، فلما سقطت هذه الدولة واحتلّ الموحدون المدينة (٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م) ، كان طلبة المدرسة في أول الذين قاوموا ظهور الموحدين ، واستمروا معتصمين بالمدرسة يقاومون ويصابرون ، ولكنهم وقعوا بعد حصار طويل في يد خصومهم ، فقتلوا أجمعين ، وعرفت المدرسة بعد باسم مدرسة الصابرين[121]، وما تزال أطلال هذه المدرسة ماثلة الى الآن قريبًا من المنطقة التي كانت معروفة في القديم باسم (حومة الكغاطين[122] وان الوصايا الوقفية القديمة تدلّ دلالة واضحة على أنها كانت ملاذًا للواردين عليها من سائر الجهات للالتزام بها على نفقة الاحباس[123]، ولا شك أن لمدرسة الصابرين نظائر هنا وهناك ممّا اختفى أثره وذهبت معالمه.

مدارس الموحدين

والموحدون : أصحاب «مملكة الطلبة» الذين ازدهرت المعارف على عهدهم بما أنشؤوه من معاهد ومدارس في إفريقية والأندلس ، أتراهم يهملون المغرب ؟ أتراهم يهملون فاسًا ، فلا يشيدون بها مدارس للطلبة ، وقد قامت فيها جامعة القرويين التي اعتمدوا عليها في صدر ما اعتمدوا لنشر افكارهم ومذاهبهم ؟ اتراهم يزودون مدينة سلا[124] ومراكش[125]، ويتناسون حاضرة فاس التي ظلت منذ كانت دار علم ؟ الحق انه كان للموحدين هنا مدارس كثيرة تأوي الطلاب ، ولكن يد الزمن عبثت كذلك بمعالمها كما كان الأمر بالنسبة الى مدارس المرابطين. وماذا كنا ننتظر لمدارس كانت مراكز لمشايخ امتحنوا بالنفي والاعتقال ، وذهبت معالمهم هم الآخرون ؟

انه لولا وجود نصّين واضحين في الأنيس المطرب ، لذهب الحديث عن المدارس في هذه المرحلة ادراج الرياح. الاول النص الذي يصور وجه فاس المشرق ايام المرابطين والموحدين بالرغم من انها لم تكن مقرا للخلافة آنئذ :

وانتهت مدينة فاس في ايام المرابطين وايام الموحدين من بعدهم من العمارة الغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب[126]...

اما النص الثاني ، فهو الذي يفسر جانبا من جوانب تلك العمارة والرفاهية حيث يركز على بناء المدارس ، قال ابن ابي زرع : «وبنى امير المؤمنين ابو يوسف يعقوب بن امير المؤمنين ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي بنى المدارس في بلاد افريقية والمغرب والاندلس ، واجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم ، فكانت ايامه زينة الدهر ، وشرفا للاسلام[127]...»

وبهذا يتضح لنا ان ما ذكره ابن مرزوق في (المسند) مما يفيد ان اول من بنى المدارس بفاس سنة (٦٨٤ ﻫ) هو مفضل العذري يحتاج الى تأويل[١٢٨] ، وذكر المراكشي صاحب الاعلام ان استدعاء الامام ابن رشد الى مدينة مراكش سنة (٥٤٨ ﻫ) كان للاستعانة به على ترتيب المدارس التي ينشئها الموحدون[١٢٩]. وهل يتصور ان يفكر الملوك المغاربة في استدعاء[١٣٠] الصناع من الاندلس لتصب الأرحاء ثم لا يفكرون في استقدام العلماء للمساعدة في تسيير المدارس ؟ وللمركز الذي ظلت تنعم به مدينة فاس ، كان لذكرها اثر في سائر المدارس المتناثرة في مختلف اطراف الامبراطورية المغربية في تخوم الصحراء ، في السوّادين ، في غانا القديمة (غينيا الحالية) ، في مالي ، في سنغاي Songai في بلاد التكرور وفي تونبوكتو[١٣١] ، في تلك الجهات كما في بقية أجزاء المغرب بسجلماسة ، جزولة ، درعة ، اغمات ، مراكش ، سبْتة[١٣٢] وسلا وطنجة وتادلة .[١٣٣] وبهذا نرى أن هذه الفترة بالنسبة الى العلم كانت من الأيام المخجلة في تاريخ القرويين ، لأنها الأيام التي ساعدت بصفة قوية على انتشار تعاليم الإسلام واللغة العربية في البلاد طولاً وعرضًا ، وقد برهن المرابطون والموحدون من بعدهم على رغبة في التفتح على حضارة بالغة ، وعلى أنهم لا يدعون فرصة دون أن يستفيدوا منها ليرفعوا من مستوى البلاد[١٣٤].

ونرى أن علينا أن نذكر في عداد المراكز التي كانت بمثابة مدارس مؤهلة للالتحاق بالقرويين هذه المساجد المتناثرة هنا وهناك في أرجاء فاس ،... والتي وصل عددها الى زهاء الثمان مئة فعلاوة على الأندلس والأشياخ والشرفاء ، نجد مسجد درّاس بن اسماعيل ، ومسجد ابن محسود ، ومسجد الطالعة ، ومسجد زقاق الماء ، ومسجد الحوراء ، ومسجد ابن حنين ، وكل تلك الفروع لها إمامها المشرف عليها وفيها ماكان مزوداً بكراسي علمية ، بل وأحياناً برفوف تضم عشرات المجلّدات .

لقد كثرت مراكز العلم بمدينة فاس ، وكان في استطاعة العلماء أن يلقّنوا دروسهم هنا وهناك ، وكانت العادة المتبعة أن لا ينتصب للتدريس بالقرويين الا من انتهت اليه المهارة والكفاية في العلم والسلوك ، تلك الكفاية التي يذيع أمرها عن طريق التدريس في تلك الفروع ، على أن بعض الشيوخ كان يؤثر الاقتصار على بعض تلك المساجد الصغرى ، لاشتهارها به واشتهاره بها ، أو لقربها من بيته ، أو لأن الأوقاف المجعولة تحت تصرفها تمتاز بتعويض لا يوجد في المجالس العلمية بالجامع القرويّ.

الخزانة العلمية

وقد عرفت هذه المرحلة من تاريخ القرويين نوعًا من المجامع الأكاديمية ، تجلّت في هذه المكتبات العلمية العديدة ، وقد عرف عن علماء فاس أنهم يتبارون في اقتناء الكتب وانتساخها ، وقد عرفنا الإمام العالم العارف يحيى الرابع (٢٩٢ – ٣٠٧ ﻫ) الذي قال فيه البكري : إنه كان يتوفر على عدد من الورّاقين، لا شغل لهم إلا نسْخ الكتب[١٣٥]. وما من شك في أن مكتبته كانت رهن إشارة رجال القرويين بالدرجة الأولى ، لأن الكتب من مستلزماتهم ، وان شعار السلف الصالح كان يستهدف تعْميم الفائدة ، وخاصةً في عصورٍ نقيّةٍ طاهرة كتلك العصور.

اما في العصر الزناتي الذي حظيت فيه القرويين كما علمنا بعناية (الناصر) الزائدة ، بتوسعتها وتأثيثها ، فانه من غير المعقول ان لا تتجاوز عنايته ميدان المادة الى صعيد الروح ، كيف وقد عرف الناصر بشغفه الزائد بالكتب النادرة ونشرها بين الناس[١٣٦]، ولذلك لا نشك في ان نصيبا من تلك الكتب كان من حظّ القرويين ، ويوجد

بها الى الان كتاب شرح الفصوص في صناعة الطب ، الذي يعتقد انه للفارابي (٣٣٩ هـ) ونسخة من تفسير ابن ابي زمنين الذي قرئ بقرطبة عام (٣٧٥ هـ).

واذا كانت النصوص ما تزال تغيب عنا حول تفاصيل المكتبة العلمية في العصرين الذاهبين ، فانها على عصر المرابطين والموحدين من بعدهم كانت في غاية الوضوح والبيان ، ويكفي ان نعرف ان كلا من الدولتين قام على مذهب ، ومن شأن ذلك ان يجعل الدولة تفرض انتشار كتب معينة بل ان تجعلها في تناول العموم كل لحظة وبهذا نفسّر ورود وراقين متقنين ، من مدينة شاطبة حيث التخصص في صناعة الكاغد الشطبي[١٣٧].

وبهذا نفسر أيضا تأسيس الخزائن العلمية الى جانب المدارس[١٣٨] وما تزال خزانة القرويين الكبرى تحتفظ الى اليوم بنسخة من كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك ، وقد كتب سنة (٤٦٥ هـ) ، وكتاب الناسخ والمنسوخ لأبي بكر بن العربي ، عليها خط الحافظ بن مفوز سنة (٤٨١ هـ) هذا الى اختصار الموطأ للمهدي بن تومرت ، وفي اوله سند عبد المؤمن بن علي عن المهدي الى الامام مالك. هذا الى بقية من نسخة من الموطأ في عدة أجزاء في رق الغزال ، ثبت في جزئها الحادي عشر بخط ناسخه ما صورته : «مما كتبه لخزانة امير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف ادام الله تأييده ونصره ...» وكان نسخها في شعبان من سنة اثنتين وخمس مئة ، كذلك سيرة ابن اسحاق المكتوبة سنة (٥٠٦ هـ) وبعض هذه ، كان منسوخا كما رأينا في حضرة مراكش لخزانة امير المسلمين أو أمير المؤمنين لكن المعروف ان فاسا وصلت في عهد المرابطين والموحدين إلى ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب ، ولذلك كان حظ القرويين من الخزانة الملكية حظّ الاسد فيا نعتقد[١٣٩] وقد وقفنا في العهد الموحدي على اسماء الخزائن المنتشرة وبعض أسماء القيمين على الخزانة أو المحافظين كما يسمّونهم اليوم ، ووقفنا على درجة الأهمية التي يولونها لمن تعهد اليه إدارة الخزانة ، وأنه كان يختار من عليّة الناس ومن أكملهم علمًا وأكثرهم اطلاعا ، وقد كان من أبرز ما يثير انتباه المتتبع لظهور الخزائن العلمية هذا العدد من العلماء الذين أخذوا بدورهم يتوفرون على مكتبات عظيمة تحدث عنها التاريخ بلسان رطب طيب ، وتناقلت أصداء هذه الأحاديث مجالس علماء المشرق ، فهذه مكتبة بني الغرديس التغلبيين لصاحبها قاضي فاس وناظر جامع القرويين أبي عبد الله محمد الغرديس التغلبي بزنقة حجامة حيث نزل القاضي عياض[١٤٠]، وهذه مكتبة القاضي ابي القاسم عبد الرحيم بن الملجوم بفاس (٥٢٤ – ٦٠٤)[١٤١] التي كونها من مكتبة والده عيسى الأزدي الزهراني ومن مكتبة أستاذه أبي عبد الله محمد بن احمد الخزرجي الحياني ومما أضاف الى هذه وتلك من النفائس والذخائر ، وهذه مكتبة الأستاذ المؤلف أبي القاسم عبد الرحمن بن الملجوم (٥٣٥ – ٦٠٥ هـ) التي شيّد لها غرفة فخمة كان يقصدها كبار البلد وعيونها ، وجمع لها من الكتب والدواوين الشيء الكثير ، حتى صارت أكبر مكتبة في المغرب لذلك العهد ، بيعت خرومها وحدها بعد وفاته بستة آلاف دينار[١٤٢]. وانه اذا كان هناك من ظروف تحتّم وجود مكان يجمع اليه الطلبة على الكتب، فهو هذا العصر الذي كان الحاكمون فيه يحاولون جمع الناس على مذهبهم ، وليس هناك من مدينة تتهيأ لهذا أولى وأقرب من فاس ، التي تحتوي على أربع مئة معمل للكاغد، [١٤٣] ! والتي قصدها من كل ناحية أبرع المخطّطين والورّاقين الذين كانوا يجدون في نسخ الكتب فائدة لهم تغنيهم أحياناً عن المرتبات الرسمية.[١٤٤] .

الكراسي العلمية

ولا بدّ أن يكون علماء القرويين قد استعملوا الكراسي منذ الوقت المبكر ، للاستعانة بها على تلقين طلبتهم ،

ولا سيما حين يكثر عددهم ، وقد كان عدد كبير من المغاربة حَضروا مجالس العلم ببغداد ، وشاهدوا المشايخ والعلماء والأساتذة ، وهم يتربعون على الكراسي لإسماع المريدين ، فلِمَ لا يسنُّ أولئك المغاربة هذه العادة لمجالس علمهم؟ وقد حضر الشيخ أبو مدين مثلا مجالس الشيخ الكيلاني التي كان يتبوأ فيها كرسيه ، فلا بدّ أنه كما تأثر بالنواحي الروحية – تأثر بالنواحي الشكلية ، ولا بدّ أن تلامذتــه عملوا على نهج أساتذتهم . وقـد عرفنـا عن بعض مجالس العلم بجامع القرويين لهذا العهد ما كان يناهز عدد الحضور فيه آلافًا من الناس ، فكان ضروريا للأستاذ أن يتخذ له كرسيًا لإسماع كلّ هذا العدد ، وقد نقل الجزنائي وصفا لبعض مجالس الوعظ ، وهي طبعًا شيء زائد على المجالس العلمية ، فذكر أنه بعد تلاوة الحزب[١٤٥] إثرَ صلاة الصبح مباشرة كان بعض الأئمة كثيرًا ما يقرأ بين يديه في أول النهار تفسير القرآن للثعلبي ، وحِلْيَة الأولياء لأبي نُعَيْم ، واعتاد آخرون أن يجلسوا في الجامع حلقًا حلقًا ، وقد رأى ذلك الإمام أن يجمع هؤلاء المحلّقين ، فأمر قارئه أن يتخذ مجلسه قرب المحراب ، وهناك يقرأ من هذه الكتب فصولاً لإسماع الناس ، وقد كان يجتمع اليه سائر من كان يقصد القرويين في ذلك الوقت، وبلغ عدد الحاضرين أحياناً آلافا من الناس فاستدعى ذلك الزياده في عدد الكتب المتناولة ، وهكذا أضيفت الى تفسير الثعلبي وحِلية أبي نُعَيْم قراءة الإحياء للإمام الغزالي ، ثم كتاب الشفا للقاضي عِياض[١٤٦].

الإجازات ...

كانت الإجازة في العصور الاولى للاسلام بمثابة تصريح بالصلاحية للمهنة العلمية أو الوظيفة كالتدريس والفتيا والقضاة ، فهذا النوع من الاجازات يشبه شبها كثيرًا الشهادات العلمية الحديثة[١٤٧]، ولها تأثيرات اجتماعية كما لا يخفى ، وكما سبق ان قلنا ان ما عرف في المشرق كان لزاما له ان يجد له اصداء في المغرب ، ولا سيما بعد ان اخذ بعض المغاربة يرجعون باجازات موقعة من لدن بعض الشخصيات العالمة في بغداد وفي الاسكندرية ، من أمثال ابن العربي الذي عاد يحمل معه اجازات الغزالي والطرطوشي لأمير المؤمنين يوسف بن تاشفين ، وما من شك في ان ابن العربي لم يكن ليطلب اجازة العلماء لمليكه لو لم يكن قد حُمل هذه المهمة من قبل يوسف، ولو لم تكن عادة الاجازة قد سارت بها العادة في اوساط العلماء وخاصة بفاس ، وقد ورد في ترجمة القبذاقي (ت ٥٢٠ هـ) انه سأل الحافظ السلفيّ بالاسكندرية ان يكتب له اجازة لسلطان المغرب على عهده الأمير تاشفين ابن علي بن يوسف[١٤٨] . كما رأينا – وهذا بيت القصيد – ابن الملجوم وهويتسلم الاجازة في فاس من شيخه الهواري سنة (٥٢٧ هـ)[١٤٩]، كما عرفنا في ترجمة القاضي عياض (ت ٥٤٤) انه حرص على نيل اجازة ابن الفرج ، كما حرص على نيل اجازة الاصفهاني الاسكندراني[١٥٠]، واذا كانت الاجازة قد تكون فخرية فيما يتعلق بالملوك المرابطين، فانها بالنسبة الى القاضي عياض مثلا كانت تتضمن تزكية لعلمه ولكفايته زيادة على اتصاله باسانيد الرجال الذين اخذ عنهم وبمؤلفاتهم والكتب الغريبة التي يروونها ، وقد كان القوم يقولون ، الإسناد من الدين ومن خصائص هذه الامة ، ولا بد ان القاضي عياضا اجاز عددا من تلامذته وهو يزور جامعة القرويين ويجتمع بعلمائها وطلابها وقاضي فاس ...

شعار العلماء

من الطريف ان نجد اثارا منذ القدم تشهد لفكرة «اللباس الجامعي» الذي اعتادت الجامعات العصرية اليوم اتخاذه واملاءه على رجالها ابان مزاولة اشغالهم داخل حرم المؤسسة ، وقد كان علماؤنا في اتخاذ شعارهم متأثرين ، من

غير شك بتوجيه الدولة وتعليماتها علـى الأقل فيما يتعلق باللون المستعمل ، لقد كان من مميزات المملكة المغربية غداة استقلالها عن بني العباس في بغداد ان اتخذت لها شعارات خاصة كان في هذه الشعارات ما يمس المذهب والعقيدة بَيْدَ ان فيها ما كان يخص المظهر. ولما كان اللون الأسود من خصائص العباسيين ، اختار المغاربة اللون الأبيض ، ومن المصادفات ان تتفق الذوق الاندلسي والمغربي على هذا الاختيار ، وقد سارت على هذا الدولُ المتعاقبة على الحكم بالبلاد[151]واحترمته بدقة ، وانطلاقًا من هذا نرى العلماء يقبلون جميعهم على البياض . واذا ما تتبعنا أنماط الملابس التي قدمت الى العلماء من الأمراء عند توليهم ، أو التي خلفوها وراءهم ، فاننا لا بد أن نجد «البرنس الأبيض» ولهذا عددناه لباسًا جامعيا من مميزات العلماء ، ويخطئ من يدّعي أن العلماء كانوا لا يعرفون التأنق في اللباس ، أو بالأحرى كانوا لا يهتمون بمظهرهم الخارجي . فلقد كان جبر الله بن القاسم لا يجلس لإعطاء دروسه إلاّ وهو يرتدي برنسه[152]، وكان الأستاذ السلاجي حسن البزّة[153]، وورد في ترجمة العلامة الخطيب عبد الله بن موسى أنه كان يرتدي البرنس الأبيض حين يظهر للمستمعين اليه[154]وورد في ترجمة ابن البناء أنه كان يلبس الملابس الرفيعة حين كان يلقي دروسه [155] ، وكانت «البزة» و«الملابس» تعني في صدرما تعني البرنس والحايك ، وسنسمح لأنفسنا باقتباس عبارة رسول السلطان أبي عنان الى الفقية العالم أبي الحجاج الأنفاسي، وقد بعث مع الرسول الى العالم المذكور ببرنس وحائك أبيضين عند تعيينه خطيبًا على منبر القرويين ، هذه العبارة كانت جوابًا عن اعتذار الفقيه وامتنانه ، قال له الرسول : «انما قصد مرسلها التنويه بأهل العلم مثلك ، ولأجل أن يمتاز أهل الخطط من غيرهم . . . » فها نحن نرى أن الأمر يتعلق بشعار يعرض من المسؤولين على رجال العلم .

ويصح ان نذكر ان لبسة الملوك المغاربة ايام الجمع والاعياد والمناسبات تعتبر اللبسة المثالية للعلماء الأقدمين [156] وما نزال الى الآن نرى هذا اللّون شعاراً لرجال الدولة من القيادة الى القاعدة ، ليس في المواسم المفرحة وحدها ، بل في المناسبات الأخرى كذلك ، لأنهم يرون فيه تعبيراً عن البسمة ، بما يعكسه من صفاء وبريق ، كما يرون فيه تعبيراً عن البساطة التي تقتضيها مظاهر الحداد[157] .

شروط الالتحاق بالقرويين

كان في صدر ما أثار انتباه الذين كتبوا في شأن القرويين الجامعة ان الذي يريد ان يدرس فيها لا يمكنه ان يحضر مجالسها ولا ان يستفيد من مشايخها الا بعد ان يكون على سابق معرفة بعدد من الفنون الاولية التي تمكنه من الارتفاع الى مستوى الطلاب الجديرين بهذا الوصف ، وهذه المعرفة الاولى هي التي تكفلت بها الكتاتيب او «المسايد» (جمع مسيد) كما يسميها المغاربة [158]، فهنا في المسيد يعكف الصغار اولا على استظهار كتاب الله[159] حتى يتفوقوا في تجويده وتلاوته على الوجه الحسن ، كما يأخذون بمبادئ الدين وقواعد اللغة العربية ، وتكون المرحلة الثانية ان يتناول بعض الفنون في المساجد الصغرى القريبة من بيته ، ينتهي بعدها الى مجالس القرويين ، وبهذا تتجلى أهمية انتشار (المسايد) وانتشار المساجد بأزقة ودروب فاس : مئات من المسايد ومئات من المساجد ، ولم يكن هناك سنّ محددة تؤهل الطلاب للتصدّي للعلم ، ولا فترة معيّنة لتمضية وقت الدراسة بالقرويين ، ولهذا نرى من خلال تراجم بعض رجال القرويين ان هناك من الذين تصدروا للخطبة على منبر القرويين – وهو ما هو– من كان لا يتجاوز ثمان عشرة سنة[160]! وهو أمر يشير الى جوّ النشاط الفكري الذي كان يهيمن على وسط

العلماء بل ان من الظواهر التي لاحظها جلّ الذين عالجوا هذه المرحلة انه امكنهم أن يسجلوا ان أغلبية النبغاء من رجال العلم في هذه المرحلة كانوا من علماء الشباب(١٦١) وفي مقابلة ذلك نذكر انه لم يكن هناك حدّ لتقاعد الاستاذ عن نشاطه ، ومن الملاحظ ان من العلماء من استمروا في اداء واجبهم وهم يناهزون المئة سنة.

طريقة الدّرس وحلقات العلم

اما طريقة التدريس اوما يسمى اليوم بالطرق البيداكوجية ، فهي نفس الطريقة التي كانت معروفة في اطراف العالم الاسلامي الاخرى ، لان الذين يتوفر عليهم المغرب من العلماء في هذه الفترة كانوا متأثرين بتلك الجهات ممن وردوا على فاس من القيروان أو بمن ورد عليها من الاندلس ، ولا شك ان الطريقة المتبعة في كلا الجناحين المذكورين ، كانت لا تخرج عن الطرق التي تبلورت بعد ، واصبحت تحمل اسماء علماء متأخرين ، من امثال المشذّالي(١٦٢) والعبدوسي ، اضف الى هذا ان الرحالة من المغاربة الى بلاد المشرق كانوا يرجعون ايضا وهم متأثرون باسلوب شيخ من المشايخ او طريقة من طرائقه(١٦٣).

واذا كانت طرائق التدريس قد اختلفت تبعا للشيخ الذي يتولى التدريس ، فان شكل المجلس كان يتخذ صورة طبق الاصل للمجالس العلمية على عهد الرسول ، تلك الصورة التي ردّد وصفها الامام البخاري ، تتميز بالجلوس امام الشيخ حلقة حلقة ، تبعا للسلوك الفطري عند الانسان في التحليق ، نجباء الطلبة يحتلون الحلقة الاولى ، ويليهم من يأتي بعدهم ، ثم من يليهم . ويتوسط طلبَة الحلقة الاولى قارئ يتولى تلاوة الاية المراد تفسيرها اوسرد الحديث المقصود شرحه ، ويعرف باسم « السّارد » وله اهمية كبرى بالنسبة الى الشيخ ، فان هذا يعتمد عليه في تتبع عناصر الدرس وغضون الحديث ، ويذكر ابن صاحب الصلاة (٥٩٤هـ) انه حضر مجلس شيخ طلبة الحضَر وخطيب امير المؤمنين الفقيه ابي الحسن علي بن محمد المعروف بابن الاشبيلي : سمعت عليه عقيدة التوحيد والعقيدة المباركة ، وكتاب اعزّ ما يطلب ، وكان اذا قرأ القارئ المذكور (يعني ابا عبد الله بن عميرة (٥٧٨هـ) فصلا مما ذكرته من العقائد ، شرح غامضها وفتح اقفالها للطلبة ، وذلل لهم صعابها حتى يروض رايضها ... وكان يخصني مع الطلبة بالسؤال(١٦٤)...)

المواد الدراسية

يستطيع الباحث أن يوزع الحديث حول المواد المدروسة الى ثلاثة فروع : العلوم الدينية ، والعلوم الأدبية ، والعلوم البحتة ، وذلك اعتمادا على ما نتوفر عليه من نصوص تؤكد اهتمام العلماء بكل تلك النواحي في المرحلة الأولى من تاريخ القرويين .

ففيما يتعلق بالعلوم الدينية نرى أن اتفاق المؤرخين يطبق على اقبال الناس على دراسة الكتاب والسنة بما يتبعهما من علوم القراءات ودرجات الحديث ، وقد اتخذت المادة الفقهية – نتيجة لتأثر القرويين بالمذهب المالكي – اتجاهاً خاصاً ، وأصبحت المؤلفات التي دونها رفاق مالك هي التي تحتل زوايا القرويين ، واستمر قادة الفقه المالكي في ازدهارٍ طيلةَ أيام المرابطين لم تستطع كتب المذاهب الأخرى أن تجد لها مكاناً في حلقات القرويين ، بالرغم من عناية بعض العلماء أيضاً بالمذهب الشافعي ، كالشيخ ابن حيدة (٣٦٥هـ) وابن الرمامة (٥٦٧هـ) لم تستطع ذلك إلا عندما أخذ الموحدون بزمام الأمر ، فعندئذ غيروا من المنهاج المرابطي الذي كان في نظرهم إجهازاً على الفكر والاجتهاد ، وهكذا

اختفت كتب الفروع على ما عرفنا ، وامست المادة الدينية تؤخذ مباشرة من الصحيحين البخاري ومسلم ومن الترمذي والموطا وابي داود ، وشاع الى جانب ذلك مذهب التصوف على طريقة الإمام الجنيد التي آتى بها أبومدين عن شيخه الجيلاني صاحب بغداد ، وتوسعت دراسة علم الكلام وعلم الأصول حتى لقد نزل الناس من الأندلس لتعاطيهما في فاس من أمثال السلالجي ، وفيما يتعلق بالعلوم الأدبية وفيها النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ ، والسير وما فيها من العلوم الفلسفية ، فان في استطاعة الناقد أن يقف على مجموعة من الآثار الأدبية تعبر هي نفسها عن تأثر أصحابها بآثار الأدباء المشارقة ، الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على أن جامعة فاس كانت تحتضن هذه الفنون الأدبية بنفس الحماسة التي تتقبل بها الكتب الدينية(١٦٥) . واذا عرفنا مدى اقتناع الفقهاء بل إيمانهم بأن معرفة الكتاب والسنة لن تكون متأتية متيسرة بحال الا عن طريق فهم العربية وأسرارها وآدابها وبلاغتها نثرها وشعرها والا اذا تضلعنا من سير الاقدمين وتواريخهم ، اذا عرفنا ذلك لم نستغرب توفر المكتبة المغربية على عيون كتب الادب التي كانت تصل احياناً الى المغرب قبل ان تنتشر في المشرق ، وقد عرفنا أن فاساً أمسى لها وزنها بإزاء المدارس الأخرى ، وقصدها من الأندلس بعض العلماء ، ليدرسوا كتاب سيبويه ، ويتخصصوا في العربية عن الخِدَب (٥٨٠)(١٦٦) . ويرووا الاشعار عن مثل أبي العباس الكسرواني(١٦٧) .

وأما فيما يمس العلوم البحتة ، فان كل الدلائل تعزز الرأي القائل باشتغال القرويين بها وهناك مبدأ يربط حياة المسلم بالحساب لتسوية حالات إرثه ، وضبط مناسك صلاته وأوقات صومه ، ولا شك أن كل هذا يقتضي من العلماء أن يوجهوا عنايتهم الى الأرقام ، ومن الطريف أن نقف على نص تاريخي يتحدث عن تجمع للموقتين من علماء القرويين لمناقشة إمكانية توحيد التاريخ الهجري بين المغرب والمشرق بعد أن لوحظ الفرق بين التواريخ في الرسائل المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك بغداد(١٦٨). لقد كان ذلك يعني أن القرويين كانت تدرس التنجيم ، وأن نقف على تراجم بعض علماء هذه المرحلة كذلك ، وخاصة أهل فاس منهم ، من أمثال ابن الياسمين الذي برع في الهندسة والتنجيم والهيئة ، ونظم أرجوزة في الجبر قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية سنة سبع وثمانين وخمس مئة ، والحسن المراكشي صاحب كتاب المبادئ والغايات في علم الميقات الذي يصفه صاحب كتاب كشف الظنون : بأنه أعظم ما صنف في هذا الفن(١٦٩). والى جانب هذه العناية بالارقام نجد في المؤرخين من ردد صدى مدرسة طبية عرفت بالمدينة منذ القرن الرابع الهجري(١٧٠) فأين كانت هذه المدرسة اذا لم تكن من توابع القرويين ؟ وأين هم مدرسوها ؟ إن كتب التراجم تتحدث عن عدد من الرياضيين والأطباء والصيادلة كانوا يزاولون نشاطهم في مدينة فاس العاصمة ، وكيف يسع الباحث (أي باحث كان) أن يتصور أن الامبراطورية الواحدة المتمثلة في الاندلس والمغرب على أنها ظلت غير متصلة ؟ كيف يمكن أن يفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسته في الاندلس من قبل علماء ، تكونوا في مدارسها ، ثم ساروا في مواكب ملوك المغرب من اشبيلية اوقرطبة الى فاس اومراكش اواغمات حيث تكون عدد مهم من الاطباء من امثال سعيد الغماري(١٧١). إن للمغرب الحق اذن – يقول الدكتور رينو – في ان يتبنّى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد(١٧٢).

المؤلفات المستعملة

استمرت مدينة فاس في فتراتها الاولى تعتمد في كل ما تتدارسه على المخطوطات التي ترد من المشرق ، في علوم القرآن والحديث وعلوم الآداب والحساب ، وقد مر بنا عدد من اسماء الكتب المشرقية التي كانت متداولة بين العلماء والفقهاء في شتى الفنون ، ومنها كتب التفسير والحديث والفقه وكتب الفلسفة بيد ان الظاهرة التي نرى تسجيلها هنا هي المحاولة

الناجحة التي حاولها العلماء المغاربة في سد الفراغ الذي شعروا به ، وهم يعتمدون في كل ما يدرسون على زملائهم المشارقة وقد كانت المؤلفات المغربية التي ظهرت في هذه المرحلة من تاريخ القرويين الفكرى تتناول مختلف الفنون .

واذا كانت المصادر لم تزودنا كثيراً بمؤلفات العهد الادريسي والعهد الزناتي[١٧٣]، فانها لم تستطيع كتم ما ظهر في العهد المرابطي والعهد الموحدي ، وهكذا ظهر على عهد المرابطين مختصر كتاب ابن ابي زمنين لابراهيم بن جعفر اللواتي (٥١٣هـ) ، والاعلام بحدود قواعد الإسلام للقاضي عياض (٥٤٤هـ) ، وكذا الاجوبة المحبرة على الاسئلة المتخيرة والنوازل القضائية ، والتنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة ، هذا الى كتب اخرى في التفسير والحديث ، مثل: تفسير ابي بكر بن الجوزي السبتي ، واكمال المعلم ، في شرح صحيح مسلم ، للقاضي عياض ، والشفا في التعريف بحقوق المصطفى له ، وفي التوحيد كان تصنيف ابن الجوزي السبتي المتقدم ذكره ، وفي التاريخ ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة اعيان مذهب مالك للقاضي عياض ، وكذلك الغنية ، ومعجم شيوخ ابي علي الصدفي ، والفنون الستة ، في تاريخ سبتة اما في الادب فهناك ديوان خطب لمروان بن سمجون (٤٩١هـ) ، وغنية الكاتب ، وبغية الطالب ، في الصدور والترسل للقاضي عياض ، وسر السراة في أدب القضاة .[١٧٤]

هذا وقد تميز العهد الموحدي بأنه كان اثرى واغنى من العهد المرابطي . بما ظهر فيه من مختلف الكتب التي تناولت مختلف العلوم والفنون ، ففيما يتعلق بالتفسير والحديث توفرت المكتبة المغربية على تفسير القرآن لعبد الجليل القصري الذي أخذ بفاس (٦٠٨هـ) ، وله شعب الايمان وتنبه الأنام في مشكل الحديث ، وشرح أسماء الله الحسنى والناسخ والمنسوخ لأبي الحسن الحصار (٦١١هـ) والمدارك ، في وصل مقطوع حديث مالك له ومفتاح اللب المقفل لفهم الكتاب المنزل لأبي الحسن الحرالي المراكشي ، وتفسير القرآن للمزدغي الفاسي (٦٥٥ هـ) ، وشرح حديث اذا نزل الوباء بأرضها ، للمزدغي أيضا ، وكتاب الاستدراك والإتمام لكتاب السهيلي المسمى بالتعريف والإعلام بما أبهم في الكتاب العزيز من الأسماء والأعلام لابن فرتون السلمي الفاسي (٦٦٦هـ) وكتاب النزغ في إبطال القياس لابن القطان الفاسي (٦٢٨هـ)، وكتاب الوهم والايهام الواقعين في كتاب الاحكام لعبد الحق الاشبيلي له ، وكتاب مختصر النظر في إحكام النظر له ، تعقب كتاب الوهم والايهام الذي ألفه ابن القطان لابي المواق (٦٤٢هـ) وشرح مقدمة صحيح مسلم له ، واختصار الموطا للمهدي بن تومرت[١٧٥] وله اختصار مسلم وكتاب أحكام المهارة من الحديث ، وكتاب تحريم الخمر من الحديث وكتاب الجهاد .

وفي موضوع التصوف والفقه كتاب الهداية لأبي عبد الله محمد بن ابراهيم المهدي (٥٩٥هـ) ، وحاشية على المدونة لأبي محمد يشكر (٥٩٨هـ) ، وحاشية أخرى على المدونة لراشد الفاسي (٦٧٥هـ) ، وله كتاب الحلال والحرام ومجموعة الفتاوى ومقالة في المكاييل والأوزان لابن القطان الفاسي وأنوار الأفهام في شرح كتاب الأحكام للمزدغي ، وكتاب فيما يجوز الاخذ منه للشرفاء المضطرين من اموال الاغنياء المغترين له وكتاب الإنابة الى طريق أهل الاستجابة لمحمد بن قاسم التميمي الفاسي (٦٠٤ هـ) ، وله الايضاح في طريق اهل الصلاح وكشف أحوال المفتون عن الدنيا والدين ، وبستان العابدين وأدب المريدين له .

وفي موضوع الأصول وعلم الكلام كتاب أعز ما يطلب للمهدي بن تومرت ، والعقيدة المرشدة له ، وله التنزيهان والتسبيحان ، والامانة ، وتعاليق في الاصول ، والعقيدة البرهانية للسلالجي (٥٦٤هـ) ، وعقيدة المزدغي ، وأرجوزة في الاصول له .

وفي التراجم والسير برنامج عبد الرحيم بن الملجوم (٦٠٣هـ) ، وفهرست أبي الصبر أيوب (٦٠٤هـ) وبرنامج ابن القطان الفاسي ، وبرنامج ابن فرتون ، والذيل على صلة ابن بشكوال ، والنجوم المشرقة فيمن اخذت عنه من كل ثبت وثقة لمحمد بن قاسم التميمي الفاسي ، والمختصر واللمعة في ذكر أزواج النبي واولاده السبعة ، والمستفاد من مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما والاها من البلاد .

وفي موضوع التاريخ والجغرافيا والادب والشعر اخبار المهدي للبيذق ، ونزهة المشتاق للشريف الادريسي (٥٦٠هـ) وديوان قاضي فاس ابي حفص عمر السلمي (٦٠٤هـ) ، وديوان الخطابي الفاسي (٦٣٧هـ) ، وديوان ابن حبوس الفاسي (٥٧٠هـ) وكتاب الانساب والشعر لابن رقية (٦٠٥هـ) ، والبرهان في ذكر حنين النفوس الى الاحبة والاوطان لمحمد بن قاسم التميمي الفاسي .

وفي موضوع النحو واللغة كتاب التوصية في العربية لابن العباس احمد بن عبد الجليل التدميري (٥٥٥هـ) والمقدمة لأبي موسى الجزولي (٦٠٧هـ) .

وفي موضوع الرياضيات والحكم اصلاح هيئة ابن افلح لابي الحجاج يوسف بن سمعون (٦٢٣هـ) وجامع المبادئ والغايات في علم الميقات لابي الحسن علي بن عمر المراكشي (٦٢٧هـ) [١٧٦]، وارجوزة الجبر لابن الياسمين الفاسي (٦٠١هـ) ، وتلقيح الأفكار في العمل برسم الغبار[١٧٧].

* * *

واذا وقفنا على العدد العديد من اهل فاس ممن اسهموا في اعداد تلك الجملة الوافرة من المؤلفات يتضح لنا الى اي حد يمكن ان نتقبل معه ما اورده المقرئ في ازهار الرياض نقلا عن احد المتأخرين من انه لم يظهر من علماء فاس قبل المئة الثانية شئ من التآليف المرتجلة ولا الملخصة الا ما كان سبيله النسج بها على ما هي عليه ، كما في تقاييد المدونة المنسوبة الى الشيخ ابي الحسن علي الزويلي المعروف بالصغير (٧١٩هـ) ، وتقييد الرسالة المنسوبة الى الشيخ ابي زيد الجزولي (٧٤١هـ) ، هذان التأليفان اللذان لا تصح اولاً نسبتهما الى من نسبا اليه ، ومع ذلك لا يقال فيها تأليف ، وانما هما تخسير للكاغد[١٧٨] ومثل ما نقله المقرئ يؤثر عن ابن خلدون ، ولعل القصد الى الحديث عن عهود خاصة يتحدثان عنها ، وبماذا نفسر وجود اربع مئة معمل لضنع الكاغد بفاس مما لم يتحقق في جهة ما من الجهات ؟ وبماذا نفسر وجود شارع طويل يعانق جدار القرويين يحمل اسم الوراقين الذين يحترفون الوراقة التي يقول عنها ابن خلدون انها رمز لضخامة الدولة وتوابع الحضارة والعمران ، ودليل على كثرة التاليف العلمية والدواوين ، وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والاعصار[١٧٩] ؟

مركز العلماء لدى الدولة والشعب

لكل امة من الامم شخصيتان : احداهما مادية ، والاخرى معنوية ، فالشخصية المادية المحسوسة تتجلى في موقعها واستراتيجيتها وطبيعة ارضها واحوال مناخها ، وتتجلى الشخصية المعنوية في ذلك التراث الروحي ، في تلك الحضارة المتوارثة واذا كان على الجيش أن يقوم بحماية الشخصية الأولى فان الذين وكل اليهم حماية الجهة الثانية هم

العلماء ، ومن هنا كان مركزهم خطيراً لدى الشعب ولدى القادة ، فهم في الأمة عيونها وشهودها ، يحضرون محافلها ومآتمها ، افراحها واتراحها ، ومن حق أبسط رجل في الشعب أن يستوقفهم ويطلب فتواهم ، ومن حقهم أن يفتحوا بيوتهم وقلوبهم لكل طالب راغب . وهم لأجل هذا ينعمون لدى الملوك والأمراء بمرتبة عليا ، لا يصل اليها أحد بالرغم من أنهم أحياناً يقسون على اولئك الملوك بما يقدمونه من نصائح هادفة بناءة ! وكما كان الأطباء بالامس واليوم يتخذون من الوخز بالإبر وسيلة للعلاج ، ووسيلة لإحياء الانسجة المهددة بالتموّت في الجسم فان الملوك كانوا يرون في الكلمة العادلة من العالم العامل وخزاً محبباً ، يغذي أرواحهم ، ويشدها دائما الى جانب الحق والإنصاف (١٨٠) ومما كان يزيد في ثقة العالم بنفسه أنه الى جانب احترامه من لدن رئيس الدولة عرف احتراماً سابقاً له من المتقدمين الذين جعلوا له في مال الأوقاف نصيباً ، لئلا يضطر الى طرق أبواب قد توصد في وجهه غداً .

وهكذا نرى الأمير أحمد بن إبراهيم بن محمد بن إدريس وهو عالم بني إدريس ، استفتى قاضي الجماعة بفاس أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى سنة ٣٣٢هـ في أمر استنفار المغاربة للدخول الى الأندلس للوقوف الى جانب عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠هـ) على أثر ما وصل من أخبار للمغرب بعد وقعة ٣٢٧هـ التي ضاع فيها مصحفه ، وكان لا يقدر بقيمة (١٨١)، وعلى مقتضى فتوى العلماء تحرك الأمير أحمد .

وعلى أثر تدهور الحال في الاندلس ، وردت على المغرب سفارة عن بطليوس برئاسة قاضي المدينة أبي اسحاق ، وسفارة عن غرناطة برئاسة قاضيها أبي جعفر القلعي ، وسفارة عن إشبيلية وقرطبة برئاسة عبد الله بن أدهم ، وقد أشرف على البعثات الثلاث الوزير أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر المشهور ، وردت لتستنجد بيوسف بن تاشفين ، لكن يوسف هذا بما وراءه من بأس وقوة ، ورجال وعتاد كان لا يستطيع أن يتحرك قبل ان يتوجه الى شيخ من شيوخ القرويين ، هو يوسف بن الملجوم (١٨٢) (٤٩٢هـ) . ولما ورد ابن منقذ سفير صلاح الدين ليستنجد بالاسطول المغربي ، قام المنصور الموحدي باستفتاء العلماء قبل أن يقوم بتقديم قطعه البحرية المئة والثمانين التي منعت النصارى من سواحل الشام (١٨٣). وقد كان الملوك مع هذا يحرصون على الاقتناع بفتاوى علمائهم ، ولهذا نراهم احياناً يميلون الى الأخذ باراء اخرى لعلماء اخرين اذا تبين لهم وجه الصواب في ذلك كالحال في استشارة الناصر لابن القطان حول السلوك الديبلوماسي المناسب عند مقابلة الأجانب (١٨٤).

ومن الطبيعي ان ينعكس ذلك التقدير للعلماء في داخل بيوت اهل فاس ، بين النساء وربات الخدور ولا سيما ان في فضليات فاس على هذا العهد فقيهات ، من امثال العالمة خيرونة التي كان لها الفضل في نشر العقيدة الاشعرية بين نساء فاس ، وشاعرات ، من امثال ام النساء الفاسية التي دوىّ صداها في الشرق ايضا ، ولا بد ان نشهد اوبة علامة فاس الشيخ ابي جيدة من المشرق وخراج النساء قاطبة لاستقباله اكبارا لمقامه واعزازا لمكانته (١٨٥).

لقد عرف كل ذلك لعلماء القرويين ، وهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ينعمون بحظوة زائدة وشفوف بالغ .

رئاسة الجامعة واستقلالها ونظام القيم

وقد عرفت هذه المرحلة عدة خطط في الدولة ، فهناك رجال الافتاء ، وهناك رجال الشورى ، وهناك القضاة بيد ان رئاسة الجامع او عمادته كما نسميها اليوم تسند الى قاضي الجماعة النائب عن امير المؤمنين في الامور الشرعية ، ونعني بالعمادة ما يشمل الادارة في النواحي الثلاثة للمسجد : الناحية الدينية والتعليمية والمالية هذا

طبعا الى وظيفته كحاكم ، واذا كان العلماء كثيرا ما يعتمدون على نفوسهم في اختيار السكن ، فانه قد خصصت دار للعميد منذ القدم على مقربة من الجامعة حتى يظل على اتصال بها . وقد كان الرئيس يتمتع بصلاحيات واسعة ، فهو الذي يقوم بتعيين العلماء ورعاية شؤونهم ، وتوزيع الاوقاف عليهم بحسب مؤهلاتهم ، بل كان له ان يولي او يوقف القضاة في غير مدينة فاس.

والقاضي كالخطيب يعد – بالرغم من مكانته السامية – موظفا من موظفي الدولة عليه ان يتقيد باختيارها اذا كان يرغب في الاحتفاظ بمنصبه ، وله طبعا ان يبدي رأيه كمستشار ، فاما ان يؤخذ برأيه واما ان يعدل عنه الى رأي ابعد منه نظرا مع العلم أن عادة الموحدين أن لا يتجاوز القاضي في مهمته أكثر من عامين(١٨٦).

ويدلنا على المركز المرموق الذي كان للقاضي في الجامعة ان جل احداثها الكبرى لا تؤرخ بظهور دولة او باختفائها ، وانما تؤرخ بأيام القضاة بها ، فكثيرًا ما سمعنا ان الخطيب فلانًا صعد المنبر ايام القاضي السبتي او القيسي وكثيرًا ما سمعنا عن أن هذه الجهة من القرويين شيّدت في عهد ذلك القاضي أو هذا...، كل ذلك تعبير عن مبدأ استقلال الجامعة عن السلطة ، وحتى يشعر العميد ويشعر العلماء معه ان هناك مجالا رحبا لنشاطهم ، عليهم ان يظهروا فيه كفاياتهم ، واذا كان للمنافسات ما قد يسوغها بين قاضي وآخر فانه لا مكان لها بين العلماء وبين قاضيهم ، ولذلك نراه يكون منهم بمنزلة النقيب الغيور عليهم ، ويكونون منه بمنزلة الأبناء الروحيين ، يكفي ان يقترح فيمتثلوا أو يشير فيفعلوا (١٨٧)

* * *

ولكثر ما تركز التخصص في بعض الفنون ، وفي بعض عيون الكتب على الخصوص ، نرى نظام القيم يظهر منذ هذا التاريخ المبكر وقد كان ابن باق (٥٣٨ هـ) قيما على كتب ابي علي الفارسي ، وكتب ابي الفتح بن جنيّ وابي سعيد السيرافي ، ولا نشك في ان فكرة وظيفة القيم تسربت من الاندلس ، فقد كان لكتاب المحكم والمحيط لعلي بن اسماعيل (٤٥٨ هـ) مشرف يسمى قيما على اللغة . وقد تطورت فكرة القيم او النقيب – اذا شئت ان تقول – فاتسعت دائرتها بمرور الزمن ، فتناولت المؤسسات ايضا الى جانب العلوم ، وعدنا نسمع عن رياسة هذا العالم لفن كذا ، وذلك لمدرسة كذا(١٨٨) تماما على نحو ما نسمع اليوم في الكليات : رئيس قسم اللغة ورئيس قسم التاريخ.

موارد العلماء والكلية وسجلات الأوقاف

ان القرويين ليست مجرد بناية ، ولكنها مؤسسة تقوم على ائمة ومؤذنين وموقتين ، على خطباء وعلماء وقضاة ومفتين ومستشارين ، مؤسسة تحتاج الى فرش وانارة ، والى ماء وصيانة ، وكل هذا يتوقف طبعا على موارد ، وهي تحتاج الى من ينظمها وينسق جمعها وتوزيعها من نظار ووكلاء ومشرفين.

عرفنا كيف ان الذين فكروا في بناء القرويين جعلوا في تقديرهم منذ الايام الاولى الطرق التي من شأنها ان تضمن بقاءها ، وعرفنا كيف ان فاطمة شيدت الجامع في جانب من الأرض التي اشترتها واحتفظت بجانب آخر شمالي الجامع وقفا على الدلو والحبل ، والحصير والمصباح ، وعرفنا ان الامام يحيى الاول كان يشرف بنفسه على البناء ، فلا بد ان تكون لـه بادرة بازاء مسجد اسس على مقربة من بيت الاشراف الادارسة ، ثم رأينا ايام خلف المغرب ، سواء للفاطميين او للامويين ، انها كانت فرصة اثبتت ان القرويين تأتي في مقدمة كل

المشاغل ، بل انها المكان الوحيد الذي ظل ملتقى لحبّ الجميع ، الكل يهفو الى رضاه بالبذل والسخاء اللذين كانا شعار سائر المؤمنين على اختلاف مراكزهم الاجتماعية ، وقد سمعنا عن إسهام الناصر بالمبالغ الضخمة من أخماس الغنائم لتكميل المصاريف الباهظة التي كانت لازمة عند التوسعة الأولى للجامع الأعظم(١٨٩).

لكن كل ذلك لم يكشف بصفة واضحة عن الأرقام المدققة التي كانت ميزانية القرويين تتوفر عليها ، فان القلاقل التي سببها التنافس المستمر على المغرب ظلت تسدل حجابها الكثيف على كل التفاصيل المتعلقة بذلك ، بيْدَ أنه عندما رجع الأمر الى يد المغاربة ، وقرر الفقهاء والأشياخ الزيادة في القرويين ، اكتشفنا الشيء الكثير مما كانت تزخر به سجلات أوقاف القرويين من وفر كان يزاحم أحيانًا وفر الدولة نفسها.

لما استأذن القاضي ابوعبد الله محمد بن داود أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين في توسعة المسجد للمرة الثانية ، اغتنمها العاهل فرصة ، ليقترح على قاضي القضاة أن يتم الانفاق من بيت المال على هذه الزيادة ، لكن القاضي ابن داود قدّم عرضاً مفصلاً لما تتوفر عليه القرويين من ذخائر وأموال تتمثل في هذا العدد العديد من أنواع العقار الذي تملكه داخلَ المدينة وفي ضواحيها كذلك ، وأخبره أن ما يتجمع الآن من أوقافها في أيدي النظار ووكلاء النظار من شأنه ان يكفي وحده لتسديد كل المبالغ ، وهكذا عرفنا منذ اليوم أن القرويين لا تتوفر على مالية هامة فقط ، ولكن أيضًا على جهاز قوي يشرف على تلك الثروة الطائلة، تتألف من النظار والوكلاء، لقد اقتصر عون أمير المؤمنين على تزويد القاضي بصالح الدعاء ، وإعطائه التعليمات اللازمة احترامًا لمبدأ التحري الذي قام عليه هيكل القرويين من أول يوم ، وقام القاضي بعمليات الجَرْد والاحصاء لكل ما تملكه القرويين ، لكثرته ووفرته وُجِدَ من الأعوان من ضموا عددًا من الأملاك الى أموالهم ، فكانت مناسبة لتغييرات شاملة في موظفي الأوقاف ، ومتابعات دقيقة للذين كانوا يتساهلون في أموال القرويين ، لقد اجتمع للجامع من المحاسبات الجارية ما يزيد على ثمانين ألف دينار ، أي ما يفوق سبعة وثمانين مليونا من الفرنكات القديمة(١٩٠).

لقد بلغت فاس أيام المنصور الموحدي ما لم تبلغه أية مدينة مغربية ، وقد عثر على سجل يرجع لتاريخ ٥٨٥ — ٦١٠ هـ نقلا عن المشرف(١٩١)على المدينة في ذلك الوقت الفقيه الغريغر ، يعطي وصفًا مجملاً لما كانت عليه المدينة التي تعلم سلفًا أن جل مرافقها إن لم تكن كلها ملك لجامع القرويين

فلقد انتهى عدد المساجد الى	٧٨٢
وعدد السقايات سواء منها التي بمياه العيون والأنهار	٨٠
وعدد دور الوضوء	٤٢
وعدد الحمامات	٧٣
وعدد الأرحاء في داخل المدينة	٤٧٢
وعدد الدور	٨٩,٢٣٦
وعدد المصاري	١٩٠٤١
وعدد الفنادق بما فيها المعدة للمسافرين والتجار	٤٦٧
وعدد الحوانيت	٩,٠٨٢
وعدد القيساريات في عُدْوة القرويين والأندلس	٢

وعدد الترابيع والطرز المعدة للحياكة	٣,٠٦٤
وعدد الدور المعدة لصنع الصابون	٠٤٧
وعدد الدور المعدة لدباغة الجلد	٠٨٦
وعدد دور الصياغة	١١٦
وعدد دور سبك النحاس	١٢
وعدد الكوش المعدة لعمل الجير	١٣٥
وعدد الأفران	١,١٧٠
وعدد معامل الزجاج	١١
وعدد معامل الفخار خارج فاس	١٨٨
وعدد معامل الكاغد	٤٠٠

هذا الى أوقاف البيمارستانات والمدارس التي تحدث عنها كتاب المراكشي وابن أبي زرع[١٩٢].

لقد غُمر رجال القرويين بشتى أنواع التكريم بما نالهم من الأوقاف : مؤذنوها وموقتوها ، أئمتها وخطباؤها ، علماؤها وقضاتها ، طلبتها وقومتها ، الكل يتوفر على عيش رغد كريم ، وبالرغم من أن هذه الاجور المغرية أثارت جدلاً بين الفقهاء باعتدادها أمراً غير لائق بالدعاة الهداة ، فان المبدأ ما لبث أن قبل من أغلبية العلماء بحجة أن الاعتماد على أموال الأوقاف يضمن للعلماء حماية كاملة من أي تأثيرات قد تفرضها تقلبات سياسية طارئة ، ولهذا كان هناك نوع استقلال للعلماء فيما اليه يذهبون.

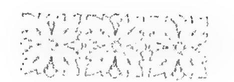
* * *

ونظرا للفيض الذي حصل في الأوقاف المخصصة للقرويين ، فقد التفت أهل فاس الى بعض الأعمال الانسانية الأخرى التي تدخل في إطار الوفاء لرسالة القرويين ، وقد أمكننا أن نعرف الكثير عن الوثائق الهامة التي ترجع الى القرن السادس كذلك ، ترفع رأس تاريخ الأوقاف بفاس عاليا ، ونذكر منها وصية الشيخ أبي مروان عبد الملك بن حيون (٥٩٩ هـ) بتخصيص الثلثين من العقار الموقوف على الأسرى ، وتخصيص الثلث الباقي للمساكين ، وعند غلاء الأسعار يحول ثلثا الأسرى للمساكين ليستعينوا به على الغلاء[١٩٣]، وقد جعلها كلها رهن نظارة أوقاف القرويين.

العطل وسلطان الطلبة

وقد تحكمت المواسم الدينية في تحديد مواعد العطل ، ووجدنا الدراسة تتوقف أيام الأعياد وتخف في بعض المواسم ، وتعرف العطلة عند المغاربة باسم «العواشر» أخذاً للكلمة فيما يظهر من عاشوراء التي تعدّ في صدر الأيام المعطلة منذ أيام الإسلام الاولى. وبالرغم من أن المبدأ هو تعطيل الدراسة أيام الخميس والجمعة ، وتوقيفها في الأربعين الصيفية ، نلاحظ من خلال تراجم بعض المشايخ أنهم كانوا يصحبون تلامذتهم أيام الراحة في نزهة بظاهر المدينة ، يجمعون فيها بين المتعة والفائدة[١٩٤].

ومن هنا نرى بعض الباحثين ينسبون عادة سلطان الطلبة – التي دأب المغرب على الاحتفاظ بها عدة قرون – الى هذا التاريخ المبكر، إن لم تكن هي بذاتها فأصلها، لقد دأبت الدولة في المغرب، على أن تشجع اختيار الطلبة لأحد زملائهم، ينصبونه سلطانا عليهم في فصل الربيع لمدة تقارب نصف الشهر، يقضونها خارج مدينة فاس على «وادي الجواهر» تحت الخيام، ولما كان المعروف عن الموحدين أن مملكتهم (مملكة الطلبة)، فقد أثار ذلك الانتباه الى أن جذور هذه العادة ربما يرجع الى القرن السادس الهجري، حيث كان للدولة الموحدية تقاليد وعادات تمس تنظيم الطلبة وتمييزهم والترفيه عنهم ... طلبة الحضر، وطلبة الموحدين، والطلبة الأمراء، ولكل صنف من الثلاثة رئيس يسمى «السلطان»، ينتخب كل عام مرة، وقد كان من مشاهير رؤساء الطلبة عبد الله المالقي[١٩٥].



تعليقات الفصل الخامس

١) اخلاط من قبائل شتى اجتمعوا الى صالح بن طريف اليهودي الأصل ، نشأ ببرناط حصن من عمل شدونة من بلاد الأندلس ، ثم رحل الى المشرق ، فأخذ على عبيد الله المعتزلي ، وقدم المغرب سنة ١٢٥ فنزل بلاد تامسنا فادعى النبوة وسنّ طائفة من التشريعات الغريبة (راجع ص ٨٩ و ٩٠ من ابن ابي زرع).

٢) مرآة المحاسن ص ٤ المحاضرات ص ٥٩ سلوة الأنفاس الجزء ١ ص ٣ .Les historiens des charfas p. 21 فواصل الجمان ص ٣.

٣) مسالك الأبصار ، البحث العلمي : يناير ١٩٦٤ – ١ – ص ١٤١ الاستقصا ٢ / ١٦٣ .

٤) نرى ان اتخاذ مراكش عاصمة دون فاس لم ينل من نشاط فاس ، ولهذا كان كلام الاستاذ دوفيردان في كتابه Marrakouch عن كسوف فاس وركودها على العهد المرابطي والموحدي كلاماً يحتاج الى تمحيص. الكتاب الذهبي (ص ١٥٩). ١٦٢ .

٥) المعجب (نشر المغرب) ١٩٣٨ ص ٢٢١ ، ونشر القاهرة ١٩٤٩ ص ٣٥٧ . الكتاب الذهبي : ١٦١ .

٦) الكتاب الذهبي ٣٢٩ الاستبصار.

٧) الاستبصار نشر د . سعد زغلول عبد الحميد .

٨) الانيس ص ١٩ – ٢٠ ، ص ٢٨ – ٢٩ .

٩) تاريخ الجزائر العام ١ ، ٣٨٥ .

١٠) من مقامات ابن الخطيب : «معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار» هي الحشر الاول ، والقطب الذي عليه المعول والكتاب الذي لا يتأول ، بلد المدارك والمدارس والمشايخ والفهارس ، وديوان الراجل والفارس ... ومن نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب ، بمن بقي من الأصحاب : «ام القرى ومجمع الورى ...».

١١) كان السبب الرئيسي لرحيل ابن خلدون عن مدينة فاس حادثا شخصيا بينه وبين الوزير عمر بن عبد الله قال :

ووالله ما رمتُ الترحّل عن قِلًى ... ولا سخطة للعيش فهـو جزيـلُ

ولا رغبة عن هذه الـدّار انهـا ... لظِـلٌّ علـى هـذا الأنـام ظليـلُ !

الكتاب الذهبي ص ١٦٧ – ١٦٨ .

١٢) جاء في فتوىً للإمام العقباني قاضي تلمسان «أنه ما عُرفت إلاّ وهي طيلة العام دارسة مجتهدة مواظبة ...» الونشريسيّ : المعيار ٧ , ٢٣٩ . ازهار الرياض ١ ص ٢٥ .

١٣) قال : «والذي احتوت عليه فاس من غرائب الأشياء الدينية والدينيوية ، وخصوصا الكتب الغريبة ، شيء لا يشاركها فيه غيرها ، وهذا شيء لا يحتاج الى دليل . المعيار ص ١٧٧ .

١٤) السلوة ، ١٧٤ – الكتاب الذهبي ص ١٧٠ – ١٨٩ – ١٨٧ و ١

١٥) وصف إفريقيا ١ ر١٨٧ – ١٨٩ .

١٦) كان كثيراً ما يردد ابو المحاسن ان ما يجري على ألسنة العامة في مدينة فاس يستند الى علم أو عرف سليم وقد أُثِرَ في هذا الصدد عن بعضهم تأليف (العرف الآسي في العرف الفاسي) يستنبط أقوال أهل فاس من القرآن والسنة . المعيار ١١٨،٩ الازهار العاطرة ١٥٤ – ١٥٥ .

١٧) يقول ابن القاضي : «... والحاصل أنّ بها من الحسن ما ليس في مدينة من مدن الدنيا ، ولما سكنها ادريس انتهت اليها التجارات والصناعات من كل صقع ، حتى تكامل فيها كل متجر ، وسيقت اليها خيرات الأرض ، وجمعت فيها طرف الدنيا ، وتكاملت فيها حتى صار لأجل ذلك : لا عالم أعلم من عالمهم ، ولا راوية أثبت من روايتهم ، ولا متكلم أجزل من متكلمهم ، ولا قارئ أتقن من قارئهم ، ولا كاتب أضبط من كاتبهم ، ولا خطيب أبرع من خطيبهم ، ولا واعظ أبلغ وأعظم من واعظهم ، ولا نحوي أعرف من نحويهم ، ولا شاعر احذق من شاعرهم ، ولا قوال أطرب من مغنّيهم ...» .

١٨) جاء في تحفة الإخوان أن سكان فاس طبقات ، وأن كل واحدة منها تحترف لها مهنة تخصّها وتبرع فيها ، زيادة على ما تتصف به تلك

الطبقات من علم وفقه ، وكان القادري يعلق على العلماء الذين كانوا يصونون أنفسهم باتخاذ حرفة لهم ...

١٩) بالرغم من الظروف الخاصة التي فرضت على المَقَّري مغادرة فاس ، وما كان يمكن أن تسبّبه من ردّ فعل ضدها ، فقد ظلت كتاباته تفوح تعبيرًا طيباً عن فاس ، فقد قال : « إنها قطر المغرب الذي تمت محاسنه ... » ، وقال عن عدوة القرويين « إنها محل الأعلام ، والخاص والعام من الناس ، وهي حضرة الخلافة ، وقبّة الاسلام في المغرب ». النفع ١ ،٢٣ ، ٧ ، ص ٢٧٠ .

٢٠) مما يؤثر عن السلطان المولى الرشيد ، وقد سئل عن رأيه في فاس ومراكش ، فأجاب بكلمته المأثورة : « بينهما ما بين بانيها » كما يؤثر عن السلطان المولى سليمان تحمله النقد في سبيل إيثارة لفاس ، حتى لقد تحدثوا عنه معرضين باهل فاس :

بَنُـو قريظـة قـد نالـوا مرادهـم — مـن الأمـير وحازوا غايـة الأرب ! !

٢١) قال :

٢٢) ولا سرى الله عنـك ثـوب نعمته — أرض تجنّبـتِ الاثـام والـزوّرا
بلـد أعارتـه الحمامـة طوقهـا — وكساه حلـة ريشه الطـاووس
فكأنمـا الأنهـار فيـه مدامـة — وكأن ساحـات الدّيـار كؤوس !

٢٣) يا فاس منـكِ جميع الحسن مُسْتَرَقٌ — وساكنـوك أهنّيـهم بمـا رزقـوا

٢٤) راجع شعر ابن عبدون . عند الحديث عن تاسيس العاصمة : فاس .

٢٥) راجع شعر المغيلي . عند الحديث عن الخصّة الحسناء .

٢٦) أليس لهـا عـلى البلـدان فضـل — وتأتيهـا الركائـب والـوفـودُ

ويكفي لصحة هذا القول أن تلقى نظرة على الأسر التي تسكن مدينة فاس في الماضي والحاضر ، لتجد فيها الأسر الشرقية من العراق والشام واليمن وصقلية ، والأسر الأندلسية من قرطبة وغرناطة ، والبيوتات الجزائرية والتلمسانية علاوة على الأسر التي انتقلت اليها من باقي المدن المغربية كتازة وسبتة وسلا وتطاون ، أو القبائل كتسول والشاوية وبني يازغة .

٢٧) قال الشاعر :

إن فاخـر الشرق يـوماً بدمشق ، فقل — ناهيك ليس كفاس من اليـوم من بلد !

٢٨) يا فاس إني وأيم الله ذو شغـف — بكّـل ربع بـه مغْنـاه يسبيـني
وقـد أنست بقربٍ منك يـا أملي — ونظـرة فيـكم بـالأمس تحيـيني

البحث العلمي مايه ١٩٦٦ ص ١٩٧ .

٢٩) مما ينسب الى ابن عاشر قوله :

وقـد مـدحوا فاساً بأشياءَ جمّـةٍ — مـن العـلم والآداب والدّيـن والسُّنَّهْ
وقالـوا : بها عيب ، تُكدّ مريدهـا — نعم ، صدقوا ، لكن كذاك هي الجَنَّهْ!

الآس ص ٣٣، التعليق ٧٨ .

٣٠) من ذلك قول البكي :

رأيت جنات عـدن في منامـي — وحـور العين في أسنى لبـاس
فقلت بما أحصل بعض هـذا — فقـال : اذا هجـوت لأهـل فاس
فـدع عنك الصلاح وكـل بـرّ — فهجوهم يؤمـن كـلّ بـاس !

٣١) من ذلك قول الشيخ الرياحي سفير تونس للمغرب سنة ١٢١٨ هـ :

صاحِ ، اركبِ العزم لا تخلد الى اليأس ... واصحب أخا الحزم ذا جدّ الى فاس
واشرح متون صباباتي لجيرتها ... وحيّ حيّاً ، بهم قد كان إيناسي
لا يبصر الحسن إلا في وجوههم ... وليس يجنح في حبّ لوسواس

وقول الكاتب غريط :

ناهيك من حاوٍ لكل بديعة ... تبدو لعين الألمعيّ الراقي
سألت مذانبه فكنّ ذوائباً ... نشرت ببيض ترائب وتراقي

وقول الكاتب المزواري يمدح جواباً علمياً صدر عن فاس :

لله در جواب زانه أدب ... من أفق فاس أتت تحدو به النجب

وقول الشاعر بوعشرين :

فاس السعيدة أفردت ببهائها ... ودليل ذلك بيّن في مائها
حاكى بقوته وصوت خريره ... نبع العلوم يفيض من علمائها !

وقول الشاعر العراقي محمد الجبّوري :

يا فاس يا بهجة الآمال باسمة ... وجنة المغرب الأقصى لما رحبا
ما زال جامعك المعمور مفخرة ... للضاد طوّق طوق المنة الحقبا

فواصل الجمان ص ١٩٥ الأدب العربي في المغرب الأقصى ١ ، ١٠ – ١١ مجلة المغرب ، دجنبر ١٩٦٥ – دعوة الحق : يونيه ١٩٦٠ .

٣٢) يقول الشيخ المختار ، رحمه الله :

« ان كل مَن عرف فاسا – وما أدراك ما فاس ، واستحضر ما كتب حولها منذ القرن الرابع الى الآن كتابةً ناقصةً مجحفةً ، وقد ادرك الدور العظيم الذي مثلته فاس ، لا في المغرب ولا في شمال إفريقيا ، وإزاء الاندلس فحسب ، بل وفي العالم الإسلامي اجمع – يوقن أن تاريخها لم يكتب بعدُ كما يجب أن يكتب ، فلو تصدى باحث أو باحثون لكتابة تاريخ فاس من نواحيها كلها ، لفتحوا صفحة عربية ذهبية وهاجة طافحة ربما تنسي كل ما كتب عن بغداد ودمشق والقاهرة ... فاس الماجدة العظيمة التي هي فاسنا كلنا لا فاس سكانها وحدهم ؛ لأن فاس فاس العلم والفكر والحضارة ، لا فاس شيء آخر ، وان تاريخ المغرب الثقافي العام ليكاد يكون كله كجوانب الرحى حول قطب فاس ، فها أناذا أعلن عن سوس هذه التي أولعت بها ان اول عالم سوسي عرفته سوس فيما نعلمه هو وكاك ، وما هو إلا تلميذ أبي عمران الفاسي ... فهي الأستاذة أمس واليوم ، وكل انحاء المغرب تلاميذ لها ... ».

– سوس العالمة ص د – المعسول ١ – ١٤ – ١٥ ،

٣٣) جنى زهرة الآس ص ٨٠ ، نفح الطيب ١٨٧/٧ .

٣٤) كانت القرويين لأعيان فاس وعليتها بمثابة مرجع «Référence» فيكفي ان تقول : « فلان عالم بها ، او ابوه كان عالما بها » يكفي ذلك لتثبيت شخصيته ومعرفة مركزه .

٣٥) دور القرويين في جعل فاس من بين العواصم الاسلامية الكبرى – الكتاب الذهبي ، ص ١٠٩ .

٣٦) جنى زهرة الآس ، ص ٤٦ .

٣٧) يعد بكر بن حماد من مشاهير الجزائريين ، ولد بتيهرت حوالي (٢٠٠ هـ) ، وأخذ العلم في بلده ، ثم ارتحل الى القيروان فأخذ منها ، ودخل بغداد سنة (٢١٧ هـ) فلقي أبا تمام وغيره من أعيان الأدباء ، توفي سنة (٢٩٦ هـ) البكري : المسالك – تاريخ الجزائر العام ، ص ٢١٠ – ٢١١ .

٣٨) الآس ص ٢٧ الأنيس – ١١.

٣٩) يرى بعض الكتاب ان لعتاقة جامع الاندلس أثراً في إفراد الجزنائي له بهذه المأثره ، ونحن نعلم ان امر العتاقة متكلم فيه من العلماء ، فكثير منهم يرى ان القرويين والاندلس كلاهما سواء في هذه الصفة ، على ان هناك من يجعل الأفضلية للقرويين ، اذ تضم عددا أكثر من المصلين ، والفريق الثالث يرجح جانب الأندلس لانها عوض عن جامع الأشياخ الذي كان اول مسجد . الازهار العاطرة ، ص ١٣٩ .

٤٠) الانيس ص ٣٣ – ٣٤ .

٤١) جنى زهرة الآس ٩٤ – ٩٥ . الجذوة ص ١٥٩ – السلوة ١ ، ص ٣٥٦ .

٤٢) الآس – ٢٠ – ٢١ الجذوة ص ١٢١ – السلوة ٢ ص ١٧٥ .

٤٣) الجذوة ١٠٨ – السلوة ٣ ص ٩٢ .

٤٤) الكتاب الذهبي ص ١٦٠ .

٤٥) البكري ص ١٣٠ .

٤٦) الانيس ٣٣ – الكتاب الذهبي ١٦٠ .

٤٧) مشاهير فاس .

٤٨) الكتاب الذهبي ص ١٦١ .

٤٩) التكملة رقم ٦٦٨ ، الذيل والتكملة ج ٤ .

٥٠) صلة الصلة نشر بروفنصال رقم ٩٢ وترجم في التكملة رقم ٢٣١٥ .

٥١) صلة الصلة رقم ٤ والتكملة رقم ٨٠٣ – الجذوة ٢٢٤ .

٥٢) الكتاب الذهبي ١٦١ .

٥٣) التكملة ٢ ص ٧٤٠ رقم ٢٠٩٩

٥٤) البيذق ص ٦٣ – ٦٤ – ٦٥ .

٥٥) حح – ح. عبد الوهاب : وراقات ١ . ص ١١٦ .

٥٦) الأنيس – ص ٢٠ .

٥٧) المصدر السابق ١٧ .

٥٨) ورد في الجذوة في ترجمة عيسى بن عمران هذا (ت ٥٧٨ هـ) انه لما انتقل الى مراكش للعمل بها ترك ابنه بفاس يدرس بالقرويين ، وقد كتب له رسالة الى فاس يستنهض همته ويدعوه للجدّ والاجتهاد : « ادرس ترأس ، واقرأ ترق ... الخ » هذا مع العلم ان جامع ابن يوسف بمراكش أسس عام (٥١٤ هـ) ولا بدّ ان الوالد وهو قاضي الحضرة – اعرف بالمراكز العلمية القوية في البلاد . ويضاف الى هذا شهادة ابي مدين الغوث الذي قصد مدينة مراكش لطلب العلم ، فقيلت له الكلمة المأثورة « إنما هذا محل الأجناد ، فعليك بمدينة فاس » .

٥٩) الكتاب الذهبي ص ٥٧ .

٦٠) المونس ص ١٥٥ . تونس عبر التاريخ ١٠١ – ١٩٩ – القيروان عبر العصور ص ١١٣ .

٦١) القصد الى قاضي القضاة ابي الحسن علي بن النعمان القروي على ما يرويه الاستاذ عبد الله عنان في كتابه تاريخ الجامع الأزهر » ويلاحظ الدكتور محمد جمال سرور ان دور ابي الحسن كان مقصوراً على نشر الثقافة المذهبة وبخاصة المذهب الاسماعيلي . . .

٦٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أزهر . فريد وجدى : كنز العلوم واللغة (١٣٢٣ هـ) ص ٥٣٢ .

٦٣) الدكتور مصطفى جواد «جامعة القرويين» الكتاب الذهبي ص ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ .

٦٤) Le Maroc de demain 1989

٦٥) اورد النقيب ابن زيدان في الموضوع قصيدة لمحدث المغرب ، علامة الرباط الشيخ المدني بن الحسني رحمه الله ، نقتطف منها ما يلي :

وان «الجامع القرويّ» فينـــــا	كنبراس يـضيء لـــذى اعتـصام
لـه للمغـــربيّ عـــلى سـواه	فخـار لا كفخـــــر بـالـوسام
جميـع مـدارس الدنيــــا تبـدت	متابعـــــة كتلـــوٍ للإمـــــام
وقـد ضربت لـه آباط إبـــل	لشيـخ او لكهــــل او غـــلام
وراهـب رومـــة قـد رام فيـــه	علــوم الكـون مـن دون انتقـــام

الاتحاف ، المجلد ٣ ص ٧ مجلة المغرب الرباط عدد جمادي الاولى ١٣٥١ - مجلة المغرب الجديد عدد ربيع الثاني ١٣٥٥ ...

٦٦) Fez ou les bourgeois de l'Islam 1930..

٦٧) رسالة المغرب ، الرباط ، ١١ يونيه ١٩٥١ .

٦٨) Fez avant le protectorat p. 453-454.

٦٩) ولد جيربير أو سيلفيستر الثاني بين سنة ٩٤٠ وسنة ٩٤٥ في Aquitaine قريب من أورياك Aurillac ، ولهذا يسمى Gerbert d'Aurillac وبعد ان ثقف علوم اللاهوت في مسقط رأسه ذهب لتكميل دراسته على عرب اسبانيا ، وقد كان يدرس تحت إشراف أوتون الثاني (Othon II) مبعوثاً من القمط بوريل ، من مؤلفاته المنشورة : رسائله وقد بلغت مئة وتسعا وأربعين رسالة ، ولها قيمتها الكبرى . وخطبه E. H. Vollet : Sylvestre II ou Gerbert (la grande Encyclopedie) الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٤٩٤ - الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ص ٩٢٨ .

٧٠) Colin : Hesperis T. 20-1935 p. 94-98 ..

٧١) من اصل عربي بسيبيريا ، درس بروسيا في أكاديمية الالاهيات بموسكو وقازان ، وأعطى دروسا في اللغة العربية والفرنسية بأكاديمية قازان ، وفي سنة (١٨٩٩ م) ظهرت أطروحته في المعتزلة ، وهي دراسة تاريخية اعتقادية حول الاسلام ، وفي سنة (١٩١٦ م) أعطى جوزى دروسا في الحقوق الاسلامية بالجامعة ، وبعد ثورة أكتوبر اشتغل بجامعة باكو أستاذاً ، وفي هذه الفترة نشر عدة مؤلفات وبحوث وفصول ذات قيمة كبرى في موضوع الوثائق العربية حول تاريخ القوقاز ، وقد تجاوزت مؤلفاته البارزة اثنيْ عشر كتابا . ولد سنة (١٨٧١) وتوفي في مدينة باكو يوم ٢٠ يناير ١٩٤٢ م). المعلم الجديد ، العدد ٨ - ٩ - ١٩٥٩ - ص ٦٨ - الزركلي : الأعلام ٢ ص ٥٤ .

٧٢) لقد سجل بعض هذه المعلومات الشيخ المدني بن الحسني في أبيات من القصيدة التي سلفت الإشارة اليها ، وكان ألقاها يوم الأحد ٢٣ صفر ١٣٤١ هـ ، (١٥ أكتوبر ١٩٢٢ م) في حفلة امتحان المدرسة الشدّادية الحرة بمدينة الرباط ملهباً بها حماسة الشبيبة ، ولم تُلْفت تلك المعلومات أنظار الباحثين الا بعد ذلك عندما نشر صديقه المؤرخ النقيب ابن زيدان الجزء الثاني من إتحافه المطبوع سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م مشتملا على القصيدة مع تعليق ناظمها عليها ، وقد صارت هذه القصيدة من محفوظات التلاميذ حتى خارج الرباط ... (الكناشة المخطوطة الخاصة بسيدي المدني ، وهي في مكتبة ولده الأستاذ عبد الكريم) .

٧٣) (كذا) يعني كلية القرويين .

٧٤) كذا .

٧٥) ممن وصل الى المغرب قديما من المشارقة هبة الله المصري، وأبو الوفاء المصري ، وابن حمويه الاسكندراني ، وابن مودود الفارسي ، وابن أبي القاسم الخراساني ، وابن عبد الوهاب الدمشقي ، وابن مهذب البغدادي ، وابن كوحيا المصلاوي ، وابن موسى الكردي ، وابن أبي شاكر الإربلي ، وأبو علي القالي صاحب الأمالي ، وابن زكون التلمساني ، وابن الصقر ، وبعض اليهود الذين أعطوا وأخذوا عن علماء فاس من أمثال خلوف وابن ميمون ... وقد ترجم المقّري لعشرات من المشارقة الذين وصلوا الى المغرب ضمن استطلاعات ومهمات علمية . التكملة رقم ٦٥ - النفع ١ - ٣٦٢ -

الجذوة ٢٦٢ مجلة الهداية الاسلامية ، القاهرة ١٢ م ١ جمادي الاولى ١٣٤٨ . علماؤنا والتبادل الفكري بين المغرب والمشرق . دعوة الحق دجنبر ١٩٦٠ يناير ١٩٦١. الكتاب الذهبي ص ١٩٨ . الكتاب الذهبي ص ١٩٩ .

٧٦) يقصد بالأرقام أو الاعداد العربية الارقام الغبارية التي دأبت بلاد المغرب على اتباعها دون الارقام الهندية المستعملة عند المشارقة الذين ينعتون أرقامنا تساهلا بالارقام الفرنجية ، ومعلوم ان الموسوعات العالمية تُطبق على نسبتها للعرب وستمر بنا تعليقات تؤكد هذه المعلومات .

٧٧) نرى من المفيد أن ننبه على بعض الأخطاء التي وقعت عند نقل تاريخ المجلة التي نشرت هذه الكلمة ، وكان له فيا يظهر أثر في ارباك الذين عُنُوا بالموضوع ، لقد كان العلامة الرئيس الشيخ المدني بن الحسني ، وكذلك صاحبه المؤرخ المغربي الكبير المولى عبد الرحمن بن زيدان رحمهما الله ، وجدا في المقال المذكور مستنداً جديراً بالعناية ، لكن وقع تحريف مطبعي في التاريخ الهجري ، ثم انهم نقلوه بالأرقام الهندية لا بالأرقام العربية. فحدث أن فتحت عين الصفر في ١٣١٠ فأصبحت ١٣١٥ ، ثم نقلها عن تاريخ النقيب ابن زيدان كثير من الأدباء المغاربة خمسة عشر ، واستحالت عند آخرين الى ١٣٥١ بتقديم الواحد على الخمسة ، وهكذا أمكن ان تقرأ في الأعداد القديمة لمجلة المغرب والمغرب الجديد تواريخ متضاربة لهذا المقال ، ولو ان مؤرخينا قلّدوا جيربير في اعتماده على الأرقام العربية ، لأراحونا من هذا التعليق . الاتحاف ٢ ص ٥٧ ، مجلة المغرب عدد جمادى الأولى عام ١٣٥١ هـ. مجلة المغرب الجديد ، ربيع الثاني ١٣٥٥ هـ .

٧٨) Gerbert, humanisme et chretienté du Xe siecle 1946 / Etudes sur le régne de Robert le pieux 996-1031, 1885 l'Eglise au pouvoir des laïque T: VII de l'histoire de l'Eglise 1940.

٧٩) Histoire de l'Espagne musulmane Paris 1950.

٨٠) La relation de la France avec le Maroc. Hes. T. XIIV année 1957 3 et 4 T.P. 265-266.

٨١) Un Pape philosophe d'après l'histoire et la legende 1997 page 21.

٨٢) مجلة العربي ، الكويت عدد أكتوبر ١٩٦٠ ص ١٨ .

٨٣) Descriprion de l'Afrique 1, 192.

٨٤) تاريخ الجزائر العام ١ ص ٣٢٨ .

٨٥) الجامعات المغربية وأثرها في جامعات أروبا . البحث العلمي ، دجنبر ١٩٦٥ ، ص ٢٠٧ .

٨٦) بلا فريج : الأدب الأندلسي ، الاول ص ٣٠ – ٣١ .

٨٧) عثر في خروم خزانة جامعة القرويين على شذرات من أناجيل لوقا ومرقص ويوحنا مكتوبة على رق الغزال ، وأحد الكراسين بحسب رأي المستشرق أرتوركي عضو المجمع العربي بدمشق – يشتمل على إنجيل القديس لوقا من الفصل (٢١) – ١٢ الى الفصل (٢٤) – ٢٧ ، ويشتمل الكراس الآخر على إنجيل القديس يوحنا من الفصل (١١) – ٥٧ الى الفصل (١٨) ٤ ، وقد كتب أيضاً حول الأوراق الراهب طِسْرا لما زار فاسا ووقف عليها في ٢٣ أبريل ١٩٣٨ وعدها من أهم نسخ الأناجيل وأقدمها . ويحمل هذه الأوراق في الخزانة رقماً ترتيبياً ٧٧ ورقاً حجمياً ٤٠ / ٧٣٠ ، ويعتقد أن هذه القطع عرّبت أيام ازدهار العربية بالأندلس . مجلة المغرب ، عدد يوليه ١٩٣٣ – الخزانة العلمية. حوادث وآراء عدد خاص ٥ ص ٢٩ .

٨٨) مخطوطة الاحاطة – الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٢٢٢ – النفح ١٣٠،٤ طبعة بيروت – دار صادر – المن بالامامة ص ٤٨٩ تعليق ٣ .

٨٩) اتفقت الموسوعات العالمية والمصادر التاريخية على نسبة هذه الارقام الى العرب Les chiffres Arabes وكل رجال البحث كذلك يتفقون على انها وصلت الى اوربا عن طريق عرب الأندلس ، ومن المعلوم ان هذه الارقام التي تعتمد على الزوايا عرفت في المخطوطوت المغربية القديمة ، ولا تخفى أهمية الاقتصار عليها من قبل العرب اليوم . وبالمناسبة نذكر هنا ما رددته الأوساط العلمية عن مزايا هذه الأرقام العربية ، او « القلم الغُبار» كما يعرف قديما ، وذلك بمناسبة رحلة (أبولو ١١) الى القمر ، فقد اشادت تلك الأوساط بالعرب الذين وضعوها قائلة : انه لو اضطر العلماء والفنيون في هوستون وكيب كنيدي الى استعمال الارقام الرومانية بدلا من الأرقام العربية لما تمت رحلة (ابوللو) . تراث العرب العلمي ١٩٤١ (ص ٢٢).

الأرقام المغربية أرقام عربية أصيلة ، مجلة اللسان العربي ، العدد الثاني يناير ١٩٦٥ ص ٣٦ – ٣٧ – ٣٨ – ٣٩ ، جريدة الأنباء المغربية ، عدد ٢٦ يوليو ١٩٦٩ راجع ص ١٣٣ .

٩٠) المنقول عن جيربير انه تأثر – ان لم نقل اخذ – بالنظريات الفقهية الاسلامية ، وان الفضل يرجع اليه في تطوير التشريع الروماني بما اقتبسه وادخله الى اوربا الحديثة مما لا نزال نلاحظ اثره فيها الى اليوم وهكذا فعندما يتفق ان نجد توافقا بين التشريعيين الاسلامي والاوربي مثلا ، فان ذلك لا يعني بحال ان فقهنا تأثر أو بالأحرى أخذ من الفقه الآخر كما يراه كولدزيهير Goldziher . وقد ذكر ابن تيمية في « القول الصحيح».

« ان النصارى في طائفة من بلادهم كانوا ينصبون لهم من يقضي فيها بشرع المسلمين ، اذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به الناس ، فليس في الانجيل احكام ، بل عامّته الأمر بالزهد». وقد نقل ابن خيره في تعليقاته على النهاية ان طلبة العلم الفرنج كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم ، واهتموا كثيرا بنقل الفقه الاسلامي الى لغتهم ، لاستعماله في بلادهم ، لرداءة الاحكام عندهم ، خصوصا في المئة الرابعة والخامسة » . ونحن مؤمنون بانه لو كان الفقه مأخوذا من جهة أخرى ، لكان لتلك الجهة ذكر عند العلماء المسلمين ، لأنهم عوّدونا دائما وأبدا ان ينسبوا العلوم والفنون الى أهلها بدون أي تعصب ولا تحيز ، ولنأخذ مثلا على ذلك علمَ المنطق الذي لم يضرهم اطلاقا التنصيص على ارسطاليس الذي وضعه ، والقلم الرومي الذي استعمله الموثقون قديما في رسومهم الشرعية والفنون التي يمارسونها . ارشاد المعلم والناس في اشكال القلم الفاسي . هل تأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني او الحقيقة هي العكس ؟ » الرسالة المصرية ، العدد ٦٧ – ١٣ ، مايه ١٩٣٥ .

٩١) يذكر المؤرخ الانكليزي ميلير في كتابه فلسفة التاريخ : أن مدارس العرب كانت هي مصادر العلوم ، وكان الطلاب يهرعون اليها من كل قطر ، يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة ... وممن ورد من تلك المناهل الراهب جيربير . راجع فصل : الاستشراق منذ القرن العاشر للميلاد . الزيات : تاريخ الادب العربي ص ٤٩٤ الفاخوري : ص ٩٢٨ .

٩٢) كان عبد الحميد الأروبي صاحب « وليلة » معتزلي النزعة كما يذكر البكري ص ١١٨ . الأنيس ، ص ١٧ .

٩٣) تاريخ الجزائر العام ١ / ٢١٩ .

٩٤) ان المغاربة الذين كتب لهم أن يزوروا بلاد المشرق ، يسجلون في مؤلفاتهم القديمة والحديثة تعدد الفرق واختلاف المذاهب . عبد الهادي بوطالب : « بين المذاهب الإسلامية والوحدة العربية » طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء – ١٩٦٨ –

٩٥) نقول « بقية باقية » لأننا نلاحظ على طول أيام التاريخ آثار هذه « البقية الباقية » ، فما تزال في المغرب الى اليوم عادات في عاشوراء لدى بعض الأسر ، وخاصة منها الأسر التي تنحدر من الرسول عليه الصلاة والسلام عادات تستشعر الحزن والحداد على المأساة التي أصابت الاسلام باستشهاد الإمام الحسين . وما زالت في المغرب عادة تسْبيد الرأس (اي حلقه) التي كانت في الأصل من شعار الخوارج ، وتعدّ من مميزات المغاربة « قوم يحلقون الرؤوس ويلبسون البرنس ويأكلون الكسكس » . لقد كانت أبوابه مفتوحة للكل ، ولذلك يسع سائر ما يرده ، ولوكان صالح بن طريف زعيم البرغواطيين ! ، الأنيس ص ٨٩ – ٩٠ .

٩٦) وذلك عندما سأل أهل فاس : هل فتحت أرضهم عنوة أوصلحاً ؟ فكان جواب الشيخ أبي جيدة : لا صلح ولا عنوة ، وانما أسلم عليها أهلها . الاستقصاء ، ١ً ص ٨٠ . : النبوغ المغربي (ص ٥٠) .

٩٧) لقد أخرجه الطغاة من فاس ، أنظر بيوتات فاس في القديم . نشر عبد القادر زمّامة ، البحث العلمي ، عدد يناير ١٩٦٥ ص ٨٥ – التشوف : ٦٤ النبوغ المغربي ١ً ، ٦٢ – ٦٣

٩٨) كتاب مشاهير فاس – البحث العلمي – دجنبر ١٩٦٤ ص ٦٤ ، المذاهب الاسلامية بالمغرب ، ص ٣٥ .

٩٩) النبوغ المغربي ، (١ / ٣٠) .

١٠٠) حدث ابن الزيات صاحب التشوف عن أبي الحسن علي بن حرزهم قال : لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحْريج على كتاب الإحياء ، وأن يحلف الناس بالايمان المغلّظة إن كتاب الإحياء ليس عندهم ، ذهبت الى أبي الفضل (المشهور بابن النحوي (٥١٣ هـ) بقلعة حماد – الجزائر) أستفتيه في تلك الايمان ، فأفتاني بأنها لا تلزم ، وكانت الى جنبه أسفار ، فقال لي : هذه الأسفار من كتاب الإحياء ، ووددت أني لم أنظر في عمري سواها . وكان أبو الفضل قد انتسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءاً . فاذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءاً – استقصا ٢ً ص ٦٦ – ٦٧ . الاس ٣١

١٠١) في هذا التاريخ قام المرابطون بأعمال التوسعة الكبرى التي أمر بها علي بن يوسف بن تاشفين في القرويين على يد قضاته السبتي ، وابن داود ، وابن معيشة والقيسي .

١٠٢) يفيد البيذق أسماء بعض المشايخ الذين حضروا درس ابن تومرت ، فهم علاوة على ابن معيشة رجال من أمثال ابن الملجوم والغرديس والمغيلي كما سلف . . . البيذق ص ٦٣ – ٦٤ – ٦٥ .

١٠٣) المعيار ٢ ص ٤٠٣ . ع . هـ . « عبد الحق بن معيشة احد عمداء القرويين » ٥٢٩ – ٥٣٣ مجلة التربية الوطنية ، دجنبر ١٩٦٠ . : « أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين » ١٣٤٩ ص ٨٥ .

١٠٤) يعدّ عثمان بن عبد الله القيسي السلا لجي مرجع فاس في علم الكلام والأصول . صلة الصلة رقم ١٠١ التكملة رقم ١٨٦٢ التشوف ١٧٨ .

١٠٥) نعلم أن السلطان العظيم يوسف بن تاشفين وجه سنة (٤٩٠ هـ) (١٠٩٧) بعثة دبلوماسية الى بلاط بغداد لاستمزاج الرأي مع المستظهر بالله حول تطارح بعض الزعماء في الأندلس على الأجنبي ، يبتغون حلفه ضد أبناء جلدتهم ، كانت تتألف من الإمام عبد الله بن العربي ونجله القاضي أبي بكر ، وقد استقبلت البعثة من لدن المستظهر بحضور الوزير ابن جهير . « جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي » مطبعة فضالة ١٩٦٧ ، ص ٧ .

١٠٦) يرى الأستاذ الحاج عبد الله كنون أن في مقدمة أسباب هذا التصرف من الموحدين إبعاد الفقهاء العرب عن مراكز الزعامة ، وإحلال البربر مكانهم . ويظهر لي أن سبب ذلك الحرص على تعجيل الفائدة وتعميمها في أسرع وقت ، والا فان اللغة العربية ظلت مكان قداسة في المغرب الاقصى منذ اليوم الاول الذي احتضن فيه المغاربة الاسلام .. انظر ترجمة سالم بن موسى السوسي (ت ٥٨٩) التكملة ٢ رقم ٢٠٠٦ النبوغ المغربي ، ص ١١٤ – ١١٥ – ١١٦ – ١١٧ – ابن صاحب الصلاة ص ٦١ .

١٠٧) المراكشي : المعجب طبعة القاهرة ص ٢٧٨ – ٢٧٩ .

١٠٨) راجع ترجمة الامام يشكر في جنى زهرة الآس ، وفي مشاهير فاس ص ٨٢ ، عدد يناير ٦٥ من البحث العلمي .

١٠٩) كان أبو الحسن علي بن عشرين يحفظ المدونة . ولما أحرقها الموحدون ، كتبها الفقهاء من حفظه عند ظهور دولة بني مرين . كتاب مشاهير فاس .

١١٠) دعوة الحق ، دجنبر ١٩٦٦ – يناير ١٩٦٩ . تاريخ المغرب الدبلوماسي – ص ٧ – .

١١١) ابن خلدون المقدمة ص ١٩١ . الحلل الموشية ص ١٨ – ١٩
روض القرطاس ٣٦ – ٤٣ – ٤٧ – ٤٨ – المعيار ج ٨ ر ١٣ صبح الاعشى ٥ ر ٤٤٤ – انظر (النفح) حول لقب الملك بين الإسلام وبني اسرائيل . . .
التراتيب الادارية ١ ر – ١٢ – ١٣ مقدمة ابن خلدون ١٩١ الحلل الموشية ١٨ – .

١١٢) قيام دولة المرابطين ١٩٥٧ ص ١٨٢ . Catalogue des monnaies Musulmanes. P. 198 the coin of marrs.

١١٣) في الوقت الذي كان فيه العباسيون بالمشرق يعلقون اهمية كبرى على التلقيب بالخليفة وامير المؤمنين وامير المسلمين نلاحظ ان المرابطين كانوا لا يجدون فرقا بين هذه الالقاب بالرغم مما يحاوله بعض المؤرخين والكتاب من تجسيد للموضوع ، ويدلنا على ذلك ما نجده من وثائق ومستندات معاصرة ، فقد ورد في المعيار استفتاء امير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين لفقهاء غرناطة حول الاملاك المحبسة على بيع النصارى ... كما ورد اسم علي بن يوسف منقوشا في قبة القرويين وقد حلي بالخليفة والملك وامير المسلمين هذا الى النّقود المرابطية المضروبة سواء باغمات عام ٤٨٩ او بغيرها وهي تحمل لقب امير المؤمنين واحيانا امير المسلمين وتارة تنعت كذلك الخليفة العباسي بامير المسلمين ، والامر كذلك على العهد الموحدي الذي يستعمل الالقاب كلها كما نقرأ ذلك في روض القرطاس ، وكما نجده منقوشاً على ساق الثريا الكبرى بجامع القرويين ، وكذلك بنو مرين الذين نجدهم ينعتون احيانا بامير المسلمين واحيانا بامير المؤمنين ، كما نرى في النقش الموجود على خزانة المصاحف بالقرويين ... وتتميماً للموضوع نذكر هنا ان المغرب اقتبس بعد ذلك نعت السلطان الذي كان اول من تلقب به خالد بن برمك ثم بنو بويه ممن بعدهم من الملوك السلاجقة وغيرهم ... ونقل العمري ان المتعارف عليه ان لقب السلطان يعطي للامير يكون تحته ملوك آخرون ..

١١٤) تذكر الاخبار ان الناصر العباسي كان يعتمد على (ابن تاتلي) من الملثمين لاستنزال الموحدين من الحكم ، كما ان الناصر اهتم اهتماما كبيراً بمخطوطة (الاستقصاء في نسب من اقصى) لمحمد الحسن الحسيني باعتبارها قد ترفع نسب الحكام المغاربة وتتئذ الى البيت النبوي مما يزيد في التشويش عليه . وكان يعتزم مصادرة الكتاب . مصطفى جواد : « المنصور الموحدي والناصر العباسي » ، دعوة الحق ابريل ١٩٦٩ ص ٥١ .

١١٥) الموحدون والوَحْدة الاسلامية – مجلة التربية الوطنية – مارس – ابريل ١٩٦١ .

١١٦) عرفنا سابقاً عن مدرسة للطب كانت في فاس في القرن الرابع الهجري . شهيرات المغرب مخطوط : الطبّ والاطباء بالمغرب ص ١٥ .

١١٧) الاستقصاء ٢ً ص ٦ .

١١٨) الأزهار العاطرة الانفاس ٢ً ، السلوة ٢ً ، ص ٥٢ – ٥٦ .

١١٩) عرفت قديماً بمدرسة ابي مدين لان ابا مدين كان يقيم بها ايام مقامه بفاس بعد رجوعه من بغداد وقبل التحاقه بتلمسان . وقد افاد الأستاذ محمد السراج – رحمه الله – الذي كان يعرف تلك المنطقة بتوقيف من والده وغيره من الطاعنين في السّن أن أطلال المدرسة تقع يسرة الداخل لروضة الأنوار : روضة أبي مدين ، ويمنة الداخل لمدرسة ابن غازي المحدثة هناك ، وجنوبا مدفن موسى بن أبي العافية ، وغرباً الطريق المؤدية الى هذا المدفن ، وتمثل هذه الأطلال بعض أقواس وأسس بعض الجدران وقبالتها يفصل الطريق مقبرة ابن غازي وسيدي يحيى السراج الصغير ، وبها مستند الى جدار روضة أبي مدين قبر الفقيه الزقاق صاحب الزقاقية كما يوجد بجوارها ضريح العارف الهزميري ويحيى السراج المتوسط من ركنها الشرقي .

١٢٠) ورد في تحفة الإخوان أيضاً في معرض تعريفه بزاوية سيدي علي صالح ، قال : مما بين الطريق الممرور عليها لوادي الزيتون والزنقة الممرور عليها لمدرسة المرابطين الصابرين اللمتونية وتقابل دارزازا الاندلسي . وبعد مجاعة عام (١١٥٠) خرب المكان وصار الى يد الشاميين . (١٢٢٨ هـ) التحفة القادرية (مخطوطة) المجلد الثاني ص ٣٧ (ب) النبوغ المغربي ص ٧٥ .

١٢١) "Anis de Fes" Medinat Fas (La Rive des Andalus Conférence promenade du 14 Février 1954 sous la conduite de sir Mohamed Berdellah et Maurice Neny: La Medersa Almoravid page. 12-13 Sig. M. B.

١٢٢) سمّيت بذلك لأنها كانت تستوعب فيما يظهر بعض المعامل التي تتوفر عليها فاس لصنع الكاغد ، والتي نافست ، ثم ورثت صناعة مدينة شاطبة الأندلسية التي اشتهرت بالورق الشاطبي .

١٢٣) من جملة الوصايا التي وقفت عليها بهذا الصدد وصية الشيخ أبي زيد بن خنوسة ، وأمه فاطمة بنت أبي الفضل الزرهوني ، بجنان الزيتون بعد انقراض عقبهما ، على هذا المكان ليشتري من الجنان الطعام للواردين على الجامع الملتزمين به من الفقراء والمرابطين بعدما ينفق في خدمة ذلك ما يستدام به الوقف المذكور.. وقد حررت الوصية في خامس شهر رجب من عام (٧٩١) ، وأمر بالنظر في تطبيق الوصية المذكورة أمير المسلمين سيدي محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي سالم المريني . الأنيس ص ٢٩٩ . المعيار ٧ ، ص ٢١٠ – ٢١١ . درة الحجال : دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص ١٠٢ .

١٢٤) النبوغ المغربي ص ١٣٨ .

١٢٥) ورد في مسالك الابصار لابن فضل العمري : « وفي رحبة قصر الخلافة توجد المدرسة وهي مكان جليل » به خزائن الكتب . العلوم والاداب والفنون ص (٢٧٨) .

١٢٦) الانيس ٢٨ .

١٢٧) الانيس ص ١٥٤ –

١٢٨) لعله كان يعني ان الباني الاول في عهد بني مرين ، ونعتقد ان سلسلة المدارس المرينية لم تؤسس فجأة بعد فراغ شامل فانه لا يوجد ، حسب رأي نقاد المؤرخين ، شيءٌ يحدث فجأة دون ما سابق مقدمات .

الجذوة ص ٢٢٠ – ٣٤ . ص – ١٩٢٥ . Hesp – المدارس الاسلامية للمؤرخين العرب (محاضرة) الدكتور حسين مونس .

١٢٩) الاعلام في تاريخ مدينة مراكش .

١٣٠) جنى زهرة الاس ص ٤٢ .

١٣١) ان عمل الفاتح عقبة بن نافع في افريقية كمله دون شك الامير ابو زكريا يحيى بن عمرسنة (٤٤٧ هـ) ، ثم واصله امير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذي اتسعت امبراطوريته من طنجة الى جبال الذهب من بلاد (السودان) . وكان ضرورياً لكي تضمن الدولة وجودها في هذه الاقطار النائية ان تعمل على نشر اللغة العربية لتركز في النفوس الدعوة الاسلامية الطاهرة ، وكان على مدرسة فاس (جامعة القرويين) ان تعدّ العلماء الذين يقصدون تلك الديار دعاة مدرسين الى جانب اخرين يقصدونها من الجنوب المغربي ، وقد ساعد انضمام الاندلس الى المغرب على سدّ الحاجات والرغبات ، وهذا ما يفسر لنا اهمية المركز العلمي في تونبوكتو ، وهو ما يفسر لنا معجزة انطلاق لسان أبي العباس الكرواني البربري الاصل بمثل هذا الشعر يخاطب به امير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن :

إن الامام هو الطبيب وقـد شفـا   عللَ البرايـا ظاهـراً ودخيـــلا
حمل البسيطة وهي تحمـل شخصه   كالروح يوجـد حامـــلا محمـــولا !

وانطلاق لسان اسحاق ابراهيم بن يعقوب الشاعر الاسود الذي خاطب المنصور الموحدي بمثل هذا الشعر الرقيق :

أزال حجابـــه عنـــي وعينـــي   تـراه مـن المهـابـة في حجـاب
وقرّبنـــي تفضّلـــــه ولكـــن   بعدتُ مهـــابة عند اقترابـــــي !

ويكشف لنا كذلك عن اسرار ظهور امثال الشيخ عبد الله البرنوي وابن الملقن التكروري ، وغيرهما .. الاستقصاء ١ ، ١٩ ، ٢، ٤٢ / ٥٢ – ٦٦ / ١٤١ – ١٦٧ ٣ ١٢٩ – ١٥١ – ٧ ، ٩٩ – ١٠٢ – ١٣٣ .

Description, 99–102–133

« افريقية تحت اضواء جديدة » « الممالك الاسلامية القديمة في افريقية السوداء » دعوة الحق ، مارس ابريل . مايه ، يوليو ١٩٦٢ « افريقية الغربية في ظل الاسلام » ص ٢٧ .

١٣٢) تعد مدينة سبتة من أجلّ دور العلم بالمغرب واقدمها ، فقد كانت همزة الوصل بينه وبين الاندلس ، فيها يجد العلماء راحتهم ، وتشتهر المدينة بالمدرسة التي بناها الشاري (٦٤٩ هـ) بعد ان اتم دراسته بفاس وقد كان بسبتة الى جانب هذه المدرسة مدرسة ابي الحسن المريني ، يضاف الى هذا ٦٢ خزانة علمية ، كان فيها ٥٤ بدور كبار العلماء ويكفي ان نعد من تلامذة مدرسة سبتة الشريف الادريسي الجغرافي المشهور : اختصار الاخبار .

١٣٣) عن الصلات الوثيقة التي شدت بعض هذه المراكز بجامعة القرويين ، راجع كتب الشيخ المختار السوسي وخاصة كتابه (سوس العالمة) وكتابه (من خلال جزولة) ، وراجع كتاب الجامعة اليوسفية في تسع مئة سنة ، لمحمد بن عثمان المراكشي ، وبحث الشيخ الرحالي الفاروقي عميد كلية مراكش ، بعنوان : القرويين وكلية مراكش المنشور في الكتاب الذهبي للقرويين ...

١٣٤) لقد ظلم دوزي المرابطين حين نعتهم باسوأ النعوت ، فقد عرف رجال العلم على عهدهم ما سيظل خالداً في شخص ابن باجة ، وابن رشد ، وابن طفيل ، وابن زُهر ، وابن العربي ... ونعتقد أن ريفييرا كان على حق في حكمه على ما كان يتتوجبه امتزاج الحياة الثقافية والفكرية بين المغرب والأندلس .

١٣٥) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ، ص ١٢٥ – ١٤٢ .

١٣٦) لقد بعث الناصر خديمة العباس بن ناصح الثقفي الى بغداد بقصد شراء كل غريب نادر من الكتب . الخزانة العلمية بالمغرب . ص ٨ .

١٣٧) راجع ترجمة اللخمي (ت ٤٢٢) الذي نسخ استذكار ابن عبد البر سنة (٤٩٨ هـ) في تراجمنا لرجال القرويين في ملحق الباب الأول .

١٣٨) ورد في كتاب مسالك الابصار لابن فضل الله العمري : « وفي هذه الرحبة المدرسة ، وهي مكان جليل ، به خزائن الكتب ... » والنص وان كان حديثاً عن حضرة مراكش ، لكننا على علم من تفوق فاس على سائر مدن المغرب ... الانيس ص ٢٨ .

١٣٩) الانيس ص ٢٨ .

١٤٠) ازهار الرياض ١ ، ٢٣ – ٢٤ – المخطوط رقم ٣٣٥٤ من الخزانة العامة .

١٤١) ولي القضاء بعد ابن أبي موسى ، لقي ببلده أبا الفضل عياض ، وأبا بكر ابن الجد ، ثم رحل الى الأندلس التكملة ٢ ، ٦٠١ صلة الصلة رقم ١٥٠ ، الجذوة ص ٢٦٠ رقم ١١٦٧٤ السلوة ٣ ، ١٧٨ .

١٤٢) هذا هو المعروف بابن رقية ، وقد كان وهب خزانته لابنته ، وهي التي تولّت بيعها ، كان ممن أخذ عنه الطالب الإسكندراني أحمد بن عمر الانصاري الأندلسي . الذي تحدث عن خروم المكتبة التي بيعت بذلك المبلغ ، وليس الامام الطرطوشي هو المتحدث ، فانه توفي قبل سنة ٥٢٠ ولذلك كان ما نقله ديلفان في كتابه عن الطالب الحرشاوي ، يحتاج الى تحقيق ، الانيس ٤٢ – صلة الصلة رقم ١٥٠ – التكملة لكتاب الصلة رقم ١٦٥٢ جزء ٢ ص ٥٩٠ الديباج : ص ٦٨ راجع ص ١٠٨ .

Fez, son université et l'enseignement supérieur.

١٤٣) كانت صناعة الكاغد بفاس من الصناعات المتداولة البسيطة حتى تسربت الى داخل البيوت ، واشتهرت سيدات فاس بصناعة أوراق (البسطيلة) التي تعد عنصراً يدلل على المهارة في الوراقة !

١٤٤) لا ننسى أنه يوجد على مقربة من الجامع الأعظم سوق الكتبيين، أو المجلدين، وسوق العطارين التي كانت في جملة ما تقوم ببيعه السّواك والسّمق (الصمغ) المستعملين في الكتابة و«الغبار» الذي يصلح للتنشيف على هاتيك العصور الى جانب الأقلام التي كان جلّ الناس في فاس يعرف بريها وإجادتها.

١٤٥) يذكر ابن صاحب الصلاة أنه على عهد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي سنّت في سائر بلاد المغرب تلاوة القرآن إثر صلاة الصبح والمغرب على أقساط معينة : وهذا القسط هوما نسميه حزباً ، يتلى حزب عند الصباح ومثله عند المساء ، فلا يمر الشهر الا وقد تليت الستون حزباً جميعها . وتركزت هذه العادة أيام المرينيين ، وتوسعت فلم تقتصر على زاوية واحدة من زوايا القرويين ، ولكنها تعدت الى عدد من جهاتها ... فعلاوة على حزب المحراب هناك حزب ظهر الصومعة وظهر خصة العين ، وظهر العنزة ، والمستودع ، والثريا الكبرى ، وباب الرواح الاعلى ، وباب الصالحين . وقد تضاعفت العناية بالموضوع على مر الأيام ، فشجعت الأوقاف القراء الذين يتقنون القراءات السبع ، وخصصوا لهم جرايات لقراءة الحزب بمختلف القراءات ، وقد أدركنا منهم عدداً ، واستمعنا اليهم بباب الصومعة ، وكانت الدولة تلحقهم بعلماء المرتبة الثالثة أولاً ، ثم فرق بين البصريين والحمزويين ، فالأولون يلحقون بالمرتبة الرابعة ، والآخرون يلحقون بأهل المرتبة الثالثة ، ولا ينخرطون الا بعد أداء الامتحان لدى لجنة تتركب من القراء الاقدمين مع حضور ممثل عن المجلس العلمي . وقد خصصت أوقاف واسعة لكل هؤلاء المقرئين على اختلاف العصور . جنى زهرة الآس ص ٨٠ — القادري ، النشر الاول ص ١٥٥ — الحوالات الوقفية (مخطوطة) بالخزانة العامة .

١٤٦) جنى زهرة الآس ص ٨١ .

١٤٧) تاريخ الجامعات الاسلامية .

١٤٨) الصلات الثقافية بين الاسكندرية والمغرب ، الكتاب الذهبي ص ٩٩ .

١٤٩) التكملة ، نشر العطار ص ٦٧٥ رقم ١٧٠٨ .

١٥٠) عياض : الغنية ص ٢٣ — ٢٦ — ٢٧ .

١٥١) ابن صاحب الصلاة : ص ٤٣٨ .

١٥٢) يعطي ابن الوزان الفاسي تفصيلات أكثر دقة لملابس الطبقات المرموقة بمدينة فاس ، فقد تحدث أيضاً عن الثياب الداخلية ، لكنه لاحظ أن البرنس يظل شعار تلك الطبقة ، وسجل عدم اهتمام الناس بالجوارب إظهاراً للنشاط المتواصل واستعداداً للوضوء . المجلد الاول ١ ص ٢٠٨ .

١٥٣) التشوف ص ١٧٨ ، صلة الصلة ١٠١ — التكملة ١٨٦٢ .

١٥٤) الانيس ص ٤٧ طبعة فاس — الآس ص ٥٨ .

١٥٥) الجذوة ص ٧٣ — ٧٤ .

١٥٦) جنى زهرة الآس ص ٩٥ .

١٥٧) اصدر السلطان يعقوب من بني مرين أمراً بان لا يلبس الا البياض عندما كان يتهيأ لاستقبال سانحة بالجزيرة الخضراء يوم ٢٠ شعبان ٦٨٤ على اثر انتصار حققه المغرب ، هذا ولم يعرف تاريخ المغرب على الاطلاق تعبيراً عن الحزن بالوان اخرى الا في حالة واحدة وذلك عند احتلال مدينة العرائش من قبل الأسبان ، فقد لبس اهل المغرب الأحذية السود ، واستمروا على ذلك الى ان استرجعوا المدينة .

وفي موضوع لبس البياض بمناسبة الحزن وردت الابيات التالية خطابا لأهل الاندلس :

الا يـا أهـل انـدلس فطنتـم	بلطفكـم إلى أمـر عجيـب
لبستم في مآتمكـم بياضـاً	فجئتم فيه في زي غريـب
صـدقتم فالبياض لباس حـزن	ولا حزنا اشدّ من المشـيب ! !

١٥٨) تحريف مغربي لكلمة (مسجد) ، للتمييز بينهما ، ويلاحظ ان حظ الجيم دائماً غير سعيد ، فهي عندنا تستحيل هنا الى ياء ، وفي مصر الى كاف معقدة ، وفي بعض الجهات تتغير الى خاء ، هذا وقد ذكر ابن الوزان انه كان بفاس على عهده مائتان اثنان من المسايد . هذا ويقيم الاقارب عند وصول اطفالهم الى سورة الاخلاص احتفالا يسمونه (جايبوه) كما يسمون احتفالهم باستظهار القرآن (حببينا) لانهم كانوا يأتون بالطفل لداره في مواكب ينشد فيه جهاراً :

أحيينا يا محمد   الصلاة على محمّد !

— Description de l'Afrique I, 215-216

العز والصولة في نظام الدولة . الكتاتيب القرآنية مجلة المغرب مايه ١٩٣٣ . Hes. 1931 T. X. II fasc. I. P

١٥٩) يفيد ابن خلدون ان لتعليم النشئ مذهبين : فيها المشرقي والمغربي . ففيا يخص المذهب المغربي يتعين على المتعلم في أول الأمر إتقان القرآن ورسمه واختلاف حملة القرآن فيه ثم التدّرج في مبادئ العلوم ، ويلاحظ ابن خلدون – نتيجة لهذا – ان المغاربة تفوقوا في حفظ القرآن تفوقاً بالغاً . ونعلم الى جانب هذا ان من اقدم نظريات التعليم نظرية ابن العربي (٥٤٣ هـ) الذي كان يرى ان يقتصر المتعلم في المرحلة الاولى على تعلم البلاغة والنحو وعلوم العربية ونصوص من الادب البليغ ، فاذا تقوى في ذلك انتقل الى الحساب والرياضيات ، فاذا تمت عنده الملكة الرياضية رجع عندئذ لدراسة القرآن وحفظه ، بعد أن يكون الأدب قد حسَّن من ذوقه ، وتكون الرياضيات نقشت فكره ، فيكون قادراً على ادراك معاني القرآن ، وينعي ابن العربي على بني قومه المغاربة تلقينهم القرآن في اول الامر ، قال ابن خلدون : ولعله تأثر بمذهب المشارقة . فأراد حمل أهل المغرب عليه ، ولكن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالاحوال ! على حدّ تعبير ابن خلدون ، لأنها كما تهدف الى تحصين الولدان من افات جنون الصبا ، فقد يصرفه مانع من الوصول الى القرآن ، وربما عصفت به تباريح الشبيبة . . . الخ . ابن خلدون : المقدمة ص ٤٧٣ – ٤٧٤ – ٤٧٥ ، جنى زهرة الآس ص ٥٧ .

١٦٠) الانيس ص ٤٧ ، عبد الواحد الفاسي : خطباء القرويين (محاضرة في مؤتمر المعهد العلمي) مجلة المغرب مايه ١٩٣٣ .

١٦١) ابن صاحب الصلاة : المقدمة ، ص ١٥ .

١٦٢) ذُكر أن للمشّدالي اسلوباً عالياً في الالقاء ، يقابل اسلوب العبدوسي ، وقد ذكر أن طلبته تبرموا من غموض افكاره ، وطالبوه ان ينزل في عبارته اليهم ليفهموه ، فقال لهم : لا تنزلوني اليكم ودعوني أرقيكم الي ... »

١٦٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٠ – تاريخ الجزائر العام ٢ ر٢٥٢ – .

١٦٤) تاريخ المن بالامامة ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ . التراتيب الادارية ٢ر٢١٧ .

١٦٥) توجد تراجم لعدد من الأدباء المغاربة الى جانب زملائهم أهل الاندلس في المجموعات الأدبية المعروفة . كقلائد العقيان ، وذخيرة ابن بسام . وغيرهما وقد وقفنا في تاريخ ابن صاحب الصلاة على طائفة من القصائد الرفيعة التي تسمو الى نفس المتنبي وابن هانئ الاندلسي ورفاقهما . راجع الأشعار فيه .

١٦٦) التكملة لكتاب الصلة رقم ٨٠٣

١٦٧) الاستقصاء ٢ ر ١٤١ .

١٦٨) على أثر سفارة ابن العربي الى بغداد عام ٤٩٠ هـ توالت الرسائل بين المرابطين والعباسيين ، ولما كانت المكاتيب البغدادية تحمل تاريخاً يختلف عن التاريخ الذي يؤرخ به في الديار المغربية ، فقد « عمل ذلك في قلب الخليفة علي بن يوسف بن تاشفين » على حد تعبير الوثائق القديمة ، وكلف وزيره وكاتب ديوانه ابا القاسم ابن الجد أن يستشير فقهاء المغرب ، وفي صدرهم علماء القرويين :

« نحو تاريخ هجري موحد » ، دعوة الحق ، العدد الثاني – السنة العاشرة ، شعبان ١٣٨٦ ديسمبر ١٩٦٦ م ؛ ص ١٦ – ١٧ –

١٦٩) ذكر أنه رتبه على اربعة فنون : الأول في الحسابيات ، والثاني في وضع الآلات ، والثالثة في العمل بالآلات ، والرابع في التطبيقات . وفي كل باب منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة ، النبوغ المغربي ١٥٧ هـ .

١٧٠) نقل الكانوني في مخطوطته : « شهيرات المغرب » عن كتاب « فن الأسنان بالمغرب الأقصى » انه كان بفاس في القرن الرابع الهجري مدرسة طبية ... » . الطب والاطباء بالمغرب ص ١٥ .

١٧١) حضر ذات يوم الى باب امير المؤمنين الطبيب سعيد الغماري مع الاديب احمد الكرواني فقال امير المؤمنين : من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غمارة ! ولما بلغ الكرواني ذلك قال : « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، اعجب منهما – والله – خليفة من كومية ! استقصا ٢ ر١٤١ .

١٧٢) الطب القديم بالمغرب ، نشرة معهد الدروس العليا ، عدد ١ ص ٧٢ .

١٧٣) مع هذا لا ننسى كتاب الشيخ ابي جيدة (٣٦٥ هـ) حول الوثائق على الطريقة الشافعية ، وكتاب الاصيلي (٣٧٢ هـ) الآثار والدلائل في خلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي ، وكتاب ابي عمران الفاسي ٤٣٠ (التعاليق على المدونة الذي خرج فيه عوالي حديثه ، – الكتاب الذهبي ص ١٦٠ – النبوغ المغربي ٥١ . (٤) ازهار الرياض ٢٢ – ٢٣ .

١٧٤) ازهار الرياض ص ٢٢ – ٢٣ .

١٧٥) يوجد في خزانة القرويين برواية عبد المؤمن عن المهدي الى الامام مالك .

١٧٦) النبوغ المغربي . . .

١٧٧) يوجد في الخزانة العامة بالرسالة تحت رقم ك ٢٢٢ . راجع ص ١٠٠ تعليق ٢ .

١٧٨) المقرئ : ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ٣ ر٢١ .

١٧٩) ابن خلدون – المقدمة طبعة مصر ص ٣٠٢ .

١٨٠) كتب أمير المسلمين الى القاضي أبي عبد الله محمد بن يحيي بن عبد الله بن زكريا المعروف بابن الفراء (٥١٤ هـ) يأمره بفرض معونة استثنائية على أهل المرية ليتقوى على الجهاد ، فأجابه القاضي بأن ذلك لا يجوز فأجابه العاهل بأن عمر بن الخطاب فرضها في زمانه ، فراجعه القاضي بهذا الكتاب الذي يظل شاهداً تاريخياً للحوار الشريف الهادف المتبادل بين الملوك المغاربة وعلمائهم : إن كان عمر قد اقتضاها ، فقد كان صاحب رسول الله ووزيره وضجيعه في قبره ولا شك في عدله وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ولا بوزيره ولا ضجيعه في قبره ولا ممن لا شك في عدله ، وأن عمر ما قام بذلك حتى دخل مسجد رسول الله ، وحلف بمحضر الصحابة أن ليس عنده في بيت المال درهم واحد ، فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة مَن هناك من أهل العلم ، وليحلف أن ليس عنده في بيت المال درهم ينفقه ... » الصلة ١١ رقم ١٢٦١ طبعة ١٩٥٥ ، الاستقصاء ٢ر ص ٥٣ – ٥٤ .

١٨١) البكري : المسالك ، صفحة ١٣٠ .

١٨٢) التكملة ٢ رقم ٢٠٩٧ ص ٧٤٠ ابن صاحب الصلاة ص ٢٢٩ ، الجذوة ص ٣٤٥ ، الدكتور صلاح خالص : المعتمد بن عباد ص ١٤٣ –١٤٤

١٨٣) قد مدح ابن منقذ المنصور بقطعة شعرية من أربعين بيتاً ، يقول في مطلعها :

سأشكر بحراً ذا عُباب قطعته الى بحر جود ما لأخراه ساحل ...

العبر ٦ ر٣٤٦ – الاستقصا ص ٢١ ر١٦٣ – .

١٨٤) الف ابن القطان (٦٢٨ هـ) مقالة في معاملة الكافر بمناسبة ورود فرناند الثاني (البيبوج) على الناصر الموحدي سوغ له فيها القيام له عند استقباله ، فلم يرضها العاهل ، وما يزال بروتوكول المغرب إلى الآن على استقبال الملك للسفراء ، وهو على حالة الجلوس . ابن صاحب الصلاة ص ٢٢٢ – الذيل والتكملة خامس . جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي طبعة فضالة .

١٨٥) من الطريف ان نعرف ان الشيخ ابا جيدة تأثر من رؤية سيدات فاس يسعين الى رؤيته ، فدعا الله لهن بقولته المشهورة « اللهم لا تشقهن » ، ومن هنا بداية عادة نساء فاس ان يقصدن ضريحه كلما نزل بيبتهن ما ينذر بشقاء ، وقد شاع في السنة اهل فاس نعت الزوج الذي لا يعصي امرأ لزوجته بأنه من اصحاب سيدي بوجيدة . وهذا ما يفسر تهافت سيدات فاس هذه الايام على حمل ازواجهن على اعادة بناء الضريح من مالهم الخاص ! +...

١٨٦) كانوا يرون أن القاضي اذا طالت مدته فانه لا يحصل لمن ياتي بعده النفوذ المطلوب ، تاريخ الدولتين ص ٤٤ .

١٨٧) الأنيس المطرب ص ٤٨ .

١٨٨) الروض الهتون ص ٥٩ – الجذوة ص ٢٩٩ عند ترجمة يحيي السراج الاكبر . كتاب قيام دولة المرابطين .

١٨٩) الأنيس ص ٣٤ ، الآس ص ٤٧ .

١٩٠) يتراوح وزن الدينار المرابطي بين ٤٥٣ ر٣ كرام وبين ٨٦٦ ر٣ كرام وقد قدر بمبلغ الف فرنك وثلاثة وتسعين سانتيماً في بداية القرن العشرين فيكون المتحصل بالضبط : ٨٧،٤٤٠،٠٠٠ ، ابن ابي زرع ص ٣٦ .

Le Maroc dans les premières années du XVI siècle (monnaie) page 99-100-101-102..

١٩١) المشرف لقب مغربي أندلسي قديم ، يعني تقريبًا وظيفة المفتش العام للميزانية ، فهو الذي يشرف على كل الحقوق والواجبات اللازمة عند التصميم والايراد ، ويكون المشرف مع الوصي في بعض الاحوال كما في باب الحجر والايصاء ونوازلها وقد دخل اللفظ في اللغة الاسبانية Almajorifie ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٨٧ ، القرطاس ٢٩ ، دوزي ص ٣٨١ .

١٩٢) المعجب ص ٨٢٧ روض القرطاس ١٥٤ .

١٩٣) راجع لائحة العقار هذا عند الحديث عن تاريخ بناء باب القرويين المسمى (باب ابن حيون)

١٩٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالامانة ص ٦١ .

١٩٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامانة ص ١٢١ ، الكعاك – محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب .

ملحق للباب الاول

تراجم لبعض اعلام فاس في هذه العصور

بالرغم من الفراغ الذي شعر ويشعر به الكتاب المعاصرون عندما يتعلق الأمر بتدوين التاريخ الماضي ، فان هناك عنصرًا مُهِمًّا خدم تاريخ المغرب خدمة جلى ، ساعد على اكتشافه منذ بداية العصر الوسيط ، ونعني به أدب التراجم. واذا كنا فقدنا – الى حدٍّ ما – تاريخنا المكتوب ، فاننا قد توفرنا على ما هو أجل من ذلك التاريخ ، ألا وهو تراجم الكبار فمن حسن الحظ أن تملك سلفنا شعور بأن نزول الرحمة يقترن بذكر الصالحين ، فدأبوا على استمرار البحث والتنقيب على أولئك الرجال الذين كانوا مثلاً يُحتذى في سلوكهم وفي جهادهم لإسعاد بني جلدتهم ، وهكذا وجدنا أمامنا طائفة مهمة من الزعماء والعلماء والفقهاء ممن كان لهم شأن عظيم في بناء المجتمع الفاسي عبر السنين.

وقد كانت الانطباعة الأولى أن جل أولئك الرجال تأثروا ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، بما كان يرد من المشرق من أفكار وكتب وعلوم وفنون ، وان الشرق كان وما يزال وسوف يبقى المنطقة التي يبدو منها الصَّباح أولاً ! ! واذا سمحنا لأنفسنا بأن نجعل للأندلس كيانًا خاصًا ، فاننا سنقول – قياسا على ذلك – إن للجو الاندلسي تأثيرًا في رجال فاس لم يستطيعوا حماية أنفسهم منه ... مئات منهم رحلوا الى المشرق ، ومئات منهم اضافوا الى تلك الرحلة إلمامة بقرطبة أو إشبيلية أو مرسية مثلا ، وسنجد في أولئك الرجال قومًا من صميم المغرب ، أو قومًا من أقحاح العرب ، وآخرين من فارس ، وغيرهم من الأكراد ، لكن الإسلام استطاع أن يجمعهم على هدف واحد ، ويوحدهم على لغة واحدة ... سنقف من خلال تلك التراجم على عدد من الآثار التي خلدت ذكر أصحابها مؤلفات عالجت مواضيع اصبح المجتمع في حاجة ماسة اليها ، بسبب اختلاطه الخارجي بالعالم.. سنرى أن العلماء كانوا يواكبون سير الأحداث ، ويحاولون أن يتغلبوا على مشكلات الساعة ... سنقف على عدد من علماء المغرب ممن عادت أفضالهم على المشرق بما بثوا فيه من علوم ، فأجابوا عن جميل الأمس بجميل متجدد ، وعمموا في تلك الجهات ما اقتنعوا بصلاحيته من مذاهب لم تكن منتشرة هناك ... سنقف على عدد من أعلام الفكر الإسلامي والمسيحي والموسوى كذلك كان لعلماء فاس أثر في تكوينهم وظهورهم ، من أمثال : ابن حَزْم ، وسيلفيستر ، وابن ميمون .. وسنلاقي فيهم نوعا من العلماء المتجولين يعلمون حصة من السنة في هذه الجهة ، وينتقلون الى الجهة الثانية في حصة ثانية من الزمن .. وسنقف على نوع من العلماء كانوا يقضون مجالسهم مع الطلاب أكثر مما يقضون مجالسهم كحكام وقضاة .. وعلى نوع آخر من العلماء كانوا يُؤْثِرُون أن يحترفوا الى جانب اشتغالهم بالدرس حتى لا يكونوا عبئًا على الدولة ، وحتى لا تتعرض كرامتهم للامتهان ... سنقف على عدد من القيّمين على العلوم والكتب ممن كانوا علماء أعلاما .. سنقف على الظاهرة التي كانت تميز التاريخ الفكري المغربي في العصور الوسطى : لا حدود ولا قيود ، قاضٍ باشبيلية يصبح قاضيًا بتونس ومراكش ، إلى أن يصل إلى القمة : فاس ... شبكة محكمة الاتصال بين مدرسة فاس ومدرسة سبتة ومراكش وأغمات وتلمسان والقيروان وقرطبة ... إجازات متبادلة بين هؤلاء وهؤلاء ، عدد من الصيادلة والأطباء والموقتين وأهل الهيئة ... إن على هذه القرويين كانت تعتمد الأُطُر المغربية في تزويدها بالعناصر الضرورية لسيرها في الداخل والخارج .. وسنرى في

علماء القرويين من طمحت نفسه ، وهو بالمشرق ، الى أن يأخذ من عالماته المشهورات : ست الملك ، وست العلم .. وسنشاهد بعض ما تعرضت له البلاد من الأحداث السياسية والظواهر الطبيعية : زلازل ، سنون عجاف ، سيول جارفة ، أوبئة معدية يذهب معها وجوه البلاد من فقهاء وعلماء ... ستتعرف دورَ العنصر النسائي في تكوين هذا المجتمع ، لم تخل مرحلة من مراحل التاريخ من فقيهة تنير الطريق لزميلاتها ، أو عالمة تبين لهن وجه الصواب فيما يقصدن أو شاعرة تساجل وتنافس أدباء العصر... كثير وكثير من المعلومات الطريفة حول الحياة الاجتماعية والفكرية يمكن أن نلتمسها من خلال تلك السطور القليلة.

الحق أن تراجم الكبار أجلّ من التاريخ كما قالوا لأنّها تحتوي على التاريخ وزيادة ... ولهذا رأينا أن نأتي بتراجم طائفة من أولئك الأعلام في سطور قليلة ، تتميا للفائدة :

تراجم لبعض أعلام فاس على هذه العصور

١) يحيى الأول (٢٣٤ – ٢٤٩ هـ) :

هو الإمام يحيى بن محمد بن إدريس الثاني بن إدريس الأول . عهد اليه الأمر بعد وفاة أخيه الإمام علي ابن محمد بن إدريس ، ويذكر ابن خلدون أن الدولة المغربية عظمت في أيامه ، وأن العمران استجد في مدينة فاس العاصمة على عهده ، فاستدعى بناء المزيد من فنادق التجار والحمامات ، وامتدت معه العمارة الى خارج أسوارها لاستيعاب الذين قصدوا المدينة من الأندلس وإفريقية والثغور القاصية ، والإمام يحيى هذا هو الذي أشرف على بناء جامع القرويين ، (ابن ابي زرع : الأنيس ص ٣٢ ، ابن خلدون ٤،١٥).

٢) فاطمة أم البنين (٢٤٥ هـ) :

هي فاطمة بنت محمد الفِهْري القيرواني ، وتكنى أيضًا بأم القاسم ، وقد وردت من إفريقية مع أفراد أسرتها على المدينة حيث سكنت عُدْوَةَ القرويين على مقربة من مكان الجامع الذي كتب لها شرف تشييده ، وبالرغم من أننا لم نجد لها ولا لوالدها ذكرًا في معالم القيروان ولا في أعلام فاس ، فان عملها هذا كان كافيًا لسردها في عداد الخالدين (الأنيس ص ٣٢ – ٣٣).

٣) داود بن إدريس (٢١٣ – ٢٦٣ هـ) :

كان ضمن إخوة الإمام محمد بن إدريس الذين اختص كل واحد منهم باقليم من أقاليم المغرب ، بإشارة من الجدة كنزة ، وقد كان من نصيبه في بادئ الأمر بلاد هوارة وتسول وتازة ، وما بين ذلك من قبائل مكناسة وغياثة ، ولكنه لم يلبث بعد تولي يحيى الثاني (٢٤٩ – ٢٥٢)أن اتخذ عُدوة الأندلس مقراً له ، حين كان يحيى يحتفظ بعدوة القرويين أو المدينة العظمى ، وقد تحدث التاريخ عن (مناورات ومخالفات) بين يحيى وعمه داود من أجل الاستيلاء على عدوة القرويين ... وقد عثر على لوحة تحمل اسمه بتاريخ (٢٦٣ هـ) مغروزة في أعلى البلاطة الوسطى لجامع القرويين ... البلدان ١٨٩٠ ص ١٣٧ – : « الإمام داود بن إدريس ،» دعوة الحق ابريل ١٩٦٠ ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٣٦ جزء ٣ ص ٢١٢) .

٤) احمد بن القاسم بن إدريس الاول (٢٩٦هـ) :

من علماء عدوة القرويين الأعلام ، وهومن أعلى بني إدريس شأناً ، شقيق يحيى الثالث (٢٩٢هـ) وكان من أهم

ما ذكره التاريخ به أنه استدعى أحد مشاهير العلماء الجزائريين بكر بن حماد (البكرى : المغرب ، في ذكر إفريقية والمغرب) .

٥) بكر بن حمّاد (٢٩٦ هـ) :

أبوعبد الرحمن بكر بن حماد الزناتي التاهرتي . ولد حوالي سنة (٢٠٠هـ) وأخذ العلم من علماء بلده ، ثم ارتحل الى القيروان فأخذ هناك ، ثم ارتحل الى بغداد سنة (٢١٧ هـ) فلقي عدداً من الادباء من امثال أبي تمام صاحب الحماسة ، ومسلم بن الوليد صريع الغواني ، وابن الاعرابي ، واتصل بخلفاء بني العباس وحصلت له حظوة،تصدّر بجامع القيروان لإملاء العلم والأدب سنة (٢٧٤ هـ) ، وقد استدعي من قبل الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس لزيارة فاس.البكري – المغرب – الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ص ٢١٠ – ٢١١ .

٦) الفارسي (٣٠٧ هـ) :

هوالخطيب ابومحمد عبد الله بن علي الفارسي الذي وقع عليه الاختيارمن بين تلك الجملة الوافرة من المشايخ الذين عرفتهم عُدوة فاس ، وكان ذا لسان وجنان ، وكان أول خطيب تحدث على منبرالقرويين ، ولم يذكرالتاريخ زمناً محدداً لوفاته ، وإنما احتفظ لنا بتاريخ (٣٠٧ هـ) الذي هو تاريخ نقل الخطبة من مسجد الشرفاء لجامع القرويين . . . ويذكر بعضهم ان هذا الحادث كان سنة (٣٢١ هـ) اي السنة التي تم فيها نقل الخطبة الى جامع الأندلس على أن هناك رأيا ثالثاً يذكر ان الخطبة نقلت الى القرويين سنة (٣٤٥ هـ) لكن الذي يساعد عليه مجرى الأحداث هوتاريخ (٣٠٧ هـ) كما سلفت الاشارة الى ذلك عند الحديث عن المنبرالفاطمي .

٧) يحيى الرابع (٣٠٨ هـ) :

الإمام يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس كان أعلى بني إدريس شأناً وحالاً وعلماً ، لم يبلغ أحد من الشرفاء ما بلغ ، قال علي النوفلي : كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس هذا ، العلماء والشعراء ، وكان أبواحمد الشافعي من جلسائه ، وممن يتكلم عنده في العلم ، وكان ينسخ له عدة من الورّاقين ، فقيه ، حافظ للحديث ، فصيح ، صاحب بلاغة وبيان . – المغرب – الأنيس ص ٥٢ . ابن خلدون ص ١٦ .

٨) ابن بكار :

من بيت بني بكارالذي تعاقب أفراده على مناصب العلم والقضاء بمدينة فاس على عهد الأدارسة ، وهم يتصلون نسباً براشد مولى إدريس . وهؤلاء غير بني بكارالقيسيين الذين سمي باسمهم الزقاق الذي بين السبع لويات ودرب ، ابن حيون وقد استمرذكرهم الى أواسط القرن العاشر في بعض الحوالات الوقفية (٩٥٩ هـ) عندما عوض فندق الرضّاع في زنقة بن بكار بعقارآخر لمصلحة أحد أفراد هذه الأسرة ، وهومحمد بن بكار... كتاب مشاهير فاس – الحوالات الوقفية – ...

٩) الصدفي (٣٢١ هـ) :

أبوالحسن بن محمد الخطيب الأول لمسجد عُدوة الأندلس ، ويتساءل عن صلة الحافظ الصّدفي به ، فاذا ثبت أن هذا يمت لذلك ، فسيرجع تاريخ وجود أسرة ابن حيون الصدفي بفاس الى هذا التاريخ المبكر قبل الشيخ عبد الملك بن حيون (ت ٥٩٩) الأنيس – ٣٣ – ٣٤ – الآس ٩٢ .

١٠) أحمد بن ابراهيم بن محمد بن إدريس (٣٣٢ ﻫ) :

هو غير أحمد (الاكبر) المتقدم ، يُعدّ من أعلم بني ادريس وأكثرهم اتصالا بمجالس العلماء ورجال الإفتاء ، وقد نقل البكري عنه أنه كان استشار قاضي المدينة سنة (٣٣٢ ﻫ) في أمر التطوع للغزو بالأندلس الى جانب عبد الرحمن الثاني . وبهذا تكون أول فتوى لمساعدة الأندلس صدرت بفاس . البكري : المغرب ص ١٣٠ .

١١) ابن ابي عيسى (٣٣٢ ﻫ) :

ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى قاضي الجماعة بمدينة فاس ، وهو القاضي الذي استفتاه الأمير أحمد بن ابراهيم في دخول الأندلس من أجل نصرة المسلمين الذين كانوا عرضة للأذى .

١٢) جبر الله (٣٥٠ ﻫ) :

هو جبر الله بن القاسم الأندلسي ، من المتقدمين الذين كانوا يلازمون بصفة خاصة جامع الأندلس في الجانب الغربي منها ، وممن ساعدوا على انتشار المذهب المالكي في العدوتين ، ولذلك يعد من مشاهير علماء فاس وفقهائها . لقي الإمام أصبغ بن الفرج ، وسمع عنه ، كان يرتدي برنسه قبل أن يتصدر للدّرس ، وهو ممن لحقوا دراس بن إسماعيل ... الجزنائي : الآس ص ٩٥ – الجذوة ص ١٠٩ – السلوة ص ٣٥٦ .

١٣) ابن سعادة (٣٥٥ ﻫ) :

الفقيه عيسى بن سعادة بن موسى ، من فقهاء فاس الأولين . الذين أخذوا عن جبر الله بن القاسم . وقد طلب العلم أيضاً بالقيروان ومصر والأندلس ، كان صاحب أبي الحسن القابسي وسمع من أبي الحسن بن الإمام والدباغ والابياني وصحب الاصيلي أيضاً وحمزة بن محمد الحافظ وغيرهما . ذكره ابن سهل في مختصر المدارك . أدركه اجله بمصر سنة (٣٥٥ ﻫ) (الجذوة ص ٢٨٠) .

١٤) دراس بن اسماعيل (٣٥٧ ﻫ) :

وهذا علم عظيم من أعلام فاس أيضاً أستاذ بالأندلس والقيروان وسبتة ، أخذ العلم عن شيوخ بلده ، ورحل الى الأندلس واستقر بها طالباً ومجاهداً ، وسمع منه غير واحد ، وحدث عنه أبو الفرج عبدوس بن محمد الثغري الطليطلي (ت ٣٩٠ ﻫ) وتوجه للحج فدخل القيروان ، وأخذ عنه بها أبو محمد عبد الله بن أبي زيد صاحب الرسالة والنوادر (٣٨٦ – ٤١٠ ﻫ) ، وابو الحسن علي القابسي المحدث الفقيه صاحب الملخص والممهد (٣٢٣ – ٤٠٣ ﻫ) ، وخرج منها مع أبي محمد الأصيلي والقابسي الى مصر ومكة ، ولقي عليّاً بن مطر بالاسكندرية ، وسمع منه كتاب ابن المواز ، وحدّث أيضاً به في القيروان ، ثم رجع الى فاس ، فكان أول من أدخل اليها مدونة سحنون (ت ٢٤٠ ﻫ) وممن أخذ عنه أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف التجيبي الاقليشي ، وأبو عبد الرحمن عبد الرحيم بن أحمد بن العجوز الكتامي عالم سبتة الذي روى عنه جماعة من سبتة ومن فاس ، وكانت اليه الرحلة بالمغرب في وقته ، وعليه مدار الفتيا – الضبي : بغية الملتمس رقم ٧٣٨ ، جنى زهرة الآس ص ٢١ – ٢٢ ، الديباج ٢٠٠ ، الجذوة ١٢١ ، السلوة ٢ ص ١٧٨ ، الكتاب الذهبي ص ١٦٠ .

١٥) سيليفستر (البابا) (٣٥٩ ﻫ) :

هو جيربير الذي اتفقت كلمة المؤرخين على أنه قضى فترة من حياته طالباً بالأندلس ، ومن هنا يذكر بعضهم أنه

نزل الى مدينة فاس حيث كانت الدراسة مزدهرة بجامعتها القرويين ، وحيث نقل من هناك الأرقام العربية الى أوروبا .
جوزي بندلي بن صليب : أقدم مدرسة كلية علمية في العالم . الهلال ، أول يوليه ١٨٩٣ م ، ص ٣٥٦ .

١٦) ابو جيدة (٣٦٥ هـ) :

الشيخ ابو جيدة بن أحمد الفاسي اليزغيتي (بنو يزغتن هم بنو يازغة) . أدرك صدراً من فقهاء فاس ، وكان يحسن مذهبي مالك والشافعي ، وله تآليف في وثائق الشافعية وتصانيف كذلك ، وهو مع درّاس ممن بعثوا الحياة في جسم الأمة المغربية ، له رحلة الى المشرق افاد فيها واستفاد ، وقد عرف بفقيه فاس لقوة عارضته وسعة اطلاعه ، وكان محل تقدير من سائر أهل فاس ، الآس ص ٧ ، الجذوة ١٠٨ ، السلوة ١ ، ٧٨ ، ٣ ، ٩٢ .

١٧) ابن ودّون (٣٦٩ هـ) :

القاضي الفقيه أبو مروان عبد الملك الزواغي ، ولي القضاء بمدينة فاس أول دولة الزناتيين وبيت الزواغين. كان بيت علم وعدالة ، وهم الذين كانوا يملكون موضع المدينة قبل أن يشتريه الإمام ادريس ، وعبد الملك هذا هو والد الفقيه المعروف صاحب كتاب تاريخ الأدارسة المتوفى سنة (٣٨٠هـ) . (كتاب مشاهير فاس) . البيوتات العلمية بفاس ، الكتاب الذهبي ص ١٧٥

١٨) ابن البان (٣٦٩ هـ) :

القاضي الفقيه محمد الأزدي ، من أسرة عالمة تعرف ببيت بني البان نسبة الى جدّتهم السيدة البان بنت القاضي ، وقد كان ابن البان هذا قاضي مدينة فاس أيام مغراوة الزناتيين، ومنهم القاضي عبد الرحمن بن البان المتوفى سنة (٤٣٨ هـ) الذي تولى القضاء بها بعد وفاة ابن ابي شعيب . (كتاب مشاهير فاس) .

١٩) ابن دجّانة (٣٦٩ هـ) :

القاضي أبو عبد الله محمد بن إدريس ، من بيوتات فاس القديمة المعروفة بالعلم والفقه ، تولى قضاء المدينة بعد وفاة ابن البان . ابن سودة : الكناشة .

٢٠) الأزدي (٣٨٢هـ) :

القاضي أبو محمد قاسم بن عامر ، من اعلام فاس ورؤساء القرويين ، استقضاه زيري بن عطية على المدينة . الكتاب الذهبي ص ١٦١ .

٢١) الصدّيني (٣٨٨ هـ) :

الفقيه الكبير والشيخ الشهير أبو هارون موسى بن يحيى الصديني الفاسي ، فقيه حافظ للمسائل ، عالم بالرأي ، له رحلة الى المشرق لقي فيها أبا جعفر الأسواني المالكي ، ودخل الأندلس ، وتردد في الثغور ، وكتب عنه هناك ، وحدث عنه عبدوس وغيره ، ولا يزال في فاس زقاق يحمل اسم عقبة الصدّيني ، كما أن هناك قبّة القيسارية بالقيصرية تحمل اسم قبة الصدّيني كما في بعض الحوالات القديمة . الكتاب الذهبي ص ١٦٠ .

٢٢) ابن الولي (٣٩٢ هـ) :

قاضي القضاة بفاس ، من أصل بربري ، من بيت عريق في العلم والفقه ، وقد ذكر من هذا البيت سبعة قضاة موزعين في سائر جهات المغرب ، وهم من زناتيي المغرب ، لا من زناتيي إفريقية ، ولا تزال أسرة أولاد الولي معروفة

بفاس . : الكتاب الذهبي ص ١٧٥ .

٢٣) ابن مخلوف (٣٩٨ هـ) :

الفقيه الناسك أبو عبد الله محمد بن مخلوف الفاسي ، قدم قرطبة في شهر رمضان سنة (٣٩٨ هـ) ، وكتب عنه الفقيه محمد بن عتاب مع شيخه ابي عثمان سعيد بن سلمه . الكتاب الذهبي ص ١٦٠ .

٢٤) الهواري (٣٩٩ هـ) :

فقيه فاس أبو الحسن علي بن سعيد بن أحمد الهواري ، له رحلة الى المشرق ، روى فيها عن ابي علي الحسن بن عمر بن الصباغ الاسكندراني ، وقدم الى الاندلس فحدّث بطليطلة سنة (٣٩٩ هـ) ، وسمع منه أبو اسحاق ابراهيم بن شنطير الأموي الطليطلي (ت ٤٠٢ هـ) وصاحبه أبو جعفر بن ميمون ، وكانا رفيقين في الرواية ولهما حلقة واحدة في جامع قرطبة ، وكذلك سمع منه أبو عبد الله بن شق الليل وغير هؤلاء . ابن الحسني ص ١٦٠ — ١٦١ .

٢٥) ابن فتوح (القرن الرابع) :

الفقيه الغازي ، كان من أعلام فاس في المئة الرابعة . المصدر السابق .

٢٦) جنّان (القرن الرابع) :

القاضي جنّان من بيت جنّان المعروف بالعلم والفقه ، وهو والد الست البان التي ينتسب اليها بنو البان ، وقد كان منهم ابن البان السالف ذكره . (مشاهير فاس) .

٢٧) اللّواتي (القرن الرابع) :

الفقيه الجليل الحسن اللواتي من العلماء اللاّمعين على عهد الزناتيين ، وقد تسلسل العلم والفقه في ذريّتة ، فكان فيها الفقيه أبو الحسن علي بن الحسن وكان له ذكر على عهد المرابطين ، وكذلك حفيده علي الذي اشتهر أيضاً على عهد الموحدين . (مشاهير فاس) .

٢٨) ابن عبّودة (القرن الرابع) :

الفقيه الجليل عبد الواحد بن عبّودة ، برّز في الفقه والعلم ، وبالرغم من أن أسرته حديثة عهد بالاسلام ، اذ انها لم تدخل فيه إلا أيام الإمام ادريس ، فقد نبغ فيها عبد الواحد هذا الذي كان متحمساً أكثر ما يكون التحمس لنشر الفقه والعلم .

٢٩) ابن نزار (القرن الرابع) :

الفقيه ابو موسى بن أبي عيسى الفاسي ، رحل الى الشرق فسمع ببغداد أبا طالب محمد بن علي العشاري ، (٣٦٦ — ٤٥١ هـ) : الكتاب الذهبي ص ١٦١ .

٣٠) ابن ملولة (٤٠٠ هـ) :

القاضي الجليل ، من بيت من أصل فارسي ، كان ممن ورد على الإمام إدريس ، وتولى القضاء منهم بفاس جماعة . ابن سودة : الكناشة .

٣١) ابن عزانة (٤٠٠ هـ) :

القاضي حسين بن عزانة ، من أصل بربري ، وقد نبغ عدد منهم في الفقه ، فكان بيتهم بيت علم وولي حسين القضاء بمدينة فاس أيام الزناتيين . (كتاب مشاهير فاس) .

٣٢) ابن محسود (٤٠١ هـ) :

القاضي أبومحمد عبد الله بن محمد بن المحسود الهواري قدم على مدينة فاس من قرية أوربة ، وثقف بفاس ، ثم رحل الى القيروان ، فلقي بها الفقيه الحافظ أبا محمد بن أبي زيد وشاهد تآليفه النوادر . ثم ولى القضاء بفاس ، وكان مثلاً اعلى في العدالة والتحفظ والتحري ، ونوادره حول هذا الموضوع تعد في عداد المثل الأخلاقية النموذجية . كان ينزل أول الامر بعُدوة الاندلس ، ثم لم يلبث أن انتقل الى عدوة القرويين ، وبها كان مثواه . وما يزال بفاس مسجد يحمل اسمه يقع في النواعريين كما تفيده الحوالات الوقفية . جنى زهرة الآس ص ٩٥ – ٩٦ – التشوف عدد ١٧ ، ص ٩٥ – ٩٦ – الجذوة ص ٢٣٥ – ابن عيشون الشراط – السلوة ٣ ١٦٠ .

٣٣) ابو علي الفاسي (٤١٢ هـ) :

العالم الفاضل أبو علي الحسن بن علي الفاسي ، لم يزل يختلف الى العلماء ويلازمهم . رحل الى الاندلس فكان يقصد مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن ابي يزيد الازدي المصري المولد والوفاة (٤١٠ هـ) ، وفي هذا المجلس صحبه الحافظ أبومحمد علي بن حزم القرطبي الظاهري (٤٥٦ هـ) لما عقل وانتفع به كثيراً ، قال ابن حزم في (طوق الحمامة) : « ما رأيت مثله علما وعملا فنفعني الله به .. » وبهذا تكون فاس قد أسهمت في تكوين الحافظ بن حزم الذي يعد من أجمع الناس لعلوم الإسلام في عصره بالاندلس . ابن الحسني : الكتاب الذهبي ص ١٦١ .

٣٤) ابن العجوز (٤١٣ هـ) :

الفقيه العلامة أبو عبد الرحمن عبد الرحيم بن أحمد الكتّامي ، روى عنه بالاضافة الى اهل سبتة عدد كبير من طلبة فاس ، وكانت الرحلات تشدّ اليه ، وعليه تدور الفتيا ، وبيت ابن العجوز بيت فقه وعلم . (مشاهير فاس ...) الكتاب الذهبي ص ١٦٠ .

٣٥) ابن ابي شعيب (٤٢٧ هـ) :

القاضي ابو غبد الله محمد بن أبي شعيب ، من قضاة فاس المرموقين ،. ابن سودة : الكناشة .

٣٦) ابن زنوبة (٤٢٩ هـ) :

حجاج بن خلق الله بن زنّوبة البيت المعروف بالعلم والفقه الذي ينتسب اليه ابن زنّوبة صاحب الوثائق والفقيه منصور ، واحمد ، وعلي .. (مشاهير فاس) .

٣٧) ابو عمران الفاسي (٤٣٠ هـ) :

ابو عمران موسى بن عيسى بن ابي حاج الغفجومي الفاسي ، بيته بفاس معروف ، واليه ينسب درب ابي حاج بالطالعة ، وقد جمع علومه الاولى بمدينة فاس ، لكن صرامته وصراحته لم تمكنه من العيش مع الولاة الزناتيين ،

فاخرجوه من المدينة ، فاستقر بالقيروان ، وهنا تفقّه أيضاً على ابي الحسن القابسي وغيره ، ثم رحل الى قرطبة فدرس على أبي محمد الاصيلي وغيره ، ثم رحل الى المشرق ، واخذ بمصر القراءات عن ابي الحسن عبد الكريم ، واخذ بمكة ، ثم حج حجات كثيرة ، ودخل بغداد سنة (٣٩٩ هـ) ، وحضر مجلس الباقلاني ، ثم انصرف الى القيروان حيث عكف على الدرس ، ونال شهرة جعلته كعبة الطلاب الذين يريدون من سائر أطراف البلاد ، كان الإمام الباقلاني يقول : « لو رأى مالك أبا عمران الفاسي والقاضي عبد الوهاب ، لسرّ بهما » . ولم ينس أبو عمران فاساً مسقط رأسه كما ان فاساً لم تنسه ، ولهذا ظل بيته مفتوحاً للرواد من فاس جيئة وذهابا ، ويعد الرأس المفكر الذي اوعز باستنزال ولاة زناتة عن طريقة تلامذته المغاربة . واليه يرجع الفضل في تركيز المذهب المالكي بالمغرب الكبير ، حضر جنازته جميع أهل القيروان ، يتصدرهم السلطان المغربي باديس . وهناك كلمة تجري في تونس مجرى المثل : « مشكلة لا يفكّها إلا قاضي فاس » يعتقد أنها ترجع في أصولها الأولى الى أيام ابي عمران الفاسي هناك . التشوف ، ص ٦٤ معجم البلدان : ٤/ ٢٣٠ مادة فاس — الديباج ص ٣٤٤ — بيرم التونسي : الرحلة .

٣٨) القيسي (٤٥٣ هـ) :

القاضي بكار بن قاسم القيسي ، وهو غير بكار بن عبد الرحمن الحفيد المتوفى سنة (٥٤٠ هـ) ، تولى القضاء بعد عبد الرحمن بن البان المتوفي (٤٣٨ هـ) . (الجذوة ص ١٠٤) .

٣٩) البجلي (٤٦٠ هـ) :

العالم الاديب محمد بن اسحاق استهوته مدينة فاس وبخاصة عدوة القرويين منها ، روى عنه البكري في المغرب هذين البيتين المشهورين في مدح العُدوة المذكورة :

ولا ندري صلة البَجَلي هذا بعلي بن عبد الله البجلي زعيم البرغواطيين . البكري : المغرب ص ١١٧ سوس العالمة ص ١٧ ، راجع ٤٤ .

٤٠) ابن حنين (٤٧٣ هـ) :

الفقيه الشاعر أبو الطيب سعد بن حنين ، من بيت علم وفضل وجمال في مدينة فاس ، ولهم زقاق بالمدينة يحمل اسمهم . (كتاب مشاهير فاس) . البحث العلمي ، يناير ١٩٦٥ ص ٨٠ .

٤١) ابن العجوز (٤٩٠ هـ) :

الفقيه ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن احمد الكتامي المعروف بابن العجوز ، ولاه ابن تاشفين قضاء مدينة فاس ، بعد أن التجأ اليها فاراً بنفسه على أثر مؤامرة دبرّت له . الجذوة ص ١٥٥ — السلوة ٣ ص ٢٩٨

٤٢) الديباجي (٤٩٢ هـ) :

الفقيه العلامة عبد الجليل بن ابي بكر الربعي ، روى عن أبي عمران الفاسي وأبي عبد الله الأزديّ ، وأقرأ بمدينة فاس ، ولقيه أبو عبد الله بن شبرين وكان ممن أخذ عنه يوسف ابن الملحوم . التكملة ٢ ص ٦٥٣ رقم ١٨١٧ .

٤٣) ابن الملجوم (٤٩٢ هـ) :

المفتي الفقيه العالم أبو الحجاج يوسف بن عيسى بن قاسم الملقب بالملجوم بن فترس بن الأمير مصعب بن

الوزير عمير الأَزْدِي ، من أهل الفتوى والشورى . استفتاه يوسف بن تاشفين اللمتوني لما أراد الجواز الى الأندلس لينزل ملوكها المختلفين المتظاهرين بعضهم على بعض بالاجنبي والضاربين على المسلمين ما لا يطيقونه من المغارم والمكوس الخ ... وبيت بني الملجوم كما رأينا ينحدر من عمير بن مصعب الأَزْدِي وزير الإمام إدريس ، وقد تداولت في اسرتهم الفتوى والشهادة والقضاء ، لقب جدهم قاسم بالملجوم للثغة في منطقه لازمته من صغره ، واتصل وجودهم الى القرن العاشر ... (مشاهير فاس). البحث العلمي دجنبر ١٩٦٤ ص ٤٨ – الجذوة – ص ٣٤٥.

٤٤) اللخمي (٤٩٢ هـ) :

أبو مروان عبد الملك بن محمد بن عبد العزيز اللخمي شاطبي ممن رحلوا الى فاس من أهل الأندلس ، وروى بها عن نزيلها أبي الحسن علي بن محمد بن سعيد بن الطشتلير ، ونسخ بها استذكار أبي عمر بن عبد البر ، كان حسن الوراقة نقيّها ، وما يزال أهل فاس ينعتون أحسن الكاغد بأنه شطبي ، أي شاطبي . الذّيل والتكملة شريط عن مخطوط بالقاهرة الجزء الرابع .

٤٥) ابن الصيقل (٥٠٠ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن محمد الأنصاري ، من أهل شاطبة أيضًا من كبار العلماء المحدثين ، رحل الى سجلماسة ، فسمع من بكار بن الغرديس ، وسمع صحيح مسلم باغمات ، واستوطن مدينة فاس ، فأخذ عنه الكثير . الغنية ص ٢٤ – ٢٥ – التكملة ص ١٤٢ رقم ٥٠٣ .

٤٦) الشارقي (٥٠٠ هـ) :

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن ، سمع بالمشرق ، ودخل بغداد فأخذ عن أبي إسحاق الشيرازي ، وسمع محمد بن صدقة من العلماء الاكراد . كان مشاركًا في معرفة الأصول والفقه على مذهب أهل العراق ، ودخل فارس والأهواز ومصر والأندلس ، ثم سكن مدينة فاس ، فسمعت منه طائفة من الناس (الصلة رقم ٧٥) الغنية ص ٢٨ .

٤٧) الطليطلي (٥٠٣ هـ) :

الخطيب أبو عبد الله محمد بن علي ، سمع من عدة مشايخ ، منهم عبد الرحمن بن سلمة وقاسم وابي الوليد الباجي والتحق بمدينة سبتة ثم بمدينة فاس حيث ولي الخطابة . ابن شكوال الصلة رقم ٥٣٧ .

٤٨) التميمي السبتي (٥٠٥ هـ) :

القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى بن حنين التميمي السبتي ، طلب العلم بالأندلس ، فسمع من أبي عبدالله المرابط بالمرية ، وأبي مروان بن سراج ، وغيرهما ، وانتقل الى سبتة أستاذا فأخذ منه القاضي عباس قبل أن يلتزم القضاء بمدينة فاس سنة (٥٠٣ هـ) ، وهو الذي بنى باب الموثقين من القرويين (الصلة رقم ٥٧٢ – التكملة ١٤٨٠ – معجم اصحاب الصدفي رقم ٨٢ – الغنية ورقة ١ – ٨ ، الجذوة ١٤٥) .

٤٩) المجري (٥٠٦ هـ) :

الطبيب أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفضل المجري ، أصله من شاطبة ، من أهل المعرفة بالعربية واللغة والأدب ، تعلم الطب ، ثم انتقل الى فاس حيث قعد للعلاج الى أن توفي بها (التكملة لكتاب الصلة ، ١٧٢ رقم ٣٦٣) .

٥٠) ابن اللبانة (٥٠٧ هـ) :

محمد بن عيسى الأديب الأندلسي . شاعر من أهل دانية ، أقام مدة طويلة في فاس ، وصاحب علماءها وأدباءها ، وقد كان من الشعراء الذين تغنّوا بجمال فاس.

جنى زهرة الآس ص ٣١ راجع ص ١٢٢ تعليق ٢.

٥١) القيسي (٥١٠ هـ) :

أبو الحسن علي القيسي ، من بيوتات فاس المعروفة ، رحل الى الأندلس لاستكمال معرفته ، فأخذ من الخشني، ورجع الى فاس فتولى التدريس والافتاء ومهمة الشورى. صلة الصلة نشر بروفنصال ص ١٤٦ الترجمة رقم ٢٩٢).

٥٢) ابن ابي الدَّوس (٥١١ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن أغلب ، من أهل مرسية في الأصل ، كان عالمًا بالعربية والأدب . رحل إلى فاس حيث تابع نشاطه العلمي هناك ، أدركه أجله بمراكش ، (التكملة ص ١٤٧ رقم ٥١٧).

٥٣) ابن النحوي (٥١٣ هـ) :

علامة المغرب الأوسط أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف ، من أهل العلم والعمل ، كان ممن انتصر لعدم إحراق كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي لما كتب علي بن يوسف بن تاشفين بالتحريج على الناس في هذا الكتاب ، وقد استفتي من قبل أبي الحسن بن حرزهم حول الأيمان التي أعطيت لعدم تملك الاحياء. عاش ردحًا من الزمان في مدينة فاس حيث نزل بعقبة ابن دبوس ، وقد أخذ جمال المدينة بلبه .

(الأنيس ص ١٨ – الآس ٣١ – ٩٦ – ٩٧ – التشوف : ٧٢ – ٧٣ – الجذوة ٣٤٦).

٥٤) الصدفي (٥١٤ هـ) :

أبو الخير سالم بن ابراهيم بن عبد الرحمن (من سرقطة) ، سمع من أبي علي الصدفي ، وأكثر عنه ، وكان أحد الملازمين لمجلسه ، وعُنِيَ بالحديث ومسايل الرأي وبالفقه والوثائق ، استوطن مدينة فاس حيث تابع نشاطه ، وقد أدركه أجله بديار مصر ... المعجم ص ٣٠٧ – ٣٠٨).

٥٥) ابن العجوز (٥١٥ هـ) :

عبد الرحمن بن محمد الكتامي الفقيه ابن الفقيه ابن الفقيه ، درس العلم بسبتة ، وولي القضاء في عدة مدن، والتحق بفاس حيث أفاد واستفاد . (الصلة رقم ٣٣٨ – الغنية ص ٥٢ الجذوة ٣، ٢٩٥).

٥٦) الصنهاجي (٥١٥ هـ) :

القاضي أبو سعيد خلوف بن خلف الله الصنهاجي ، سمع بغرناطة ، وولي قضاء مدينة غرناطة من قبل المرابطين سنة (٥١٠ هـ) ، ثم قضاء مدينة فاس ، وبها توفي وهو متول قضاءها . (التكملة ص ٦٢ رقم ١٩٨ – الجذوة ١١٦).

٥٧) ابن رشد (٥٢٠ هـ) :

القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجد) ، قاضي الجماعة بقرطبة ، من أعيان المالكية . وهو جد

ابن رشد الفيلسوف (Averroes) محمد بن أحمد المعروف بالحفيد ، له تآليف منها : (البيان والتحصيل) ، والفتاوى واختصار المبسوطة . حل بفاس ، وكانت له صلات بأساتذتها وطلبتها . الجذوة ١٧٦ .

٥٨) الشاطبي (٥٢١ هـ) :

أبو القاسم خلف بن محمد سمع من عدد من الشيوخ بالأندلس ، قصد مدينة فاس فسكنها ، وسمع منه فيها عدد من الطلبة. (ابن شكوال : الصلة ص ١٧٣).

٥٩) ابن الصقر (٥٢٣) :

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري البلنسي ، من أهل المرية ، من العدد العديد الذين رحلوا من الأندلس للأخذ بمدينة فاس ، وقد سمى ابن القاضي عددًا من شيوخه بفاس (الجذوة ص ٢٦٢).

٦٠) ابن زغبوش (٥٢٤ هـ) :

عبد الله بن محمد بن حماد بن محمد ، من طلبة فاس الذين كانت لهم عناية بتآليف المهدي بن تومرت التي كانت محور الدراسة الأولية لدى الموحدين . (الروض الهتون ١٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٦١)

٦١) ابن تومرت (٥٢٤) :

محمد بن عبد الله المهدي مؤسس الدولة الموحدية ، كان في عداد الذين درسوا بالمشرق ، وعادوا فربطوا صلاتهم بعلماء فاس باعتبار أن فاسا منطلق لسائر الأفكار التي يراد لها الرواج ، وقد هب لحضور درسه بمسجد الطالعة عدد من علماء القرويين على ذلك العهد ، كان في طليعتهم أبو محمد عبد الحق بن معيشة ، على ما سلف ، اخبار المهدي بن تومرت ص ٦٣ .

٦٢) ابن عطية (٥٢٥ هـ) :

القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بن عطية ، أصله من إفريقية ، أخذ العلم بقرطبة واستقصى بتلمسان ، ثم رجع الى الأندلس قاضيا باشبيلية ، ثم عين قاضيا على مدينة فاس حيث اشرف على شؤون القرويين ، وقد كان من أهل المعرفة والعلم ، ويعدّ مثلًا ناطقا للأحدود بين أجزاء الامبراطورية المغربية حيث ولد في جهة ، وتعلم في ثانية ، وتوظّف في ثالثة الخ ... الغنية ص ١٥ – الجذوة ص ١٥٧ .

٦٣) الهواري (٥٢٧ هـ) :

ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم الهواري ، أبوه أبو الطيب من جالية القيروان ، كان من العدد العديد الذين فارقوا القيروان عند فِتْنَة العرب بها ، دخل الأندلس وسمع بها ، ولم يلبث ان قصد مدينة فاس فأصبح من أهلها ، واكتسب سمعة بها مكنته من الإجازة لأبي القاسم بن الملجوم الذي حضر مجالس ابن تومرت . البيذق ص ٦٣ ، التكملة : نشر العطار ، ص ٦٧٥ ، عدد ١٧٠٨ .

٦٤) ابن داود (٥٢٨ هـ) :

القاضي ابو عبد الله محمد بن داود ، قاضي الجماعة بفاس على عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، أشرف

على بناء باب الشماعين من جامع القرويين ، وزاد في صحن المسجد بلاطين غربيه ومثلهما شرقية . الأنيس ص ٣٦ - ٣٧ .

٦٥) الصّدفي (٥٢٩ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن عيسى بن القاسم ، كان ممن أخذوا عن أبي علي بن سكرة الصدفي ، ولازم مجلسه ، فكان فقيهًا عارفًا بالوثائق ، أديبًا شاعرًا . رحل الى فاس فكان له عدد من التلامذة قبل أن يستكتبه ابن الملجوم في قضائه على مكناس . التكملة ص ١٦٤ رقم ٥٧٦ معجم الصدفي ص ١١٧ .

٦٦) الثقفي (٥٢٩ هـ) :

عبد الله بن يحيي من أهل سرقسطة ، روى ببلده عن صاحب الأحكام ، وعن ابي علي الصدفي بمرسية ، وبقرطبة عن أبي بحر الأسدي ، ثم انتقل الى مدينة فاس حيث أقام بها معلمًا . التكملة ص ٤٦٤ رقم ١٣٤١ - معجم الصدفي رقم ١٩٤ ص ٢٠٨ .

٦٧) ابن وشون (٥٢٩ هـ) :

القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن وشون الهذلي ، من ابرز فقهاء فاس وأحسن من تولى القضاء بها الى جانب قيامه بالخطبة ، وبيته بيت علم وفقه . الآس ص ٩٧ - مشاهير فاس . البحث العلمي يناير ٦٥ ص ٨٢ - الجذوة ٢٣٥ . السلوة ٢ ، ٤٩ .

٦٨) ابن أبي الحسن (٥٣٢ هـ) :

الفقيه الجليل أبو علي كان ذا منزلة سامية ، وكان بيته يحاذي الجدار الشرقي لجامع القرويين ، ولعلوّ مركزه تهيب القاضي ابن معيشة أن يفاتحه في شأن تسليم بيته لتعديل محراب القرويين. (الأنيس ص ٣٨).

٦٩) ابو القاسم بن فرتون (٥٣٢ هـ) :

أبو القاسم خلف بن يوسف بن فرتون ، من كبار علماء شنترين. انتقل الى مدينة فاس فأقام بها معلمًا للحديث والسير وعلوم القرآن بمسجد حنين ، وعاد إلى الأندلس وأدركه أجله بقرطبة. (الغنية لعياض).

٧٠) ابن معيشة (٥٣٣) :

القاضي ابو محمد عبد الحق الكناني الغرناطي ، أحد رؤساء جامع القرويين على عهد المرابطين بعد القاضي ابن داوذ ، كان يحتفظ بأربع خطط : فقيه ، مشاور ، إمام ، قاض ، ويذكر التاريخ أنه كان على رأس علماء القرويين الذين حضروا مجالس ابن تومرت في مسجد الطالعة ، ومما يدل على ان عبد الحق تأثر بدعوة ابن تومرت أن بعض التجار في أدوات الطرب واللهو التجؤوا اليه بعد أن قام طلبة المهدي بتكسيرها ، فأجابهم : «لولا ان ابن تومرت لم ير فيها منافاة للشرع ، لما أمر طلبته بذلك» وكان هذا مما استدعى عزله من قبل علي بن يوسف بن تاشفين ، لأن قوله هذا يشجع على الفوضى. البيذق : ص ٦٣ - ٦٤ - الأنيس ٣٨.

٧١) ابن باجّة (٥٣٣ هـ) :

هو المعروف عند المسيحيين باسم (Avanpace), جاء في ترجمته أنه أصلح حال العلوم الرياضية هناك من طب وهندسة وفلسفة ، ويعد أول فيلسوف مغربي جروء أن يستغل تآليف فلاسفة المشرق من أمثال الغزالي . ومن حق المغرب أن يتبّناه كما يقول الدكتور رونو. الجذوة ص ١٥٧ . مجلة المغرب ، نونبر ١٩٣٦ – المغرب الجديد : عدد ١٥ – ٢٠ ، يوليه ١٩٣٦ ص ٩٦ ، الفلسفة الاسلامية بالمغرب : ص ٢٧ ، قيام دولة المرابطين . النبوغ المغربي ...

٧٢) ابن فرتون (٥٣٧ هـ):

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن خلف بن الحسن بن الوليد السلمي من أهل فاس ، دخل الأندلس ، وسمع من عدد من المشايخ ، منهم أبو علي الصدفي ، سمع منه الموطأ ، وأجاز له ابن الآبار : المعجم ص ٦٢ رقم ٤٦ . الجذوة ص ٥٦ .

٧٣) القيسي (٥٣٧ هـ) :

القاضي أبو مروان عبد الملك بن بيضا القيسي الذي عين القضاء بعد عبد الحق بن معيشة، الأنيس ٣٩ – الجذوة ٤٢ .

٧٤) العتاد (٥٣٨ هـ) :

أبو يحيي الأستاذ الأديب اللغوي الشاعر كان إمامًا في اللغة والشعر، روى عنه جملة من رجال القرويين ، وهو الذي صنع منبرها الذي يعدّ اقدم تحفة في العالم الإسلامي . الأنيس ص ٣٨ – الآس ٥٥ .

٧٥) ابن باق (٥٣٨ هـ) :

القاضي أبو جعفر محمد بن حكم بن محمد بن أحمد (من سرقسطة) . روى عن أبي الوليد الباجي وغيره ، واستقر بمدينة فاس ، وولي أحكامها ، وأفتى بها ، وأقرأ كتاب سيبويه ، وكان ذا حظ من علم الكلام . له شرح على الإيضاح لأبي علي الفارسي ، وكان واقفًا على كتبه وكتب أبي الفتح بن جني وأبي سعيد السيرافي . وقد كان ممن روى عنه بالمدينة العلامة علي اللواتي ، أدركه أجله بتلمسان. (التكملة ص ١٧٤ رقم ٦٧٠ ، صلة الصلة رقم ١٤٧ .

٧٦) الغافقي (٥٣٩) :

أبو مروان عبد الملك بن أبي الخصال الأديب البليغ الكاتب ، من شقورة ، سكن قرطبة زمنًا ، وانتقل الى فاس في خدمة المرابطين ، فكانت له بها مجالس . التكملة ١١ ص ٦١١ رقم ١٧٠٦.

٧٧) العامري (٥٣٩ هـ) :

أبو العباس أحمد بن محمد ، من الفقهاء المتضلعين من المذهب المالكي ، وهو إلى ذلك بارع في الأدب وعلوم العربية وكاتبٌ مجيد ، توفي بفاس . الديباج ٥٥.

٧٨) القيسي (٥٤٠ هـ) :

الفقيه العالم بكار بن عبد الرحمن القيسي ، وهذا البيت هو بيت بكار بن راشد مولى الإمام ادريس (كتاب مشاهير فاس).

٧٩) الحاجة ورقاء (٥٤٠ هـ) :

وهذه الشاعرة الأديبة الحافظة البارعة الخط الحاجة ورقاء بنت ينتان الطليطلي ، انتقلت الى فاس وسكنتها، وتضاف الى عدد من النساء اللاتي برزن في العلم والفقه ، وازدانت بهن أوساط النساء المحجبات . الجذوة ، ص ٣٣٤ ، الزركلي : الأعلام ٩ – ١٣١ .

٨٠) ابن عيسى (٥٤٠ هـ) :

الخطيب الإمام أبو محمد مهدي بن عيسى ، من أقطاب القرويين وعلمائها . كان أول خطيب ارتقى المنبر الذي نصبه المرابطون بالجامع ، لكنه لم يقض سوى خمسة أشهر حتى ظهر الموحدون فدخلوا فاسًا سنة ٥٤٠ هـ، ولما كانت الخطبة وظيفة دينية سياسية ، وكان الموحدون اشترطوا فيمن يخطب على الناس في الجمع أن يكون ملمًا باللسان البربري ، صرفوا ابن عيسى (الأنيس ٣٩ – الآس ٥٦) .

٨١) التجيبي (٥٤١ هـ) :

محمد بن أحمد بن محمد بن سعيد بن مطرف ، من أهل قلعة أيوب . نزل بفاس ، وروى عن جماعة من علمائها ، وروت عنه جماعة . كان من أهل العلم ، وله دفاتر ودواوين نفيسة ، التكملة ص ١٨٣ رقم ٦٤٧ .

٨٣) ابن مالك (٥٤١ هـ) :

أبو بكر عثمان بن مالك ، من رجالات فاس وعلمائها المرموقين في العهد المرابطي ، كان يدرس في أحد فروع جامع القرويين ، بمسجد زقاق الماء ، وهو من شيوخ أبي الحسن بن مرزهم ، (الكتاب الذهبي ص ١٨٤).

٨٣) ابن عمر (٥٤٢ هـ) :

العالم الصوفي أبو عبد الله محمد بن عمر الأصم ، من أهل سجلماسة. أُحضر الى مدينة فاس في عهد تاشفين ابن علي ، وبعد امتحان تعرض له مع زميله الدقاق أخذ عنه بفاس جماعة . (التشوف ١٣٤).

٨٤) البلنسي (٥٤٣ هـ) :

عبد الله بن يوسف بن غالب الأنصاري البَلَنْسي . رحل الى فاس لطلب العلم ، فكان ممن روى عنهم بفاس عباد بن سرحان . الجذوة ٢٤١ – ٢٧٧ ، الكتاب الذهبي ص ١٨٣ .

٨٥) ابن الملجوم (٥٤٣ هـ) :

القاضي أبو موسى عيسى بن يوسف بن عيسى السالف ذكره ، من فقهاء فاس وعلمائها الأفذاذ . تولى القضاء بفاس ومكناس . وكان عارفًا بالنوازل ، ذاكرًا للمسائل ، متقدما في الأحكام ، كتب اليه أبو علي الصوفي مرتين: إحداهما سنة ١ ٥ هـ ، الثانية في سنة ٥١٣ هـ . وله بقرطبة سماع من أبي فرح والغساني وحازم بن محمد وغيرهم. ابن الآبار: المعجم ص ٢٩٠ رقم ٢٧٢ ، مشاهير فاس البحث العلمي ، دجنبر ١٩٦٤ ص ٤٧ – ٤٨ .

٨٦) ابن العربي (٥٤٣ هـ) :

أبو بكر بن الإمام عبد الله بن العربي المعافري . صحب أباه وهو شاب الى بغداد في سفارة ليوسف بن تاشفين لدى المستظهر بالله ، وقد استفاد من رحلته هذه جيدا فاجتمع بعدد كبير من العلماء ، وتحدث عن مجلس الوزير ابن جَهير ، وجمعته المصادفة بابن تومرت في المشرق ، وبعد أن صرف عن القضاء أقبل على نشر العلم، دخل لفاس وأخذ عنه بها جماعة ، وكان ممن استحسن احراق كتب الفروع كما يؤخذ من كتابه العواصم . له تفسير على القرآن سماه (أنوار الفجر) في ثمانين مجلدًا ، كان في خزانة أبي عنان الذي كان يقدّر مركزه ويجله ، وقد جدد ضريحه السلطان المولى اسماعيل . تاريخ المن بالامامة ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ، الغنية ص ١٥ – ١٦ ، ابن بشكوال : كتاب الصلة رقم ٥٥٩ – الديباج المذهب ص ٢٨١ – ٢٨٣ ، نفح الطيب ٢ ص ٢٣٣ – ٢٤٩ الجذوة ص ١٦٠ . التازي : تاريخ المغرب الدبلوماسي . . .

٨٧) المؤمناني (٥٤٤ هـ) :

الفقيه الإمام المفتي المدرس عيسى بن معنصر الأصل (مع نصر) الشريف الحسني . اعترف العلماء في جميع الأقطار بسعة الاطلاع وقوة المعرفة ، وحسبك أن الإمام القاضي عياضًا ينقل عنه قائلا : قال عيسى المؤمناني فقيه أهل فاس . وبلغ من الاعتداد بنفسه أنه كان يُملي رأيه على بعض الملوك ذكره ابن الأحمر في حديقته ولم يذكر وفاته.

٨٨) عياض (٥٤٤ هـ) :

عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ، سكن أجداده مدينة فاس ، فاحتفظ بذكراها الطيبة ، فزارها يوم الاثنين ثامن شهر رجب ٥٤٣ هـ ، ونزل على مقربة من القرويين بدار القاضي ابن الغرديس بزنقة حجامة ، تحدثت الركبان بمجالسه وبطريقة تأليفه التي جمعت بين الأسلوب المغربي الذي يهدف الى تمحيص الألفاظ ، والأسلوب المشرقي الذي يقصد الى المعنى ، ويوجد الى الآن مسجد بحومة الصاغة يحمل اسمه تخليدًا للأيام التي قضاها معلمًا بفاس . (معجم الصدفي ص ٢٩٤ ، أزهار الرياض ١ – ٢٢ – ٢٣ – ٢٤ ، الجذوة ٢٧٧ ، مجلة المغرب نوفمبر ١٩٣٦ ، النبوغ المغربي ص ٨٨ – الحوالة الاسماعيلية.).

٨٩) ابن الغرديس (٥٤٤ هـ) :

القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد الغرديس الذي نزل عليه القاضي عياض في شهر رجب عام ٥٤٣ هـ وقد احتفظت الحوالات الوقفية ببعض العقار مما حبس على أعقاب آل الغرديس ، ولا بد أن له علاقة بابن الغرديس الذي كان في جملة من حضر مجلس ابن تومرت . (أزهار الرياض ١ – ٢٤).

٩٠) ابن جامع البغدادي (٥٤٦ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن احمد بن ابراهيم بن عيسى بن هشام بن جامع ، من أهل جيّان . وقد عرف بالبغدادي لطول مقامه بها للدراسة ، وقد اخذ ايضاً في مصر والإسكندرية والقيروان ، كان من الفقهاء المشاورين الذين تصدروا لتدريس الفقه بغربي القرويين منذ عام ٥١٥ هـ ، وكان في جملة من اخذ عنه من الطلبة العديدين أبو القاسم عبد

الرحيم بن الملجوم الذي قال فيه : لزمناه وقرأنا عليه وسمعنا منه ، وقد تحول الى بلده جيّان حوالي عام ٥٤٠ هـ ، ثم عاذ الى فاس بعد أربع سنوات ، وأقام يدرس الفقه وأصوله ومسائل الخلاف ، ولم يزل مقبلاً على نشر العلم وافادته الى أن توفي . التكملة ٤ ص ٦٦٨ ، : الذيل والتكملة مصور بالخزانة العامة رقم ٢٦٤٥ / د ، السفر الرابع ، الجذوة ١٦١ - ١٦٢ - السلوة ٣٣ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .)

٩١) الصنهاجي (٥٤٩ هـ) :

المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني ، المكنى بأبي علي ، سمع بقرطبة ومرسية وبلنسة ، وانتقل الى مدينة فاس سنة ٥٢١ هـ ليكمل معلوماته في الحديث . وقد جمع من الدواوين مالم يتيسر لأحد . أدركه اجله في بياسة (التكملة ص ٣٩٢ رقم ١١٢٢) .

٩٢) الهواري (٥٥٠ هـ) :

القاضي أبو عبد الله محمد بن ميمون ، وقد ذكر في ترجمة محمد بن عمر الكاتب بمناسبة الصلاة عليه من قبل ابن ميمون الهواري . (الجذوة ص ١٧٠) .

٩٣) الزيتوني (النصف الأول من القرن السادس) :

يحيى الزيتوني ، احد الادباء الذين نبغوا من أهل فاس ، ذكره ابن بسام في الذخيرة ، وقال : كان حاضر الجواب ذكي الشهاب . (النبوغ المغربي ص ٩٣) .

٩٤) ابن الصفار (٥٥٢ هـ) :

ابو يونس مغيث بن يونس بن محمد بن مغيث الأنصاري ابن الصفار ، من أهل قرطبة ، ممن كاتبهم أبو علي الصدفي ، سمع من ابيه وغيره ، وله رواية عن عدد من الاعلام حدث عنه ابنه ابو محمد عبد الله وابو القاسم بن الملجوم الذي لقيه بفاس وأجاز له ، وكان فقيهاً مشاوراً . ابن الابار المعجم ص ١٩٦ .

٩٥) ابن زكون (٥٥٣ هـ) :

حسن بن ابراهيم بن عبد الله بن ابي سهل التلمساني المعروف بابن زكون ، دخل الاندلس فسمع بقرطبة ومرسية ، ورحل الى مدينة فاس حيث اكمل ثقافته ، وشغل ايضاً الكتابة لعيسى بن يوسف بن الملجوم الفاسي . له تأليف في الرأي . البيذق : اخبار المهدي التكملة رقم ٦٥ ص ٢٥ معجم الصدفي ص ٧٣ - ٧٤ .

٩٦) اللخمي الفلنقي (٥٥٣ هـ) :

ابو بكر محمد بن محمد بن عبد الله بن معاذ اللخمي المعروف بالفلنقي ، من اهل اشبيلية الذين قصدوا مدينة فاس واستوطنوها وتصدروا للإقراء بأحد المساجد الفرعية : مسجد الحوراء . كان إماما في العربية والآداب ، وله تآليف في القراءات سماه (الايماء الى مذهب السبعة القراء) ، وارجوزة سماها (لؤلؤة القراء) . اخذ عنه ابو محمد بن عبيد الله الباجي ، وابو ذر الخشني ، وغيرهما . التكملة ، الترجمة رقم ١٣٤٥ ص ٤٨٨ (الجذوة ص ١٦٣ - الزركلي الاعلام ٧ - ٢٥٠) .

٩٧) الزرهوني (٥٥٤ هـ) :

منصور بن مسلم بن عبدون الزرهوني الفاسي . دخل الأندلس ، وسمع من ابي علي الصدفي في سنة ٥١١ هـ صحيح ومسلم ، وقرأ عليه جامع الترمذي ، وكان فقيهاً حافظاً مشاوراً مدرساً . روى عن عدد من العلماء ، وحدث عنه ابو القاسم ابن الملجوم . التكملة ٣٩٢ رقم ١١٢٣ معجم الصدفي ص ١٩٥ .

٩٨) ابن مسعود (٥٥٤ هـ) :

ابو الحسن علي بن عبد العزيز بن محمد بن مسعود القيسي البسطي ، روى عن عدد من الاعلام بالاندلس ، وانتقل الى العُدوَة فنزل مدينة فاس ، واقرأ علوم القرآن بها وكان ممن اخذ عنه المقرئ ابو محمد قاسم بن محمد بن محمد عبد الله بن طويل إمام جامع القرويين . له كتاب في الاستدلالات على رفع الاشارات في جمع القراءات وتبيين المبهمات ، ذكره الشيخ في الذيل ، القسم الاخير من كتاب صلة الصلة لابن الزبير نشر بروفنصال رقم ١٨٢ ، التكملة رقم ٢٣١٥ .

٩٩) اليكي (٥٥٥ هـ) :

ابوبكر يحيى بن عبد الجليل اللخمي اليكي ، شاعر مجيد ، من اهل الاندلس من يكة جوفي مرسية ، استوطن مدينة فاس . كان من عيون الادباء وفحول الشعراء . ممن حدث عنه بفاس ابو علي حسن بن مسعود المليلي . وهو الذي شنع عليه ابو الحسن بن حرزهم هجوه لمدينة فاس ، ووسمه صاحب الاستبصار بالحسد . الاستبصار ١٨٢ ، صلة الصلة رقم ١٧٨ رقم ٣٥٠ .

١٠٠) الوراق (٥٥٥ هـ) :

ابو محمد عبد الملك بن محمود الوراق ، من علماء فاس ومؤرخيها . وهو صاحب كتاب المقياس الذي يعتمده في النقل الجزنائي في جنى زهرة الآس ، وهو احد المغمورين الذين خدموا التاريخ ، ولكن التاريخ اهملهم : الآس ص ٢٧ .

١٠١) التدميري (٥٥٥ هـ) :

ابو العباس احمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميري ، نشأ بالمرية ، وروى عن جماعة مهمة من العلماء . كان عارفاً بالعربية واللغة والآداب ، له كتاب سماه نظم القرطين وضم اشعار السمطين ، جمع فيه اشعار الكامل للمبرد والنوادر لأبي علي البغدادي ، وهو صاحب كتاب التوصية في العربية .. (الجذوة ٦٩) .

١٠٢) عبد المؤمن (٥٥٨ هـ) :

امير المؤمنين الموحدي الذي اخذ بجامع القرويين وظل مدينا لفاس في معارفه وقد حكى التاريخ أنه كان يتعمد دائماً المرور بها في حركاته . الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٦٤ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامانة ، ص ١٤٤

١٠٣) ابن عطية (٥٥٨ هـ) :

الخطيب الفقيه ذو اللسانين ابو الحسن علي بن عطية الذي كان يأتي بالعربي المبين ويترجمه الى البربرية كذلك

باسلوب نافذ مؤثر. الانيس ٤٤ ، الآس ٥٦ .

١٠٤) ابن حرزهم (٥٥٩ هـ) :

ابو الحسن علي بن اسماعيل بن عبد الله بن حرزهم (الحفيد) ، من كبار الفقهاء والمدرسين بها ، متضلع من علوم الشريفة . درس عليه بفاس عدة مشايخ من امثال ابي مدين الغوث ، وابن العربي الحاتمي الذي تعتز فاس بانها اسهمت في تكوينه ، وهذا غير ابن حرزهم ابي محمد صالح بن محمد بن عبد الله ، فان هذا عمه ، وهو الذي اخذ بالمشرق عن الغزالي ، وعاد الى فاس . والى ابن حرزهم تنتسب العين المعدنية على مقربة من فاس التي كان مَدْشَرُها وقفاً على جامعة القرويين . التشوف ص ٧١ – ١٧٤ – ١٥٧ ، : الروض العاطر الانفاس في اخبار الصالحين من اهل فاس القرطاس ١٩١ نيل الابتهاج ١٨٢ – الجذوة ٢٩٣ – ٣٣٢ الاستقصاء ٢ – ١٨٤ – السلوة ١١ – ٧١ – النبوغ المغربي ١ – ٩٠ .

١٠٥) الاموي (٥٦٠ هـ) :

قاسم بن محمد بن مبارك نزل بمدينة فاس ، تصدر للإقراء ، واخذ عنه جماعة من اعلام فاس ، كان منهم ابن خروف وابو الصبر ايوب بن عبد الله . التكملة ٢ ص ٧٠١ رقم ١٩٧٠ .

١٠٦) الحمدي (٥٦٠ هـ) :

ابو علي منصور بن احمد اليفرني الحمدي ، فقيه مرموق ، وبيته من مشاهير بيوتات فاس . (كتاب مشاهير بيوتات فاس) .

١٠٧) اللخمي الفاسي (٥٦٠ هـ) :

احمد بن عبد الله بن هشام بن الحطيئة . نشأ بمدينة فاس ، له معرفة بالآداب ، رحل الى المشرق وبمصر ادركه اجله – الجذوة ٥٥ .

١٠٨) الإدريسي الشريف (٥٦٠ هـ) :

من اشهر الجغرافيين العالميين من اهل سبتة . قصد قرطبة لاستكمال دراسته ، وزار الكثير من بلاد البحر المتوسط ، وعمل مع ملك صقلية روجر الثاني ، ونزل في قصره في مدينة بلرم (بالرمو) وقد اتى في وصفه لمدينة فاس بما يعزز الرأي بأنه قضى ردحا من الزمان في المدينة مفيداً ومستفيداً .

١٠٩) الهزميري (٥٦١ هـ) :

ابو يعزى ، احد تلامذة ابي الحسن بن حرزهم كان شيخاً عالما . وهو من مشاهير فاس . كان يسكن في حومة البليدة غير بعيد عن القرويين . مشاهير فاس ، الجذوة ص ٣٥٥ ، السلوة ١ ، ١٧٢ .

١١٠) ابن فتوح (٥٦٢ هـ) :

ابو الحجاج يوسف بن فتوح بن محمد بن عبد الله القرشي ، اخذ بالاندلس ، وانصرف بعد حجه الى المغرب ، فدخل مدينة فاس ، وحدث بها . وكان له حظ من علم التفسير واصول الفقه الى دراية كبرى بخصائص النبات والعشب

ولهذا كان يعرف بالعالم العَشّاب ، لانه كان يلقي العلم والصيدلة . وكان ممن أخذ عنه من اهل فاس الخطيب ابومحمد قاسم ، وابو الحجاج يوسف بن احمد الورداخي ، وغيرهما . (صلة الصلة رقم ٢١٢ . ابن الابار ٢٠٧٧ ، التكملة ٢ ص ٧٣٣ رقم ٧٩ - ٢٠ ... الجذوة ٣٤٤) .

١١١) ابن خنوسة (٥٦٣ هـ) :

القاضي ابومحمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن خنوسة ، تولى قضاء فاس في ايام امير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، واسرته معروفة في مدينة فاس . (كتاب مشاهير فاس) .

١١٢) السلالجي (٥٦٤ هـ) :

ابو عمر عثمان بن عبد الله القيسي المعروف بالسلالجي . اخذ عن ابن الإشبيلي الذي توفي بعده . كان إماماً في العلم بفاس ، بلغ رتبة الجويني المشهور بإمام الحرمين ، واطبق رجال التاريخ على انه كان عمدة اهل المغرب كله في علم الاعتقاد . درس بالقرويين وبجامع مراكش النحو وفروع الفقه . كان حسن البزة يُعنى بمظهره ، تخرج على يده جملة من حُذاق العلماء ، ولم تكن السلفية مما تروقه مذهباً ، فعمل على تقليص ظلها من القرويين فكثر من خصومه بين اهل فاس الذين انهالوا عليه بالتشنيع والنقد ، فقال فيهم شعره المعروف :

خذوا ضماني أَنْ لا تُفْلِحوا أبـداً ولو شربتم مداد الكتب بالصحف ! !

كان موثقا بسماط العدول ، ودفن بإزاء الدرّاس اسماعيل . صلة الصلة رقم ١٠١ ، التكملة رقم ١٨٦٢ ، التشوف ١٧٨ ، مشاهير فاس ، النبوغ المغربي ص ١٥٠ ، الكتاب الذهبي ص ١٢٨ ، الجذوة ٢٨٩ ، السلوة ٢ ص ١٨٣ .

١١٣) ابن طويل (٥٦٥ هـ) :

ابو الحسن علي بن طويل بن احمد ، من اهل مدينة فاس وذوي بيوتاتها الكبرى ، وبها درس ، وسمع على عدد من المشايخ ، منهم علي الازدي وغيره ، ورحل الى الاندلس ، واخذ بمرسية عن الخشني ، ورجع الى بلده لمواصلة نشاطه . (صلة الصلة ١٤٦) .

١١٤) ابن الإشبيلي (٥٦٧ هـ) :

علي بن محمد بن خليد الأندلسي . اخذ عن جماعة من الأعلام ، واستقر بمدينة فاس . كان أصولياً ماهراً متكلما حاذقاً ، وهو الذي قرر علم الاصول وعلم الكلام على قواعده بجامع القرويين ، وعنه اخذ السلالجي السالف ذكره الذي يعّد مرجع الفاسيين . صلة الصلة رقم ١٠١ التكملة ١٨٦٢ .

١١٥) ابن الرّمامة (٥٦٧ هـ) :

القاضي ابوعبد الله محمد بن علي القلعي (من قلعة حماد) ، من العلماء الاعلام الذين اخذ عنهم عبد الصمد البلفري واحمد بن محمد البكري . وروى عنه من الجلة ابو ذر الخشني . كان قاضي فاس ومفتيها ، والى جانب تضلعه من مذهب مالك كان حجة في مذهب الشافعي ، وقد عكف على كتاب الإحياء للغزالي ، وله تآليف منها البسيط وتسهيل المطلب في تحصيل المذهب . التكملة ص ٣٧٠ - ١٠٥٤ ، التشوف ١٥٨ .

١١٦) ابن ميمون الحاخام (٥٦٧ هـ) :

موسى بن ميمون القرطبي الطبيب الفيلسوف اللاهوتي رئيس اليهود في عصره ، وصاحب كتاب دلالة الحائرين وغيره من التآليف بالعربية والعبرية ، خرج مع اسرته من قرطبة الى فاس فكان له اتصال بعلمائها ، وكان يحفظ القرآن ألّف رسالتين إحداهما ليهود المغرب ، والاخرى لإخوته يهود اليمن ، ثم سار الى مصر فكان حاخام يهودها وطبيب صلاح الدين الأيوبي . جامع القرويين الكتاب الذهبي ١٦٦ .

١١٧) ابن حنين (٥٦٩ هـ) :

علي بن احمد بن ابي بكر الكناني القرطبي . اخذ ببلده اولاً ، ثم رحل الى المشرق فلقي ابا حامد الغزالي ، واستوطن مدينة فاس منذ سنة ٥٥٣ هـ فانقطع للعلم أخذاً وعطاء ، وكان ممن اخذ عنهم بها ابو القاسم خلف بن فرتون . ومن تلامذته الخشني وعبد الرحمن الاموي الاشبيلي ، وكان يعلّم ويؤم في المسجد المنسوب اليه بفاس : سيدي حنين ، ولعل له صلة بابن حنين السالف (٤٧٣ هـ) . التكملة ٢ رقم ١٨٦٥ صلة الصلة نشر بروفنصال رقم ٢٠٨ ، الذيل والتكملة مخطوط بالخزانة العامة رقم ٢٦٤٦ د الرابع .

١١٨) ابن اصبغ (٥٧٠ هـ) :

عبد الولي بن محمد . روى عن جماعة من الأعلام ، وروت عنه جماعة بمدينة فاس ، وله ترجمة في الذيل والتكملة رقم ١٢٩٢ .

١١٩) ابن حبوس (٥٧٠ هـ) :

محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس الفاسي العالم المحقق الذي قال فيه المعجب : إن طريقته كانت على نحو طريقة ابن هانئ الاندلسي في قصد الالفاظ الرائعة . ومن شعره يخاطب عبد المؤمن بعد تخليصه لمدينة المهدية يوم عاشوراء ٥٥٥ هـ .

شدت إليك على الرياح سروج أين الفرار بأهلكم يا جـــوج ؟

ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٢٢ ، التكملة ص ٣٧١ رقم ١٠٥٥ .

١٢٠) ابن الحداء (٥٧٠ هـ) :

عيسى بن الحداء ، خريج مدرسة ابي الحسن بن حرزهم ، تصدر بعد وفاة شيخه لإقراء رعاية المحاسبي ، وانتقل الى عدوة القرويين عندما علت مكانته . الجذوة ، الكتاب الذهبي : ص ١٨٥ .

١٢١) القيسي (٥٧٠ هـ) :

محمد بن عبد الله بن محمد بن خليل ، من اهل لبلة ، وقد صحب عدة مشايخ وسمع منهم ، ثم نزل مدينة فاس فانتفع به عدد من الطلاب قبل ان ينتقل الى مدينة مراكش . التكملة ص ٢٣٣ رقم ٧٦٤ .

١٢٢) الأوربي (٥٧٢ هـ) :

ابو خزر يخلف بن خزر ، العلامة المفتي المدرس الحافظ ، بيته شهير بفاس بالفقه والصلاح . (كتاب مشاهير فاس – التشوف ص ١٥٧) .

١٢٣) الرصافي (٥٧٢ هـ) :

ابو عبد الله محمد بن غالب الشاعر المبدع ، من مدينة الرصافة . دخل مدينة فاس ، فكانت له مع ادبائها وشعرائها وطلبتها مجالس أنس . والرصافة هي بالذات مدينة بلنسية بالاندلس ، وفيها يقول عبد الرحمن الداخل :

تراءت لنا فوق الرُّصافة لِينَـــةٌ تناءت بأرض الغرب عن بلد النَّخْلِ !

١٢٤) ابن زيادة الله (٥٧٢ هـ) :

الخطيب ابو عبد الله محمد بن حسن بن زيادة الله المزني ، قام للخطابة بالقرويين بتزكية من الإمام يشكر الجورائي ، لما كان يعرفه فيه من مقدرة على التبليغ وسعة الاطلاع (الانيس ٦) - الآس ٥٧ .

١٢٥) المكناسي (٥٧٣ هـ) :

ابو الحسن علي بن عبد الله بن حمود المكناسي المولود بفاس ، رحل الى المشرق عام ٥١٢ هـ ، ولقي جلة من العلماء ، ورجع سنة ٥١٨ هـ فاقام بمدينة فاس ينشر العلم ، ثم دخل الاندلس بنية الغزو ، وعاد الى فاس لمواصلة عمله ، وفي سنة ٥٢٦ هـ رحل ثانية الى المرية ، ومنها توجه إلى الاسكندرية حيث ادركه اجله هناك . (صلة الصلة ص ١٤٧) رقم ٢٩٦ .

١٢٦) اللواتي (٥٧٣ هـ) :

القاضي المفتي ابو الحسن علي بن الحسن ، من اهل فاس وأعيانها . دخل إشبيلية ، واخذ بها عن ابي الاخضر وأبي عبد الله بن شبرين وجماعة ، وعاد الى وطنه فاس للاشتغال بالعلم . روى بفاس عن أبي الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن عديس وأبي جعفر بن باق . وكان عالماً بالفرائض والعقود ، صلة الصلة رقم ١٤٧ – معجم الصدفي ص ٢٨٧ رقم ٢٧٠ .

١٢٧) الانصاري (٥٧٤ هـ) :

محمد بن محمد بن فتح الأنصاري الإشبيلي ، أخذ بمالقة والمرية ، واقرأ بقرطبة ثم بشلب ، وبعد هذا انتقل الى مدينة فاس ، فتصدّر للتدريس ، وأخذ عنه جماعة ، منهم أبو القاسم بن الملجوم وعبد الجليل بن موسى. (التكملة ٢ : ص ٧٠١ رقم ١٩٦٧).

١٢٨) المغيلي (٥٧٤ هـ) :

يحي بن أحمد بن عبد الله أحد علماء فاس المتقدّمين ينتسب اليه العلماء والادباء، من بيت المغيلي ، ولهم زقاق بفاس ، ومغيلة قبيلة بربرية. (مشاهير فاس – الجذوة ص ٣٣٨).

١٢٩) ابن دبّوس (٥٧٨ ﻫ) :

القاضي عبد الحق بن عبد الله بن أحمد اليفرني ، كان عالمًا مفتيًا وربما لقب في بعض التعاليق بالأمير ، ولا بدّ أن له علاقة بأبي العباس أحمد بن دبّوس الذي حضر مجالس المهدي بن تومرت. (البيذق ٦٣ – ٦٤ – ٦٥ – الجذوة ٣٤٧ السلوة ٣ : ٣٤٠).

١٣٠) ابن عمران (٥٧٨ ﻫ) :

القاضي أبو موسى عيسى بن عمران ، تولّى القضاء بمدينة مراكش ، وترك ابنه بمدينة فاس ليدرس العلم هناك ، مع أن جامع ابن يوسف بمراكش كان قد أسس منذ سنة ٥١٤ ﻫ ، بيد ان القاضي كان يعلم أن خير مركز يتخيره لولده هو مدرسة فاس ، وقد احتفظ التاريخ بفقرات من رسالة بعث بها الى والده : «أُدْرُسْ تَرْأَسْ وَاقرأْ تَرْقَ ...» . (الجذوة).

١٣١) ابن عفير (٥٧٩ ﻫ) :

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عفير الأموي ، من أهل اشبيلية ، انتقل الى مدينة فاس لأخذ العلم ، فدرس على أبي الحسن بن حنين سنة ٥٦٨ ﻫ (كتاب الشهاب) ، ثم رجع الى الأندلس فتولى الخطابة ردحًا من الزمان في مسجدها القديم . (التكملة ٢ ص ٦٠٨ ورقم ١٦٠٨).

١٣٢) الخِدَب (٥٨٠ ﻫ) :

محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري المعروف بالخدب ، من أهل اشبيلية ، أخذ علم العربية عن أعلام وقته ، ورأس الناس فيها ، وكان قيّمًا على كتاب سيبويه وأصول ابن السراج ومعاني القرآن للفراء والإيضاح للفارسيّ ، وله تعليق على كتاب سيبويه ، سماه الطُّرَر ، لم يسبق الى مثله ، وانتقل الى فاس فاجتمع عليه طلبتها ، فقعد لذلك وأقام مدة هنالك ، وأخذ عنه جماعة فيهم أبوذر الخشني وأبو الحسن بن خروف وغيرهما ، ثم ارتحل الى المشرق فأقرأ بمصر ، وأقسم أن يقرئ بالبصرة حيث وضع سيبويه كتابه في النحو. أدركه أجله ببجاية ، (التكملة لكتاب الصلة رقم ٨٠٣ – ٢٤٩ – الجذوة ١٦٨).

١٣٣) السكوني (٥٨٠ ﻫ) :

أبو محمد عبد الحق بن خليل بن اسماعيل بن خلف ، من أهل لبلة ، من بيت علم معروف ، روى عن جماعة منهم ابن العربي وعياض ، وشدّ الرحلة الى فاس ليأخذ علم الأصول والكلام عن ابي عمرو السلالجي ، وقد أحكم عنه العِلْمَيْن ، وأخذ كذلك علم العربية عن الخدب ، صلة الصلة رقم ٤ الجذوة ٢٧٤ .

١٣٤) الحمصي (٥٨٠ ﻫ) :

محمد بن عامر الحمصي . أخذ في المشرق ، واستقر زمنا بدمشق وحلب يعطي العلم ، ثم قفل الى المغرب للاستقرار بفاس حيث تابع نشاطه. السلوة ٣ ص ٢٦٧ .

١٣٥) الحضرمي (٥٨٠ هـ) :

عبد الرحيم بن عمر بن عبد الرحيم ، من أهل فاس ، وبها درس ، ثم دخل الأندلس حيث سمع بقرطبة وإشبيلية على عدد من الأعلام ، كان فيهم أبو بكر بن العربي ، وقد كان فقيها مشاورا . التكملة ص ٦٠٠ رقم ١٦٧٥ .

١٣٦) ابن حميد (٥٨١ هـ) :

الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن حميد ، خطب على منبر القرويين بتوكيل من الفقيه يشكر بعد وفاة بن زيادة الله ، وكان فقيهًا جليلاً ، واستمر ملازماً للمنبر نحواً من تسع سنوات ، وهو الذي تولى بناء المستودع مع القرويين . الأنيس ص ٤٣ – الآس ٥٧ – ٧٠ .

١٣٧) ابن طفيل (٥٨١) :

من اعلام الفكر الذين استفادت منهم مدينة فاس اثناء تردده على المغرب وقد كانت ارجوزته الطبية تدرس بالقرويين ، وما تزال الخزانة الكبرى تحتفظ الى الآن بنسخة فريدة لها ، ويذكر الدكتور رونو ان من حق المغرب ان يتبنى ابن طفيل نظرا لصلته الوثيقة بالبلاد . مخطوط لابن الطفيل ، مجلة التربية الوطنية – ابريل ١٩٦٢ .

١٣٨) الأنصاري (٥٨٢ هـ) Hesp. 1946 T. 33

ابراهيم الانصاري ، أديب نحوي ، وصيدلي خبير ، نزل بمدينة فاس ، فكان يتعاطى الأمرين : إقراء النحو وبيع الأعشاب ، وقد بلغ مركزاً خوّله أن يتوق أمثال ابن القطان الى إجازته . التكملة لكتاب الصلة ص ١٩٣ رقم ٤٠٨ .

١٣٩) ابن البقّار (٥٨٢ هـ) :

محمد بن إبراهيم بن حرب الله الفاسي ، روى عن أبي الحسن بن حنين وأبي عبد الله بن الرمامة وأبي محمد إسحاق بن قرقول وغيرهم ، ولقي بالأندلس أبا القاسم بن بشكوال ، وهو من أهل الفقه والحديث ، التكملة ص ٣٧٢ رقم ١٠٥٨ .

١٤٠) ابن ابي عبيدة (٥٨٢ هـ) :

أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي السّعدي العبادي ، نسبة الى سعد بن عُبادة ، استوطن مدينة فاس ، والتزم إسماع الناس الحديث والتكلم على معانيه بجامع القرويين ، واستمر على ذلك حيث كان يلازمه خلق كثير من النّاس ، وله مؤلف طريف في الرّد على رهبان طليطلة ، وآخر في غريب القرآن ، وناسخه ومنسوخه . الديباج المذهب ص ٥١ – السلوة ٣ ص ٢٤٢ ، الاعلام ، ١٤٦ .

١٤١) الغريغر (٥٨٥ هـ) :

كان مشرفًا (Al MojariF) على أوقاف القرويين أيام الناصر بن المنصور سنة (٥٨٥ هـ) ، وعنه نقلت المعلومات الدقيقة عن العمارة بمدينة فاس وما فيها من مساجد وفنادق ومعامل ومصانع ، وعن تقييده نقل علي

ابن عمر الأَوْسيّ . (الآس ص ٤٤) .

١٤٢) ابن الحسين (٥٨٦ هـ) :

القاضي أبو المكارم هبة الله المصري . كان من أهل العلم ، عارفًا بالأصول ، حافظًا للحديث ، متيقظًا ، حسن الشارة والصورة ، التجأ الى المغرب خوفًا من صلاح الدين الأيوبي مع جماعة من قومه . وولي قضاء إشبيلية ، ثم قضاء مدينة فاس ، ثم قضاء مدينة تونس . التكملة رقم ٢٠٢٤ . نفح الطيب ، طبعة جديدة ٦٨،٤ ، الجذوة ص ٣٣٤ . محمد الخضر حسين : مجلة الهداية الاسلامية ج ١٢ م ، القاهرة ، جُمادى الأولى ١٣٤٨ .

١٤٣) الغافقيّ (٥٨٦ هـ) :

عيسى بن محمد الغافقي ، من قرمونة ، انتقل الى فاس فزاول فيها التعليم ، وكان فقيهاً نحوياً بصيراً بالوثائق ، أديباً كاتباً . صلة الصلة رقم ٤٩ – التكملة ص ٦٨٨ رقم ١٩٢٧ .

١٤٤) ابن منقذ (٥٨٨ هـ) :

الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن ، من أهل فاس ، روى عن جماعة من علمائها ، ودخل بسطة ، وحدّثت عنه جماعة . التكملة ص ٢٦ رقم ٦٩ .

١٤٥) السوسي (٥٨٩ هـ) :

ابوعلي سالم بن موسى ، انتقل من سجلماسة الى فاس للدرس والتحصيل ، وقد سمع بها صحيح الإمام البخاري عن ابي عبد الله بن الرمامة ، وكان جامعاً لمسائل الفقه قديراً على أدائها جميعها باللسان البربري . التكملة ٢ ص ٧١٢ رقم ٢٠٠٦ – التشوف : ٢٧٧ .

١٤٦) ابن ابي الحجاج (٥٩٠ هـ) :

ابوزكريا يحيى بن ابي الحجاج . اخذ علم العربية بمدينة فاس عن الخدب وغيره ، وانتقل الى مدينة مراكش . صلة الصلة ، القسم الاخير رقم ٣٧٠ .

١٤٧) ابن سكاك (٥٩٠ هـ) :

ابن سكاك الفاسي ، من اشهر الفلكيين . الجذوة – الكتاب الذهبي . ص ١٤٠

١٤٨) الانصاري (٥٩٠ هـ) :

زكريا بن عمر بن احمد بن عبد الرحمن . روى عن ابي بكر بن العربي وغيره من كبار العلماء ، غادر وطنه الى مدينة فاس حيث استقر ، وكان يعقد الشروط الى جانب مجالسه الأدبية والفقهية . التكملة رقم ٢٣٧ ص ٧٢ .

١٤٩) الألميري (٥٩١ هـ) :

عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله الحجري الألميري ، من المرية . قرأ على شريح صحيح البخاري بإشبيلية ، وحكي أنه قرأه في احدى وعشرين دولة ، قال : وقد اجتمع عليه نحو ثلاث مئة من اعيان طلبة البلاد . انتقل

الى مدينة فاس فاقام بها ردحاً من الزمان يقرئ ويسمع . ابن الأبار : التكملة طبعة العطارص ١٩٥٦ – ٨٦٩ .

١٥٠) ابن مضاء (٥٩٢ هـ) :

القاضي ابوالعباس احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن مضاء اللخمي ، قاضي الجماعة بفاس ، وهو الذي وقعت مشادة بينه وبين ابن خروف (ت ٦٠٩ هـ) عندما الف اللخمي كتابه (تنزل القرآن عما لا يليق من البيان) الذي يظهرأن القاضي حمل فيه على النحويين وتعسّفاتهم في تخريج القرآن ، فاستاء ابن خروف ، ودافع عن النحويين في كتاب أسماه « تنزيه أئمة النحو عما نسب اليهم من الخطأ والسهو» ، وقد استخف القاضي قائلاً ومعرضاً بابن خروف : « لا نبالي بالكباش النطاحة ، فكيف تعارضنا أبناء الخرفان ؟ ! » صلة الصلة ٢٤٥ – التكملة طبعة الجزائر ٢٣٤ – الجذوة ٧١ ، عصر المنصور الموحدي ص ١٦٦ .

١٥١) السالمي (٥٩٣ هـ) :

الخطيب ابوالحسن علي بن موسى بن خلف الانصاري السالمي ، تصدّرللإقراء بمدينة فاس ، وولي خطبة الجامع ، اخذ عنه ابوالحسن بن القطان ، واليه تنسب شذورالذهب في الكيمياء. كان حياً عام ٥٩٣ هـ (الجذوة ٣٠٨) .

١٥٢) ابومدين (٥٩٤ هـ) :

شعيب بن حسين الانصاري ، من أهل فاس من حومة الرميلة ، أصله من الأندلس من حصن قطنيانة من عمل إشبيلية ، عزم على ان يتعلم فعبر العُدوَة المغربية . ولما عرف الناس قصده في طلب العلم ، نصحوه بالتوجه الى مدينة فاس اذاكان يريد التفرغ للعلم ، فلزم جامعها ، وكان يجلس الى حلق الفقهاء . وكان ممن اخذ عنهم بفاس ابوالحسن بن حرزهم ، وممن اخذوا عنه مولاي عبد السلام بن مشيش المغتال عام ٦٢٦ هـ دفين غمارة ، ورحل الى المشرق فاخذ عن عدد من المشايخ ، كان منهم صاحب بغداد الشيخ عبد القادرالكيلاني ، وادركه أجله في ضواحي تلمسان . (التشوف ٣١٧ – ٣١٨ – مشاهير فاس – السلوة ١ ، ٣٦٤ مجلة المغرب ٤ – ٧ .

١٥٣) ابن دافال :

القاضي ابوالحسن علي بن عيسى بن عمران بن دافال ، ولي قضاء المدينة . (الجذوة ٣٠٦) .

١٥٤) المهدوي (٥٩٥ هـ) :

الاستاذ العلامة ابوعبد الله محمد بن ابراهيم المهدوي صاحب كتاب الهداية ، لازم جامع القرويين نحوا من اربعين سنة ، لم تفته فيها صلاة في جماعة قط الا يوما واحدا (التشوف ص ٣٣٢ – الجذوة ١٦٩) .

١٥٥) ابن رشد (٥٩٥ هـ) : (Avérroès)

محمد بن احمد ابوالوليد الفيلسوف الملقّب بالحفيد ، عني بارسطووترجمه الى العربية ، له نحوخمسين كتابا ، منها فلسفة ابن رشد ، وقد استدعي لمراكش سنة ٥٧٨ فعين طبيبا للخليفة ابي يعقوب ، وهوالذي كان يشرف له على المدارس الطلابية ، ولا شك انه عرج على فاس كما كان الحال في جده واتصل برجالات القرويين . التكملة ، نشر العطارص ٥٥٣ رقم ١٤٩٧) .

١٥٦) الفندلاوي (٥٩٥ هـ) :

ابوعبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم ، من اهل فاس ، علامة أصولي جليل ، له عدد من الطلبة لا يحصون كانوا مناراً للعلم بعده في سائر ارجاء المغرب الكبير ، وقد نسب اليه الجزنائي (كتاب المستفاد في ذكر الصالحين من فاس والعباد) – صلة الصلة رقم ١٩٠ – التكملة ص ٣٧٣ رقم ١٠٦٢ الآس ص ٨ .
ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الاقصى ١ ، ٦١ .

١٥٧) اليصلوتي (٥٩٥ هـ) :

ابوعبد الله محمد بن الحسن اليصلوتي ، من اهل سجلماسة ، انتقل الى فاس لطلب العلم ، وبها توفي .
(التشوف ٣٤٦) .

١٥٨) ابن زهر (٥٩٦ هـ) : (ابوبكر) :

اسرة ابن زهر . سلسلة غنية باطبائها وطبيباتها .. فيها الطبيب ابومروان عبد الملك (الجد) بن الفقيه ابي بكر محمد بن مروان بن زهر ، الذي تولى رئاسة الطب في بغداد (ت ٤٨٣ ؟) وبعده ابنه ابوالعلاء زهر المتوفى ايام علي بن يوسف بن تاشفين (ت ٥٢٠ ؟) وبعده ابنه ابومروان عبد الملك (الحفيد) الذي خدم المرابطين وادرك الموحدين ، (ت ٥٥٧) وهوالمعروف باسم (Avenzoar) ، وبعده ياتي ابنه ابوبكر المترجم له هنا الذي ظل متنقلا بين الاندلس وفاس ومراكش (ت ٥٩٦ ؟ بمراكش) عرف بالحفيد لما سبق من وجود جدّ يحمل اسم ابي بكر ، واخت هذا وابنتها طبيبتان ثم بعد هذا ياتي خامس هو ابومحمد ...
ابن ابي اصيبعة ، طبعة بيروت ١٩٦٥ ص ٥١٧ – نفح الطيب طبعة بيروت ١٩٦٨ ج ٢ ، ٢٤٤ .

١٥٩) المالكي (٥٩٦ هـ) :

عبد الله بن محمد بن عبد الملك المالكي ، من اهل فاس ، يعرف بابن السكاك ، دخل المرية ، ثم رحل حاجاً فسمع بالاسكندرية عن ابي طاهر السِّلفيّ ، وحدث عنه جماعة ، منهم ابن القطان ، واستوطن فاسا ، واقام على تدريس العربية والحديث (التكملة ٢ ص ٥٣٠ رقم ١٤٩٠) .

١٦٠) ابن عمر (٥٩٦ هـ) :

ابوعبد الله محمد بن عمر ، من اهل مالقة ، انتقل الى فاس فتصدر للكتابة وللاقراء ، كان حافظا للتاريخ والاداب وقد صلى على جنازته القاضي ابن ميمون الهواري – التكملة ص ٢٧٢ رقم ٨٥٨

١٦١) التادلي (٥٩٧ هـ) :

القاضي ابومحمد عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي ، صحب القاضي عياضاً ، ولقي ابن شكوال ، كان عالماً متفنناً ، وأديباً جليل القدر ، له أشعارورسائل . وكان أبوه يعدّ من حفاظ المذهب المالكي ، وكان من المستشارين بفاس أيام المرابطين ، وقد عين عبد الله هذا قاضياً على فاس من قبل الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وهو الذي نفذ الحكم الصادرعلى أبي القاسم بن الملجوم المعروف بابن رقية . الخامس من الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة

الأنيس ص ٤٢ الجذوة ٢٣٦ .

١٦٣) يشكر الجورائي (٥٩٨ هـ) :

الخطيب أبو محمد يشكر بن موسى الجورائي ثم الغفجومي ، نشأ بتاجنبت من ناحية تادلة ، ثم انتقل الى فاس ، وتفقه بها على عدد من اشياخ القرويين الافذاذ ، وكان الى قوة باعه في العلم يجد صعوبة في الاسترسال في الحديث بالفصحى ، لذلك كان يوكل على الخطبة بالقرويين بعض تلامذته ، ومن اعتداده بنفسه انه أعرض عن الدعاء للعاهل الموحدي خلافاً لما جرت به العادة ، كان إماماً في الفقه ، عليه المدار بفاس ، وله حواش على المدونة ، وله ذكر متواصل في تاريخ بناء القرويين : المستودع ، والخصّة الحسناء ، ودار الوضوء . التشوف ١٧١ - ٣٣٨ - الأنيس ٤٣ - ٤٦ الآس ٥٦ - ٥٧ - ٧٢ - نيل الابتهاج ١٦٠ ابن خلدون ، المقدمة - ٢٢٥ الجذوة ٣٣ .

١٦٣) الزّعيني (٥٩٨ هـ) :

ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد الملقب بالركن ، كان فقيهاً متحققاً في علم الكلام ، وقد باشر القضاء بمعدن عوّام بضواحي فاس (التكملة ص ٣٧٥ - رقم ٨٦٨) .

١٦٤) الهواري (٥٩٨ هـ) :

الحسن بن حجاج بن يوسف ، أصله من بجاية ، ودخل الاندلس مراراً وولي الخطبة بإشبيلية بعد المالقي ، وانتقل الى فاس حيث توفي . التكملة ص ٢٦ رقم ٧٠ .

١٦٥) ابن حيون (٥٩٩ هـ) :

ابو مروان عبد المالك بن حيون الصدفي الأندلسي ، وهو من ذرية أبي علي الصدفي ، كانت له يد بيضاء على القرويين ورجالها ومرافقها ، وتحتفظ الحوالات الوقفية بوصاياه لمصالح المؤذنين بالجامع ، ومصالح المجاهدين الذين يقعون في الأسر ، ومصالح الصغاة، عند غلاء الاسعار. الأنيس ص ٤٧ - الحوالة السليمانية راجع ص ١٠٤ .

١٦٦) ابو عمران موسى (٥٩٩ هـ) :

الخطيب أبو عمران موسى الشهير بالمعلم ، لأنه كان في بداية الامر استاذاً بمدرسة أولية (مسيد) وهو ثالث الخطباء الذين قدّمهم الى المنبر يشكر الجورائي ، خطب ثماني عشرة سنة ، لم يتوقف ولم يتلجلج ، شهد له القاضي أبو عبد الله محمد بن ميمون الهواري الفزاري بالمعرفة الفائقة ، واليه تنتسب اسرة (ابن موسى) التي تفرعت بفاس وانتشرت في المغرب (الانيس ص ٤٦ - ٤٧ - الآس ٥٧ - ٥٨ الجذوة ص ٨٤) .

١٦٧) ابن ابي شامة (٥٩٩ هـ) :

ابو عمران موسى بن حسن العالم المهندس اللامع ، اشرف على تركيب الخصة الحسناء بالجهة الشرقية التي كانت مضرب المثل . الانيس ص ٤٠ - الآس ٧٢ - ٧٣ .

١٦٨) الهواري (٥٩٩ هـ) :

القاضي ابو عبد الله محمد محمد بن ميمون الهواري الفزَاري ، وقد كان على عادة القضاة مهتماً بخطباء القرويين

شكلاً وموضوعاً ، ويحكي ابن أبي زرع أنه لما رأى أول الأمر شكل الخطيب ابن موسى المعلم لم يرقه ، لكنه لما سمع خطبته غير رأيه فيه . الأنيس ص ٤٦ — ٤٧ الآس ٥٧ — ٥٨ .

١٦٩) الموّاق (٥٩٩ هـ) :

القاضي ابوبكر خلف الأنصاري المعروف بالموّاق الفقيه المتحرم من اهل قرطبة ، انتقل الى مدينة فاس فسكنها . كان حافظا حافلاً في علم الفقه والخلاف العالي فيه ، ملازماً للتدريس ، تام النظر ، لا يدانيه أحد في ذلك . وله تنبيهات ومقالات مفيدة ، منها في المكاييل والاوزان . سمع منه ابوالحسن بن القطان . دفن بداره المعروفة بدرب بن صافي من عدوة القرويين ... (التكملة لكتاب الصلة ص ٢٦٢ رقم ٥٩٦ الجذوة ص ١٠٣ السلوة ١ ً ٢٢٤ .

١٧٠) السجلماسي (٥٩٩ هـ) :

ابو الحسن علي بن عبد الله الفقيه المشارك ، اشتهر بالإنفاق على الخصة والبيلة اللتين بالجهة الشرقية للصحن . الانيس ص ٤٠ الآس ٧٢ — ٧٣ .

١٧١) ابن جنّون (القرن السادس) :

ابوالقاسم ابن جنون المؤرخ ، كان مرجعاً لابن أبي زرع ، له كتاب تاريخ فاس ، يقول ابن سودة في « دليل مؤرخ المغرب » : إنه من رجال القرن السادس ١ ً ٤٥ طبعة تطوان .

١٧٢) المسفر (القرن السادس) :

ابو الحسن علي بن خليل المسفّر ، لقيه الشيخ محيي الدين بن عربي ، ويظهر أن له علاقة بآل المسفّر الحسينيين المعروفين بفاس ، : النبوغ المغربي ص ١٥٦ .

١٧٣) المراكشي (القرن السادس) :

هو الفقيه عبد المنعم المراكشي ، ورد على فاس في القرن السادس واخذ العلم عن رجالها . الكتاب الذهبي ص ١٣٠

١٧٤) ابن عبد الحق (القرن السادس) :

القاضي أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق ، قاضي الجماعة بها ، وهو الذي جدّد في أيامه باب الشماعين بعد احتراقه ، وكان المشرف على ذلك الفقيه أبو الحسن بن محمد الازرق العطار (الانيس ٣٧ — ٣٨) .

١٧٥) ابن افلاطون :

الأستاذ الطبيب الذي كان يشرف على مستشفى بمدينة فاس خلال القرن السادس — التشوف ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

١٧٦) ابن الصائغ (٦٠٠ هـ) :

يحيى بن محمد الانصاري المعروف بابن الصائغ ، من اهل سبتة روى عن جماعة ، ودخل الاندلس فأخذ بها ، وسمع باشبيلية وقرطبة ، وكان كثير الاختلاف الى فاس ، وكانت له فيها مجالس حافلة . صلة الصلة رقم ٢٠٠ — التكملة رقم ٢٠٧٠ .

١٧٧) ابن عتيق (٦٠٠ هـ) :

ابوالحسن علي بن عتيق بن عيسى الانصاري الخزرجي ، روى بالأندلس عن جماعة ، وأجازه أعلام الاندلس في وقته ، ورحل الى المشرق فلقي جماعة من العلماء ، وكانت له مشاركة في علم الكلام ، وفي أصول الفقه ، وفي الطب حدثت عنه جماعة مهمة في فاس ، وكان منهم أبوالحسن الغافقي – صلة الصلة رقم ١٠٣ ، التكملة رقم ١٨٦٥ .

١٧٨) ابن فرحون (٦٠١ هـ) :

أبوالحسن علي بن محمد بن فرحون القيسي الفاسي ، عالم كبير بالحساب ، من اهل قرطبة ، ورد على فاس فاقام بها زمناً يعلم الرياضيات ، وهو صاحب كتاب لب اللباب في مسائل الحساب ، وكان كتابه ضمن المؤلفات التي تدرس بالقرويين . جذوة الاقتباس ٣٠٦ – الزركلي ٥ ، ١٥٠ .

١٧٩) ابن الياسمين (٦٠١ هـ) :

أبوعبد الله عبد الله بن محمد بن حجاج ، من اهل مدينة فاس ، رياضي ، برع في عدة علوم منها المنطق والهندسة والتنجيم والهيئة ، وخاصة الحساب والعدد ، فكان لا يدرك ، يتناول فيها ، ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقها وغوامض مسائلها . له أرجوزة في الجبر ، قرئت عليه ، وسمعت منه بإشبيلية سنة ٥٨٧ هـ ، فكان هوالذي نشر ذلك العلم بها . التكملة لكتاب الصلة – ص ٥٣١ رقم ١٤٤٢ – الذخيرة السنية – الانيس ٢٣٧ – الجذوة ٢٣٧ – تراث العرب العلمي ص ٧٢ – ٧٣ – : مجلة البحث العلمي يناير ١٩٦٤ .

١٨٠) ابن الملجوم (٦٠٣ هـ) :

القاضي أبوموسى عيسى بن ابي الحجاج يوسف ، من أسرة بني الملجوم السالف ذكرها . ولي قضاء فاس ، كان عارفاً بالفقه ، مستحضراً للمسائل والنوازل ، متقدما في علم الفرائض ، راجع بيوتات فاس ، البحث العلمي ، دجنبر ١٩٦٤ الذخيرة السنية ٤٤ – الجذوة – .

١٨١) السّلمي (٦٠٣ هـ) :

القاضي أبوحفص عمر بن القاضي عبد الله السلمي الاغماتي ، انتقل الى فاس ، فاخذ عن عدة اعلام ، واصبح من أهل المعرفة والتفنن . كاتب ، وشاعر مجيد ، ولي قضاء إشبيلية وتلمسان وفاس ، اذا اقبل شمت منه رائحة الطيب على بعد . صلة الصلة رقم ٧٢ – ورقم ١٣٠ – التكملة ٢ ص ٦٣٣ – ٦٥٩ رقم ١٧٧١ – ١٨٣١ – الجذوة النبوغ : ص ١٦٩ – ٢٨٦ صلة الصلة رقم ٧٢ – الجذوة ٢٤٤ .

١٨٢) الخشني (٦٠٤ هـ) :

أبوذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشني ، من أهل جيّان ، اخذ عن أبيه علم العربية والآداب واللغات ، واخذ عن ابن حنين وعبد الله بن الرمامة بفاس ، وعن ابي مروان عبد الله بن هشام الخضر بتلمسان ، وعن ابن ملكون ببجاية . وكان رئيساً في صناعة العربية عالماً بها قائماً عليها ، درسها حياته كلها ، ورحل الناس اليه فيها ، ولي الخطبة بجامع إشبيلية ، وولي قضاء جيّان ، واستوطن بعد هذا مدينة فاس ثانية ، واقام بها يقرئ العربية ويدرس كتاب الاحكام ، وكان له إشراف مطلق على القرويين في فترة من الزمن ، ولذلك يعد من كبار رجالاتها . الانيس ص ٤٩ صلة الصلة

رقم ١٤٦ ابن الآبار : التكملة عدد ١٠٩٨ ص ٣٨٥ سفزاول . الروض المعطار ص ٧١ – ٧٢ الذخيرة السنية – نفح الطيب ٤ ، ص ١٠٣٧ .

١٨٣) ابن الملجوم (٦٠٤ هـ) :

القاضي أبو القاسم عبد الرخيم بن الملجوم ، سمع ببلدة فاس من ابيه ابي موسى وعمه ابي القاسم ، وروى عن ابن الإشبيلي الذي استوطن فاساً ، ولقي ببلده كذلك ابا مروان بن مسرة ، وابا الفضل عياض ، وأبا الحسن الزهري ، وأبا بكر بن الجد ، وأبا القاسم بن رشد ، ورحل الى الاندلس فلقي بقرطبة ابا شكوال ، روى عنه علي الغافقي الشاري. التكملة ٢ ص ٦٠١ رقم ١١٦٧٤ – ٢٧٦٧ – صلة الصلة رقم ١٥٠ – ١٨٢ – الجذوة ٢٦٧ – السلوة ٣ ص ١٧٨. البحث العلمي ، دجنبر ١٩٦٤ ، ص ٤٨ .

١٨٤) التّميمي الفاسي (٦٠٤ هـ) :

محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم ، من اهل فاس كان له مجلس علم بالمسجد الازهر بزقاق الخيل ، من فاس وبه أخذ عنه ابن العربي الحاتمي ، ورحل الى المشرق فاقام فيه نحواً من ١٥ عاماً فاخذ عن عشرات الاعلام ببغداد والإسكندرية والقاهرة ودمشق والقدس وطرابلس وإفريقية كما تتلمذ للاختين الصالحتين ست الكل وست العلم ابنتي عبد الله بن رفاعة السعدي ، وفاطمة بنت سعد الخير الانصارية بالقاهرة ، وتقية بنت الخطيب غيث الأرمنازي، وينسب اليه كتاب المستفاد . راجع ترجمة الفندلاوي (ت ٥٩٥) . أبو مروان عبد الملك بن ابي القاسم التوزري المعروف بابن الكردبوس – الذيل والتكملة الفتوحات المكية قسم الوصايا المطبوع على حدة بالمطبعة الأميرية بمصر عام ٣٠٦ ص ١٢٨ . الكتاب الذهبي ١٨٥ .

١٨٥) ابن الملجوم (٦٠٥ هـ) :

أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن رقية من آل الملجوم المعروفين . كان له اعتناء كبير بالتاريخ ، ومعرفة بالشعر والنحو واللغة والادب . جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل المغرب ، وكانت خزانة كتبه من اشهر الخزائن المغربية ، وقد بيعت خرومها بعد وفاته بستة الآف دينار من طرف ابنته ... وهو صاحب العلية الشهيرة بفاس والتي يوجد بابها ضمن الابواب الداخلية . وكان ممن اخذ عنه الطالب الاسكندراني احمد بن عمر الانصاري الاندلسي . (التكملة رقم ١٦٥٢ ص ٥٩٠ جزء ٢ صلة الصلة ١٥٠ – الانيس ٤٢ – الذخيرة السنية

١٨٦) الانصاري (٦٠٦ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن عبد الله من أهل إشبيلية ، رحل الى مدينة فاس لطلب العلم ، فاخذ عن ابن زرقون ، وعاد الى بلاده ليقوم بتعليم الطلاّب . التكملة ص ٢٩٢ رقم ٨٩٨ الترجمة رقم ١٥٤٢ ص ٥٧٧ .

١٨٧) القصري (٦٠٨ هـ) :

ابو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الانصاري الأوسي القصري ، اخذ بفاس الموطّأ عن الحاج ابي الحسن الكناني بن حنين ، له تآليف كلها جليل ومفيد ، ألف كتاب تفسير القرآن ، وشعب الايمان ، وشرح اسماء الله الحسنى ، والأسئلة والأجوبة . القسم الأخير من صلة الصلة نشر بروفنصال رقم ٤٤ التكملة رقم ١٨١٨ .

النبوغ ١٤٧ .

١٨٨) ابن سعيد (٦٠٨ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن عثمان ، من أهل فاس ، لقي في رحلته أبا محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي ببجاية سنة ٥٧٥ هـ ، فتحمل عنه مختصره في الأحكام ، وحدّث به . كان مفتياً أصولياً . التكملة ٣٧٦ رقم ١٠٦٧.

١٨٩) الحسني (٦٠٨ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن طاهر الحسني الشريف ، اخذ عن ابي إسحاق بن قرقول ، وكان من كبار المحدثين ، تولى القضاء بمراكش وإشبيلية . التكملة ص ٣٧٥ رقم ١٠٦٦ .

١٩٠) الغماري (٦٠٩ هـ) :

القاضي أبو ابراهيم إسحاق بن إبراهيم السعيدي المجابري الغماري ولي القضاء أيضاً بسبتة وجيّان وإشبيلية ، كان أبو الخطاب خليل يختلف اليه بإشبيلية في مسائل من كتاب ابن البراذعي ، كان يحفظ المدونة عن ظهر قلب . كناشة ابن سودة (مخطوطة) : الجذوة ٩٩ .

١٩١ ابن خروف (٦٠٩ هـ) :

علي بن محمد بن علي الحضرمي، من أهل اشبيلية، روى عن جماعة من العلماء. أقرأ بقرطبة ورُنْدَة وإشبيلية وسبتة ، وبمدينة فاس أخذ عنه كتاب سيبويه جلة من العلماء وأقرؤوه بعدَه ، ممن اخذ عنه بفاس أبو الحسن الشارّي، له مؤلفات ، منها شرحه لكتاب سيبويه . صلة الصلة رقم ١٢٢ – ٢٤٥ – التكملة رقم ١٧٨٤.

١٩٢) العجلاني (٦٠٩ هـ) :

محمد بن حماد العجلاني، من أهل فاس، سمع بها أبا ذرّ الخشني وغيره، وصحب قاضي الجماعة أبا عبد الله الحسيني ، واختص به ، وكتب له . ولي قضاء سبتة ، وكان من أهل العناية بسماع العلم ورواية الحديث ، وكان هو المخصوص بقراءة كتب الحديث ودواوينه – التكملة ص ٣٧٦ رقم ١٠٦٨ .

١٩٣) الجراوي (٦٠٩ هـ) :

أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي ، من أبرز الشخصيات الأوربية في العصر الموحدي ، وقد كان مما حيّا به العاهل الموحدي عند مقدمة على اشبيلية عام ٥٦٦ :

لو كانت الجوزاء من أعدائه ... لم تنج من غاراته الجوزاء !

تاريخ المن بالامامة ص ٤٥٤ – شاعر الخلافة الموحدية ص ٣.

١٩٤) ابن يحيي (٦١٠ هـ) :

مروان بن عمّار بن يحيي ، من أهل بجاية ، سمع ببلدة عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي ، ودخل الأندلس فسمع عددًا من المشايخ ، ثم رجع الى سبتة فسمع كذلك أبا محمد بن عبد الله ، وأخذ بمدينة فاس

عن أبي ذر الخشني كثيرًا من كتب العربية والآداب واللغة ، ولقي أبا عبد الله بن حميد فأخذ عنه بعض كتاب سيبويه ، وأجاز له . التكملة ص ٣٨٤ رقم ١٠٠٥ .

١٩٥) ابن يحى (٦١١ هـ) :

أبو محمد عبد الله بن أبي عمران موسى المعلم السالف ذكره . رَقِيَ المنبر ، وهو ابن ثمان عشرة سنة ، اجتمع فيه الثلاثة الشباب والعلم والجمال . قدّمه قاضي فاس للصلاة على والده ، ومن ثم طفق يخطب على منبر القرويين ، وقد استقبله العاهل الموحدي الناصر ، ولما استأذنه في الانصراف اتبعه السلطان بالثياب والصرّة ، فقبل الثياب واعتذر عن قبول المال راجياً أن يوزع على الأجناد والغزاة الأنيس ٤٨ – الجذوة ٣٤ .

١٩٦) الأوسي (٦١١ هـ) :

ابراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المالقي المعروف بابن المرأة ، رحل من الأندلس الى فاس للأخذ عنها ، روى بها عن ابي الحسن بن جبير وأبي الحسن علي بن حرزهم ، حدث عنهما بالموطأ . الجذوة ص ٨٧ – الكتاب الذهبي ص ١٨٤ .

١٩٧) ابن الحصّار (٦١١ هـ) :

أبو الحسن علي بن محمد الخزرجي الفاسي المعروف بابن الحصار مؤلف البيان في تنقيح البرهان ، ويعدّ من أعلام علم الكلام في بلده – التكملة الكتاب الذهبي ص ٤٤.

١٩٨) التادلي (٦١٢) :

يحيى بن داود نزيل مدينة فاس ، سمع من عدد من العلماء كابن الرمامة وابن حنين ، وتفقّه على مشيختها التكملة ٢ ص ٧٣١ رقم ٢٠٧٢ .

١٩٩) ابن الحسن (٨١٢ هـ) :

أبو القاسم عبد الرحمن بن يوسف بن الحسن الشهير بابن زانيف من أعيان مدينة فاس وعلمائها الأعلام الذين تشد اليهم الرحال في مذهب الإمام مالك ، له من علم الحديث وغيره ، وكان يقوم على المدوّنة قيامًا تامًا (الجذوة ص ٢٥٤) .

٢٠٠) ابن نموى (٦١٤ هـ) :

أبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن يوسف بن نموى الأصولي الجليل . كان من أهل التفنّن في العلوم ، عارفًا بالسير والتاريخ وعلم الأصول وغيرها ، قعد للتدريس في زقاق الرواح من فاس حيث سكناه وسكنى سلفه ، ودخل إشبيلية وأقرأ بها ، ثم عاد الى فاس سنة ٦١٣ هـ ، وقعد للتدريس في شرقي القرويين الى أن توفي . التكملة ص ٧٤٠ رقم ٢٠٩٩ الذخيرة ٥٣ الجذوة ٣٤٥ .

٢٠١) ابن جبير (٦١٤ هـ) :

الرحالة أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير ، ولد في مدينة بلنسية ، وعاش ردحًا من الزمان بفاس حيث

روى عنه «الموطأ» إبراهيم بن يوسف الأَوْسي (٦١١ هـ) ، وقد باع املاكه بفاس ، وطاف في بلاد البحر المتوسط وبغداد وعددٍ من الأقطار ، توفي في الاسكندرية ... ٢١٤,٦ – الاعلام ج ٣ ، ص ٩٠ – ابن عبد الله : دعوة الحق ، دجنبر ص ٢٨ . الكتاب الذهبي ص ٢٠٦ .

٢٠٢) القضاغي (٦١٥ هـ) :

الخطيب أبو محمد قاسم بن محمد بن عبد الله القضاغي ، كان تلميذه الخطيب الشاب هو الذي استخلفه ، فبارك أمير المؤمنين هذا الاستخلاف ، وأسكنه في الدار الخاصة نأئمة المسجد. الأنيس ٤٨ – الذخيرة السنية الآس ص ٥٩ التعليق رقم ١٢٤ الجذوة ٣٥ ص ٣١٧ .

٢٠٣) ابن عمران (٦١٧ هـ) :

القاضي أبو يعقوب يوسف بن عمران . كان له إشراف على العادة على شؤون الجامع ، وهو الذي أمر بإسراج الثريا الكبرى بعدأن كانت قد عطلت ، وفُتح على عهده باب الورّاقين الأنيس ص ٤٢ .

٣٠٤) المغيلي (٦١٩ هـ) :

عبد الرحمن بن القاسم بن يوسف بن محمد المغيلي ، من أهل فاس وبها نشأ ودرس ، ثم سكن غرناطة . روى عن أبي ذر الخشني ، وأجاز له ابن الجد وابن رشد ، ثم تصدّر للإقراء بغرناطة ، وبها ادركه أجله . التكملة ٢ ص ٥٩٢ رقم ١٦٥٦ .

٦٠٥) ابن فتوح (٦٢١ هـ) :

أبو الحجاج يوسف بن فتوح ، نزل مدينة فاس ، وكان له حظ من علم التفسير والفقه ، وله معرفة بعلم النبات وأعيان العشب الجذوة .

٢٠٦) المراكشي (٦٢١ هـ) :

عبد الواحد بن علي التميمي ، مؤرخ دولة الموحدين ، من أهل مراكش الذين وردوا على فاس لطلب العلم ، كان بها سنة (٥٩٥) ، وسنّه أربع عشرة سنة ، وفيها الْتقى بالعالم الطبيعي العظيم ابي بكر بن زهر ، وكان بينهما حديث ومسامرة ، وابن زهر يومئذ في الثمانين أو هو قد جاوزها. وارتحل الى المشرق ، وأمضى في مصر سنين ، ثم غادرها الى الحجاز ، ثم الى بغداد ، والشام حيث اجتمع بوزير من خاصة الخليفة الناصر لابن الله العباسي فألف سنة (٦٢١ هـ) كتابه المعروف «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» جمع فيه بين تاريخ الأندلس والمغرب السياسي والأدبي .

٢٠٧) الأَنصاري (٦٢١ هـ) :

محمد بن أحمد بن حمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري ، من أهل ألمرية الذين رحلوا إلى مدينة فاس لأخذ العلم هناك ، فلقي أبا الحسن بن حنين ، وسمع منه الموطأ ، وأجاز له – التكملة ، نشر العطار ، ص ٦١٣ ، رقم ١٦١١ .

٢٠٨) القطني (٦٢١ هـ) :

محمد بن موسى ، من أهل شاطبة . لقي بمدينة فاس أبا القاسم عبد الرحيم بن عيسى بن الملجوم ، فسمع عنه ، وأخذ عن جماعة ، وعُنِيَ بالعربية ، فكان أستاذاً لها . التكملة ص ٣٣٠ رقم ٩٦٨ .

٢٠٩) ابن باديس (٦٢٢ هـ) :

عبد الله بن باديس اليحصبي الشُّقْري ، من أهل جزيرة شُقْر ، وسكن بَلَنْسِيَة ، فسمع من عدد من العلماء ثم أجاز البحر الى مدينة فاس فلقي هناك عددًا من العلماء من أمثال أبي الحجاج ابن نموى وطبقته من أهل علم الكلام وأصول الفقه . التكملة ٢ ص ٥١٣ رقم ١٤٤٥ .

٢١١) ابن سمعون (اليهودي) (٦٢٣ هـ) :

أبو الحجاج يوسف بن يحيي بن إسحاق بن سمعون الطبيب الرياضي المعروف بابن سمعون ، وهو جده العاشر أو التاسع ، عرف به ابن القفطي في عيون الأنباء ، فقال : كان طبيبًا اسرائيليًا ، من أهل فاس ، قرأ الحكمة ببلده ، فساد فيها وفي العلوم الرياضية ، وقد ارتحل لمصر واجتمع بابن ميمون الحاخام ، ثم سافر تاجرًا الى العراق ، (النبوغ ١٥٨) .

٢١١) البلوي (٦٢٣ هـ) :

عبد الصمد بن عبد الرحمٰن البَلَوِي ، رحل الى فاس فأخذ بمدينتها عن عدد من العلماء ، كان من بينهم أبو عبد الله بن الرمامة . (صلة الصلة ١٥ بالتكملة رقم ١٨٠١) .

٢١٣) السماتي (٦٢٤ هـ) :

عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز بن زيدان ، من أهل قرطبة ، نشأ بمدينة استجة ، واستوطن مدينةَ فاس ، وروى عن أبي ذر الخشني وأبي إسحاق بن قرقول ، وأخذ عن أبي الحسن بن حنين ، سمع منه الموطأ ، وكتب للقاضي أبي حفص عمر بن أبي عمر أيام ولايته القضاء بفاس . (التكملة ١١ ص ٦٣٣ رقم ١٧٧١) .

٢١٣) الاسكندراني (٦٢٦ هـ) :

أبو العباس بن أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري الأندلسي ، من أعيان المذهب المالكي ، سمع الحديث على مشايخ المغرب ، ولقي بفاس أبا القاسم عبد الرحمن بن عيسى بن الملجوم ، ثم انتقل الى الاسكندرية ، فكان علماً من أعلامها ، درس بها ، له كتاب على صحيح مسلم أحسن فيه واجاد (الديباج ص ٦٨) .

٥١٤) يعيش بن مسعود (٦٢٦ هـ) :

يعيش بن علي بن يعيش بن مسعود ، سمع بفاس من أبي عبد الله بن الرمامة وأبي الحسين اللواتي وابي عبد الله بن خليل الاشبيلي ، وكان من أهل المعرفة بالقراءات والأخبار ، حدث عنه ابن القطان . (التكملة ٢ ص ٧٤٣ رقم ٢١١٠) .

٢١٥) المراكشي (٦٢٧ هـ) :

أبو علي (أو أبو الحسن) بن علي المراكشي. وكان من كبار الرياضيين الفلكيين الذين اعتمدت جامعة القرويين على كتبهم ، وهو صاحب (كتاب المبادئ والغايات في علم الميقات) الذي يقول فيه صاحب كشف الظنون إنه أعظم ما صنف في هذا الفن ، وفيه جانب عن الاسطره. والآخر عن الساعة الشمسية ، منه نسخة في مكتبة المرحوم المحامي عباس العزاوي. بغداد (كشف الظنون ١ ص ٣٨٤ ، النبوغ ١٥٧ – تراث العرب العلمي ص ٦٠) معجم المطبوعات ١١ ص ١٧٢٥.

٢١٦) الخطيب الشلبي (٦٢٨ هـ) :

الخطيب الموقت أبو عبد الله بن عبد الرحمن الخزرجي الشلبي. كان يروى عن ابي الحسن بن خروف وأبي الحسن بن جبير. ولي الخطبة بالقرويين بعد القُضَاعي ، وكان الى جانب بصارته بالعلوم العقلية والنقلية يتوفر على معرفة تامة بفن التوقيت . (الأنيس ٤٨ ، جنى الآس ٥٩ الجذوة ص ٣٥ – ١٩٥).

٢١٧) الحافظ ابن القطان (٦٢٨ هـ) :

أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي سلطان الطلبة بمراكش ، سمع بفاس من أبي ذر الخشني وجماعة ، له مقالة في المكاييل والموازين ، ولما أراد الناصر الموحدي استقبال فيرناندو الثاني استشار العلماء في مراسيم الاستقبال ، فألف ابن القطان مقالته التي ينصح فيها بالوقوف للأجانب مجاملة عند اللقاء ، (الذيل والتكملة الخامس ، ابن صاحب الصلاة ٢١٩ – ٢٢٠ – ٤٠٢ – النبوغ ١٤٩ – الكتاب الذهبي ١٤٤) .

٢١٨) أبو بكر القرطبي الأنصاري (٦٣٠ هـ) :

محمد بن عبد الله المكني أبا بكر ، من أهل إشبيلية ، ويعرف بالقرطبي لأن اصله منها ، رحل الى مدينة فاس في طلب العلم ، فأخذ عن جماعة ، منهم ابن زرقون ، ثم عاد الى بلده لتدريس العربية الخامس من الذيل ، والتكملة على كتابي الموصول ، والصلة الترجمة ١٥٤٢ ص ٥٧٧ .

٢١٩) ابن ابي الجيش (٦٣١ هـ) :

صهيب بن عبد المؤمن رومي الأصل ، أصله من ضواحي جيّان . ولي قضاء جيّان ، سمع الموطأ على ابن الجد ، وارتحل الى مدينة فاس لطلب العلم ، واجتمع بابن فرتون ، وأجاز له بعد أن درس عليه صحيح مسلم ، (التكملة ١١ ص ٤٣٠ رقم ٤٣٠) .

٢٢٠) ابن دحية (٦٣٣ هـ) :

أبو الخطاب ابن دحية الأندلسي ، قضى ردحًا من الزمان في فاس ضمن جولته في مدن المغرب ، زار إصبهان وبغداد ونيسابور وشيراز ودمشق والقدس ، ثم استقر بالقاهرة في كنف الملك الكامل في رعاية شاملة وبعثه سفيراً عنه الى الناصر ببغداد فبعثه هذا رسولا عنه الى بعض ملوك العجم تقديرًا لعلمه وخبرته – ع. ابن عبد الله :

دعوة الحق، دجنبر ١٩٦٠ م.

٢٢١) ابن عبد الله الخطيب (٦٣٥ هـ) :

الخطيب أبو عبد الله الحاج محمد الملقب بالخطيب. خطب بعد الشلبي لما كان له من الصنعة في اختيار جيد الكلام وبديع الأسلوب. الأنيس ٤٨ – الآس ٥٩.

٢٢٢) السقطي (٦٣٥ هـ) :

أبو الحجاج يوسف بن محمد بن علي، كان على معرفة تامة بالتوقيت والنجوم، ورد من قصر كتامة على مدينة فاس أيام إمامة الشلبي السالف ذكره، فالتمس من قاضي المدينة أبي يعقوب يوسف بن عمران أن يفسح له في المجال للظهور بمدينة فاس بالخطبة على منبر القرويين ولو لجمعة واحدة، فاقترح القاضي على الخطيب الشلبي أن ينزل عن المنبر ليوم واحد ليشتهر أمر السقطي، الأنيس ٤٨ راجع ص ٨٢.

٢٢٣) البدوي (٦٣٥ هـ) :

أبو العباس احمد بن علي الحسيني، دفين طنطا، صاحب الشهرة الكبيرة. ولد بفاس وبها تفقه، وطاف البلاد، وأقام بالحرمين الشريفين، وزار الشام والعراق، واستقبله الملك الظاهر بيبرس بعسكره. الكتاب الذهبي ١٦٢).

٢٢٤) ابن عربي (٦٣٦ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي، أخذ بمدينة فاس عن أبي عبد الله بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي، وسمع عليه كتابه المستفاد بمسجد عين الخليل: المسجد الأزهر – الكتاب الذهبي ١٦٣ – ص ١٨٥).

٢٢٥) عبد الغفار (٦٣٦ هـ) :

الخطيب أبو محمد عبد الغفار. خطب على منبر الجامع بعد ابن عبد الله الملقب بالخطيب، ولكنه لم يظل فيه إلا نحو ستة أشهر، لأن بعض الناس روى أنه سمعه يجمع بين التنوين وأداة التعريف وهذا وحده يدل على مدى خطورة الهفوة النحوية بالنسبة الى خطيب القرويين ! ! الانيس ص ٤٩.

٢٢٦) الخطابي (٦٣٧ هـ) :

ميمون بن علي الخطابي من أهل مدينة فاس، كان شاعراً فحلاً، اديباً ممتازاً، له مجالس أدبية بالعاصمة، وقد أدركه اجله بالرباط، النبوغ ١٧٠.

٢٢٧) الصنهاجي (٦٣٩ هـ) :

أبو عمر عثمان بن كثير، من الطلبة الذين انتقلوا من مدينة فاس، واشتهروا بمصر القاهرة، تفقه وبرع في مذهب الشافعي، وقضى بقوص، ودرس بالجامع الأقمر بالقاهرة. الكتاب الذهبي ص ١٦٢.

٢٢٨) ابو الصبر (٦٤٢ هـ) :

أبو الصبر أيوب بن عبد الله بن يكنون، اخذ عن محمد بن عبد الله الداني، من رجالات القرويين، واليه

ينتسب بنو الصبر الذين كان لهم ذكر بفاس – الانيس ٣٥ ، الصلة ص ٢١٢ رقم ٧٢٢ .

٢٢٩) الانصاري (٦٤٥ هـ) :

محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن الطراز الأنصاري الغرناطي ، سمى ابن القاضي ستة من شيوخه بفاس ، من بينهم اثنان انتفع بهما في الكلام وأصول الفقه ، الجذوة ١٧٦ ، الكتاب الذهبي ١٨٦ .

٢٣٠) الفشتالي (٦٤٦ هـ) :

أبو محمد الفشتالي من فقهاء القرويين الصالحين الذين كان لهم رأي في تنصيب خطبائها ، وهو اول من بايع بني مرين . مشاهير فاس : البحث العلمي ، دجنبر ، ١٩٦٤ ، ص ٠٥ . السلوة ٢ – ٤٥ .

٢٣١) المغيلي (٦٤٦ هـ) :

القاضي أبو عبد الرحمن محمد بن يحيي بن أحمد بن عبد الله قاضي القضاة بفاس ، اجتمع اليه نفر من مشيخة المدينة للاستفادة – زهرة الآس ٣٢ ، التعاليق رقم ٧٦ ، الذخيرة ٨٤ .

٢٣٢) الصنهاجي (٦٤٧ هـ) :

عبد الله بن محمد بن عبد الله ، من أهل طنجة ، انتقل الى مدينة فاس للتعلم ، فسمع هناك عن أبي عبد الله الفندلاوي وأبي محمد بن زيدان . وكان ممن أجازه ابو القاسم بن الملجوم ، وأبو ذر الخشني ، وابن جبير – التكملة ٢ ص ٥٣٢ رقم ١٤٩٥ .

٢٣٣) القشيري (٦٤٨ هـ) :

علي بن أحمد ، أخذ ببلدة غرناطة ومالقة واشبيلية ، رحل الى فاس لاستكمال معلوماته ، فاخذ بها عن أبي البقاء يعيش بن القديم ، وأبي محمد بن زيدان ، وغيرهما . صلة الصلة رقم ١٣٨ .

٢٣٤) الشاري (٦٤٩ هـ) :

أبو الحسن علي بن محمد الغافقي الشاري ، درس على جماعة طائفة من كتب الحديث والفقه والأدب وغيرها ، ثم رحل الى مدينة فاس للاستزادة من العلم ، فلازم بها محمد الفندلاوي ، وتفقه عليه في علم الكلام وأصول الفقه ، كما أخذ عن ابي القاسم عبد الرحيم بن الملجوم وابن عمه عبد الرحمن وأبي الحسن علي بن عتيق ، وأخذ عن النحوي أبي الحسن بن خروف ، ثم دخل الأندلس ، وبنى مدرسة ببلدة سبتة . صلة الصلة ، رقم ١٥٠ ، التكملة ٢ ص ٦٨٧ رقم ١٩٢٢ .

٢٣٥) أبو عمران (٦٥٠ هـ) :

القاضي أبو عبد الله من قضاة فاس من قبل أبي يوسف بن عبد الحق ، في ايامه اعتدي على المستودع بالقرويين. الذخيرة السنية ، الأنيس ٤٣ ، الجذوة ٣٤٩ .

٢٣٦) الأنصاري (٦٥١ هـ) :

القاضي أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن قطرال ، روى عن جماعة مهمة من العلماء ، وولي القضاء

بقرطبة وبلنسية وشاطبة وسبتة ، ثم مدينة فاس ، وأخذ عنه عالم كثير من الطلبة . صلة الصلة رقم ١٣٩ – الجذوة ٣٠٨

٢٣٧) الهسكوري (٦٥٣ هـ) :

أبو محمد صالح بن جنون الهسكوري ، فقيه فاس وعالمها وصالحها . أخذ عن الشيخ أبي محمد يشكر شيخ القرويين ، وأخذ عنه أبو الفضل راشد الوليدي صاحب كتاب الحلال والحرام ، والشيخ أبو ابراهيم الاعرج صاحب الطرز على المدونة ، وله تقليد على الرسالة ، كتب من إملائه في درسه لها . وهو غير ابي محمد صالح الصوفي الاسفي ، وقد كانا متعاصرين . : النبوغ ص ١٤٦ – ١٤٧ .

٢٣٨) ابن الحاج (٦٥٣ هـ) :

الخطيب أبو الحسن علي الشهير بابن الحاج ، ولعظم مقام الخطابة بالقرويين تهيبها أبو الحسن أول الامر ، ثم قبلها بعد لأي ، وعلى شرط أن لا يسكن الدار المحبسة على أئمة الجامع وانه – كما يقول أبو الحسن – لا ينبغي أن تكون السكنى عوضاً للامامة ! ولما حاولوا إقناعه بأن رفضه سيعطل مقصد المحبس ، عاد للقبول ، ولكن في مقابلة السكنى سيقوم بنفسه بتخطيط حصر الجامع الأعظم . الانيس ص ٤٩ ، الآس ٦٠ ، الذخيرة السنية ٢٨ ، الجذوة ٣٥ .

٢٣٩) الطليطلي (٦٥٤ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الكفيف المعروف بالربوطي ، سمع ببلده ، ثم انتقل الى مدينة فاس فتولى التعليم بها ، وكان يخطب ويصلي الجمعة بالناس . : الغنية ص ١٨ – ١٩ .

٢٤٠) المزدغي (٦٥٥ هـ) :

الخطيب أبو عبد الله محمد بن الفقيه الصالح يوسف بن عمران المزدغي من أسرة الخطباء والعلماء. كان عالما يعلم الكلام والأصول والتصريف والعربية، حافظا الحديث. خطب بعد عبد الغفار. له تفسير للقرآن جميل مفيد انتهى فيه الى سورة الفتح ، وله أنوار الافهام في شرح الاحكام ، وتأليف فيما يجوز الأخذ منه للشرفاء المضطرين من أموال الاغنياء المغترين ، وارجوزة في العقائد. رحل الى الأندلس ، فأخذ عن اهلها . وروى عن الخطيب المزدغي هذا عدد من العلماء ، منهم ابناه : أبو القاسم محمد ، وأبو جعفر أحمد ، والعمراني ، وإلى هذا تنسب أسرة المزدغي المعروفة الى الآن بفاس . وفي باب درب السعود مسجد يقال له مسجد المزدغي كان به كرسي للعلم والتوريق وخزانة كتب صغيرة . الانيس ٤٩ – الآس ٦٠ ، الابتهاج ٢٢٩ ، مشاهير فاس ، الجذوة ٣٦ – ١٣٨ ، الحوالات الوقفية

٢٤١) ابن عبدون (٦٥٨ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي الأديب الشاعر ، وهو غير عبد المجيد بن عبدون الأندلسي ، قضى وقتاً مهماً في فاس ، وكانت له بها مجالس خَبَر فيها المدينة في موضوعها وشكلها أو طيها وزيها على حد تعبيره في شعره المشهور. الاتحاف ١١١ ص ٥٧٨ – ٥٧٩ ، النبوغ ١٧١.

٢٤٢) المزدغي (٦٦٣ هـ) :

الخطيب أبو القاسم محمد بن الخطيب أبي عبد الله محمد السالف ذكره . كان والده قدمه – بعد حين – للقيام

بمهمة الخطابة واقتصر هو على الإمامة ، فظل ابو القاسم بالقرويين الى ان توفي والده ابو عبد الله (ت ٦٥٥ هـ) ، فولي الإمامة بعده الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن احمد ، واستمر ابو القاسم المزدغي خطيباً الى ان توفي ، ولم ينص لا في الانيس ولا في الآس ولا في الجذوة على تاريخ وفاته ، الانيس ٤٩ – الآس ٦١ – الجذوة ٣٦ .

٢٤٣) الغرناطي (٦٦٣ هـ) :

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مسدي الغرناطي ، انتقل الى مدينة فاس ، وأخذ العلم بها عن جماعة من العلماء، منهم ابو البقاء يعيش بن القديم وأبو محمد بن زيد . الكتاب الذهبي ص ١٦٢ .

٢٤٤) ابن الكماد (٦٦٣ هـ) :

أبو إسحاق إبراهيم بن احمد المعروف بابن الكماد ، روى عن ابي ذر الخشني وابي القاسم بن زانيف وابي عبد الله التجيبي وابي الحجاج بن الشيخ وابي محمد حوط الله وزكي الدين ابي عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن التميمي وابي الصبر ايوب وجماعة غيرهم ، احفظ اهل زمانه ، واعرفهم بالخلاف العالي . كان قيماً على الكتب الخمسة (الجذوة ٨٤) .

٢٤٥) ابن فرتون (٦٦٦ هـ) :

ابو العباس احمد بن إبراهيم بن احمد بن خلف بن الحسن بن الوليد بن فرتون السلمي ، وهو من اهل مدينة فاس بها روى عن ابي ذر الخشني وأبي القاسم عبد الرحيم بن الملجوم وابن عمه عبد الرحمن بن الملجوم ، وهو صاحب (الاستدراك والاتمام) وكتاب الذيل على الصلة (الجذوة ٥٦) .

٢٤٦) المدني (٦٦٦ هـ) :

الخطيب أبو عبد الله محمد بن زيادة الله، وهو غير ابن زيادة الله المزني الذي خطب بتوكيل من الفقيه يشكر المتوفى ٥٧٢ هـ وقد خطب بعد أبي القاسم المزدغي – الانيس ٤٦ – ٤٩ ، الآس ٥٧ – ٦٠ .

٢٤٧) ابن حميد (٦٦٧ هـ) :

الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن حميد ، ولي إمامة الجامع القروي بعد وفاة أبي عبد الله المزدغي ، واستمر الى أواخر العهد الموحدي .. الانيس ص ٤٩ الآس ص ٦٠ .

٢٤٨) ابن ابي زرع (٦٦٧ هـ) :

الخطيب أبو العباس احمد بن ابي زرع الشيخ الفقيه المتقي . استمر في الخطبة سبعين يوماً الى ان صدر ظهير من العاهل المريني الأول أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بتعيين ابن ابي الصبر السالف ذكره خطيباً على منبر القرويين بدل ابي العباس ، الانيس ٤٩ ، الجذوة ٣٦ .

٢٤٩) ابن عشرين (٦٦٧ هـ) :

أبو الحسن علي بن عشرين الفقيه الحجة الحافظ ، من بيت بني عشرين الخزرجيين الذين نبغ فيهم هذا الفقيه

المتمكن الذي اخذ عليه فمهاء المغرب ، كان يحفظ « المدونة » ومن صدره نقلت بعد أن احرقها الموحدون ، ويرو أنه لما نسخت من صدره وإملائه في أول الدولة المرينية قوبلت بنسخة مصححة نجت من الحريق ، فوجدوها هي لا خلاف بينهما — كتاب مشاهير فاس .



فهرست المجلد الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

ملحق للباب الأول

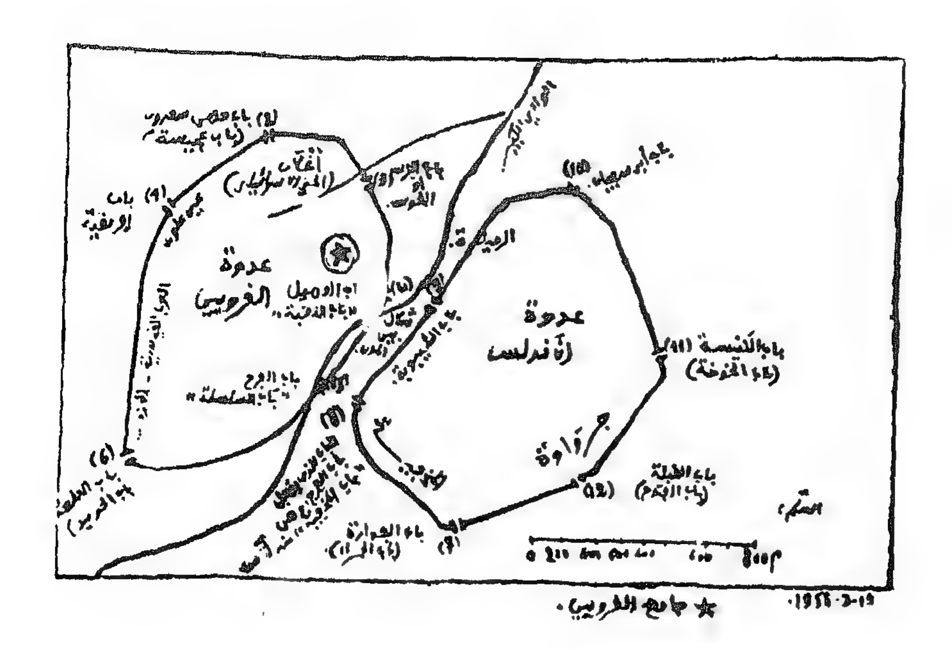
جامع القرويين



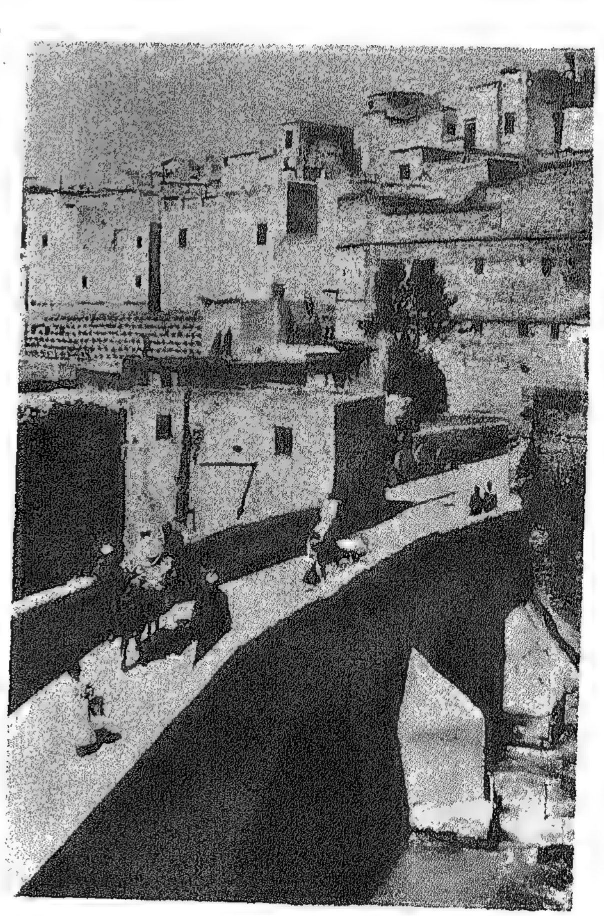
لوحات ورسوم

المجلد الأول

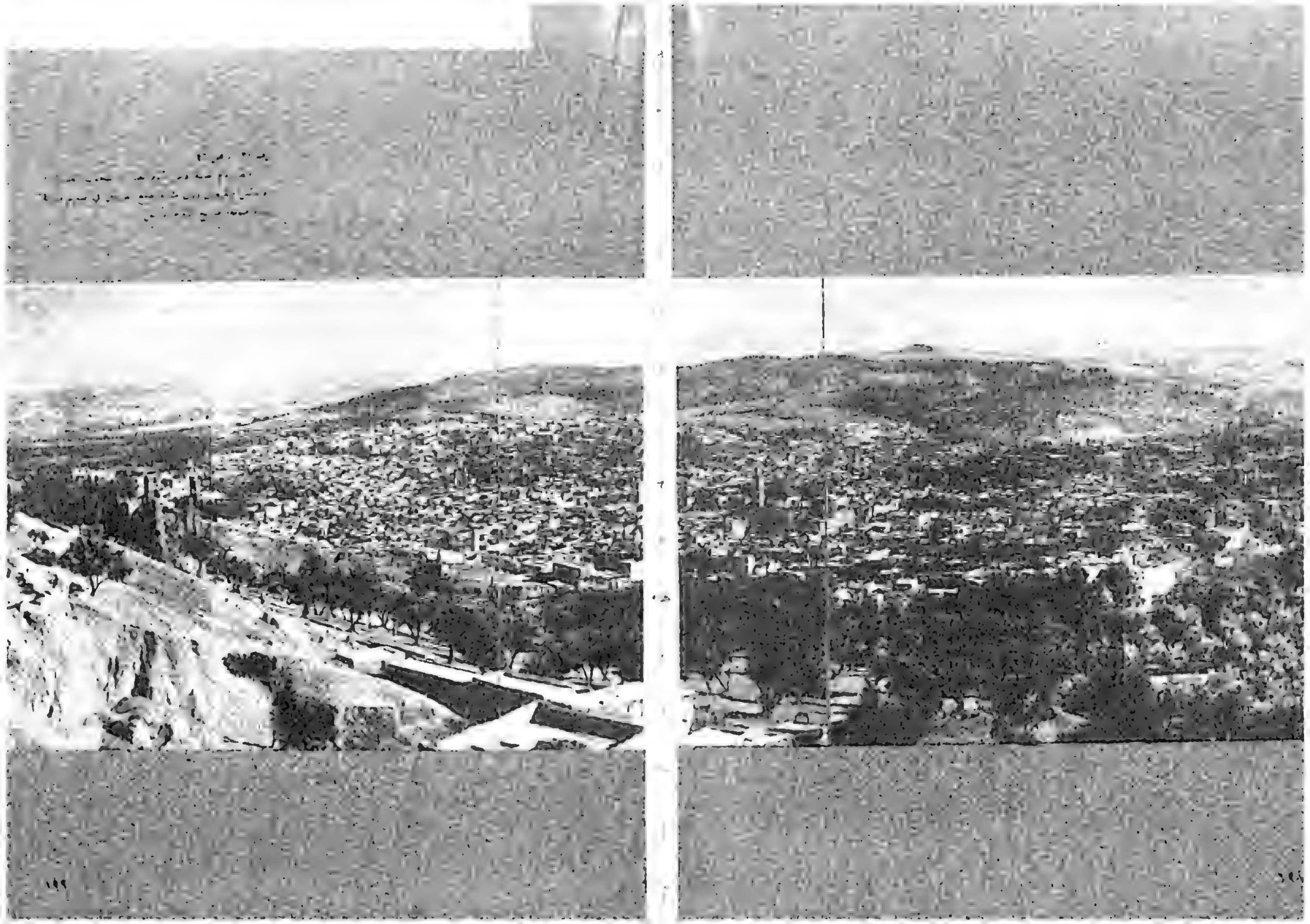
دار الكتاب اللبناني - بيروت

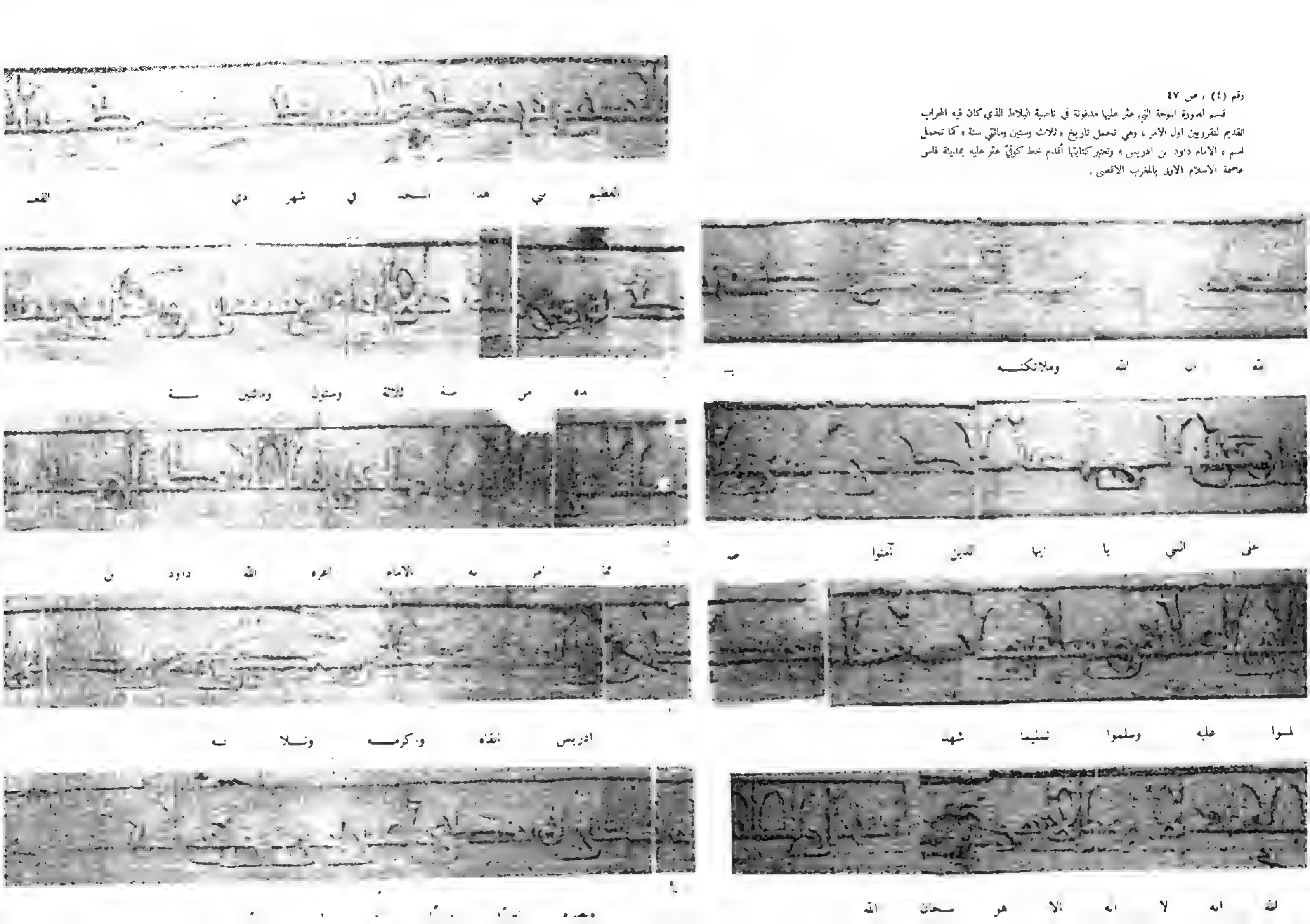


رقم (١) / ص ٤٦
العدوتان : عدوة الاندلس ، وعدوة القرويين ، على عهد الادارسة من خلال الكتب القديمة : القرطاس والآس والجذوة والتحقيقات الحديثة التي قام بها كايار وبروفنصال . . وقد فصل الوادي بين العدوتين ، واشير الى ابواب المدينتين ، وبعض الحارات الهامة كما حدد موقع جامع القرويين في العدوة الغربية بنجمة خماسية .



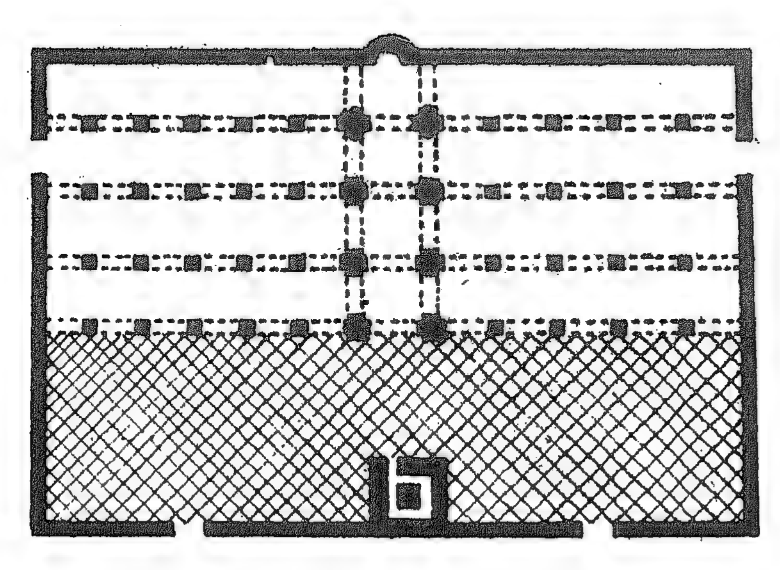
رقم (٢) / ص ٤٦
الجسر الذي كان يجمع بين العدوتين وقد تعرض لعدة ترميمات واصلاحات على ممر العصور ، وهو يحمل اليوم اسم (قنطرة بين المدن) .





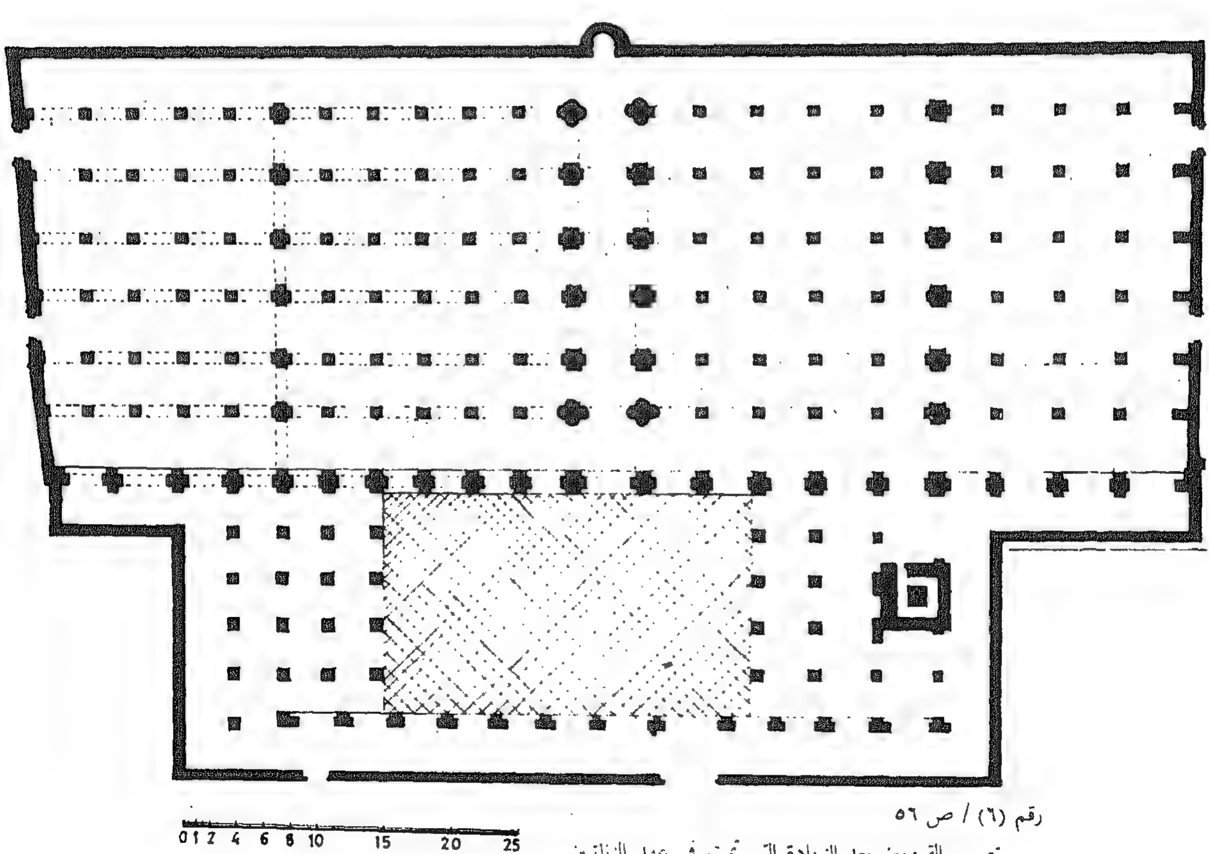
رقم (٤) ، ص ٤٧

قسم الصورة اللوحة التي عثر عليها مدفونة في ناصية البلاط الذي كان فيه المحراب القديم للقرويين اول الأمر ، وهي تحمل تاريخ « ثلاث وستين ومائتي سنة » كما تحمل اسم « الامام داود بن ادريس » وتعتبر كتابتها أقدم خط كوفيّ عثر عليه بمدينة فاس عاصمة الاسلام الاولى بالمغرب الاقصى .



رقم (٥) ص ٤٨

تصميم جامع القرويين على عهد الادارسة وقد كانت من اربع بلاطات كل منها يحتوي على اثني عشرة قوساً يأتي في نهايتها الصحن الاول الذي كان وسطه موقعاً للمئذنة .

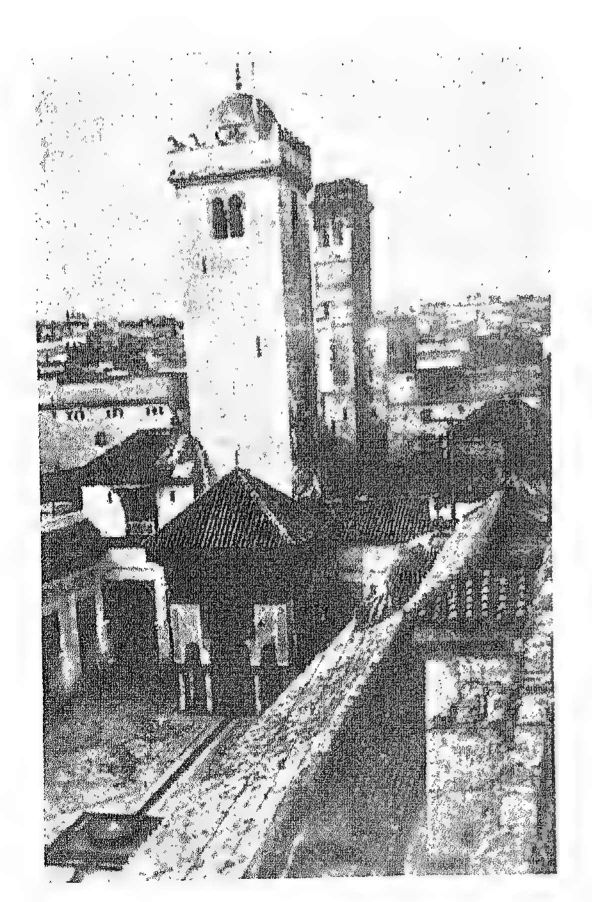


رقم (٦) / ص ٥٦

تصميم القرويين بعد الزيادة التي تمت في عهد الزناتيين . ويلاحظ ان التوسعة شملت الجامع من الجهات الثلاث : الغربية والشرقية والشمالية ، كما يلاحظ ان مكان الصومعة تغير من الوسط الى مكانه الحالي غربي الصحن . . .



رقم (٧) / ص ٥٦
اقدم مئذنة في العالم الاسلامي صمدت الى الآن : صومعة جامع القرويين التاريخية ، الجهة الجنوبية ، ترى في الأعلى نافذتان تحتهما بانحراف فتحة صغيرة مستطيلة ونلاحظ ان طابع المئذنة المغربية يرتكز على التربيع وليس على الاستدارة .

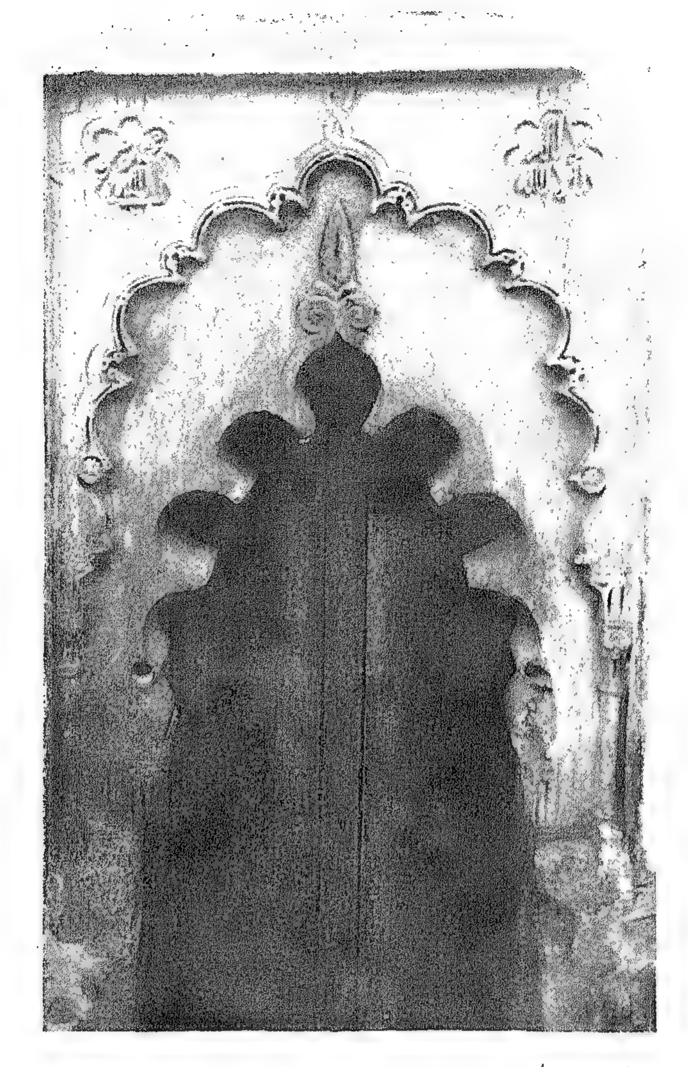


رقم (٨) / ص ٥٧
منظر لمئذنة القرويين من الجهة الشرقية ، نافذتان في الاعلى تحتها بانحراف فتحة صغيرة مستطيلة تليها اخرى ذات اليمين ويلاحظ وراء الصومعة (برج النفار) وهو حديث بالنسبة لتاريخ بناء المئذنة .



رقم (٩) / ص ٥٧

صومعة القرويين من الجهة الغربية ، وتظهر نافذة واحدة ذات قوس بسيط ، والصورة مأخوذة من جهة (برج النفّار) ، وتلاحظ قبة الصومعة على شكل نصف كرة وقد علتها اربع تفاحات متدرجة من صفر تأتي في آخرها بقية من سيف الامام ادريس .

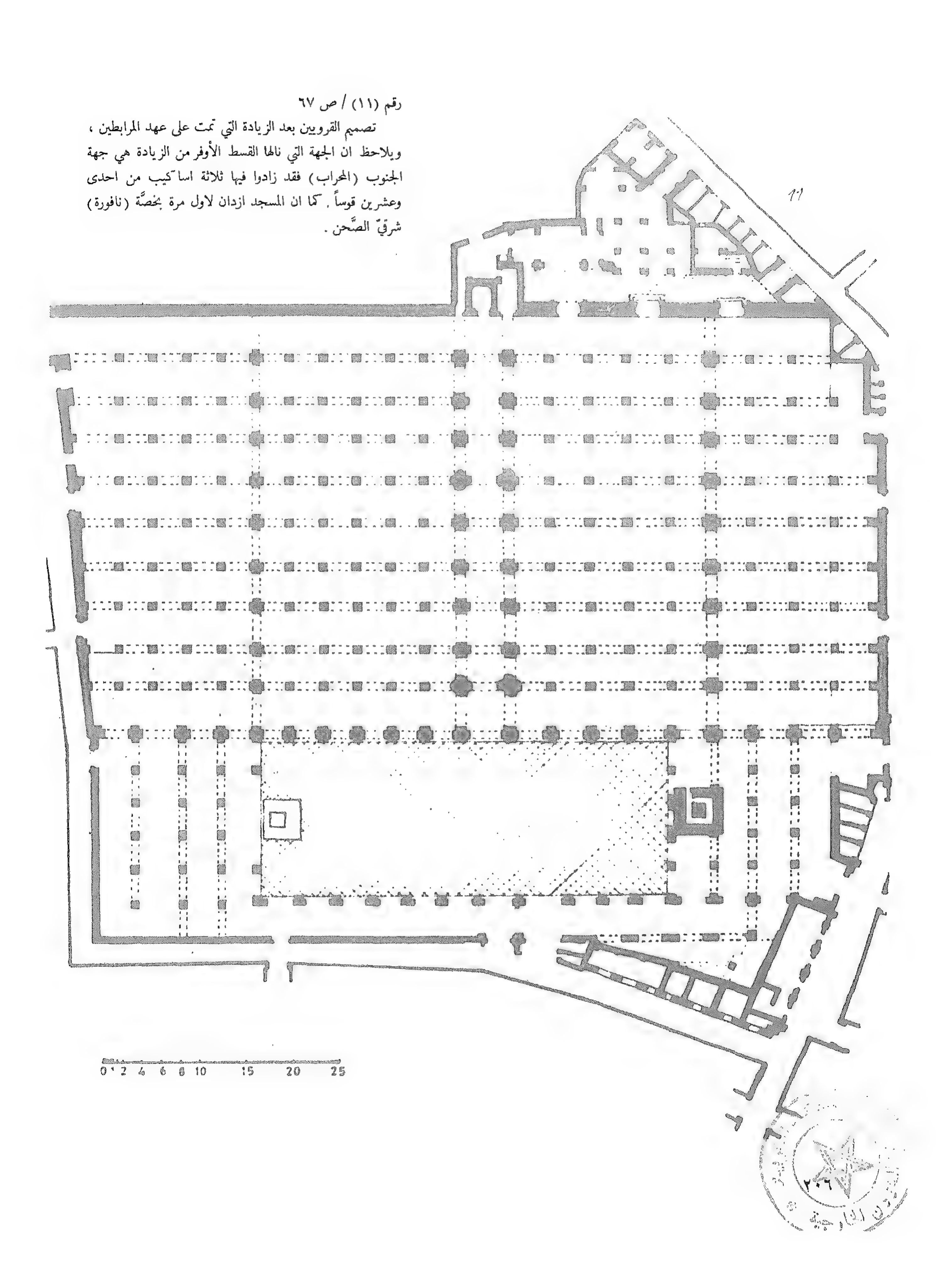


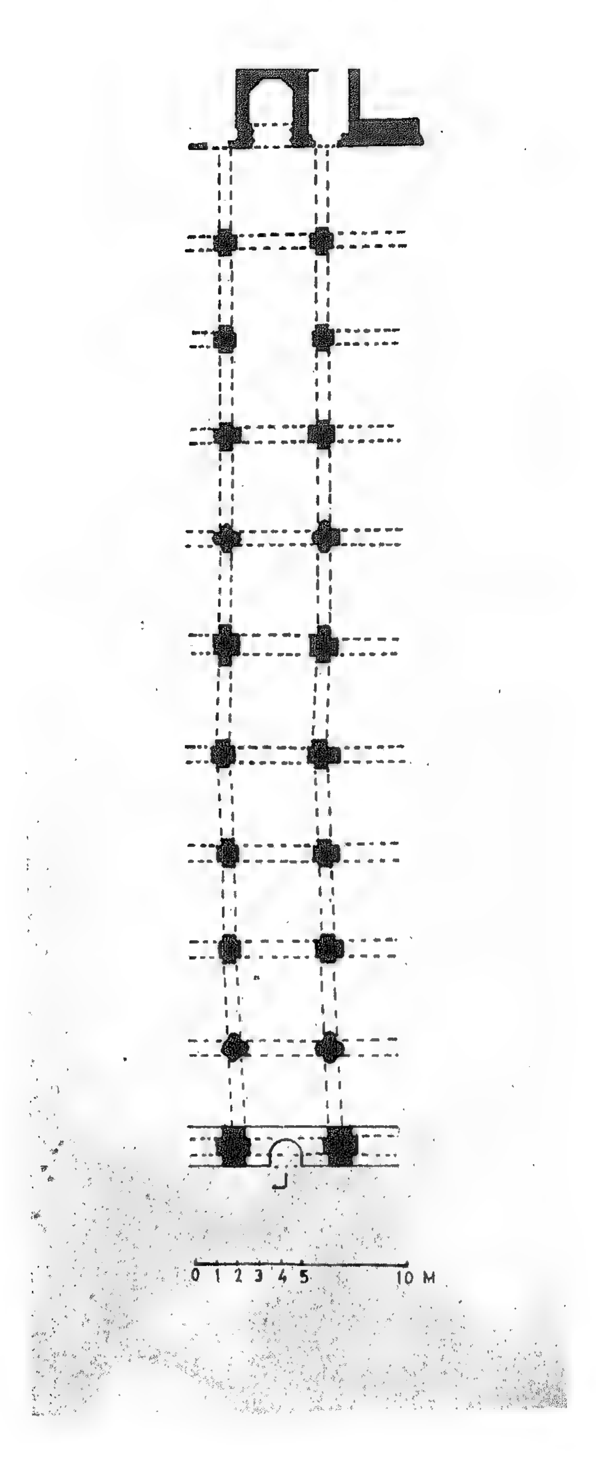
رقم (١٠) / ص ٥٧

الباب القديم للسطح ، وهويقع في الجهة الشرقية للصومعة ، وقد حجبت رؤيته عند بناء الرواق الغربي من قبل السعديين ، لقد نقش على جانبي الباب في الاعلى : لا اله الا الله محمد رسول الله ، عوّض هذا الباب بالذي فتح في غريفة الصومعة واستمر هذا معروفاً فقط من لدن سدنة البيت .

رقم (١١) / ص ٦٧

تصميم القرويين بعد الزيادة التي تمت على عهد المرابطين ، ويلاحظ ان الجهة التي نالها القسط الأوفر من الزيادة هي جهة الجنوب (المحراب) فقد زادوا فيها ثلاثة اساكيب من احدى وعشرين قوساً . كما ان المسجد ازدان لاول مرة بخصّة (نافورة) شرقيّ الصّحن .





رقم (١٢) / ص ٦٧

رسم للبلاط الاوسط في الجامع ، وان ما يلاحظ عليه من بعض الاعوجاج ليدل على ان المرابطين احتفظوا بالقرويين الثانية في اكثر خصائصها العامة . .

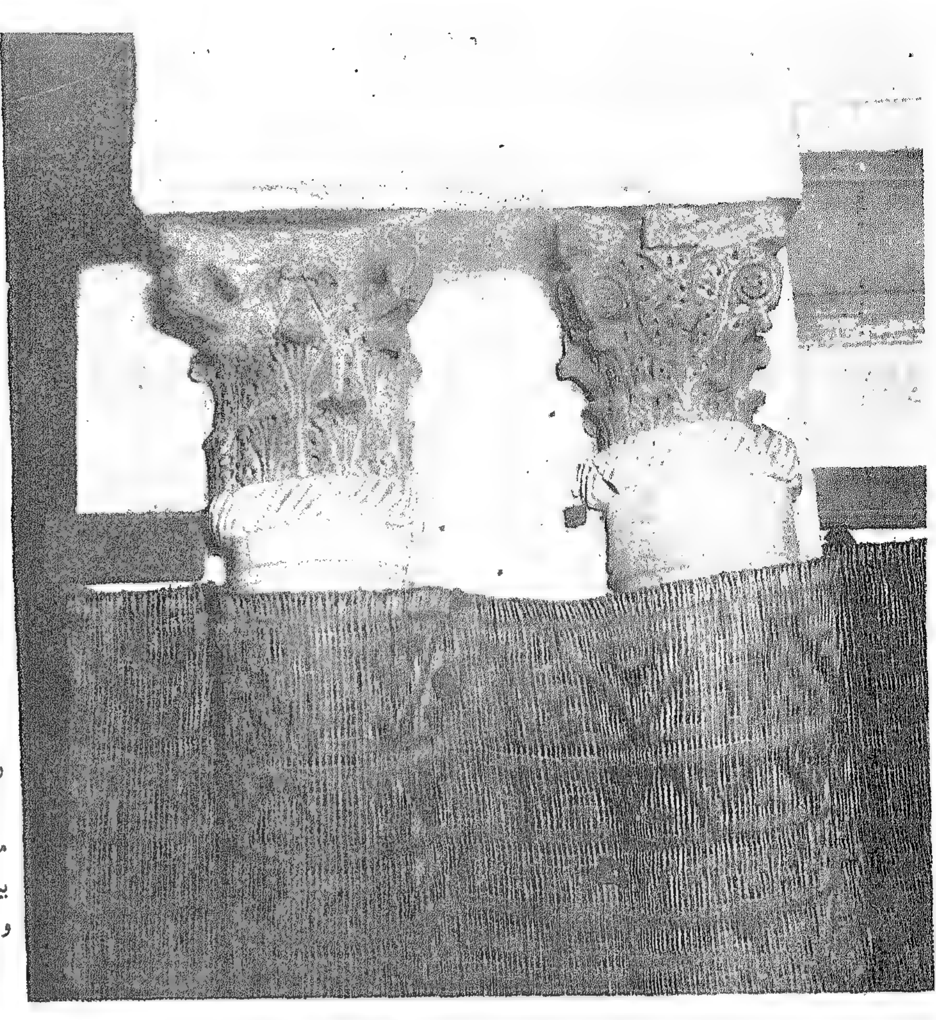


رقم (١٣) / ص ٦٧

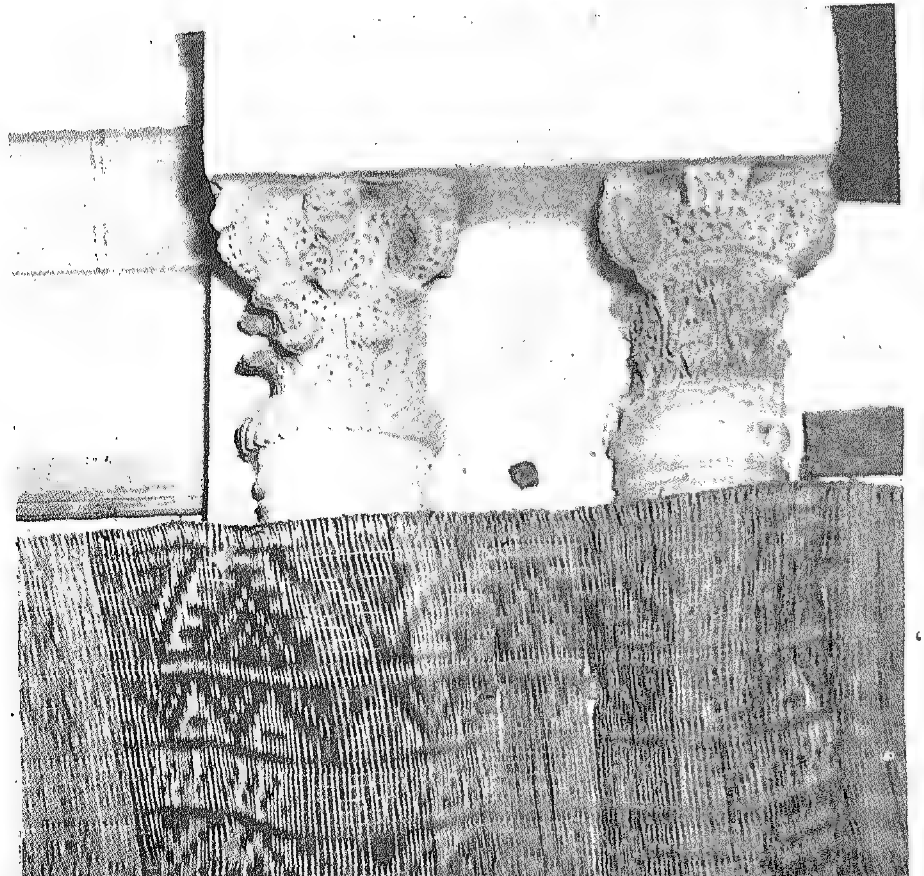
صورة للبلاطات التي شيّدت على عهد الزناتيين. ان السواري لهذا البلاط قصيرة وضخمة كما ترى ..



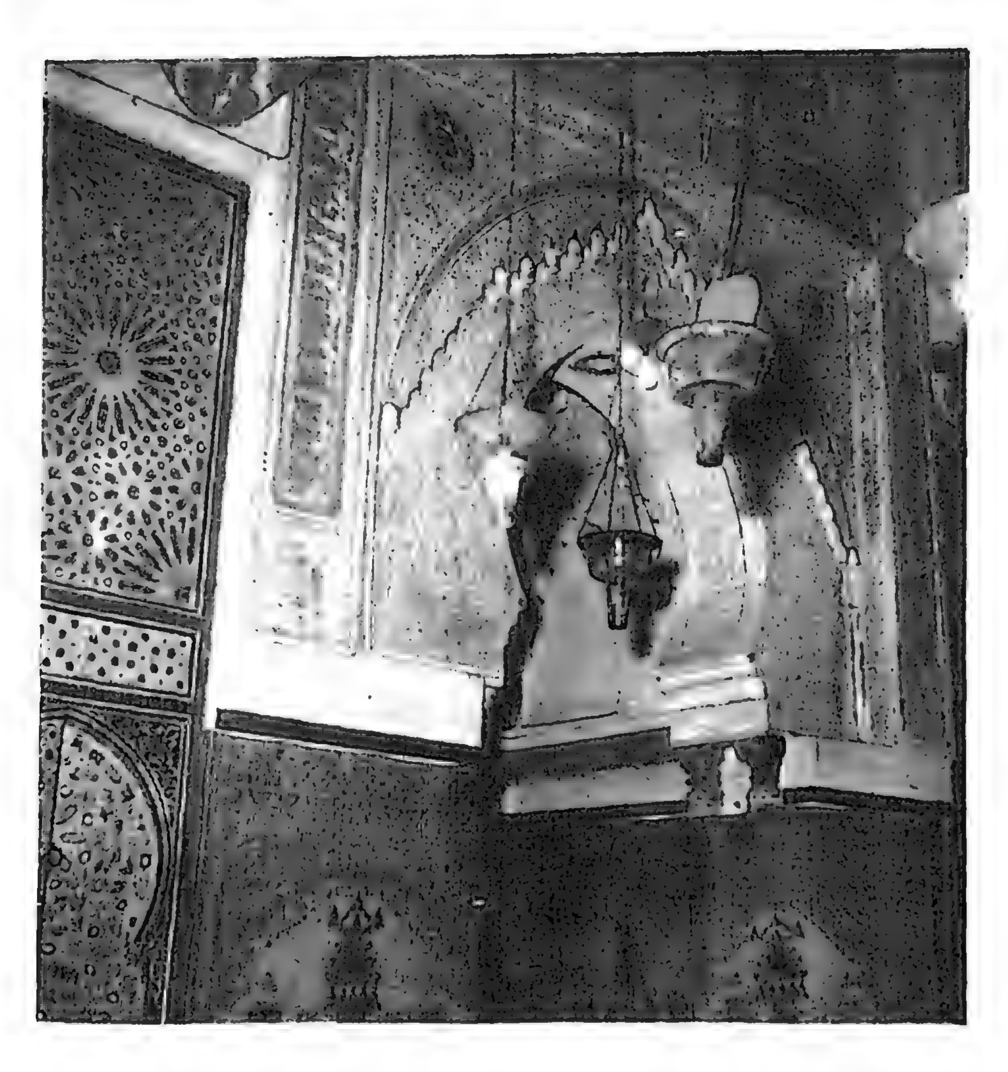
رقم (١٤) / ص ٦٧
صورة للبلاطات التي شيدت على عهد المرابطين- على عكس الحال ايام الزناتيين- طويلة ورشيقة.



رقم (١٥) / ص ٦٧
يوجد عدد من السواري الرخامية حملت مع اكاليلها من الاندلس. لتجميل بعض جهات جامعة القرويين ، ومن بينها اربع توجد على مدخل المحراب الذي بناه المرابطون ، ويلاحظ اثر القدم بادياً على التيجان . . .



رقم (١٦) / ص ٦٧
تاجان رخاميّان يكلّلان الساريتين اللتين على باب المحراب ، وقد نقلا من الاندلس . . . .



رقم (١٧) / ص ٦٩ – ٧٠

جانب من واجهة محراب القرويين وقد ظهرت المصابيح العتيقة ، ويلاحظ باب المقصورة التي يستريح فيها الامام والخطيب قبل خروجهما للصلاة .



رقم (١٨) / ص ٦٩ – ٧٠
جانب من داخل القبة التي تغطي محراب القرويين، وقد كانت ضمن القباب التي طمس الفقهاء معالم فنونها خوفاً من انتقاد الموحدين.



رقم (١٩) / ص ٦٩ – ٧٠
رسم لداخل قبة المحراب قبل ان تزاح عنها اطباق الجبس التي ظلت تكتم انفاس النقوش المرابطية.



رقم (٢٠) / ص ٦٩ - ٧٠
اكتشفت بداخل قبة المحراب اقواس ثمانية نقش على كل منها بالخط الكوفي القديم آيات استطعنا ان نتبيّن منها : « اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر الآيات . . »

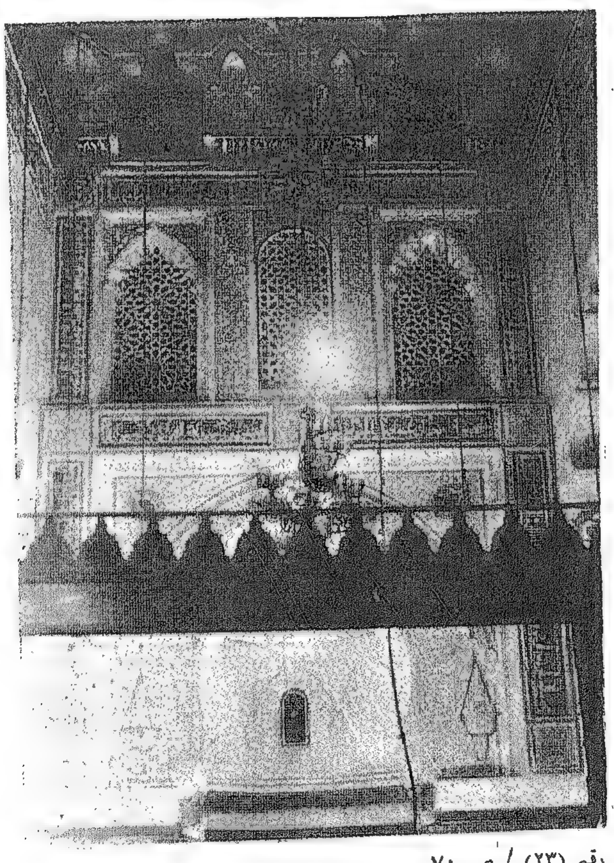


رقم (٢١) / ص ٦٩ - ٧٠
« لقد صدق الله ورسوله . . . » هذا ما يوجد على أحدى الأقواس داخل قبة المحراب . . .



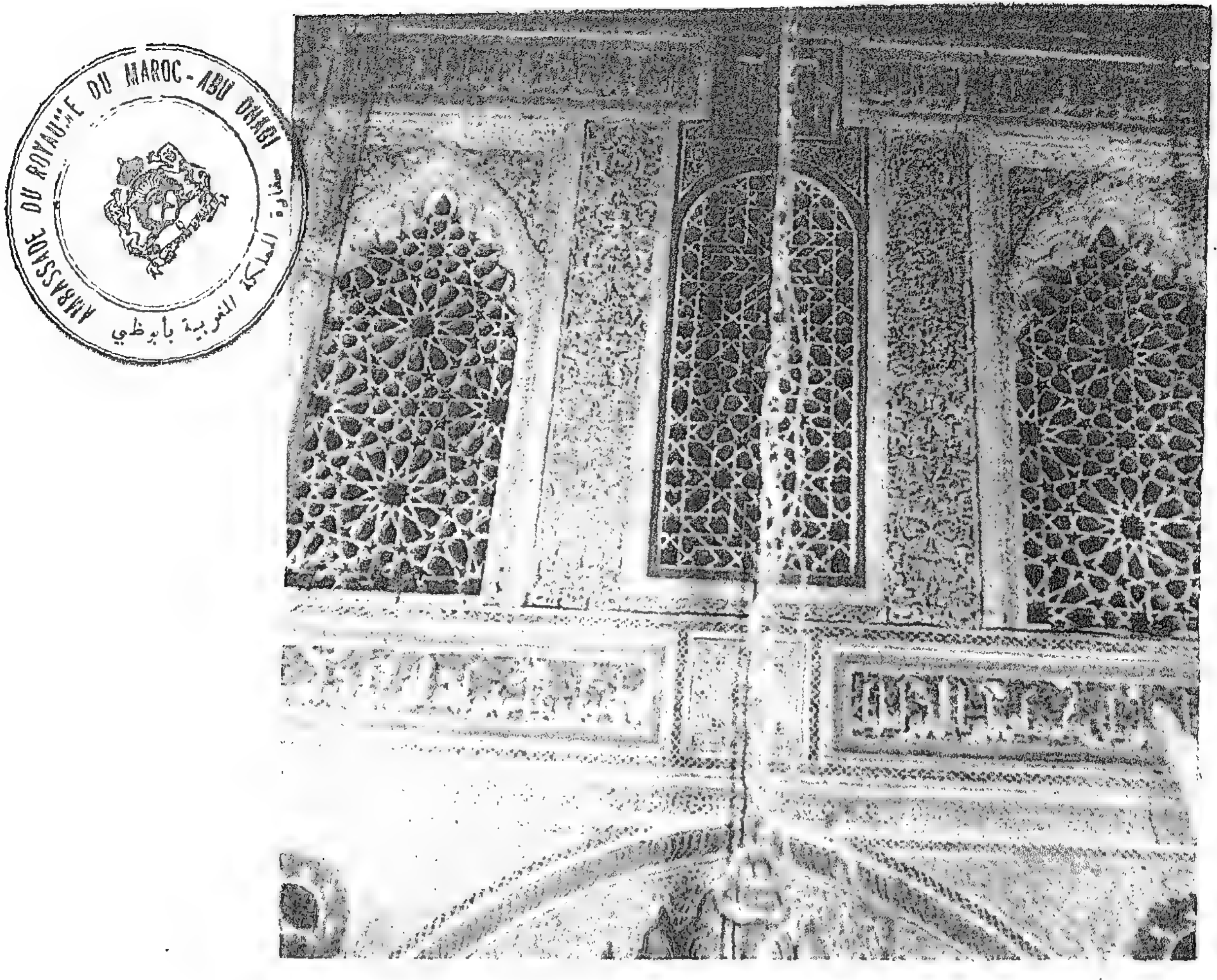
رقم (٢٢) / ص ٦٩ - ٧٠

هذا احد الأقواس الثمانية، وقد نقش عليها : «... دا وقل رب ادخلني مدخل صدق واخـ...»

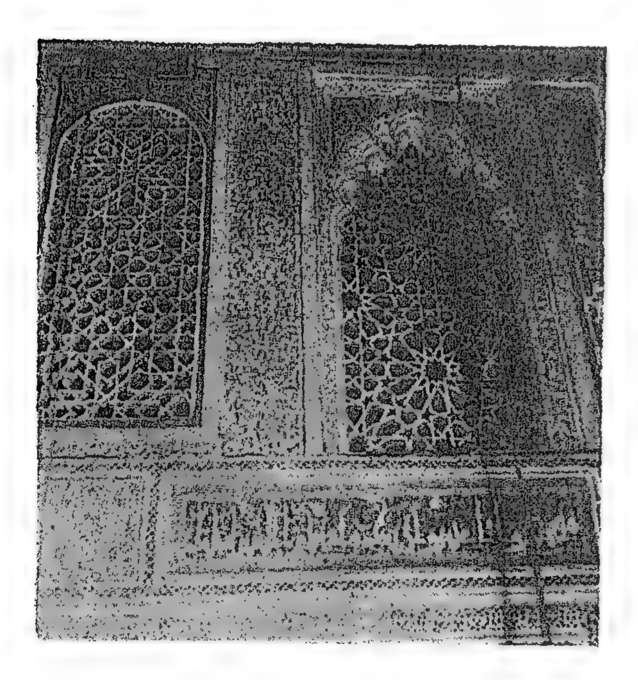


رقم (٢٣) / ص ٧٠

منظر للواجهة التي تعلو باب المحراب وترى الشماسيات الثلاث التي تأتي فوقها شماسيتان حديثتان لادخال الضوء يرجع تاريخهما فقط لبداية عهد العلويين.



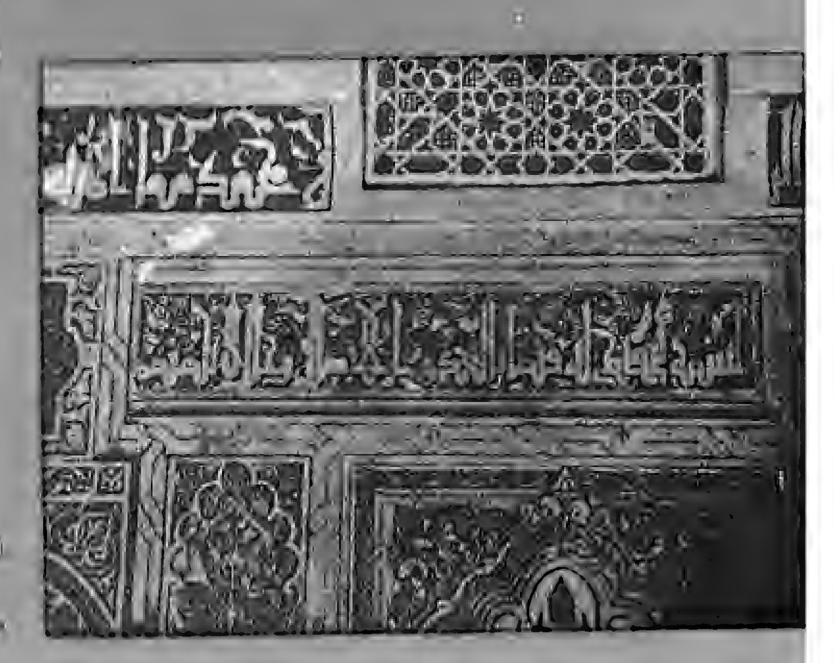
رقم (٢٤) / ص ٧٠
لوحة اكثر تفصيلاً للشماسيات التي تعلو واجهة المحراب .



رقم (٢٥) / ص ٧٠
لقد نقش بالخط الكوفيّ تحت الشماسية اليمنى « اسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . . . »



رقم (٢٧) / ص ٧٠
«الجانب الأسفل من احدى الطبانيتين المحدقتين على عهد
العامريين » وهي الفصل بين كلمة الرحمن وكلمة محمد ..

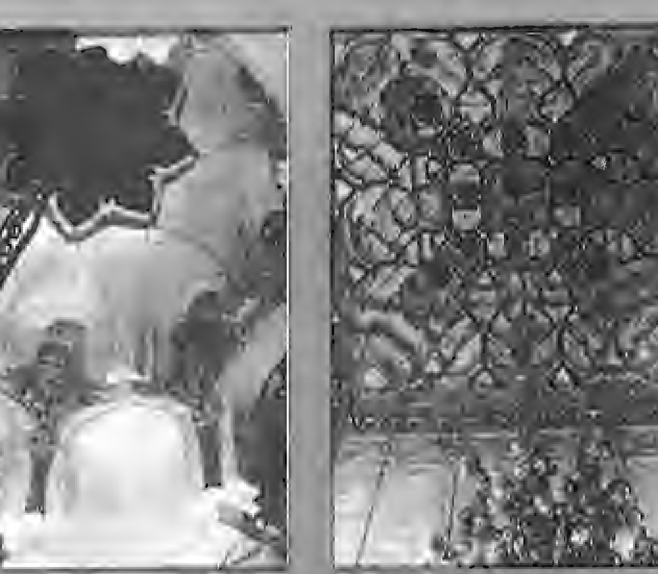


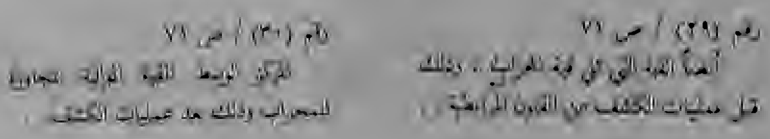
رقم (٢٦) / ص ٧٠
الجانب الأيمن من واجهة المحراب وترى الخطوط الكوفية
« ... وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم . . . »



رقم (٢٨) / ص ٧٠
يمين الشباكين توجد اللوحة التاريخية التي تحمل العبارة التالية (عمل عبد الله بن محمد ، وكمل بحمد الله وحسن عونه في شهر رمضان المعظم احدى وثلاثين وتسع مائة .) من حسن الحظ عدم ضياع اللوحة .







رقم (٢٩) / ص ٧١
أيضاً القبة التي في قبة المحراب ، وذلك قبل عمليات الكشف عن الفنون الزخرفية .

رقم (٣٠) / ص ٧١
المركز الوسط للقبة الموالية المجاورة للمحراب وذلك بعد عمليات الكشف .

رقم (٣١) / ص ٧١
من اللوحات الرائعة التي اكتشفت في القبة الموالية للمحراب خط بالخط الكوفي يحمل كلمة / الحمد لله .



رقم (٣٢) / ص ٧١
الحكم لله





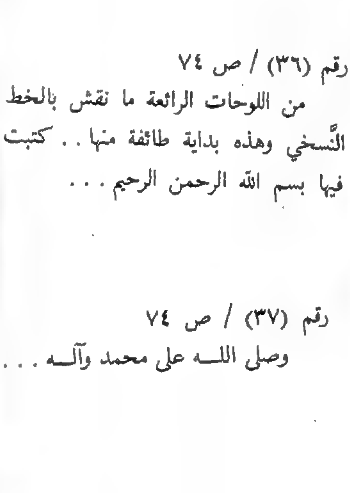
رقم (٣٣) / ص ٧٤
العز للـــه . . .

رقم (٣٤) / ص ٧٤
اليسر باللـــه . . .

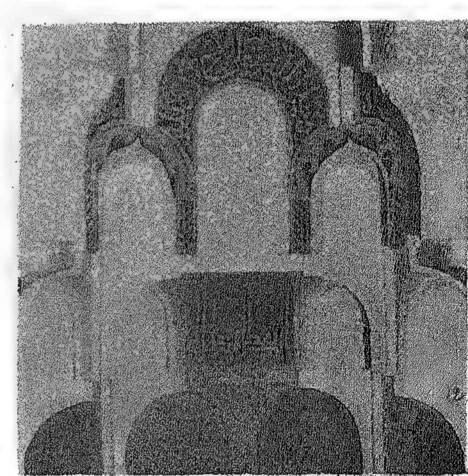




رقم (٣٥) / ص ٧٤
اللـــه اكبر. . .

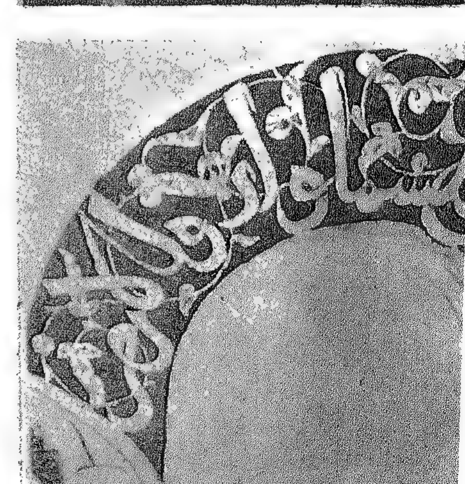


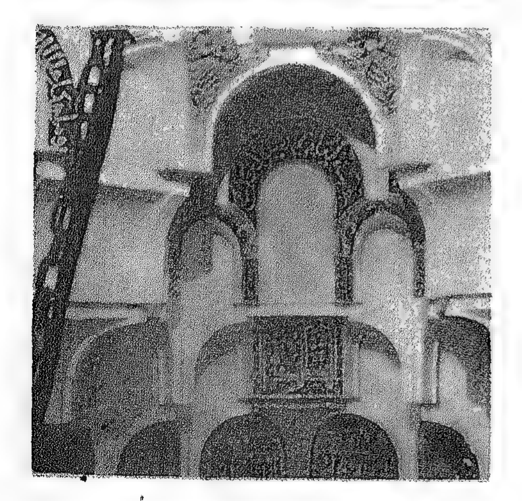
رقم (٣٦) / ص ٧٤
من اللوحات الرائعة ما نقش بالخط النّسخي وهذه بداية طائفة منها . . كتبت فيها بسم الله الرحمن الرحيم . . .



رقم (٣٧) / ص ٧٤
وصلى اللـــه على محمد وآلـــه . . .

رقم (٣٨) / ص ٧٤
وسلم ان ربّكم اللـــه الذي . . .

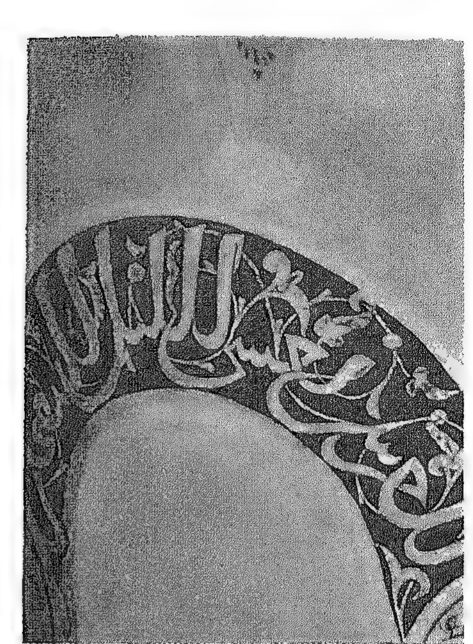




رقم (٣٩) / ص ٧٤
خلق السماوات والأرض . . .

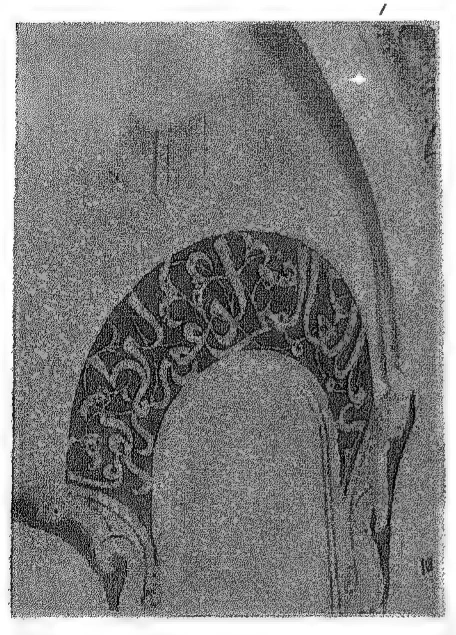
رقم (٤٠) / ص ٧٤
في ستة ايام ثم استوى على . . .

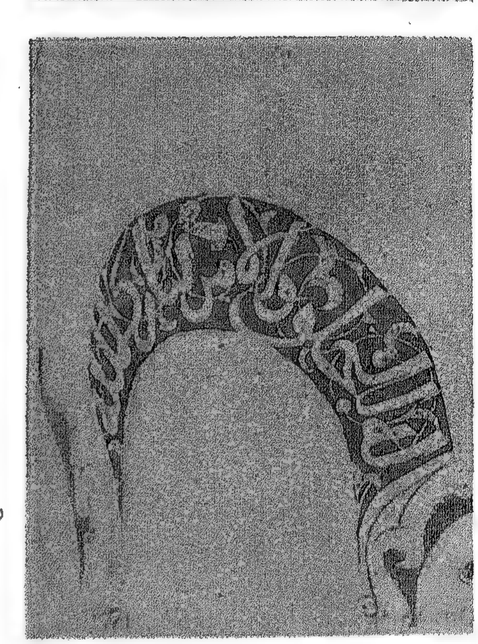




رقم (٤١) / ص ٧٤
العرش يغشي الليل النهار.

رقم (٤٢) / ص ٧٤
يطلبه حثيثا والشمس والقمر

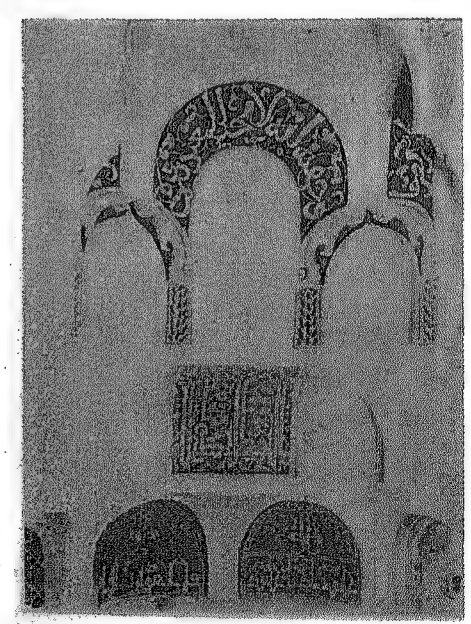




رقم (٤٣) / ص ٧٤
آلا له الخلق والامر تبارك الله

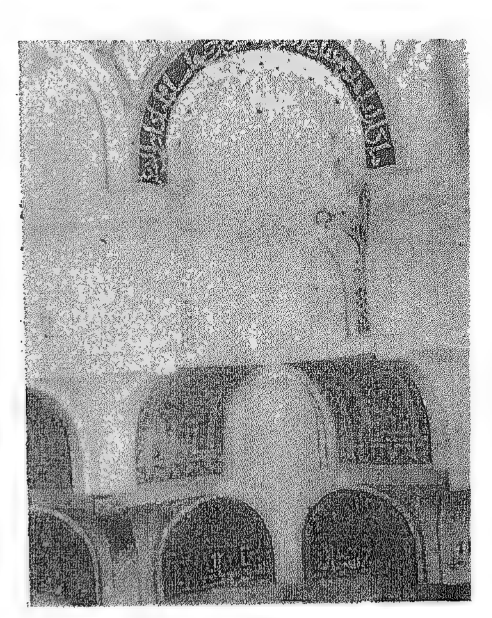
رقم (٤٤) / ص ٧٤
رب العالمين ادعوا ربكم تضرعا





رقم (٤٥) / ص ٧٤
وخفية انه لا يحبّ المعتدين . . .

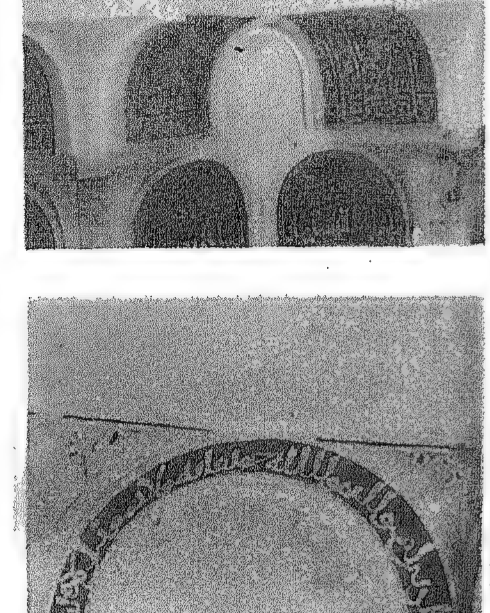
رقم (٤٦) / ص ٧٤
ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها .

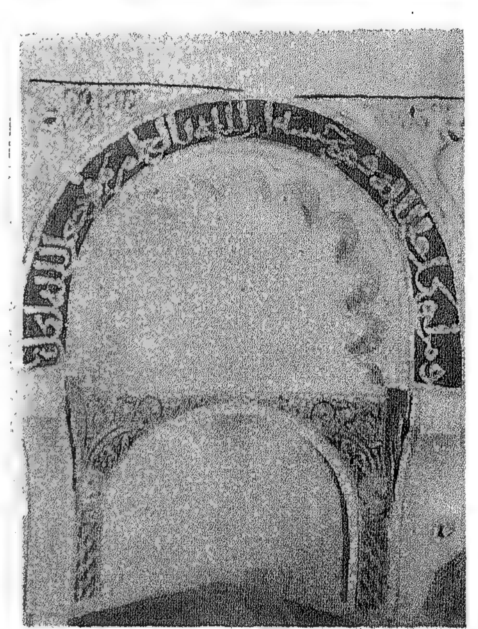




رقم (٤٧) / ص ٧٤
لوحات اخرى من حجم ثان بالخط النسخي كذلك (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين).

رقم (٤٨) / ص ٧٤
ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

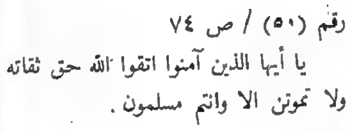


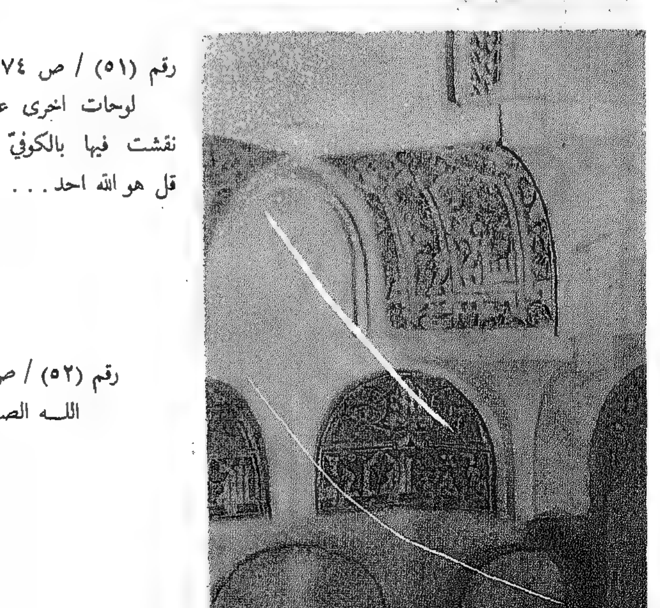


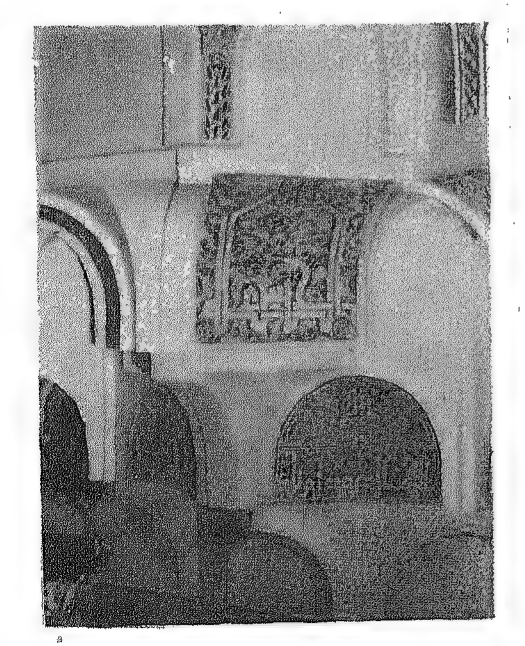
رقم (٤٩) / ص ٧٤
ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدرًا.

رقم (٥٠) / ص ٧٤
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون.



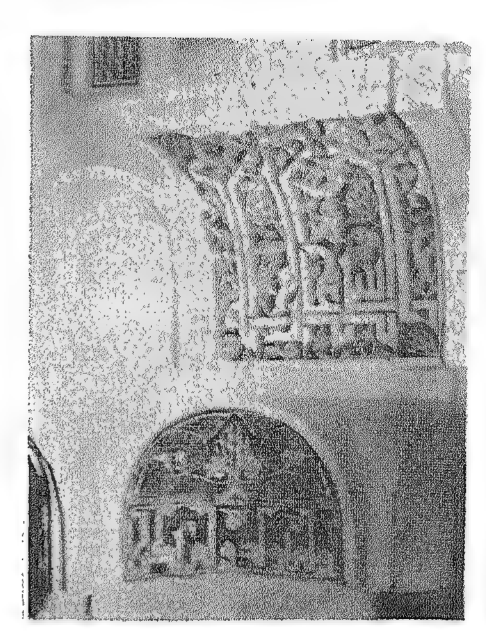






رقم (٥١) / ص ٧٤
لوحات اخرى على شكل قوس وقد نقشت فيها بالكوفيّ سورة الاخلاص: قل هو الله احد...

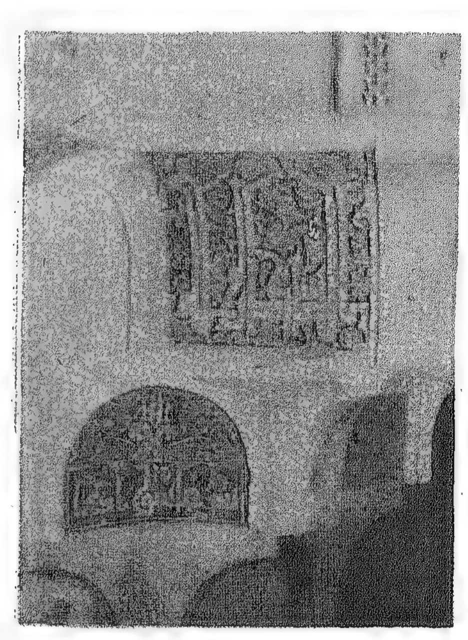
رقم (٥٢) / ص ٧٤
اللـه الصمد لم يلد...

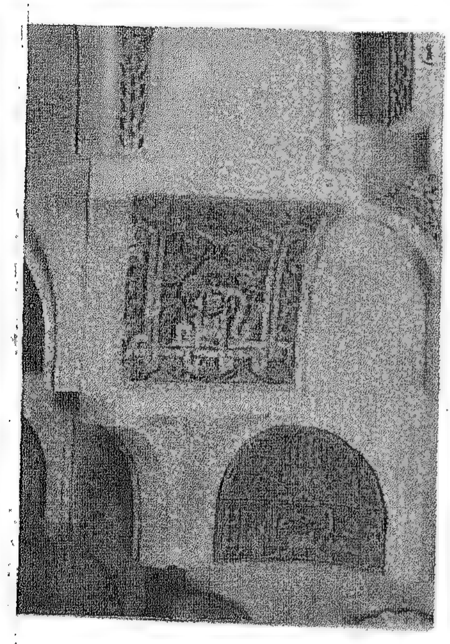




رقم (٥٣) / ص ٧٤
ولم يولد ولم يكن له

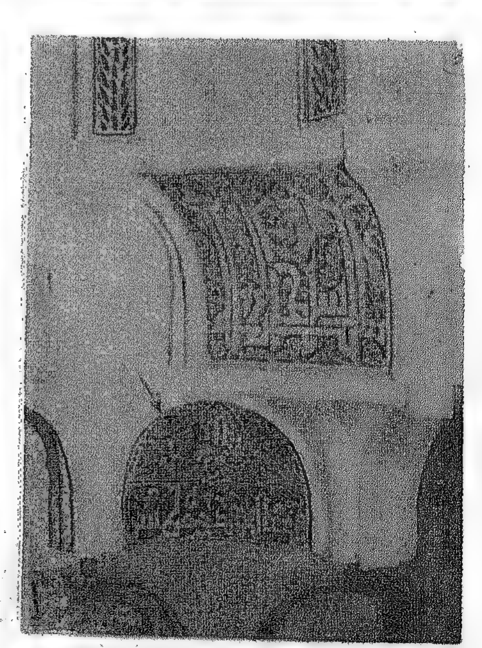
رقم (٥٤) / ص ٧٤
من شرّ ما خلق ومن . . .

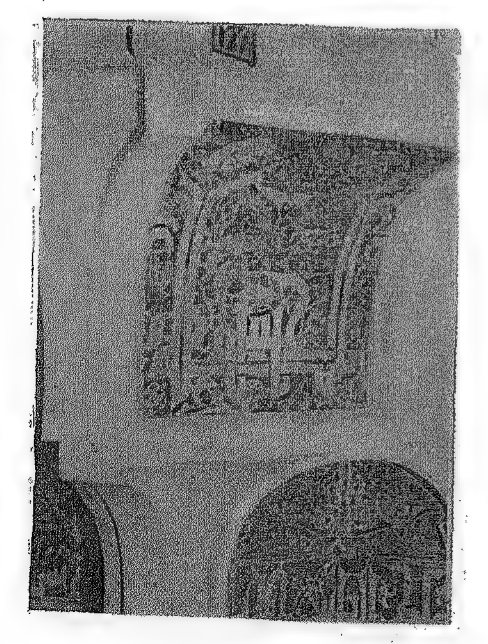




رقم (٥٥) / ص ٧٤
شر غاسق اذا . . .

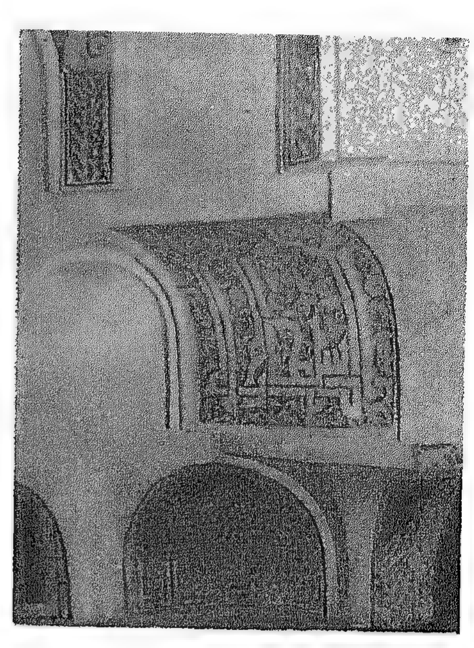
رقم (٥٦) / ص ٧٤
وقب ومن شر النفاثات

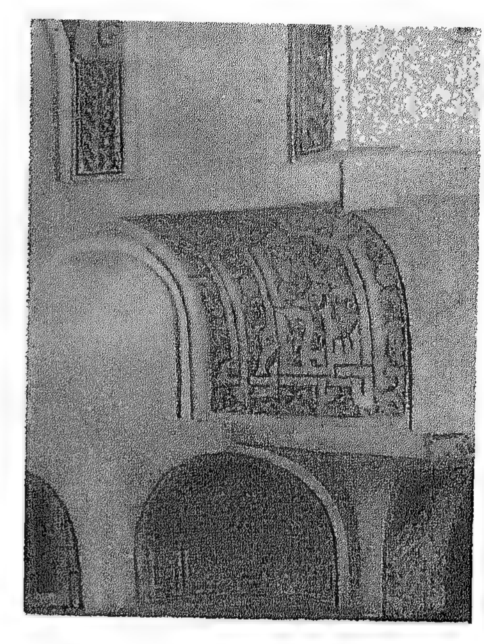




رقم (٥٨) / ص ٧٤
ملك الناس الا الناس

رقم (٥٧) / ص ٧٤
في العقد ومن شر

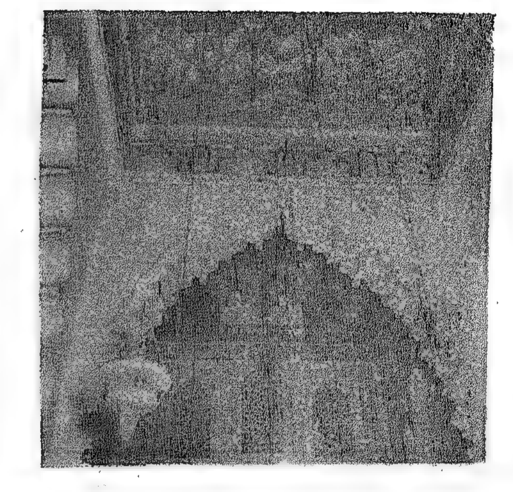




رقم (٥٩) / ص ٧٤
يوسوس في صدور الناس

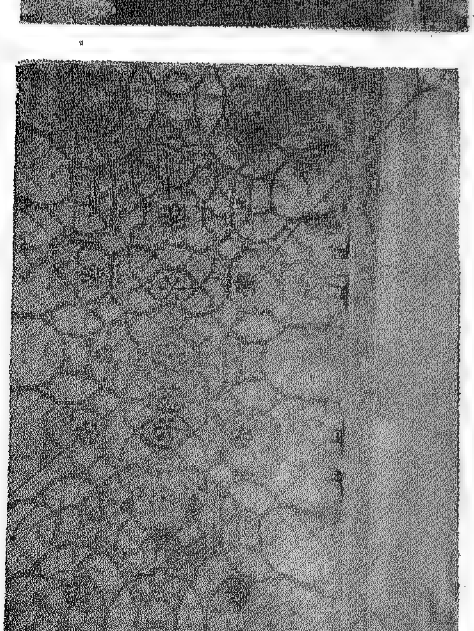
رقم (٦٠) / ص ٧٤
لخلق السموات والأرض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

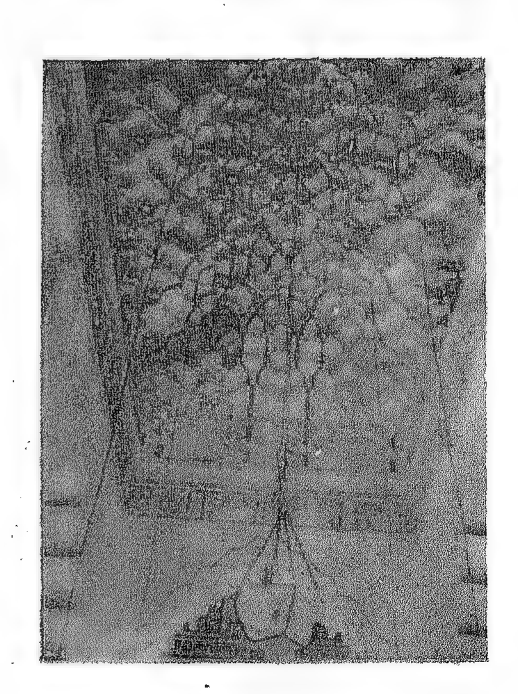




رقم (٦١) / ص ٧٥
بداية القبة الثالثة بعد قبة المحراب والقبة التي تليها .. وتتميز هذه القبة بأنها على شكل مستطيل ، ويظهر جانب منها قبل عمليات الكشف . .

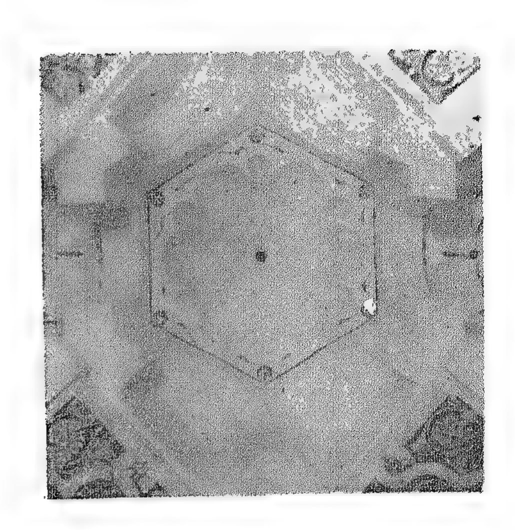
رقم (٦٢) / ص ٧٥
جانب اكثر اتساعا من القبة المستطيلة قبل عمليات الكشف . . .





رقم (٦٣) / ص ٧٥
أيضاً القبة المستطيلة قبل عمليات التنقيب .

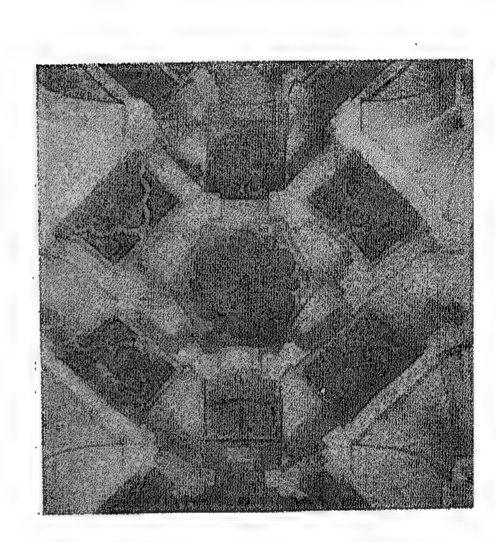
رقم (٦٤) / ص ٧٥
منظر يستوعب سائر القبة المستطيلة على نحو ما تركها عليه الفقهاء بعد تلبيسها وتغطيتها . . .



رقم (٦٥) / ص ٧٥
زاوية من زوايا القبة المستطيلة .

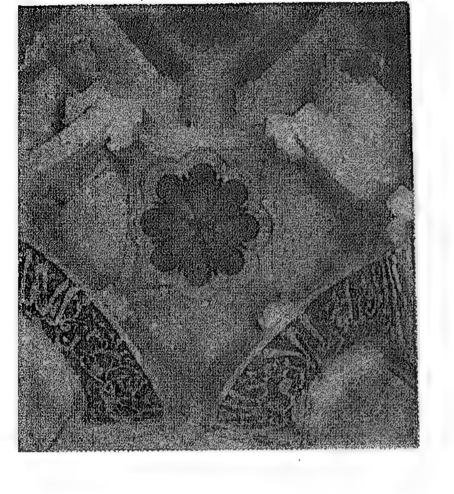
رقم (٦٦) / ص ٧٥
قبيبة مفصّصة على قمة المقرنصات في القبّة المستطيلة .

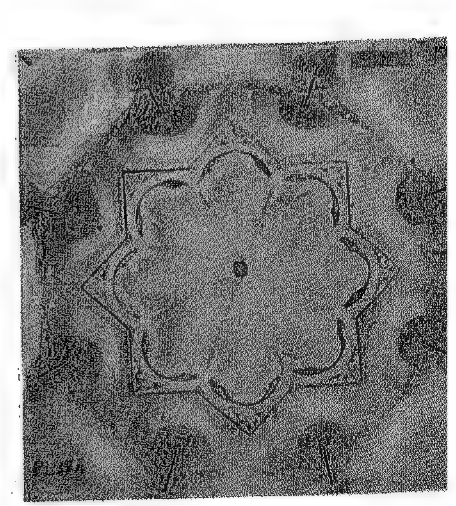


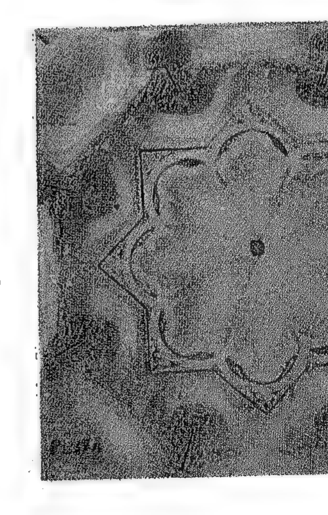


رقم (٦٧) / ص ٧٥
جانب واضح من القبة المستطيلة وقد اخذ قبل عمليات الكشف وتلاحظ طبقات الجبس تغطّي الفنون المرابطية .

رقم (٦٨) / ص ٧٥
لوحة اخرى من السقف المركزي للقبة المستطيلة .







رقم (٦٩) / ص ٧٥
لوحة اخرى من التي ازيحت عنها طبقات الجبس التي كانت تكتم انفاسها .

رقم (٧٠) / ص ٧٥
جانب من السّعفات التي تحيط باحدى النجوم السداسية التي يزدان بها سقف القبة المستطيلة وتلاحظ لوحة مربعة تحت السعف وقد نقش عليها بعض آية شريفة .





قم (٧١) / ص ٧٢

ـ عشرات نقشها الفنّانون
ـي سقف المسجد .



رقم (٧٢) / ص ٧٢

بعد ان اخذت عمليات الكشف تزيح عن اللوحات غشاوتها ، يقرأ بالخط النّسخي البسملة والصلاة على النبي ، كما يقرأ في لوحتين اخريين تحت (غفرانك ربنا واليك المصير . . وبالكوفي رسم على لوحة اخرى (العظمة لله) .



رقم (٧٣) / ص ٧٢
بالخط النسخي فوق (القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم.. وتحت (لها ما كسبتِ) وبالخط الكوفي (العظمة لله)..



رقم (٧٤) / ص ٧٢

ركن من اركان القبة المستطيلة :
وقد نقش بالخط الكوفي (العظمة
لله) .



رقم (٧٥) / ص ٧٢

« ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى . . »
(ورسله لا نفرق بين احد) وبالكوفي
(توفيقي بالله . . .)



رقم (٧٦) / ص ٧٢
وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه / ربنا لا تواخذنا . .



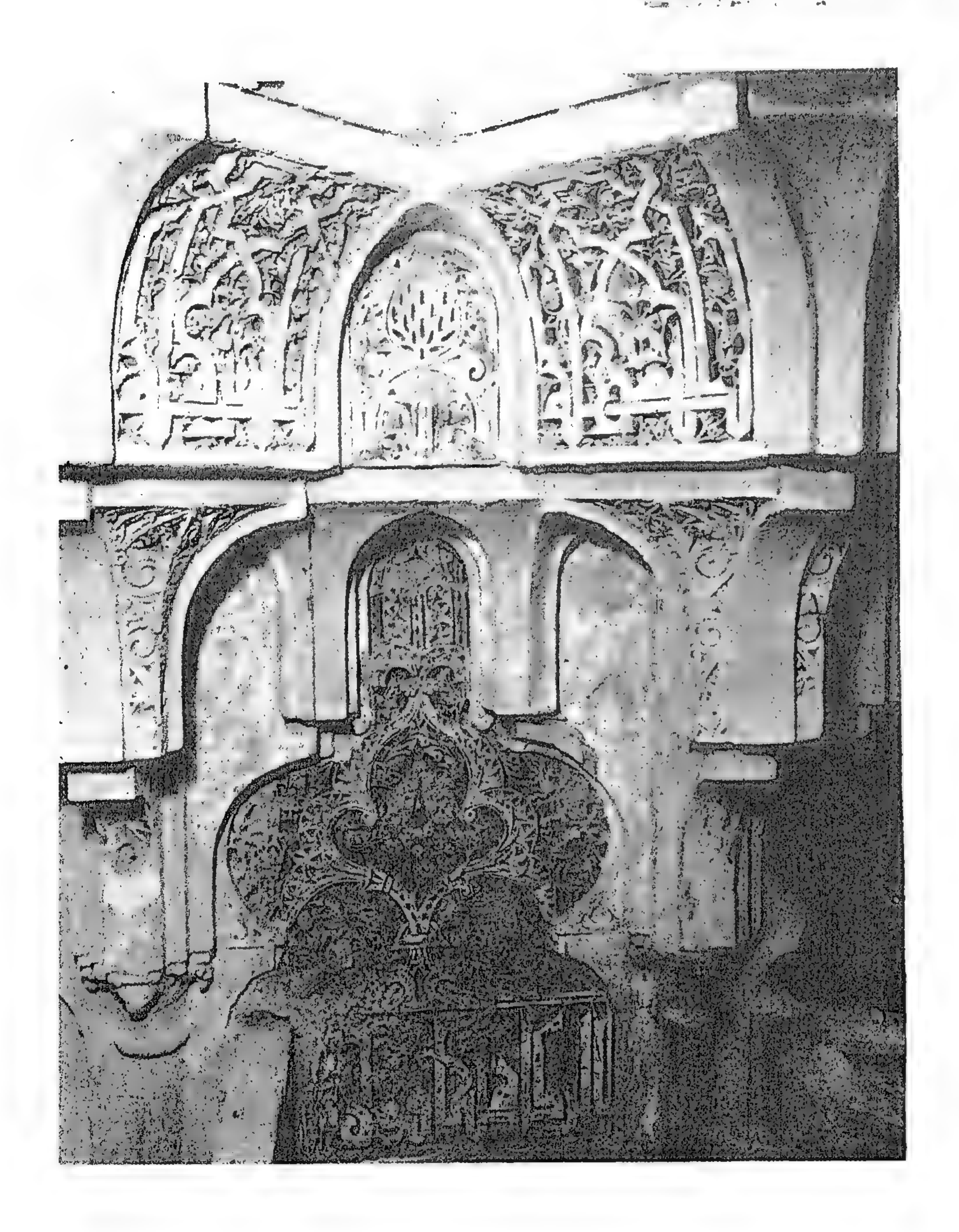
رقم (٧٧) / ص ٧٢
البقاء لله – العزة لله



رقم (٧٨) / ص ٧٢
تحت اللوحتين بالكوفي : الملك لله – القدرة لله توجد لوحة تاريخية نقش فيا : (من عمل ابراهيم بن محمد رحم الله امرأً دعا له بالرحمة) .

رقم (٧٩) / ص ٧٢
تحت النقش التاريخي : صلى
الله على محمد النبي . . .

رقم (٨٠) / ص ٧٢
لوحة اخرى نقش تحتها :
(الزكاة ، يخافون) .



رقم (٨١) ص ٧٢
لوحة حوى نقش الجنة
ووحد الله

رقم (٨٢) ص ٧٢
الناس ... صدق الله



رقم (٦٣) / ص ٧٢
العزة لله – الملك لله .



رقم (٦٤) / ص ٧٢
البقاء لله – العزة لله .

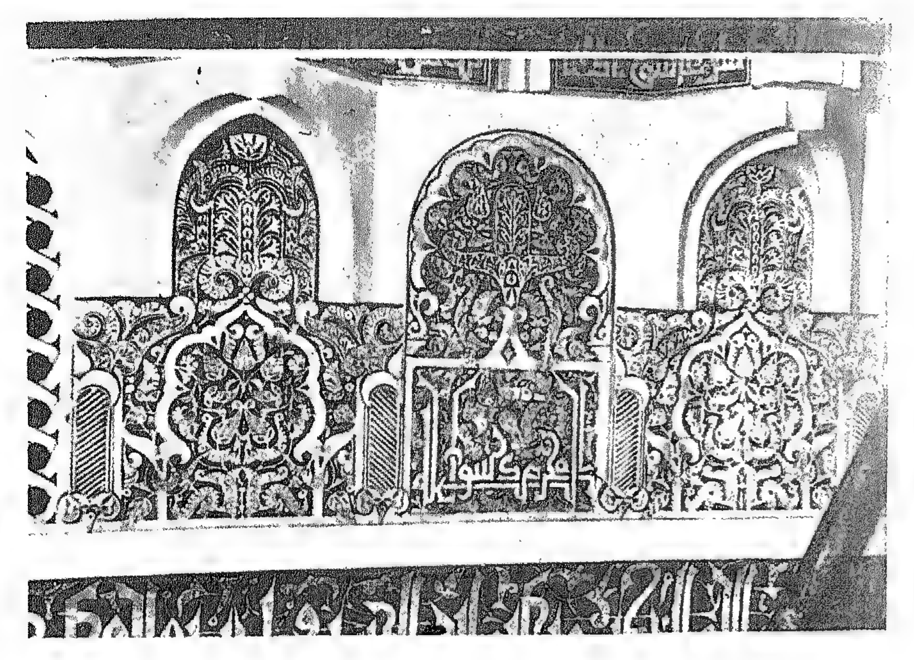


رقم (٨٥) / ص ٧٢
احد زوايا القبة المستطيلة بعد
عمليات الكشف .

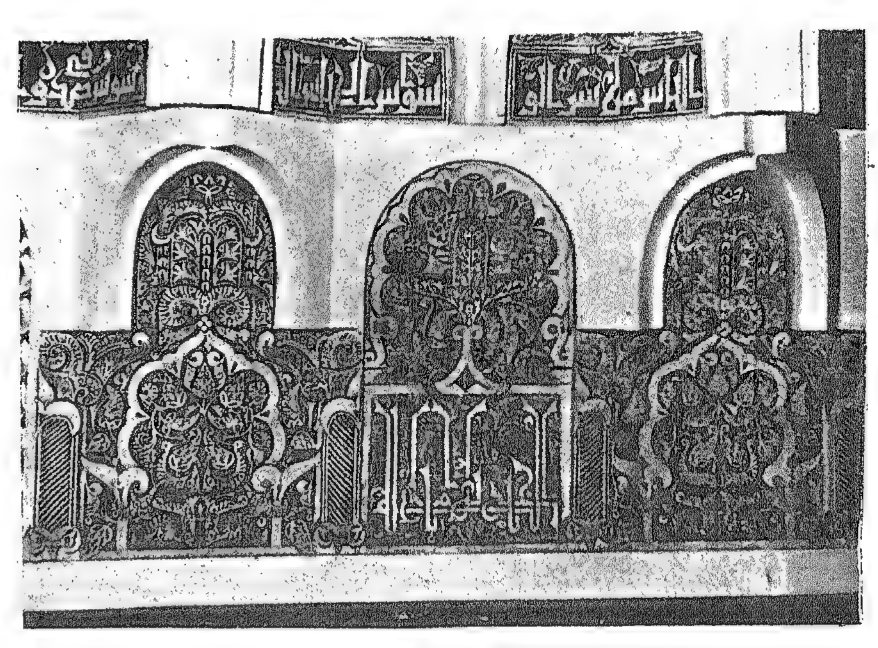


رقم (٨٦) / ص ٧٢

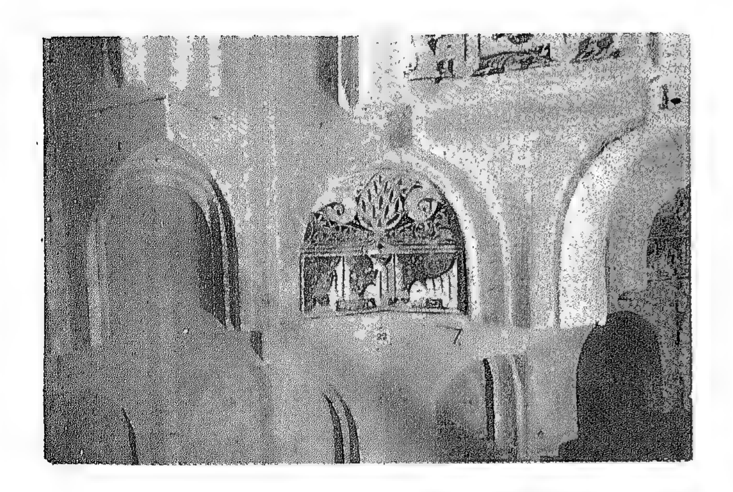
لوحة مكتملة رائعة لبعض جهات القبة المستطيلة وهي تجمع بين عدد من انواع الخطوط . في اسفلها حزام بالكوفي يحمل اسم العاهل المرابطي واسم القاضي ابن معيشة .



رقم (٨٧) / ص ٧٢
لوحة اخرى من القبة المستطيلة .



رقم (٨٨) / ص ٧٢
لوحة اخرى وهي تختلف عمّا سبقها . . .



رقم (٨٩) / ص ٧٢
هذه لوحات اخرى على شكل اقواس وقد نقش عليها بالخط الكوفي سورة الاخلاص والمعوذتين . . بسم الله الرحمن . . .



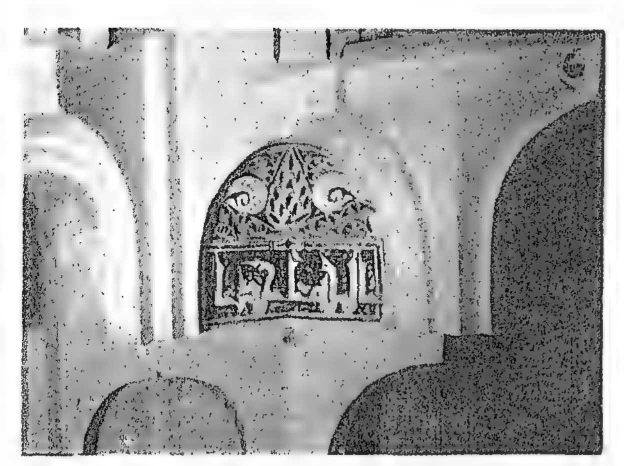
رقم (٩٠) / ص ٧٢
الرحيم وصلى الله على



رقم (٩٣) / ص ٧٢
اجمعين وسلم تسليما قل هو



رقم (٩١) / ص ٧٢
محمد النبي الكريم وعلى آله .



رقم (٩٤) / ص ٧٢
الله أحد



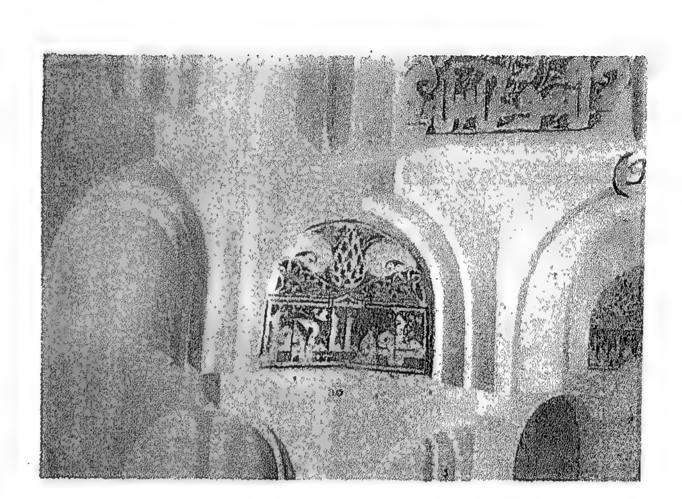
رقم (٩٢) / ص ٧٢
الطيبين الأكرمين



رقم (٩٥) / ص ٧٢
الله الصّمد



رقم (٩٦) / ص ٧٢
لم يلد ولم يولد ولم يكن له



رقم (٩٧) / ص ٧٢
كفوًا احد / قل



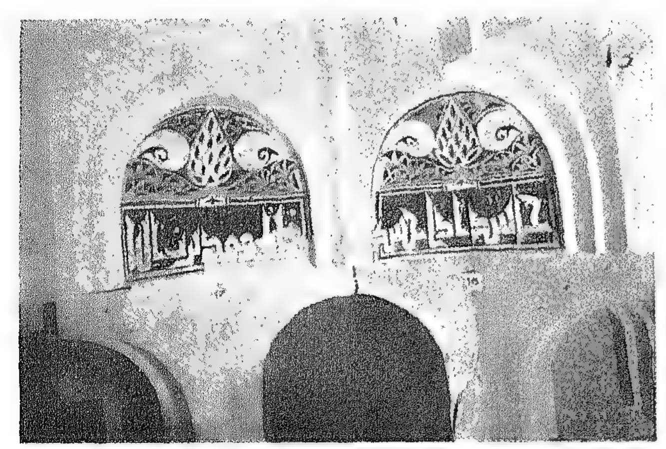
رقم (٩٨) / ص ٧٢
أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن



رقم (٩٩) / ص ٧٢
شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات



رقم (١٠٠) / ص ٧٢
في العقد ومن شرّ



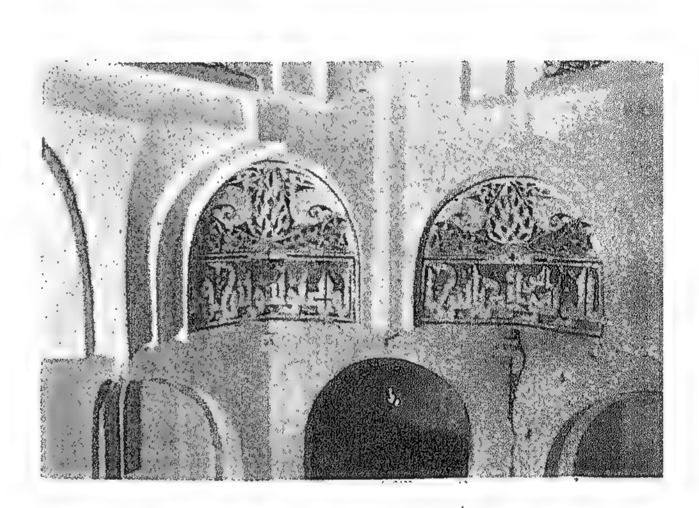
رقم (١٠١) / ص ٧٢
حاسد اذا حسد / قل اعوذ برب النا



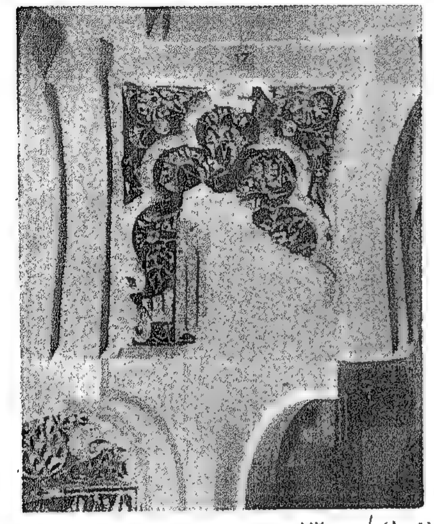
رقم (١٠٢) / ص ٧٢
س ملك الناس



رقم (١٠٣) / ص ٧٢
اله الناس من شر



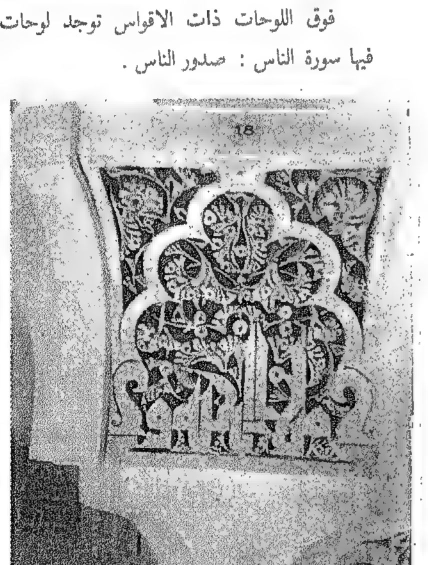
رقم (١٠٤) / ص ٧٢
الوسواس الخناس الذي يوسوس
في . . .



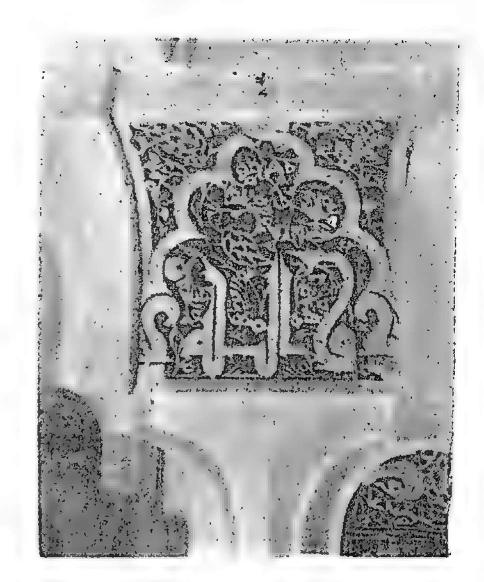
رقم (١٠٥) / ص ٧٢
فوق اللوحات ذات الاقواس توجد لوحات مربعة كملت فيها سورة الناس : صدور الناس .



رقم (١٠٦) / ص ٧٢
من الجنة و . . .



رقم (١٠٧) / ص ٧٢
الناس صد



رقم (١٠٨) / ص ٧٢
ق الله . . .



رقم (١١١) / ص ٧٢
لوحات اخرى نقشت عليها
آية شريفة : ومن يتوكل . . .



رقم (١٠٩) / ص٧٢
لا اله . . .



رقم (١١٢) / ص ٧٢
على الله



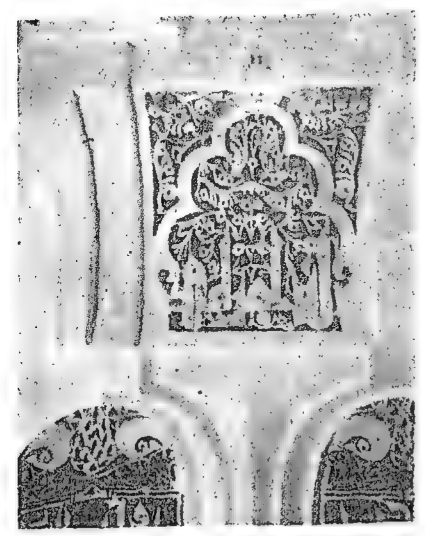
رقم (١١٠) / ص ٧٢
الاّ الله .



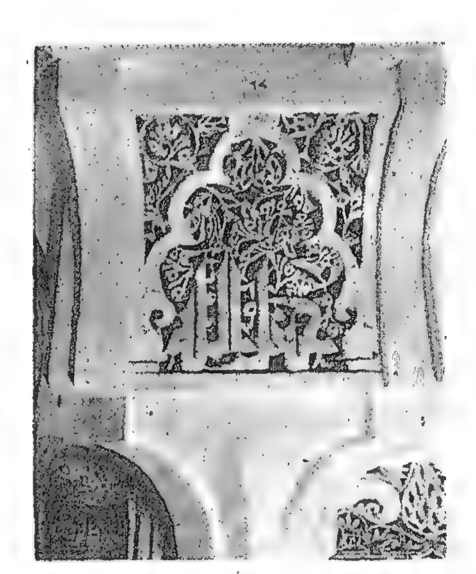
رقم (١١٣) / ص ٧٢
فهو حسبه



رقم (١١٤) / ص ٧٢
ان الله بسا



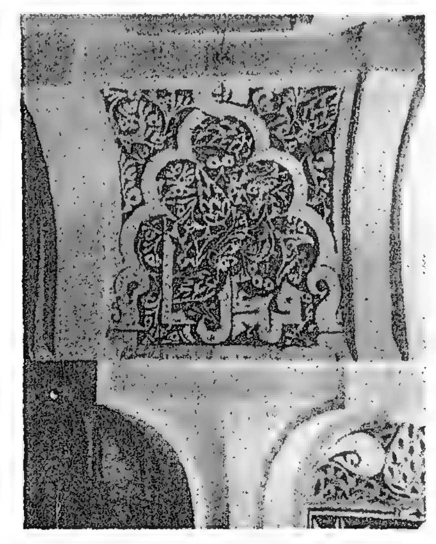
رقم (١١٥) / ص ٧٢
لغ أمره قد



رقم (١١٦) / ص ٧٢
جعل الله



رقم (١١٧) / ص ٧٢
لكل شيئ



رقم (١١٨) / ص ٧٢
قدراً



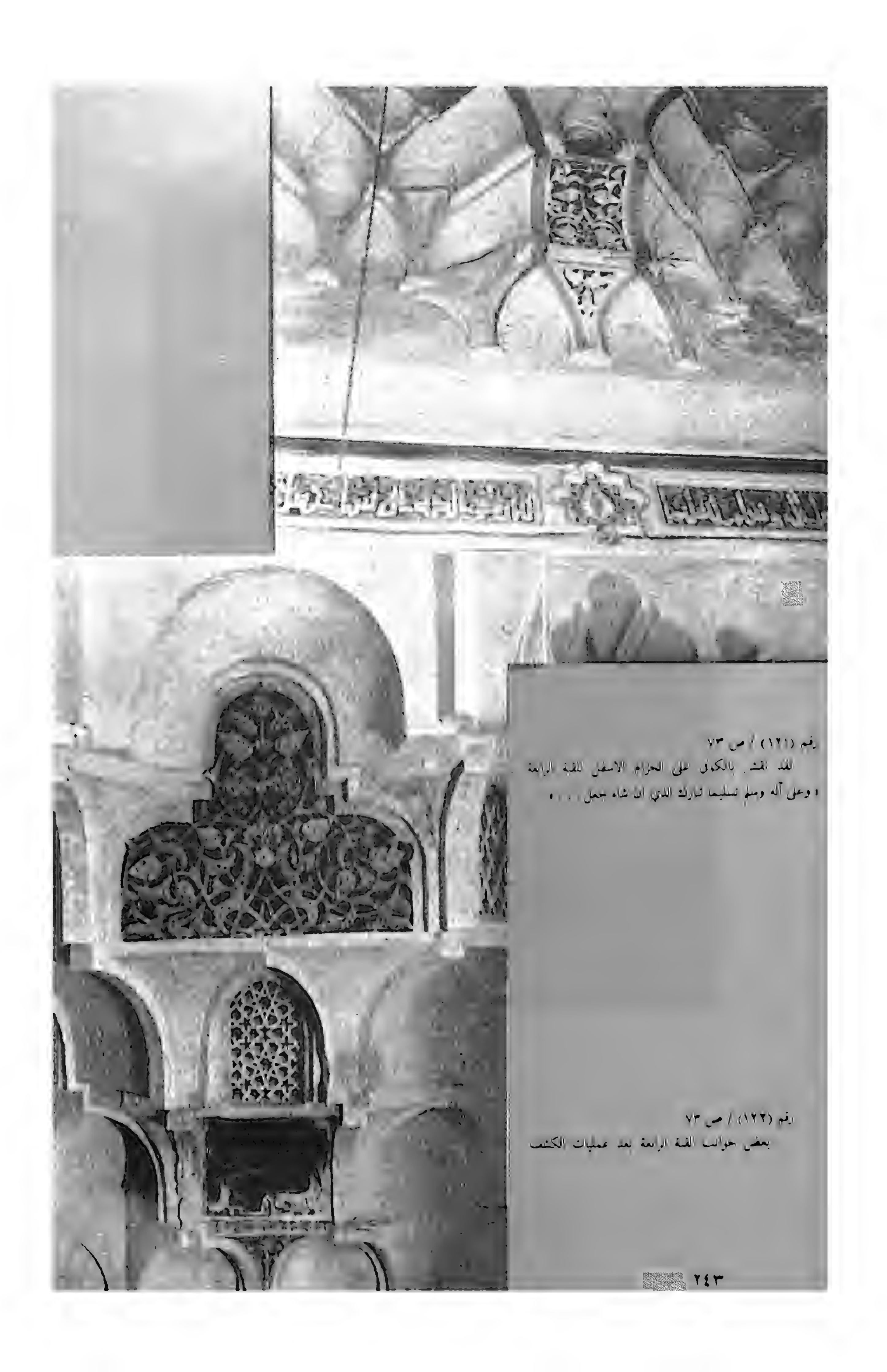
رقم (١١٩) أ ص ٧٣

القبة الرابعة من جهة المحراب وهي مربعة الشكل ، الصورة للقبة قبل ان تزاح عنها التلبيسات



رقم (١٢٠) أ ص ٧٣

جانب آخر من القبة الرابعة المربعة

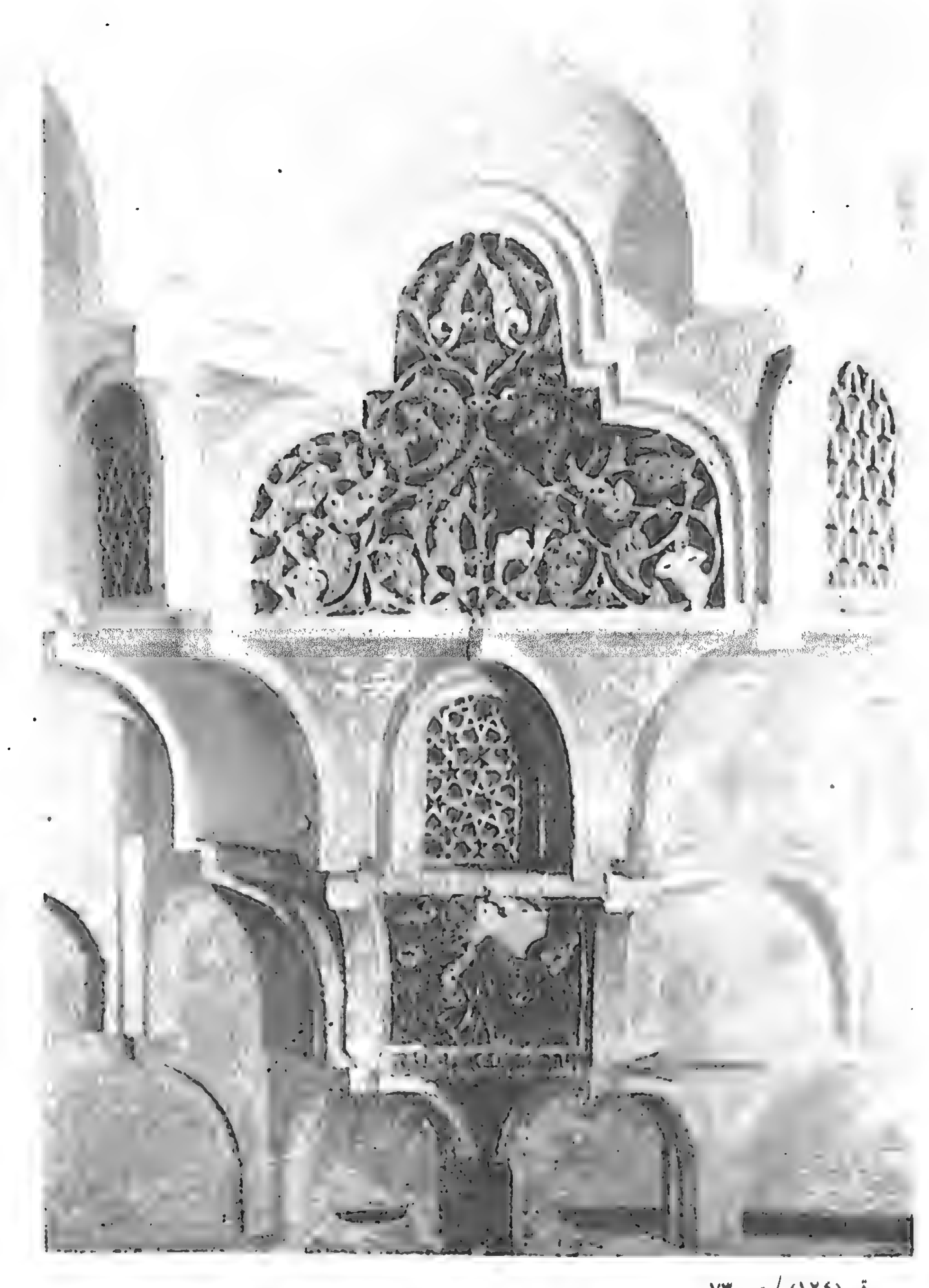


رقم (١٢١) / ص ٧٣
النقش بالكوفي على الحزام الأسفل للقبة الرابعة
؛ وعلى آله وسلم تسليما تبارك الذي إن شاء جعل . . . ؛

رقم (١٢٢) / ص ٧٣
بعض جوانب القبة الرابعة بعد عمليات الكشف



رقم (١٢٣) / ص ٧٣
لوحة اخرى تختلف عن سابقتها في القبة المربعة التي تلي القبة المستطيلة .



رقم (١٢٤) / ص ٧٣
لقد نقش بالكوفي القديم تحت الشماسية الله وحده لا شريك له .



[illegible]١) / ص ٧٣
بركة ونعمة شاملة .



رقم (١٢٧) / ص ٧٣

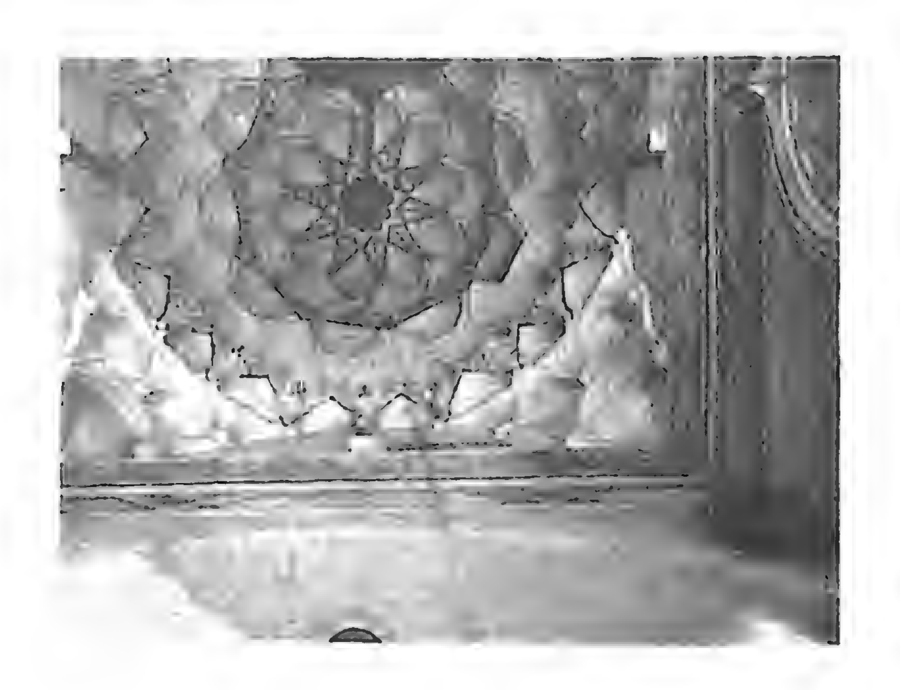
تشكيلة [illegible] في القبة الرابعة



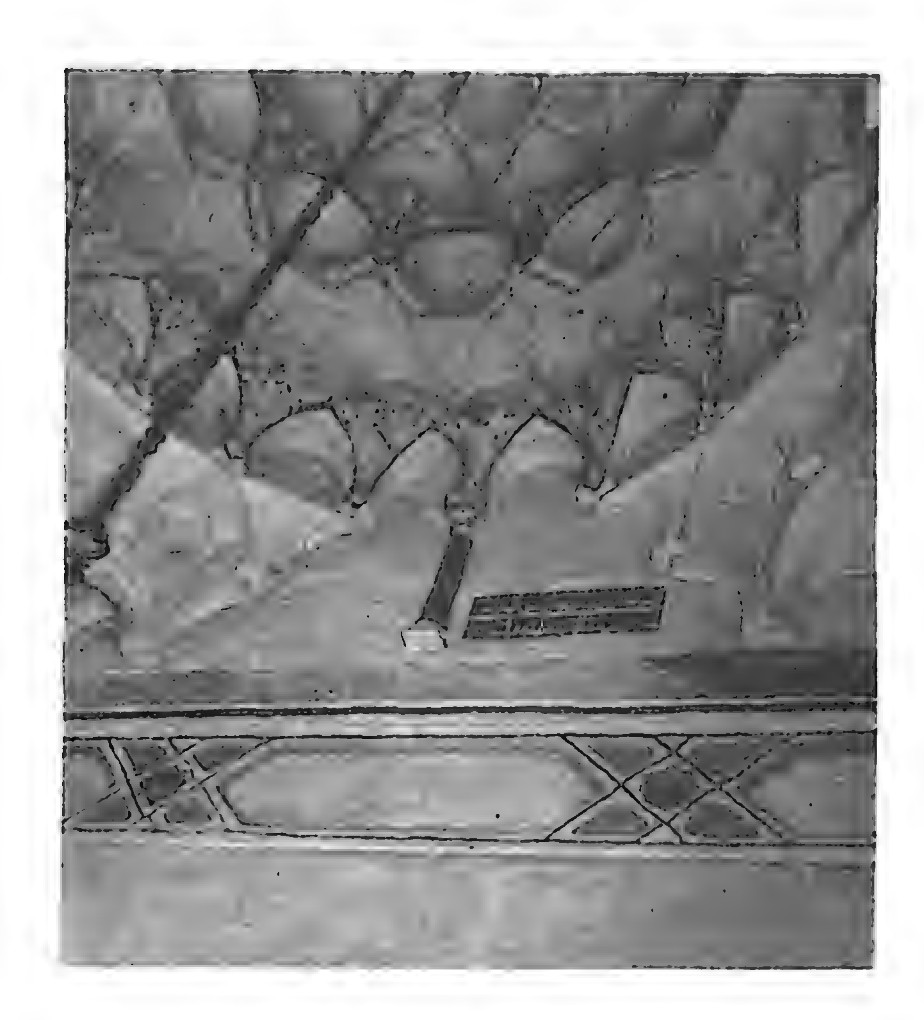
رقم (١٢٨) / ص ٧٣
شكل آخر من الأفنا.



رقم (١٢٩) / ص ٧١ – ٧٣
القبة السادسة من جهة المحراب.
وهي دائرية الشكل على خلاف
القبة الرابعة.



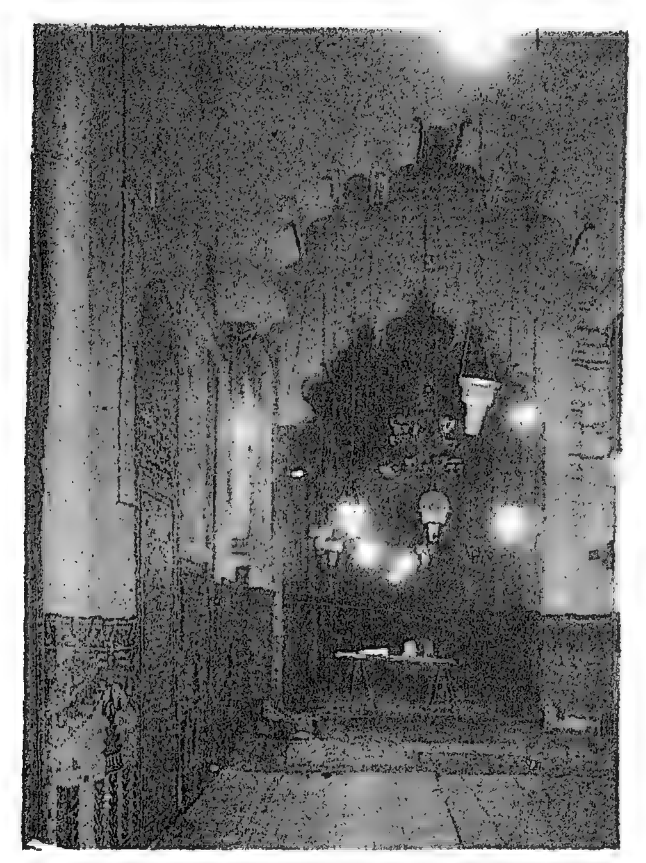
رقم (١٣٠) / ص ٧١ - ٧٣
جانب آخر من القبة الدائرية الشكل . .



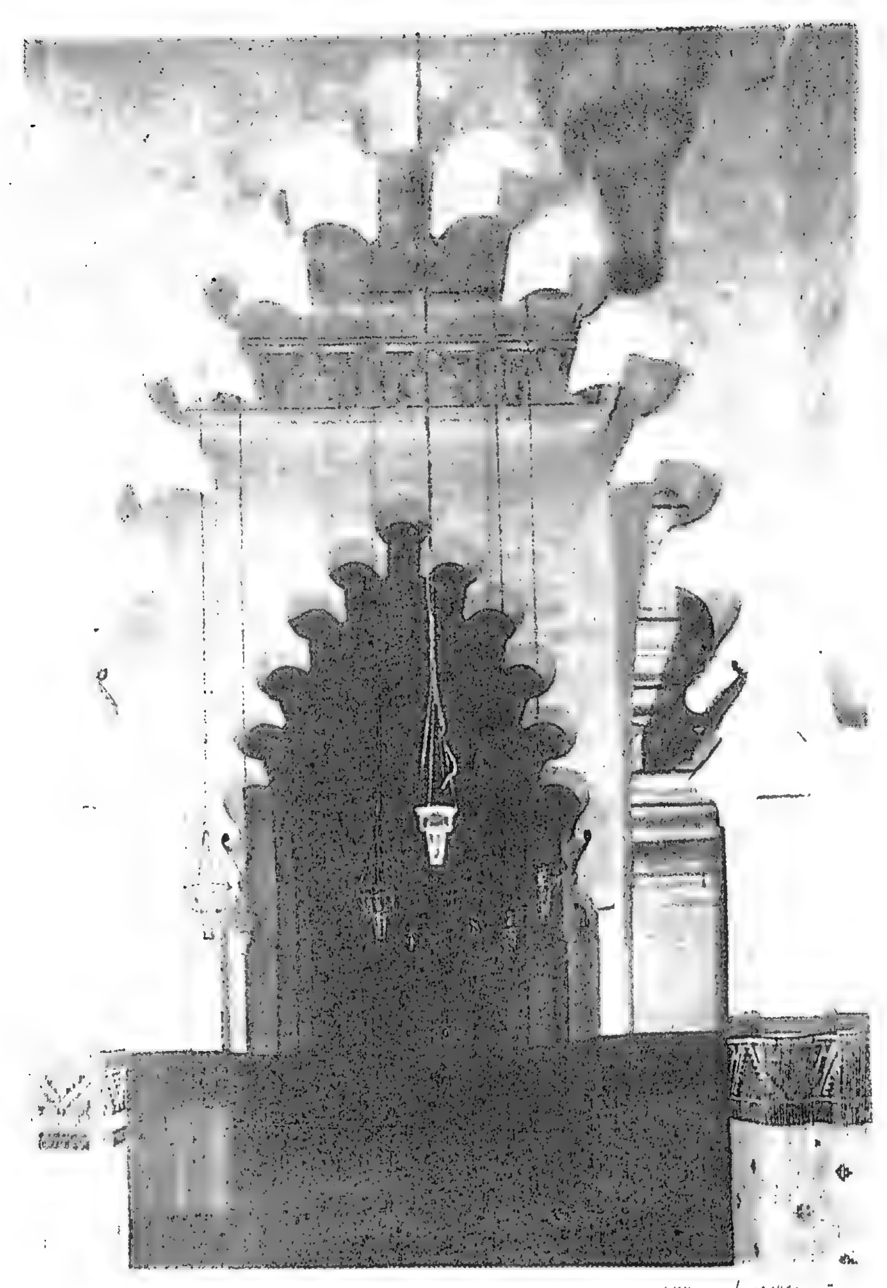
. رقم (١٣١) / ص ٧١ - ٧٣
على مدار القبّة توجد باقات تمثل مختلف الاشكال
وتلاحظ يمينا لوحة نقش عليها اسم المعلم الذي اشتغل هنا .



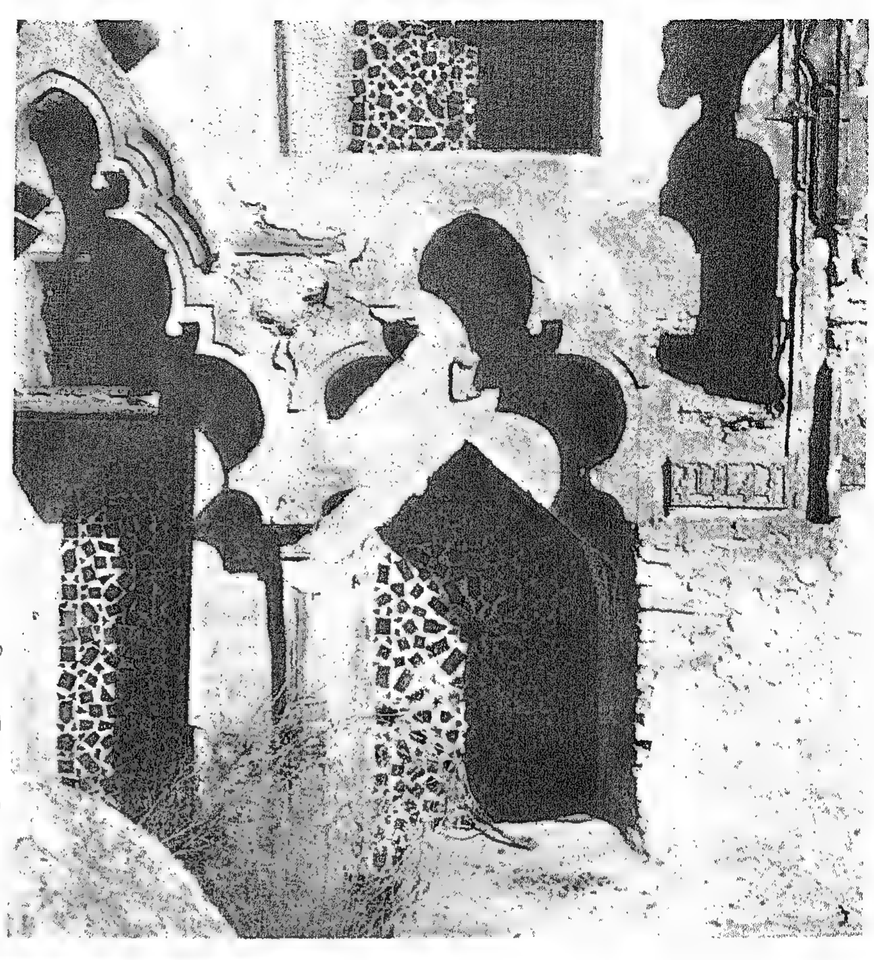
رقم (١٣٢) / ص ٧٣
لبسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على محمد صنع ؟
هذه القبة سلمة بن مفرج ؟



رقم (١٣٣) / ص ٧٣
نموذج من الأقواس التي توجد على مقربة من المحراب
ويلاحظ الابداع في تعدّدها داخل القوس الرئيسي .

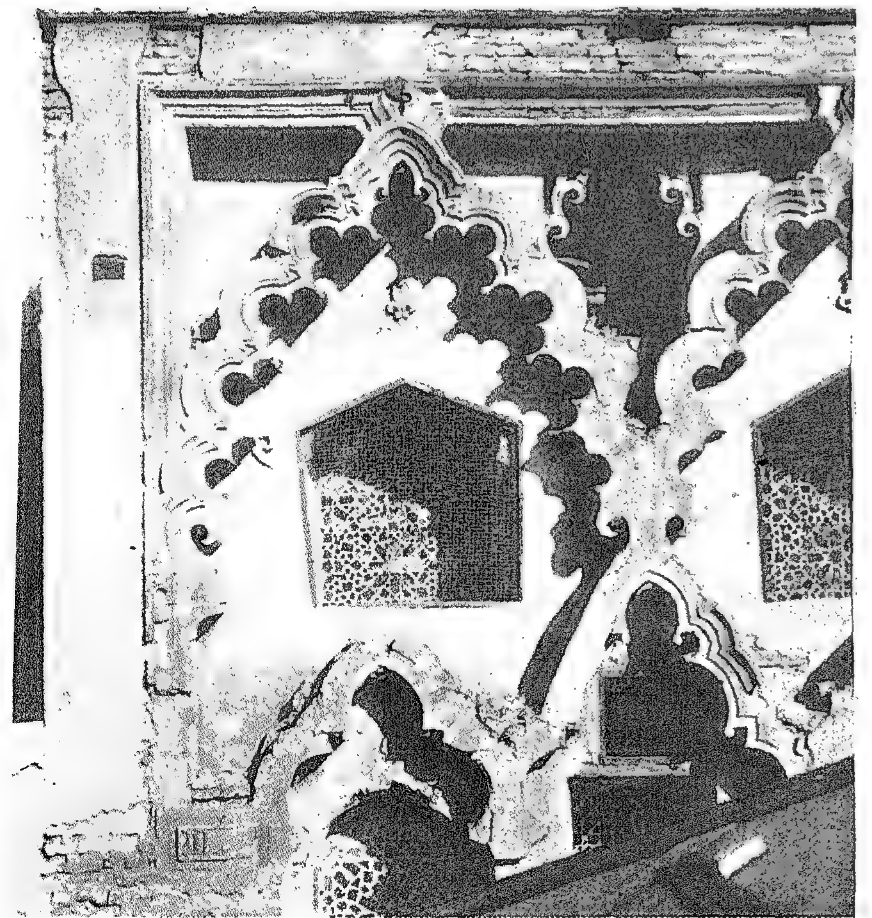


رقم (١٣٤) / ص ٧٣
نموذج من الأقواس التي توجد بالبلاط الأوسط من جامعة القرويين ويلاحظ ايضا تعدّدها داخل القوس الكبير ولكن على شكل ثان .



رقم (١٣٥) / ص ٧٣

خارج قاعة الصلاة ، ظهر المحراب بالذات من جهة السطح تلاحظ مظاهر العناية بالبلاط الاوسط ، انها ايضا نماذج طريفة من الاقواس البديعة ، لقد نقش على يمين اللوحة بالكوفي لا اله الا الله . . .



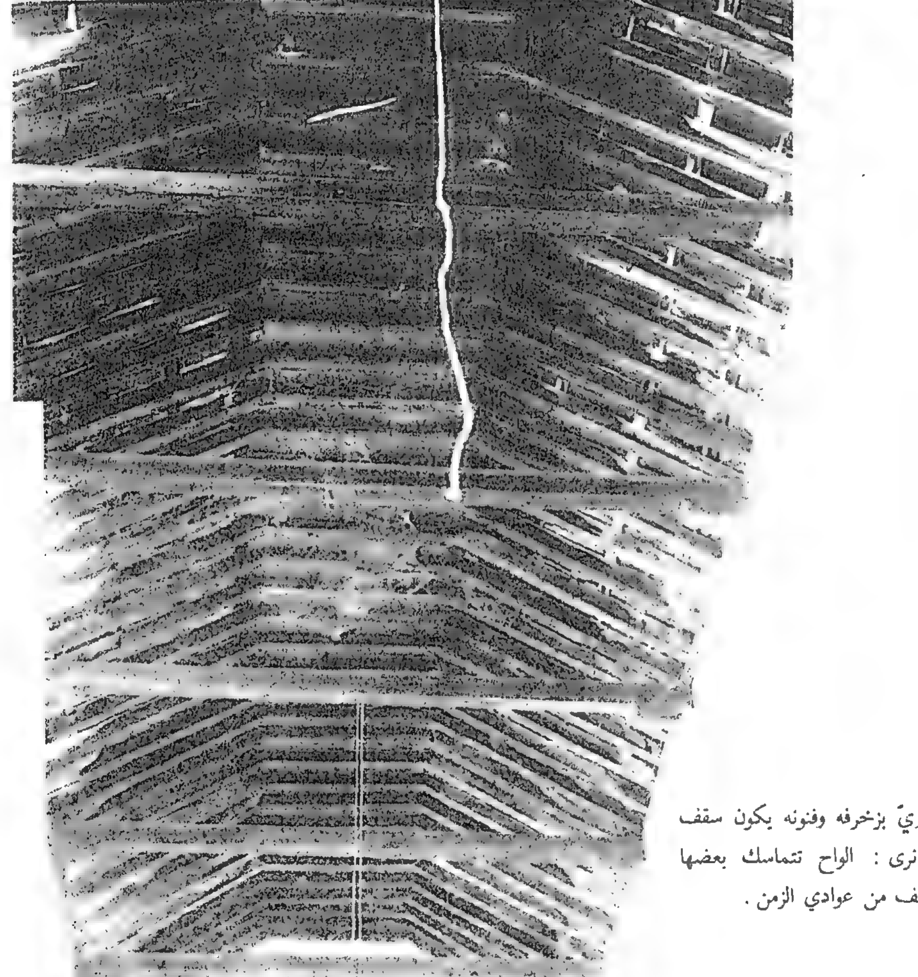
رقم (١٣٦) / ص ٧٣

فوق الاقواس البديعة التي توجد ظهر المحراب من جهة السطح هناك نماذج اخرى من اقواس بتراكب بعضها على بعض . . .



رقم (١٣٧) / ص ٧٣

حتى تكون نظرتنا شاملة على بناية القرويين يمكن ان نتصور ان تلك [illegible] التي تتراءى داخل البلاط الاوسط هي على شكل آخر من الخارج ... وهذا منظر لظهر احدى تلك القباب وقد أحكم توثيقها وبناؤها ..



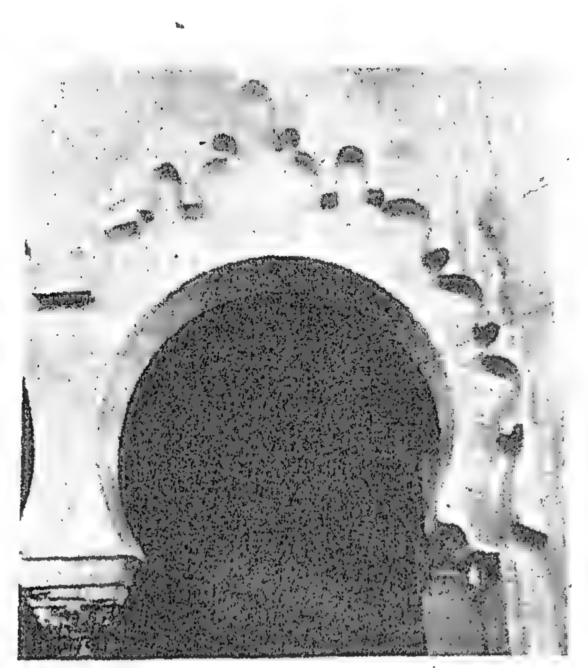
رقم (١٣٨) / ص ٧٣

فما عدا البلاط الأوسط الثريّ بزخرفه وفنونه يكون سقف باقي الجامع على النحو الذي نرى : الواح تتماسك بعضها الى بعض على شكل يحفظ السقف من عوادي الزمن .



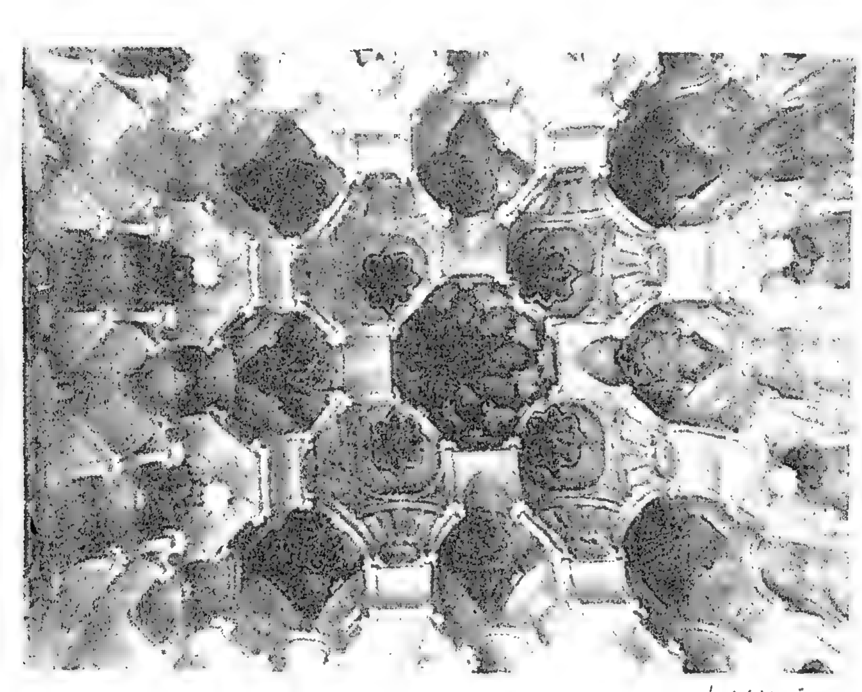
رقم (١٣٩) / ص ٧٤

صحن جامع الجنائز ممر يمتد من باب الخلفاء في اتجاه مقصورة الامام . وعلى هذا الصحن تنفتح ابواب داخلية ثلاثة الى داخل قاعة الصلاة .



رقم (١٤٠) / ص ٧٤

وراء هذا القوس تقع القبة المقربصة التي يزدان بها جامع [illegible] قبة محراب القرويين .



رقم (١٤١) / ص ٧٤

قبة جامع الجنائز . . .

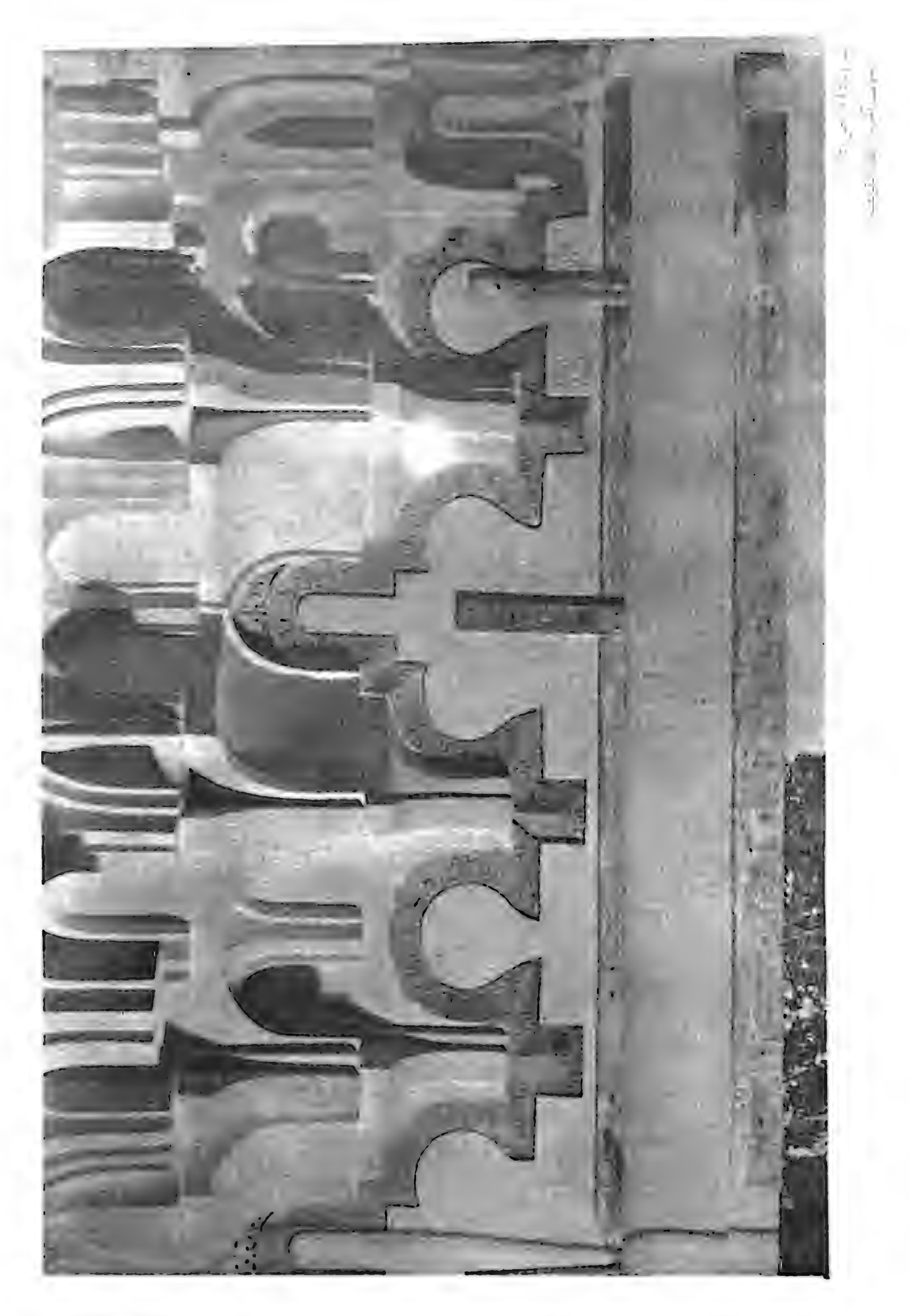


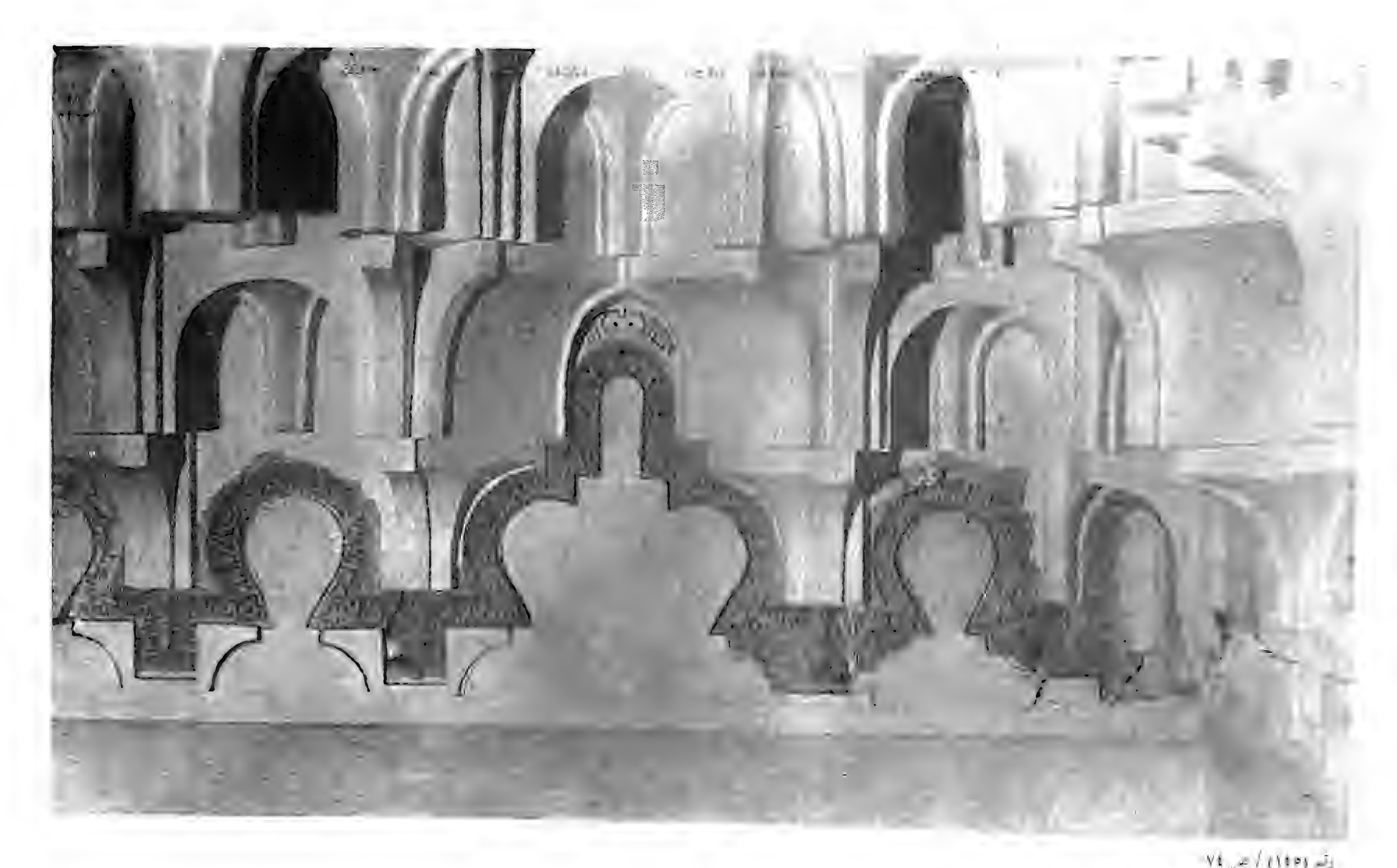
رقم (١٤٦) ص ٧٤

ثمة حبس الجنائز وتتراءى الأقواس محيطة بها وقد نقش عليها بالخط الكوفي آيات من سورة يس وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا . . .

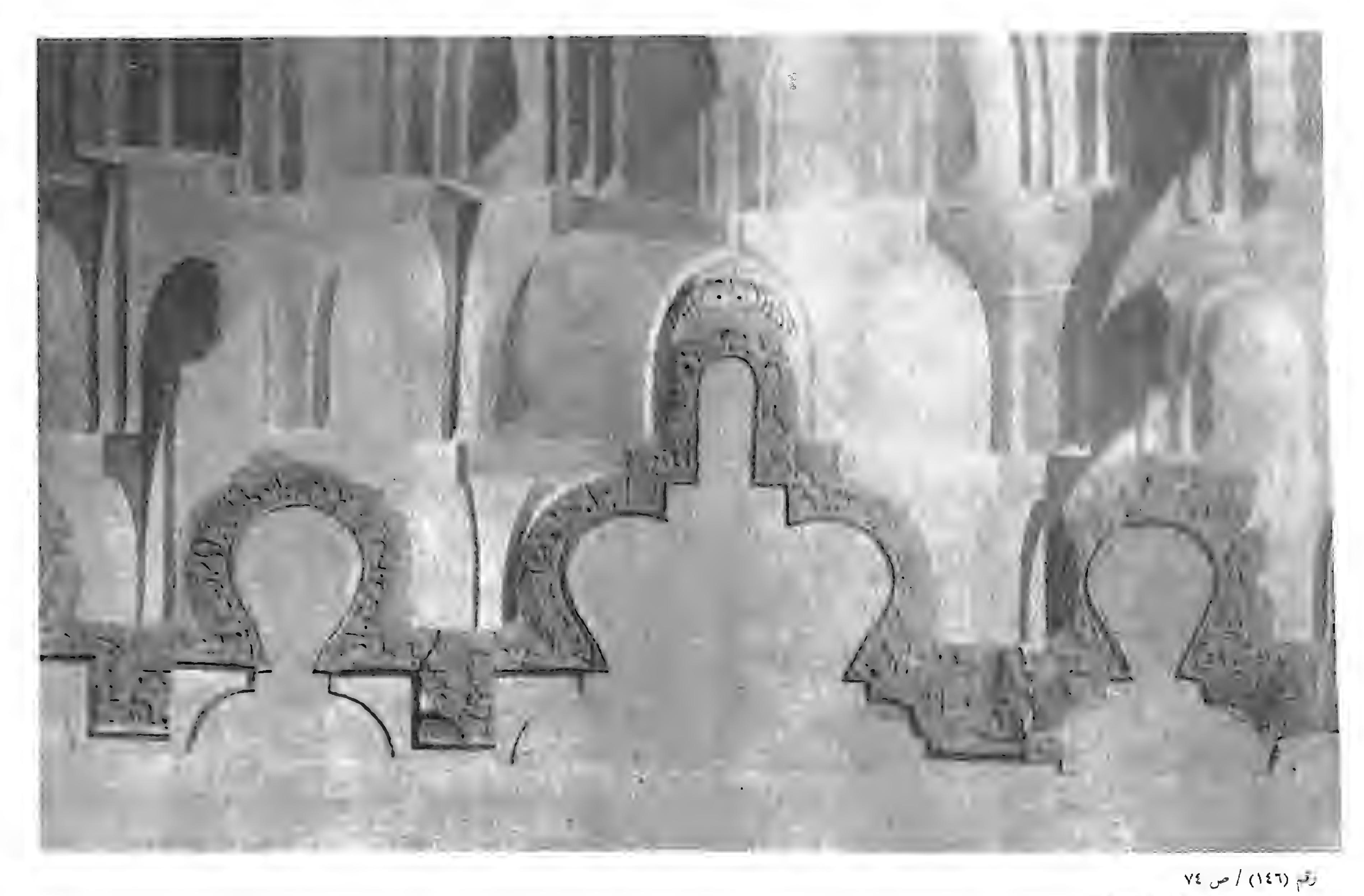
رقم (١٤٣) / ص ٧٤

لوحة اخرى من الكوفي المحيط بقبة جامع الجنائز.





رقم (١٥٥) / ص ٧٤
جانب آخر من القبة المفرغة بجامع الحاكم



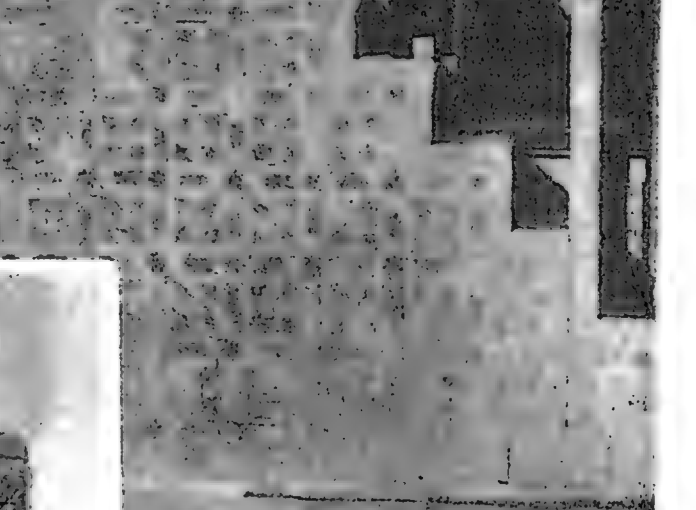
رقم (١٤٦) / ص ٧٤
جانب اخر من القبة المقربصة



رقم (١٤٧١) / ص ٧٤

جهة الجوانب الستة المنقوشة بالخط الكوفي من قبة جامع الحاكم.

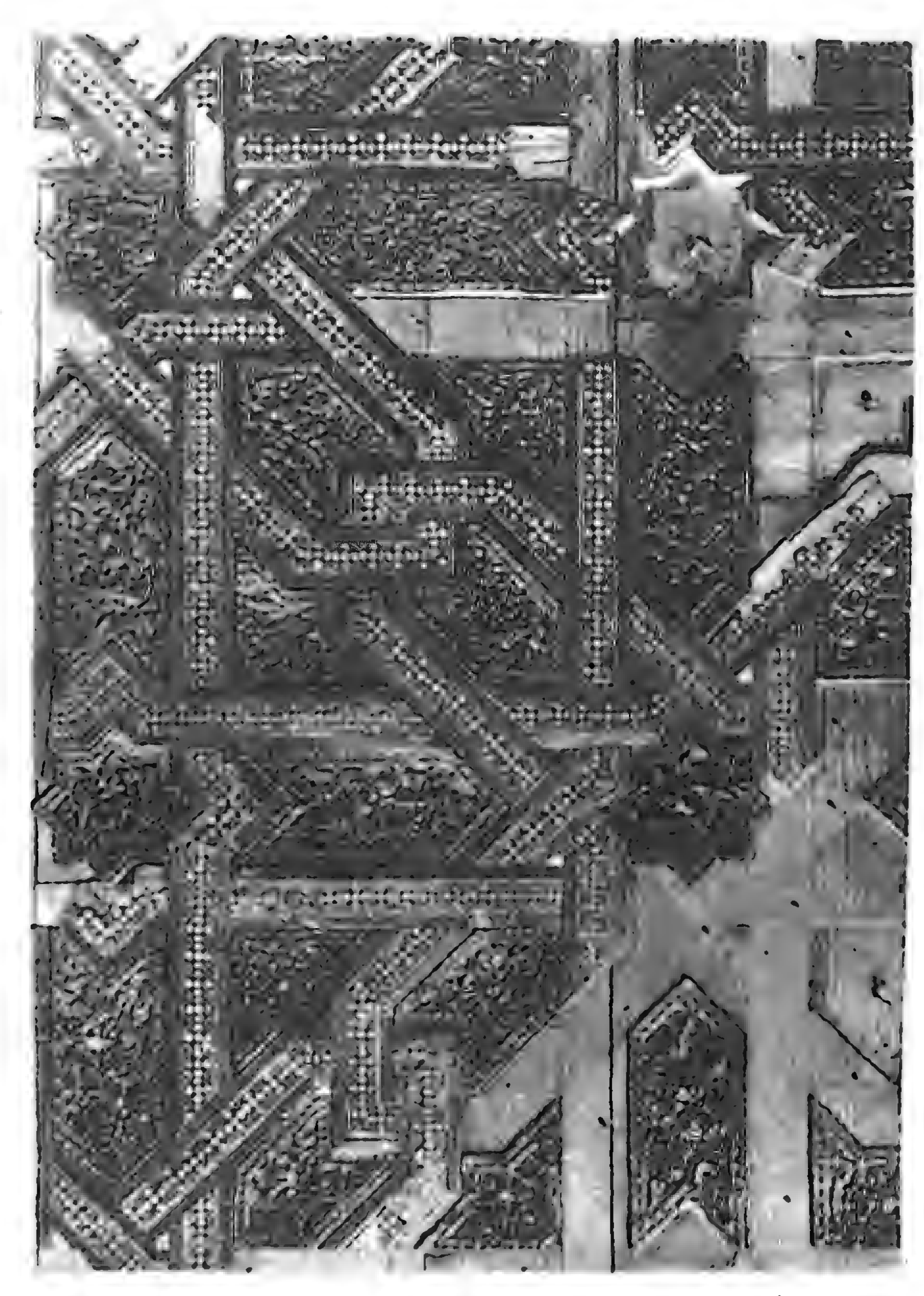




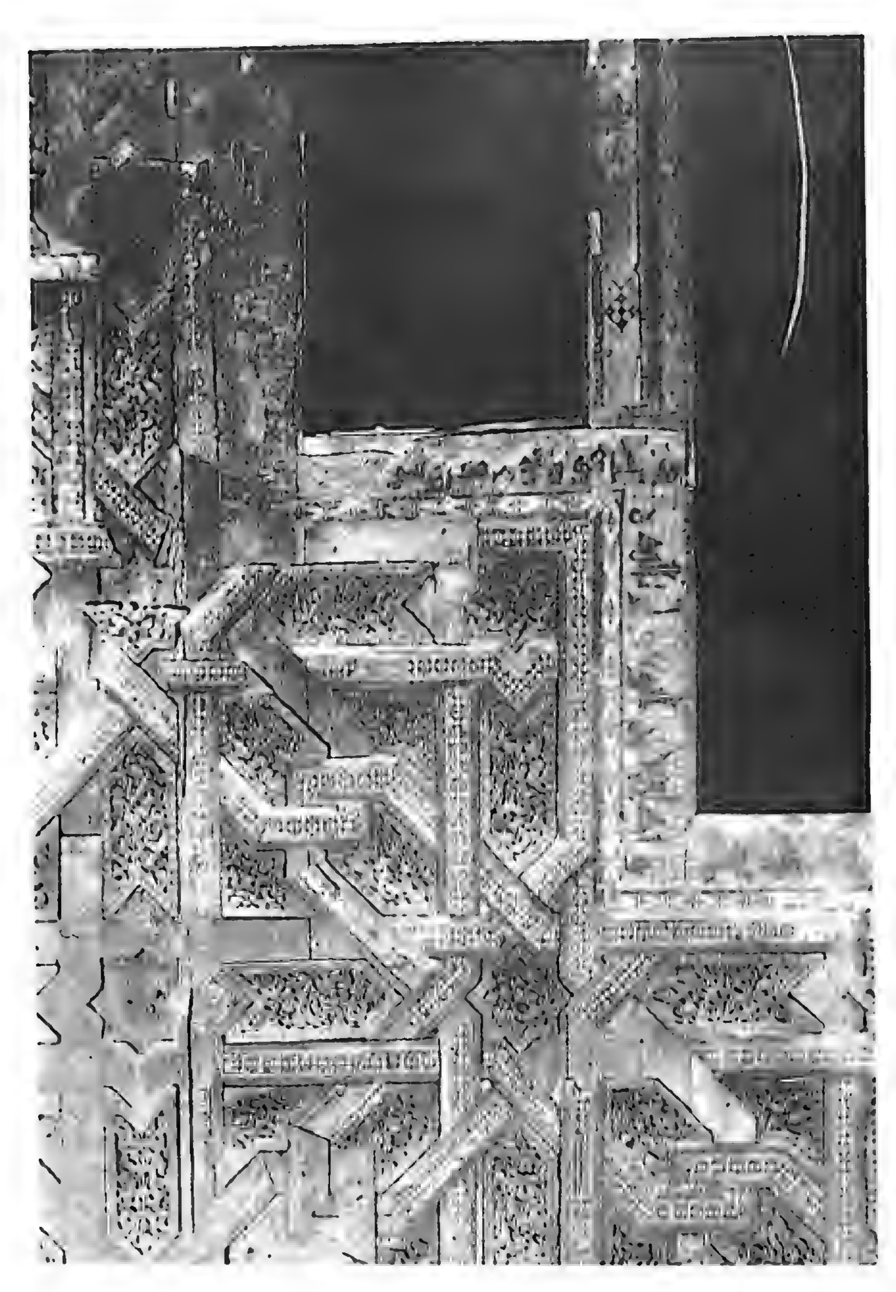
رقم (١٤٨) / ص ٧٥ – ٧٦
المنبر التاريخي الذي شيّده الاستاذ ابو يحيى العتّاد زمن المرابطين عام ٥٣٨ وهو من تسع درجات ويعتبر من اقدم التحف النادرة في العالم الاسلامي.



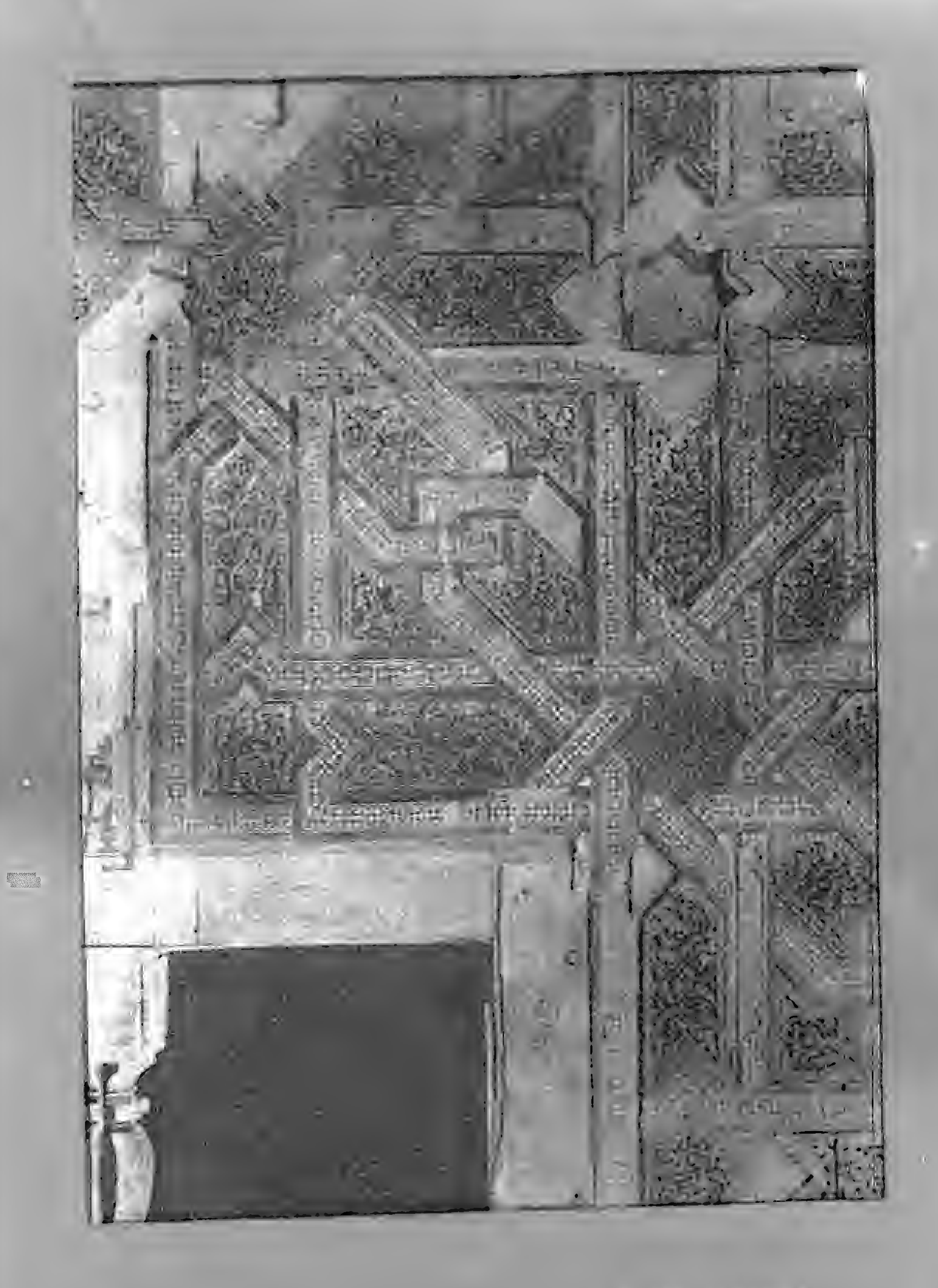
رقم (١٤٩) / ص ٧٥ – ٧٦
المدخل الى المنبر المرابطي وقد نقشت على الدائرة بالخط النسخي وبالعاج « يايها الذين امنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد »



رقم (١٥٠) / ص ٧٥ - ٧٦
احدى واجهات المنبر المرابطي ونلاحظ بعض الجهات
وقد عريت مما كان يكسوها من صدف جميل ونقوش رائعة .



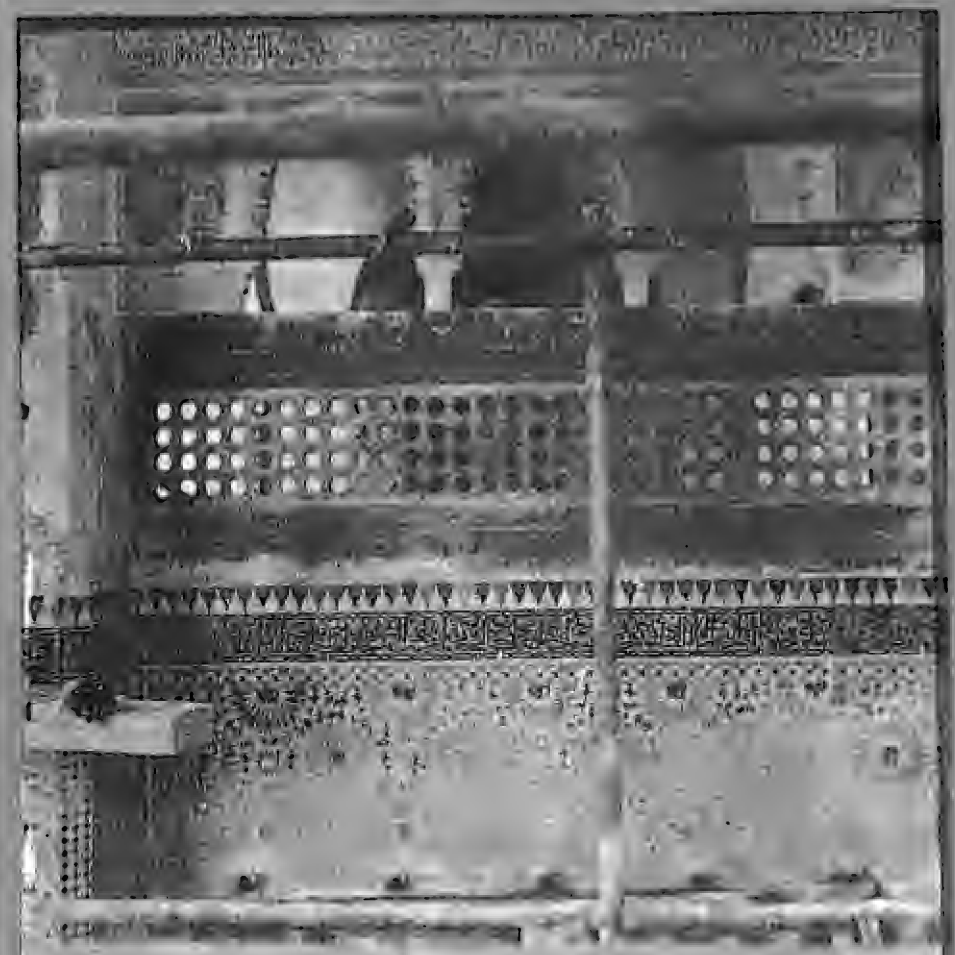
رقم (١٥١) / ص ٧٥ - ٧٦
جانب آخر من المنبر . . . تلاحظ بعض الآيات وقد نقشت بالخط الكوفي الجميل «يوفون بالنذر ويخافون يوما . . .»



رقم (١٥٢) / ص ٧٥ - ٧٦
جانب آخر من المنبر



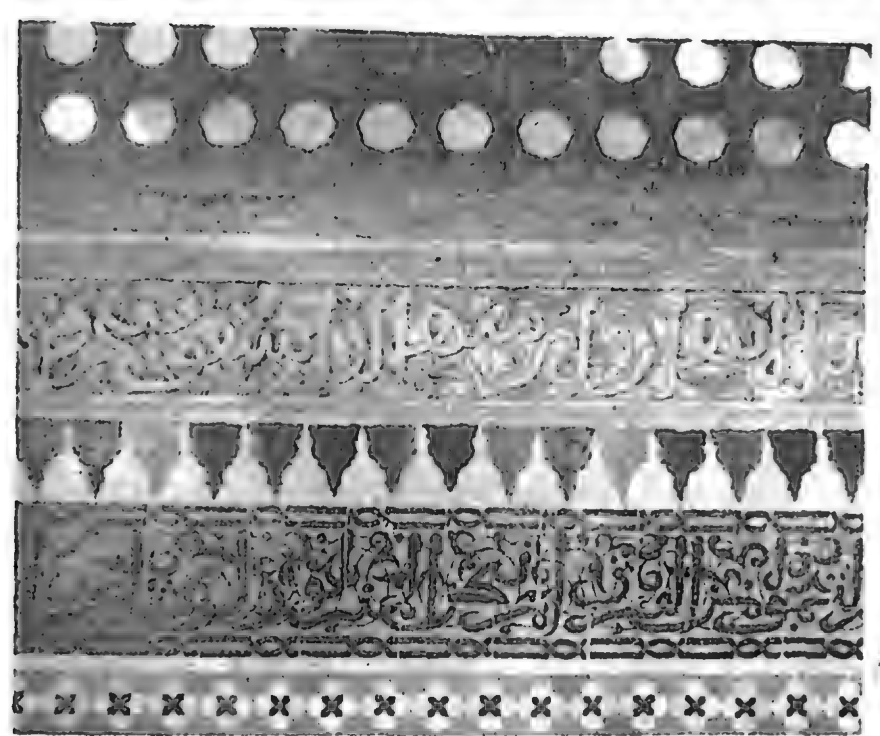
رقم (١٥٣) / ص ٧٥ - ٧٦
الجانب الأعلى من المنبر الزابطي



رقم (١٥٤) / ص ٧٩
الشباك النحاسي الذي نصب في واجهة الحصة المدعة التي شيدت عام ٥٩٩ هـ في الجهة الشرقية للصحن وتحت النقوش تبدو حسة انابيب تصب في البركة



رقم (١٥٥) / ص ٧٩
لوحة اخرى للشبّاك الرخامي .

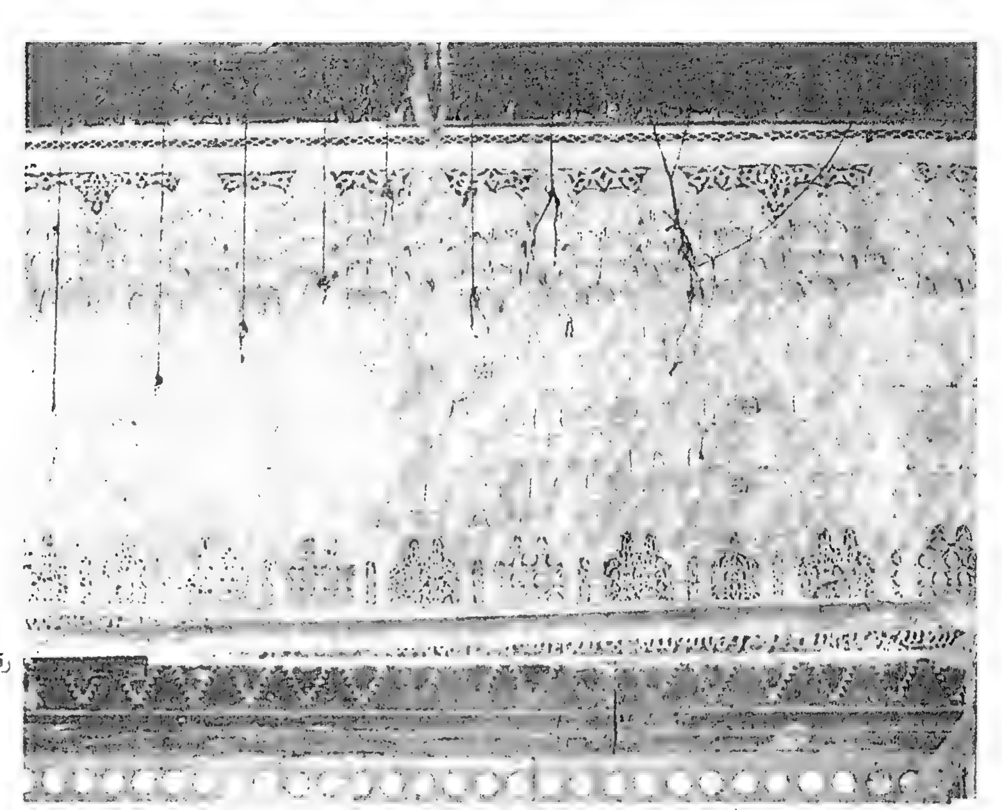


رقم (١٥٦) / ص ٧٩
تحت الشباك الرخامي بالخط النسخي نقشت الآية :
« وان من الحجارة [illegible] يتفجر منه الانهار . .

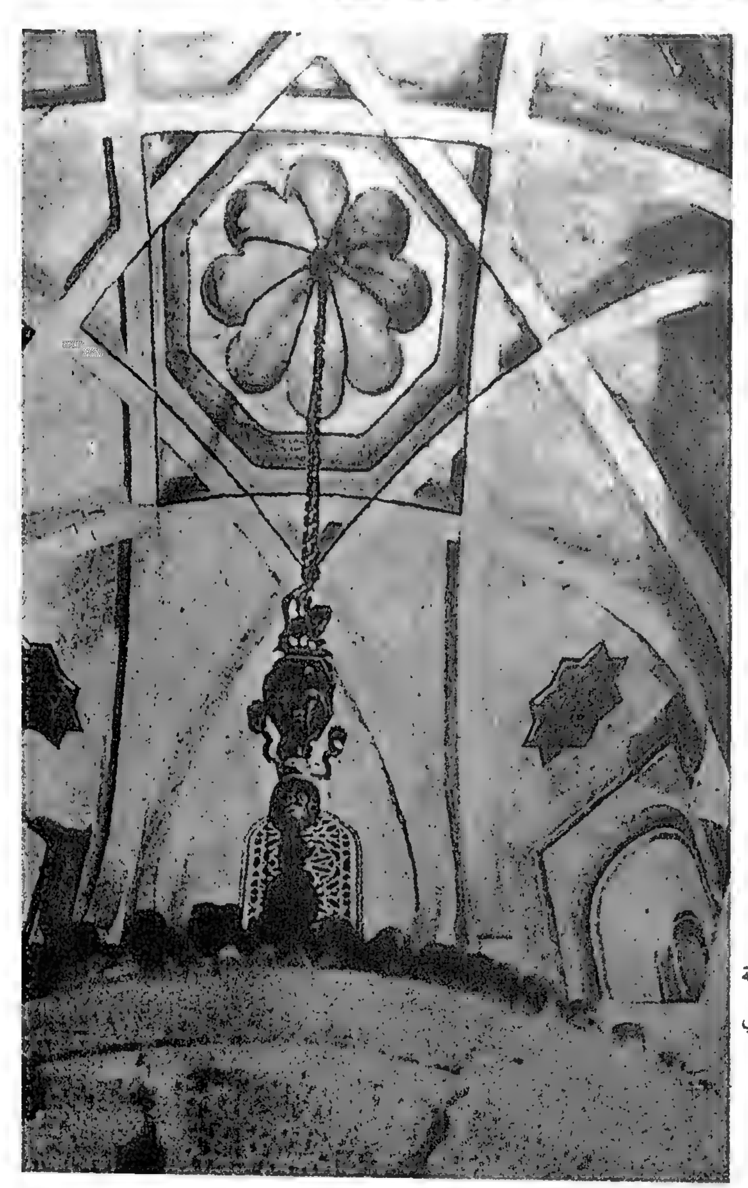
وتحت هذه الآية : « أفرأيتم [illegible] الذي [illegible]
أنزلتموه من المزن . . . »



رقم (١٥٧) / ص ٧٩
اللوحة تحمل تاريخ انشاء الخصة :
« اكمل في شهر جمادى الاخيرة سنة تسع
وتسعين وخمسمائة

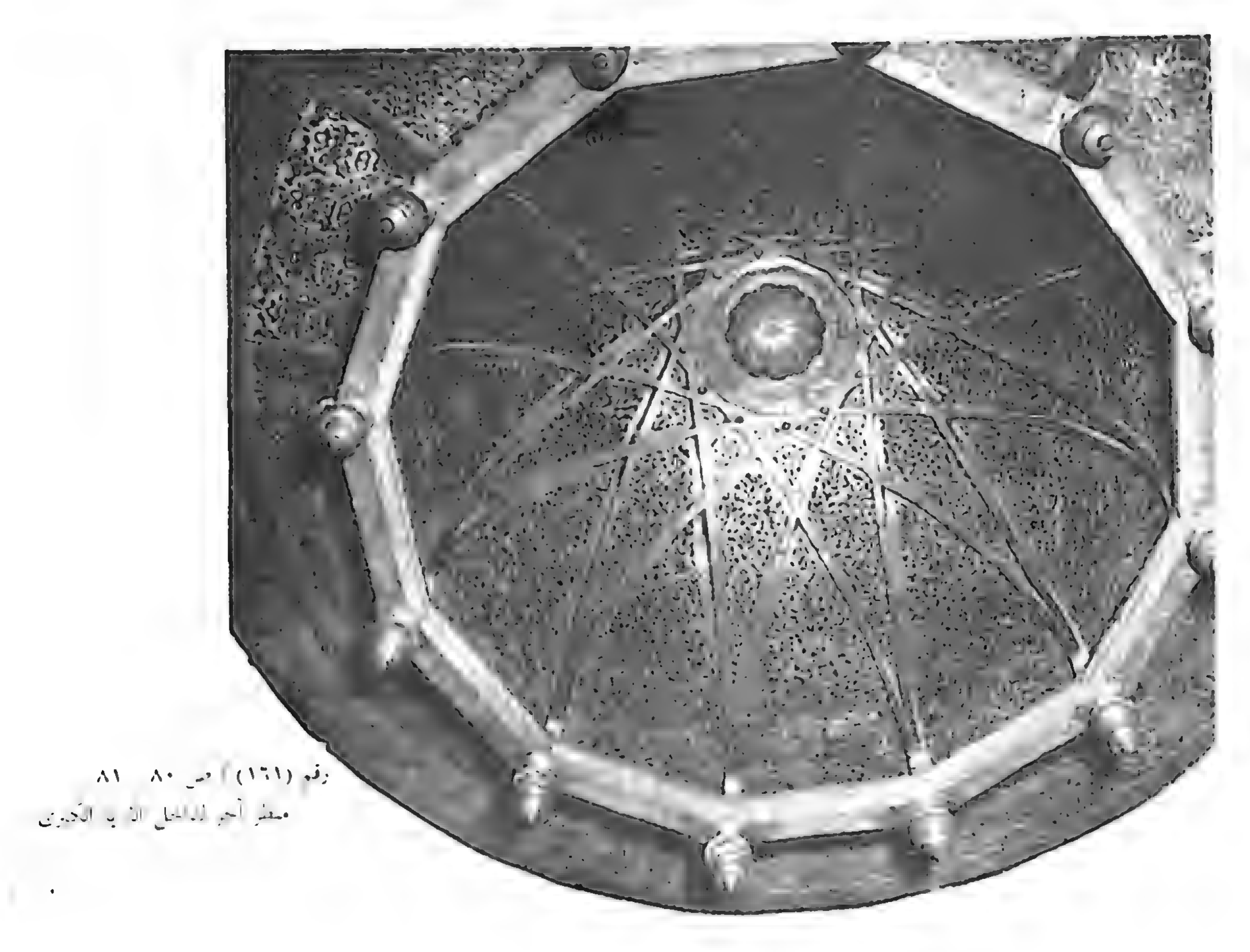


رقم (١٥٨) / ص ٧٩
فوق الشبّاك الرخامي لوحة جبسية رائعة

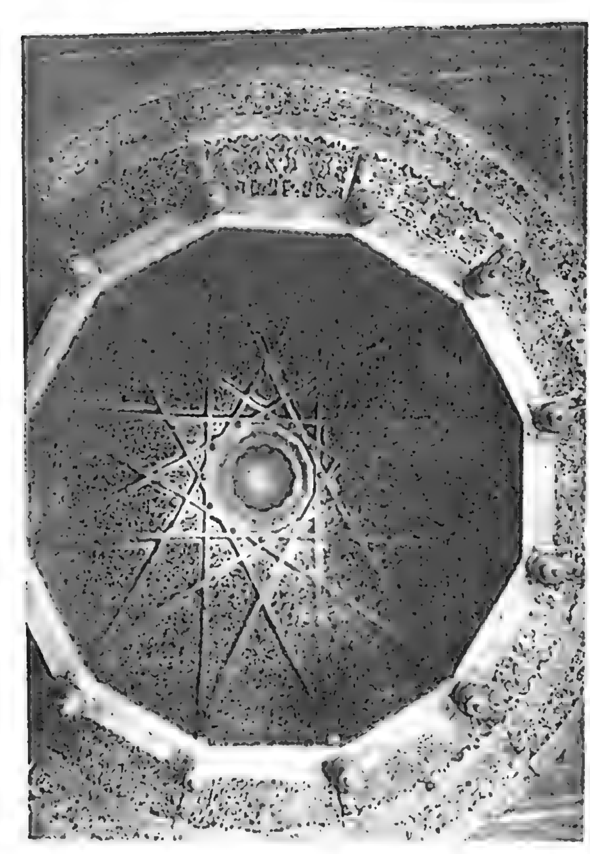


رقم (١٥٩) ص ٧٩
تحتضن القبّة الخامسة من جهة المحراب ، وهي القبة المضلّعة الوحيدة ، تحتضن افخم تحفة يتوفر عليها العالم الاسلامي تلك هي الثريا الكبرى . . .

رقم (١٦٠) / ص ٨٠
الثريا الكبرى في القرويين . . .



رقم (١٦١) / ص ٨٠ ـ ٨١
منظر أخر للداخل الثريا الكبرى



رقم (١٦٢) / ص ٨٠ – ٨١
لوحة اخرى للثريا الكبرى



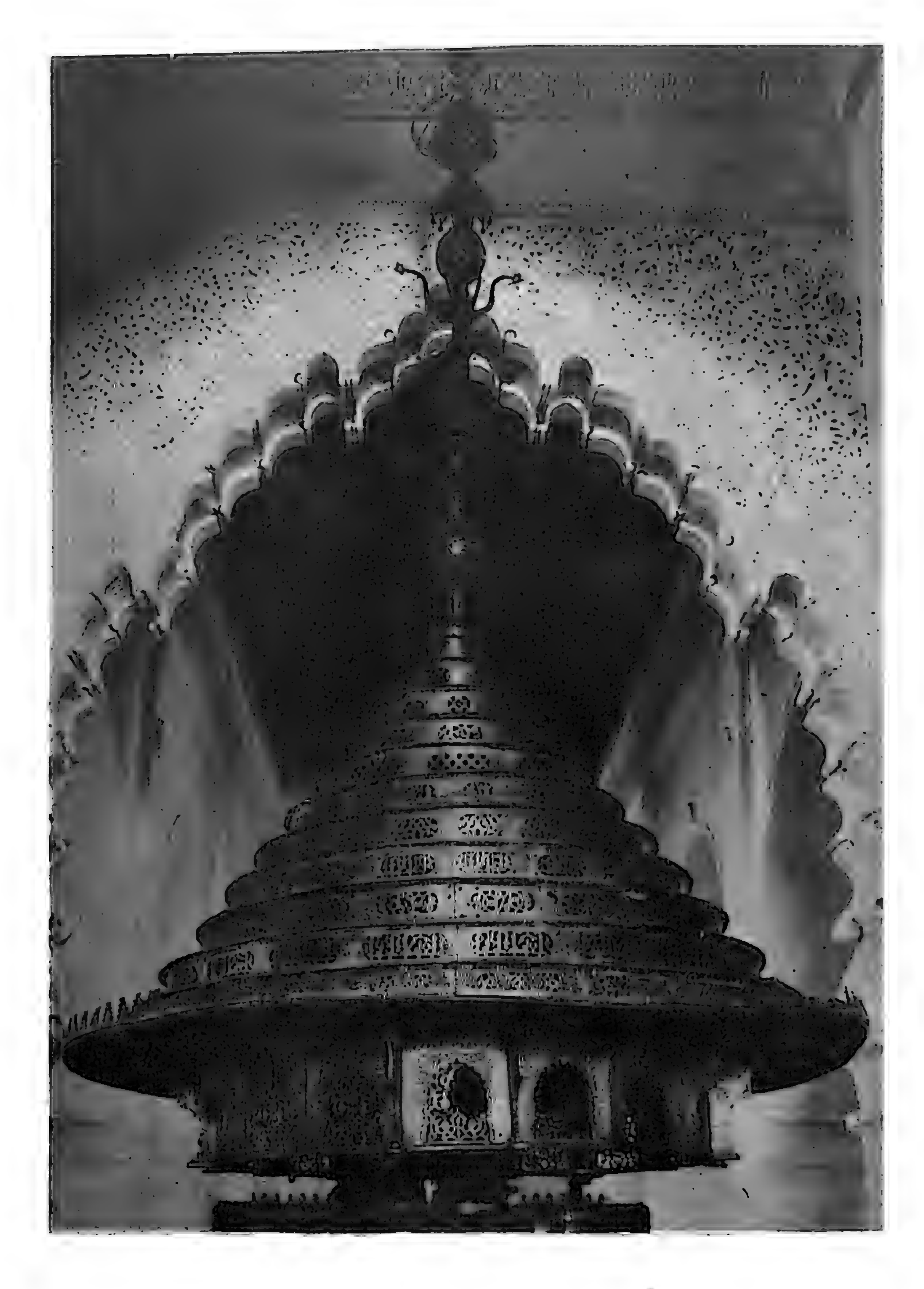
رقم (١٦٣) / ص ٨٠ – ٨١
جانب من الثريا الكبرى



رقم (١٦٤) / ص ٨٠ – ٨١
لوحة اخرى للثريا الكبرى في القبة الخامسة من جهة المحراب .



رقم (١٦٥) / ص ٨٠ – ٨١
جانب آخر من الثريا الكبرى . . .

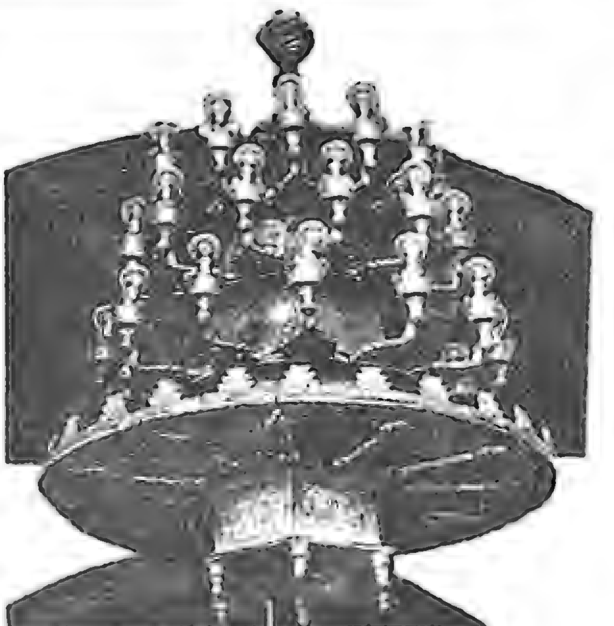


رقم (١٦٦) / ص ٨٠ – ٨١

حاول بنو مرين ان يقلدوا ثريا القرويين فأنشأوا الثريا التازية التي يزدان بها جامع تازة ، لكن الثريا الفاسية تظل معلمة فريدة .

رقم (١٦٧) / ص ٨٣

تحتوي القبة التاسعة ابتداء من المحراب على جرس غنمه الموحدون من مدينة وبذة سنة ٥٧٦ وحوّلوه الى ثريا علقوه بالبلاط الاوسط من القرويين رمزا للنصر . . . انه يشبه اسفل الثريا الكبرى . . .



رقم (١٦٨) / ص ٩١ – ٩٢

من اهم الابواب الداخلية للقرويين ابواب الرواح الثلاثة التي تربط الصلة بين قاعة الصلاة وبين جامع الجنائز . . وهذا الباب الاول الذي يفتح على البلاط الغموديّ الاول من الجهة الغربية باب الرواح الاعلى الرسم مأخوذ من قاعة الصلاة .



رقم (١٦٩) / ص ٩١ – ٩٢
باب الرواح الاوسط ويحتوي على ثلاث سواري جلبت من الاندلس والصورة مأخوذة من جهة جامع الجنائز..



رقم (١٧٠) / ص ٩١ - ٩٢

باب الرواح الادنى وهو الذي يقرب من المحراب تتوسطه سارية واحدة . . .



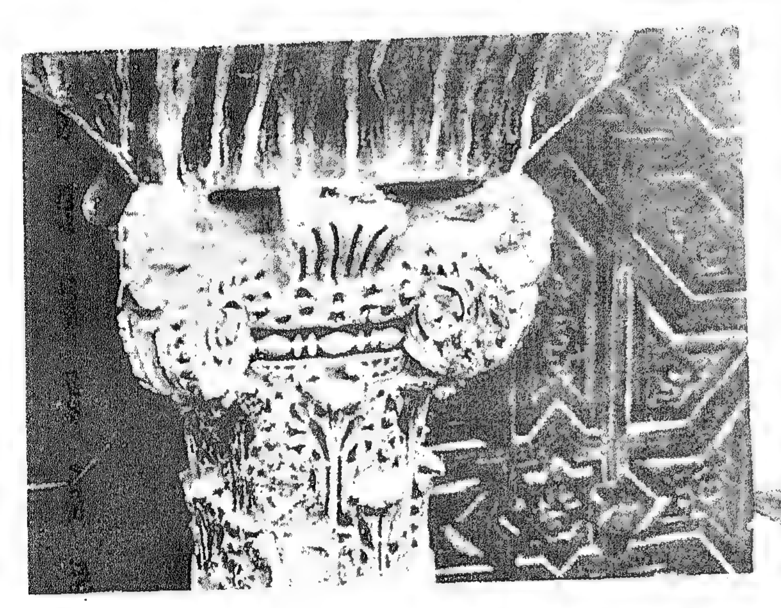
رقم (١٧١) / ص ٩٢ – ٩٣
صورة لباب الرواح الادنى
وتظهر المصاريع جلية . . .



رقم (١٧٢) / ص ٩٢ – ٩٣
جانب من « الدفف » او المصاريع
المنقوشة وقد ظهرت عليها بعض الآيات
المنقوشة . .



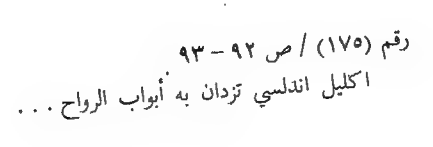
قم (١٧٣) / ص ٩٢ – ٩٣
لوحات اخرى من مصاريع باب الرواح .



رقم (١٧٤) / ص ٩٢ – ٩٣
اكاليل السواري الاموية التي تتوسط أبواب الرواح . .



رقم (١٧٥) / ص ٩٢ – ٩٣
اكليل اندلسي تزدان به أبواب الرواح . . .

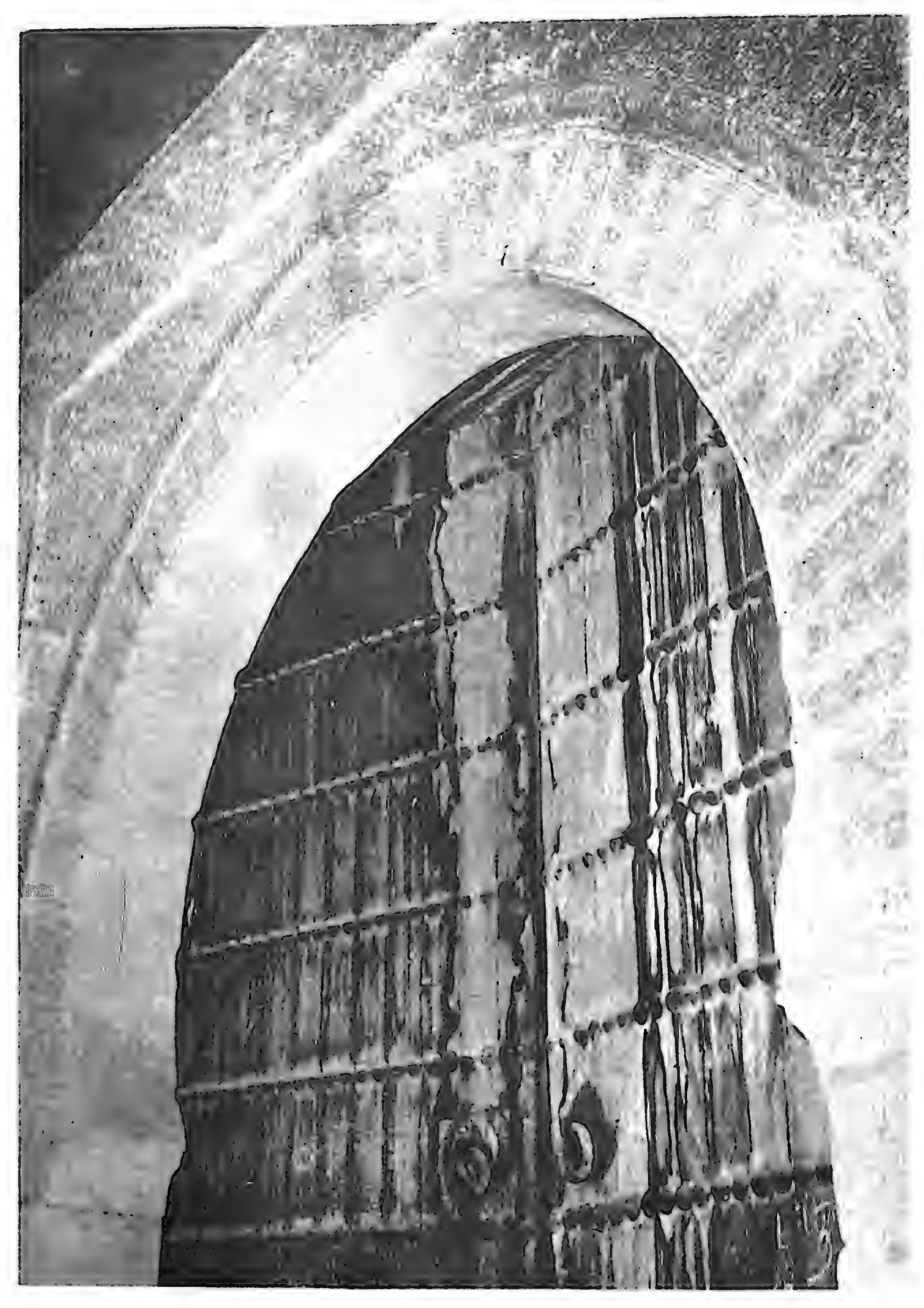




رقم (١٧٦) / ص ٩٣
نموذج من الخرصات القديمة التي توجد على أبواب القرويين الخارجية



رقم (١٧٧) / ص ٩٣
وراء الأبواب الكبيرة توجد مغاليق تتألف من قطعتين احداهما عمودية والاخرى افقية.



رقم (١٧٨) / ص ٩٣
باب الموثقين اكبر ابواب القرويين . . .



رقم (١٦٩) / ص ٩٣
باب الظاهر وهو الباب الرئيسي للمسجد ونرى الحواجز
الحديدية التي تحجب داخل المسجد عن انظار المارة من الاجانب .
اما الثريا التي تظهر فأصلها جرس .

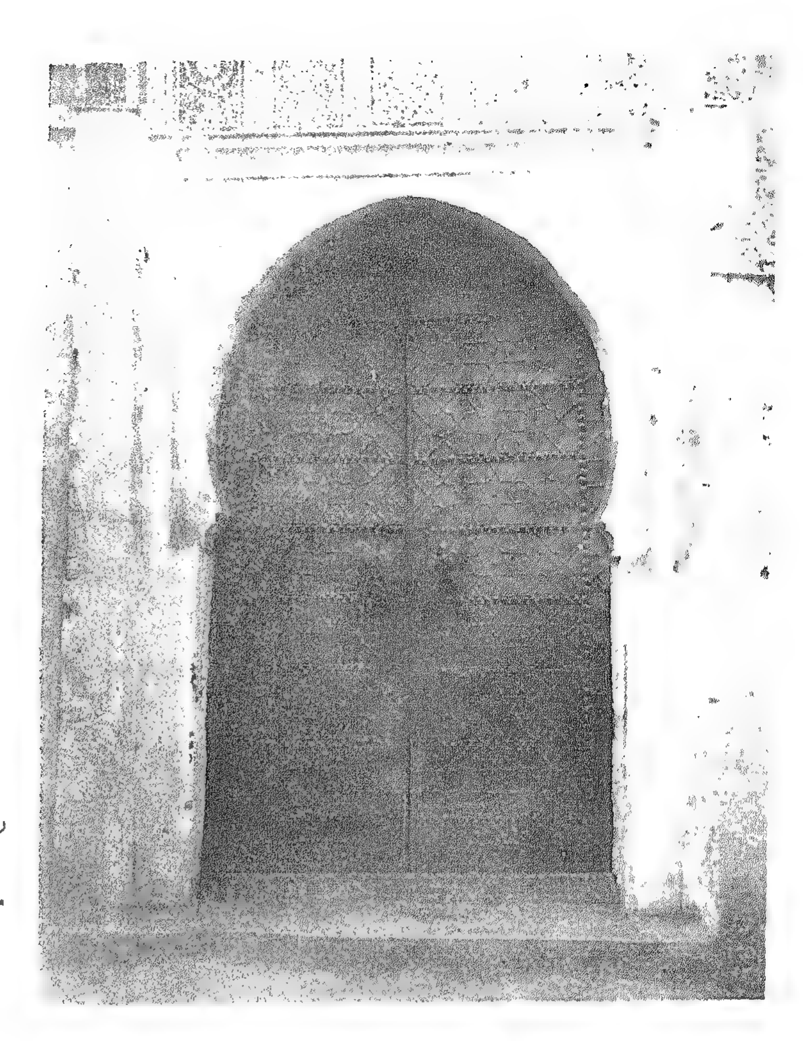


رقم (٦٨٠) / ص ٩٤
باب الورّاقين وهو الباب الثالث وقد جدّد في الاصلاحات الاخيرة .

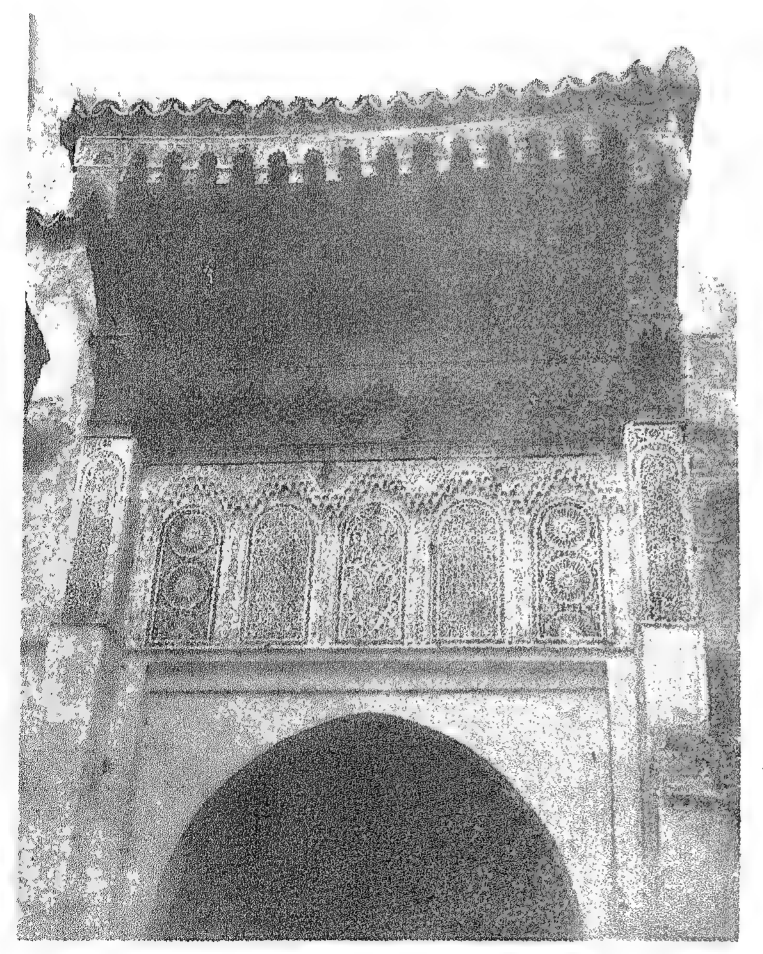


رقم (١٨١) / ص ٩٤

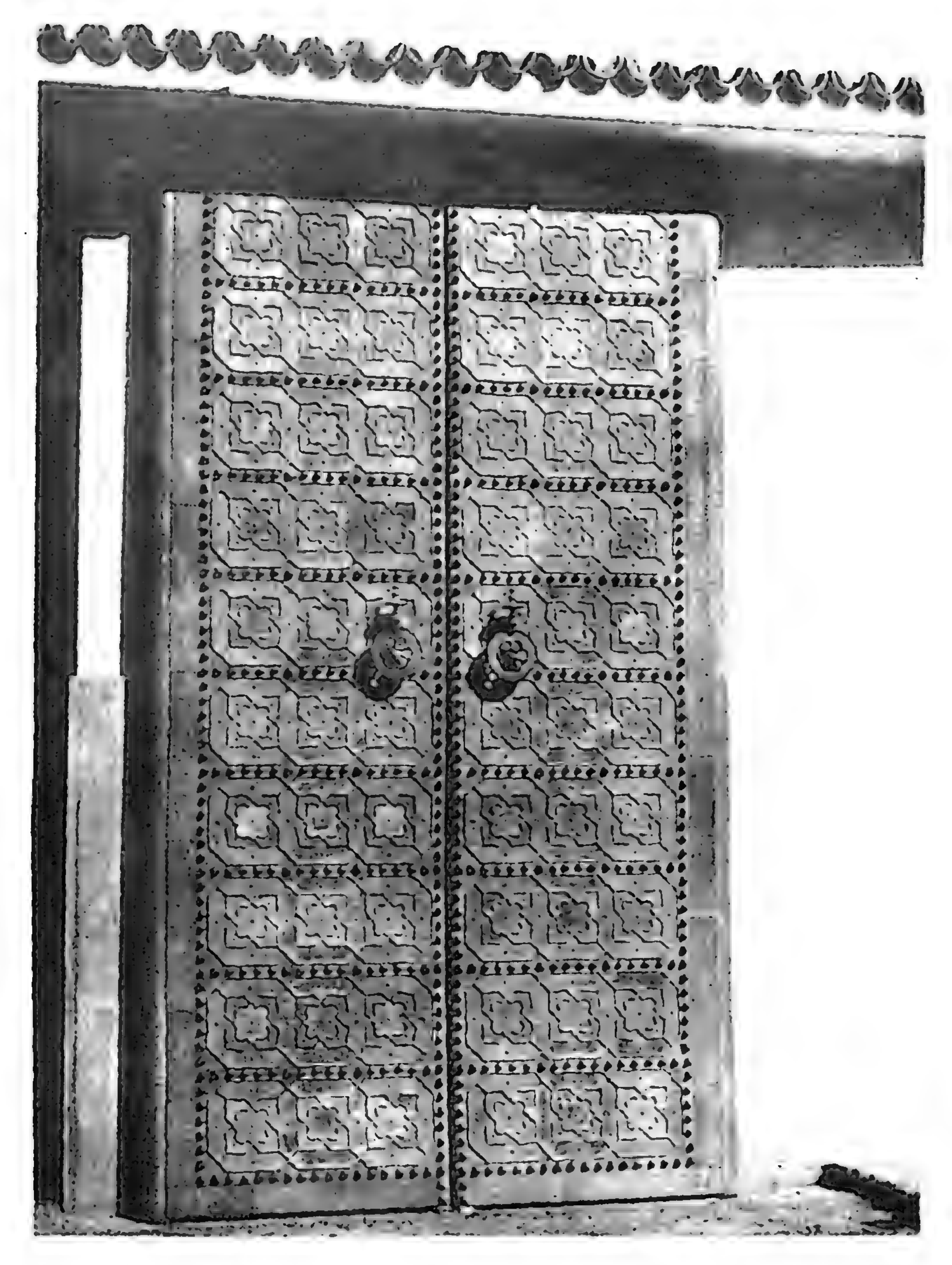
باب الأولياء الغربي وهو من الابواب المجدّدة



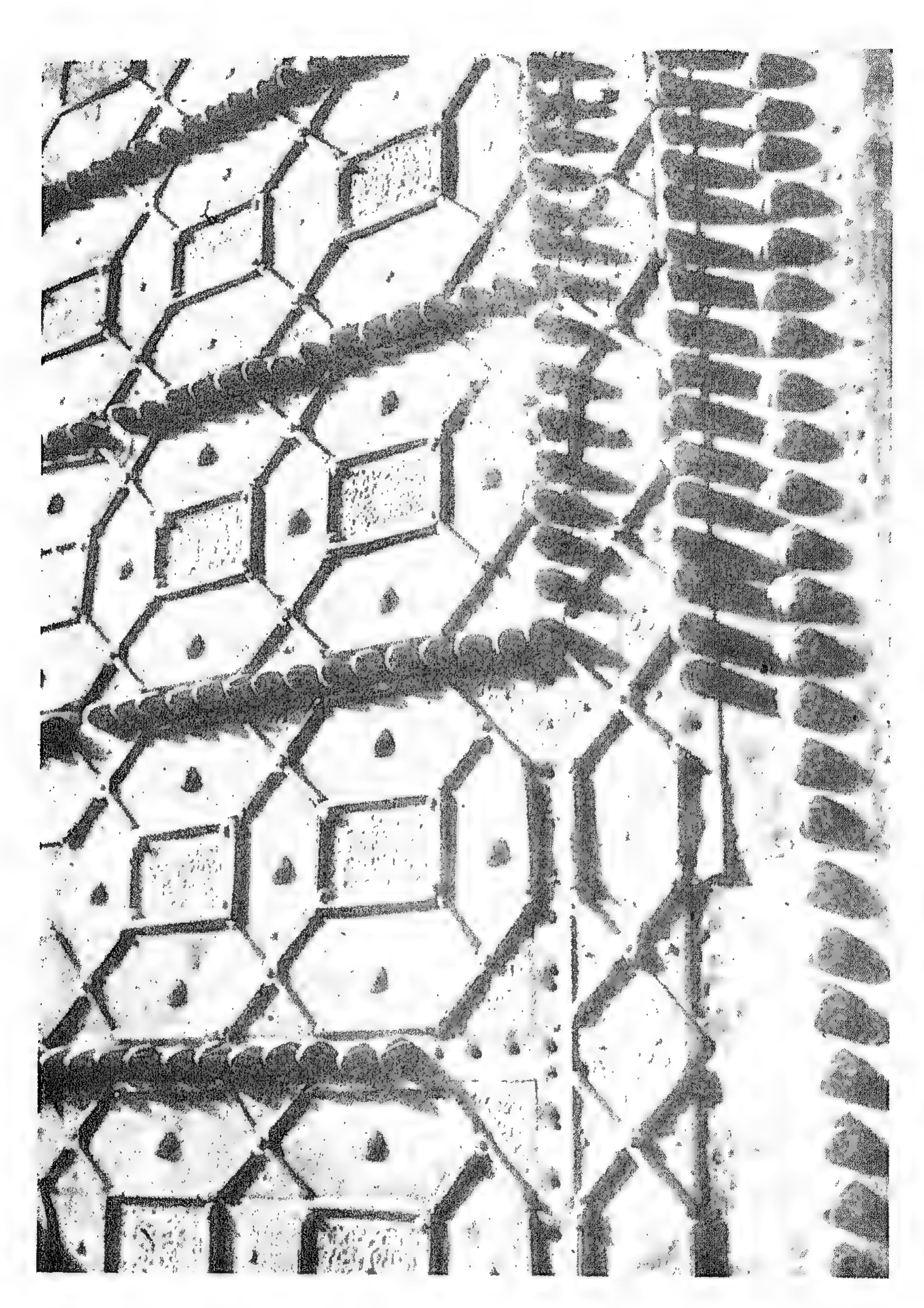
رقم (١٨٢) / ص ٩٥
باب الكتبيين او باب الصفر الاعلى وسمي كذلك لانه ملبّس بالصفر شأن بابين آخرين ..



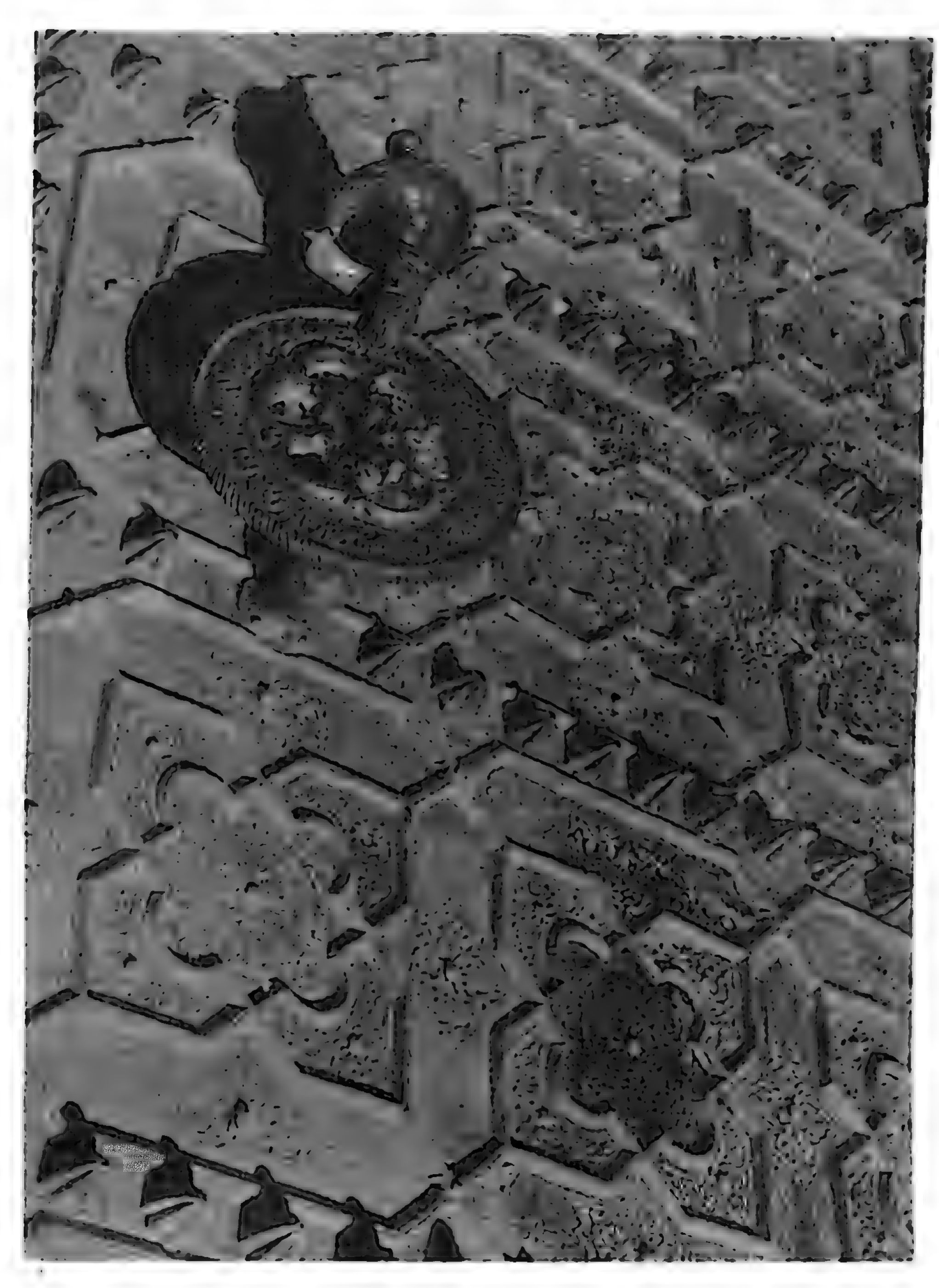
رقم (١٨٣) / ص ٩٥
اعلى باب الكتبيين ويتراءى «الشوّاف» الذى يحفظ اللوحات الجبسية المنقوشة.



رقم (١٨٤) / ص، ٩٥
باب الخلفاء وهو ايضا ملبس بالصفر يحمل تاريخ ٥٣١ ﻫ
نقل الى قصر شايو باريز ليعرض في اول مؤتمر للمهندسين
المعماريين مايه ١٩٥٧ .



رقم (١٨٥) / ص ٩٥
جانب من باب الخلفاء.



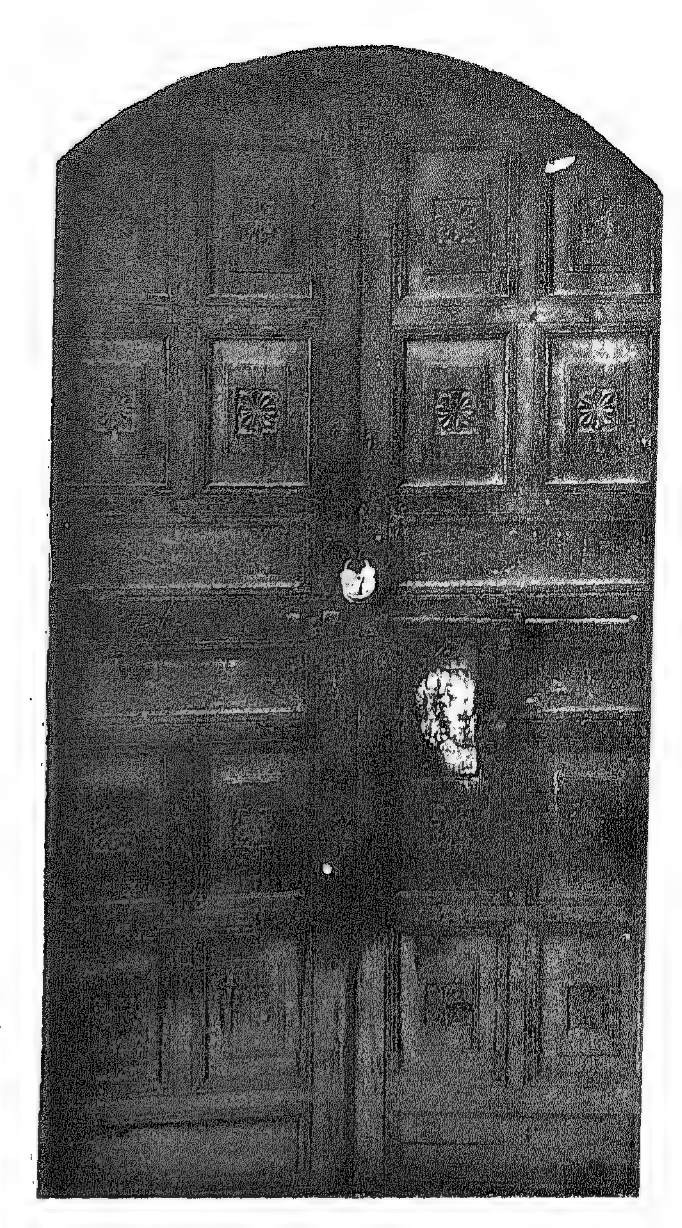
رقم (١٨٦) / ص ٩٥

حرمة باب الخلفاء وهي تحمل كذلك نقوشا تتضمن اسم الصانع والتاريخ



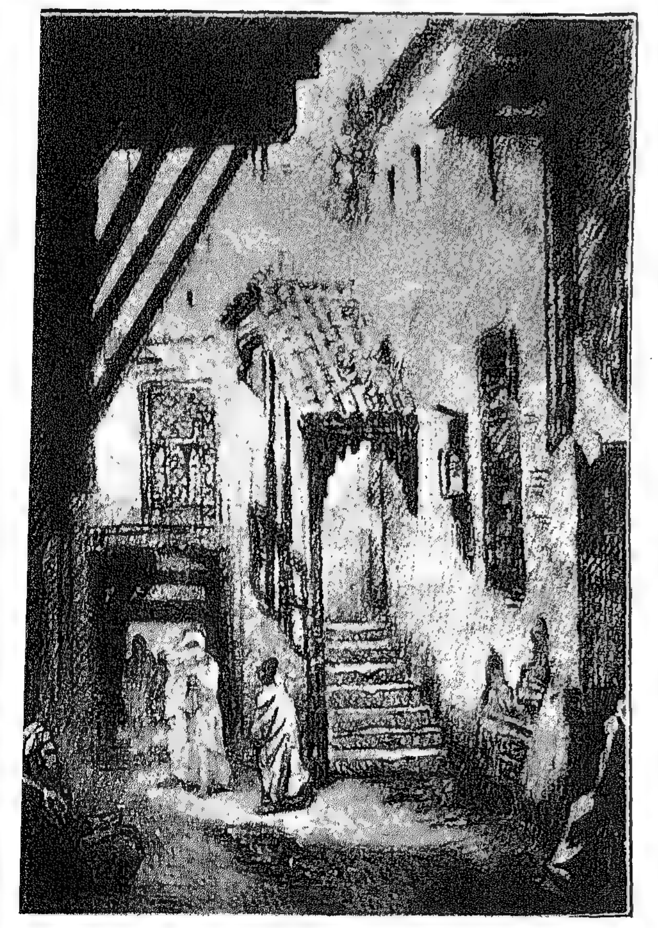
رقم (١٨٧) / ص ٩٥
باب مجلس القضاء من الدّاخل ، وربما سمّي باب مصلّى الجنائز، ويلاحظ القفل العتيق الذي كان يوصد الابواب : عبارة عن قطعتين : احداهما عمودية والثانية افقية .

رقم (١٨٨) / ص ٩٥
تحت الفتحة المستطيلة كان يمتد باب الفرخة او باب الستر الذي يدخل منه المتخاصمون ، وقد استغني عنه في الاصلاحات الاخيره



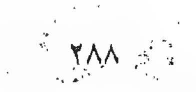
رقم (١٨٩) / ص.٩٥

الباب الحديث الذي عوّض (باب الفرخة) وهو ينفذ من جامع الجنائز الى الساحة التي يقع فيها باب الخزانة العلمية.



رقم (١٩٠) / ص ٩٦

رسم قديم لباب الخلوة المدرج.. وترى نافذة الخلوة محمولة على الساباط الذي يأتي منه الناس من جهة درب السبع لويات. من رسم كوندو ساطريانو.





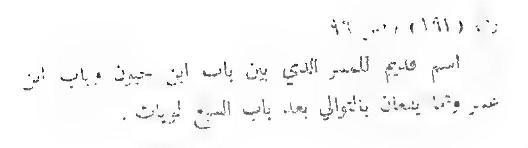
رقم (١٩١) / ص ٩٦

رسم حديث لباب الخلوة بعد ان انتشرت الاسلاك الكهربائية في المدينة القديمة ، تلاحظ الادراج خارج الباب .



رقم (١٩٢) / ص ٩٦

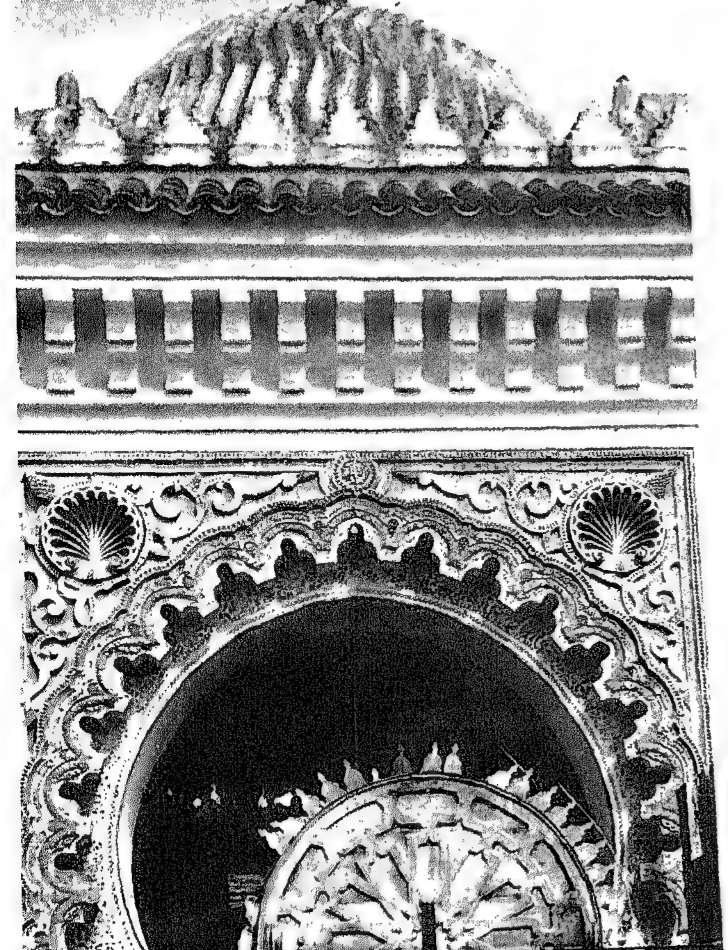
باب الصالحين الشرقي او باب السبع لويات ويصعد اليه ·
بدرج لكنها داخل الباب . .



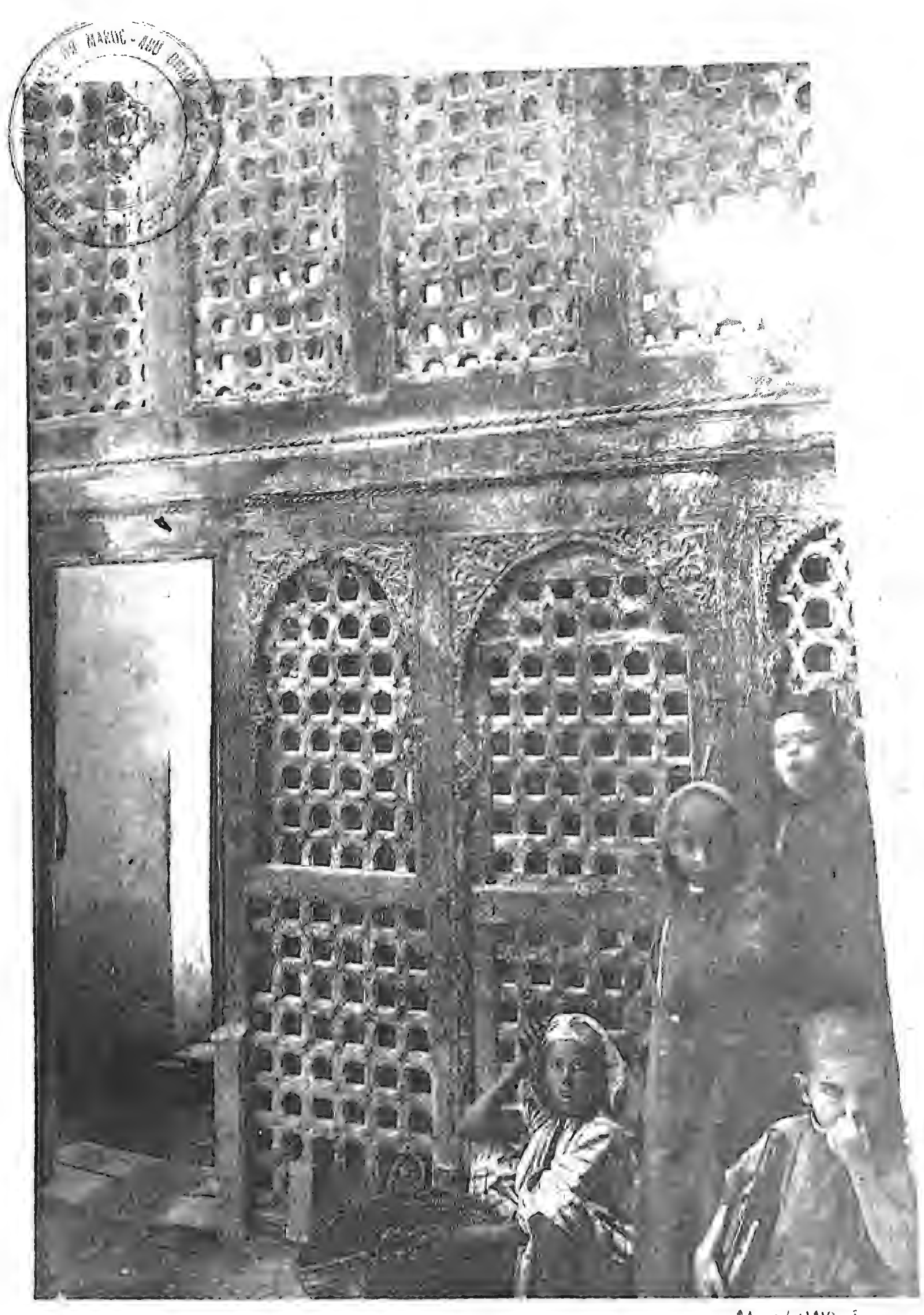
رقم (١٩١) / ص ٩٦
اسم قديم للممر الذي بين باب ابن حيون وباب ابن عمر وهما يصعدان بالتوالي بعد باب السبع لويات .

رقم (١٩٤) / ص ٩٧
باب قديم ولكنه جدّد . . كان ، تحت الساباط ، خاصًا بالنساء ، يصعدن منه الى الرواق الذي كانت تقع في خزانة بني مرين . . وقد عطلت الطريق بينه وبين الرواق اليوم .

رقم (١٩٥) / ص ٩٧
جانب من الصغو الشمالي . . وقد يسمّى (باب البرد) .
ويتدلّى من قبته فانوس كبير وعن شماله وتمينه يقع الرواقان . . .

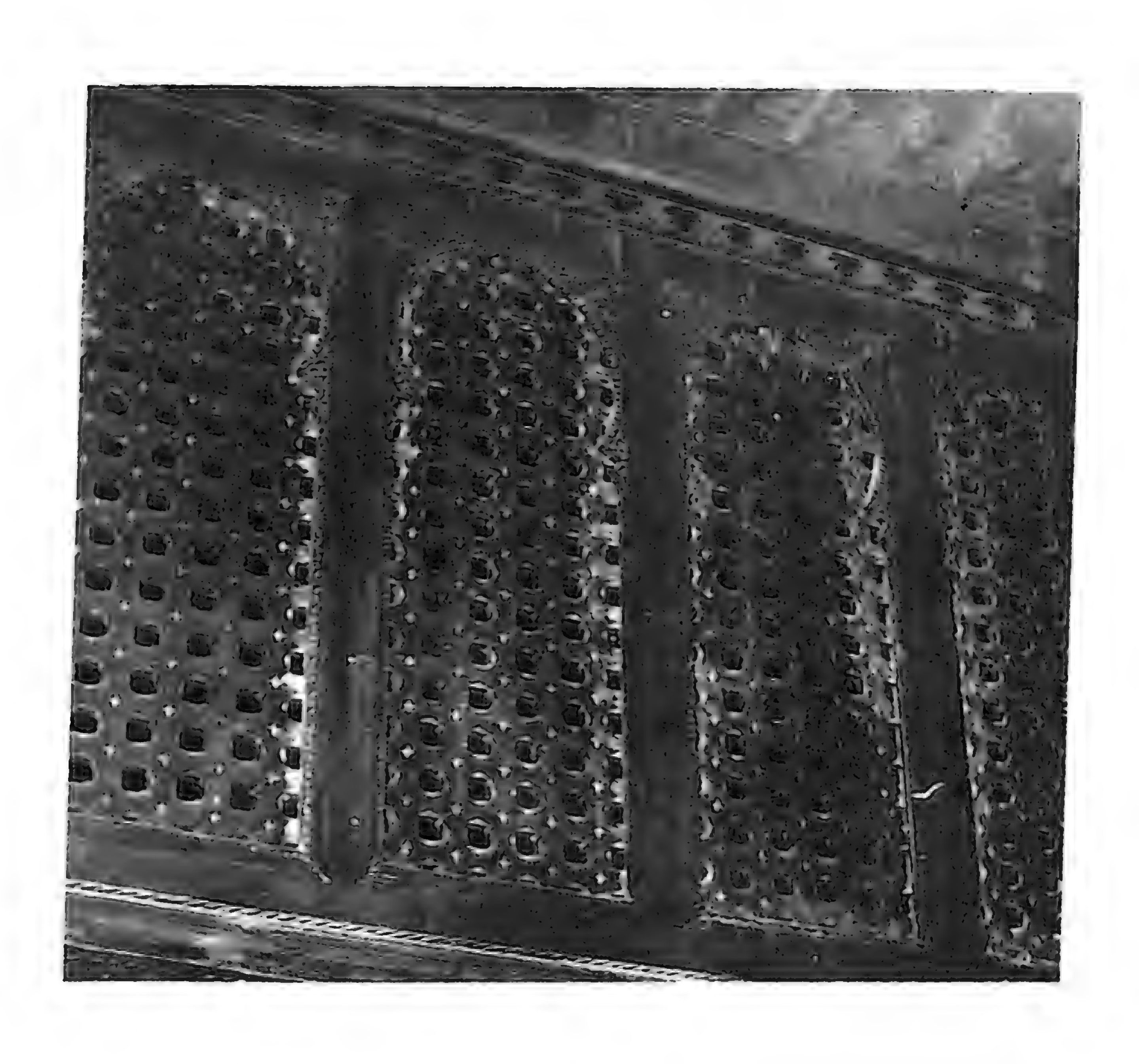


رقم (١٩٦) / ص ٩٧
باب الورد من جهة الصّحن وتعلوه قبّة تنسجم مع القبّة المقابلة على العنزة .

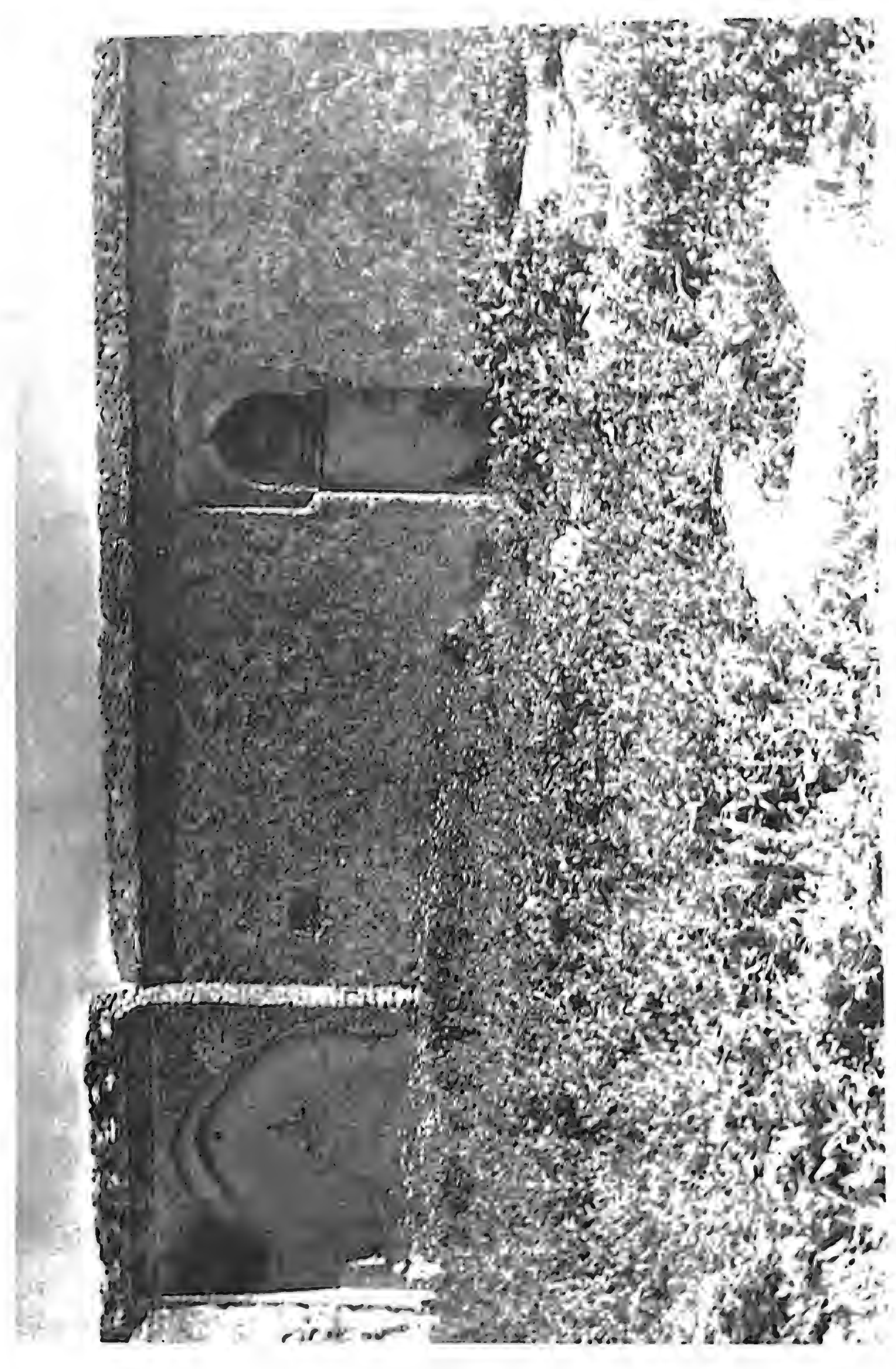


رقم (١٩٧) / ص ٩٨

صورة قديمة لباب الحفاة وقد فتح منها جانب على الساقية التي يغمس فيها الحفاة اقدامهم قبل ان يدخلوا المسجد . . . وتلاحظ النوافذ الخشبية الاربع التي تعلو النوافذ التحتية .



رقم (١٩٨) / ص ٩٨
اعلى باب الحفاة ويعتبر اقدم باب ورد ذكره في تاريخ القرويين.



رقم (١٩٩) / ص ٩٨

اطلال روضة ابي مدين التي كانت تحمل في القديم اسم مدرسة الصابرين والمرابطين اللمتونية . . وقد وقفت على عين المكان بتوقيف من الشيخ السراج رحمه الله .

Stockolm, Copenhague, Amsterdam, Madrid, Lisbone, Washington, Saint Petersbourg, qu'à Londres et à Paris.

Pour toutes ces raisons, je m'empresse de dire que le résultat de mon étude sur AL QARAOUIYYINE ne constitue qu'une modeste présentation de cette Institution qui mérite qu'on lui consacre des efforts plus soutenus et des rechecrhes plus approfondies.

Qu'il me soit permis d'exprimer ici toute ma grattitude et toute ma considération à tous ceux qui m'ont apporté leur aide en vue de faire connaitre ce «Monument de l'Histoire», en particulier ceux qui m'ont prodigué leurs conseils.

Ma reconnaissance est adressée aux auteurs auxquels j'ai emprunté les différentes insertions, à ceux dont la documentation a servi de base à mes recherches, à mes correspondants, aux propriétaires de bibliothèques privées et aux fonctionnaires des bibliothèques publiques. Auprès des uns et des autres j'ai trouvé un accueil spontané, sympatique et efficace, tant en Orient qu'au Maghreb.

Aux professeurs universitaires qui m'entourèrent si généreusement de leur sollicitude, et tout particulièrement ceux qui m'honorèrent de leur amitié, j'exprime ici ma haute considération.

Je suis tout particulièrement reconnaissant au docteur Mokhtar Al Abbadi, professeur à l'Université d'Alexandrie, qui m'a redonné courage chaque fois que j'ai rencontré des difficultés, renouvelant ainsi les rapports qui unirent par le passé Fès à Alexandrie.

Ce faisant, il a tenu à faire revivre l'époque où les oulémes du Maghreb s'honorèrent de recevoir des «Ijazat» rédigiées justement par les Cheikh d'Alexandrie; tel Ibn Al Arabi, ambassadeur du Maroc à Baghdad qui tint à passer par Alexandrie pour y obtenir la «Ijazat» délivrée par Art-Tourtochi.

Enfin, je prie mes lecteurs de m'excuser pour l'état de présentation de cet ouvrage. Les circonstances particulière que j'ai vécues ces dernières années ont influencé la réalisation de celui-ci dont la forme ne me donne pas entière satisfaction. Toutefois, il m'est apparu opportun d'en hâter l'édition, car la recherche de la perfection aurait pu en reporter indifiniment la parution. J'ai bon espoir que lecteurs et chercheurs m'en excuseront et voudront bien en combler les lacunes et en rectifier les imperfections.

L'AUTEUR

Il m'est particulièrement agréable de remercier mon ami Ahmed AGALLAL qui a bien voulu assurer la traduction de cette préface.

1ère édition 1973

à recourir aussi à d'autres moyens que je considère comme une base incontestable de documentation : il s'agit des actes de constitution des Wakfs, appelés au Maghreb «Al Haoualat Al Hobossya» J'ai dû me consacrer à l'étude de ces vieux documents portant l'empreinte du temps, y suivre les. revenus et obligations d'AL QARAOUIYYINE et de ses zaouias, afin d'y relever les dates et les conditions des constituants. C'était jusque-là chose inconnue pour nous. J'ajouterai à celà, la recherche entreprise en vue de retrouver les manuscrits et documents rares et d'obtenir ceux qu'auraient écrit d'anciens étudiants émigrés ou tombés captifs aux mains de corsaires étrangers qui opéraient jadis en Méditerranée.

J'ai trouvé des textes donnant un aperçu véridique sur divers aspects historiques et intellectuels de l'Institution. Ces écrits étaient effectivement rédigés hors du Maroc sous forme de mémoires et nous été conservés jusqu'à ce jour.

On doit également à certains auteurs des articles disséminés cà et là à travers des ouvrages, articles qui ne dépassent pas en fait le cadre des informations fournies par les principales sources. Toutefois, je ne minimiserai pas l'utilité de certains documents écrits par des étrangers les uns dans un style touristique, les autres avec une pointe vindicative, d'autres toutefois, avec objectivité quoique assez rares.

L'élaboration de mon ouvrage nécessita la consultation de plus de cinq cents sources, l'examen d'anciennes pièces de monnaie et le déchiffrement des lettres et dates gravées dans les murs de l'édifice. cette tâche entreprise en des périodes espacées et en des lieux différents, impliqua des dizaines de voyages et de visites en divers endroits, ainsi que l'étude des moindres recoins de l'édifice et jusqu'aux marches du minaret. Certains de mes voyages m'ont conduit au-delà de l'Euphrate et de l'Atlantique. J'ai dû en outre correspondre avec des dizaines de penseurs et de savants dont je considérais utile de recueillir les opinions. Certains résidaient au Caire, à Alexandrie ou à Baghdad, d'autres habitaient l'Europe ou même l'Amérique, alors que d'autres comptaient parmi les oulémas et les personnalités des pays du Grand Maghreb : La Lybie, la Tunisie, l'Algérie et le Maroc.

Pour les illustrations destinées à paraitre dans l'ouvrage, j'ai dû accompagner les photographes sur les lieux pour leur montrer les vues à prendre, comme j'ai dû frapper à plusieurs portes pour demander des documents et des dessins dont quelques uns étaient propriété privée alors que d'autres étaient précieusement enfermées.

J'ai divisé l'ouvrage en trois parties correspondant à l'ordre chrologique des époques traversées par AL QARAOUIYYINE. Chacune des trois parties se subdivise en cinq chapitres traitant les thèmes de base. Ils sont annexés de biographies de deux cent cinquante personnalités, les plus notoires parmi celles qui avaient des liens avec l'Institution. Les trois parties du livre comprennent six cent soixante-dix pages auxquelles il faut ajouter près de quatre cents planches choisies pour apporter toutes précision sur l'histoire de l'édifice.

Cependant, en dépit des années que nécessita ce travail et malgré l'abondance des matières traitées, la grandeur de l'Institution ne faisait que croitre devant moi jusqu'à se rendre inaccessible à mes efforts. Car je voyais de plus en plus clairement, qu'écrire l'histoire d'AL QARAOUIYYINE c'était en fait, traiter celle de toutes les régions maghrébines et ressusciter tous les aspects du passé politique et social. Bien plus, c'est se préparer à effectuer un voyage à travers l'histoire, vers des horizons lointains, ceux des Lieux Saints de l'Islam, de Jérusalem, de Baghdad, de Damas du Caire, de Constantinople et son empire ainsi que ceux des étendues africaines. C'est dire en outre, la nécessité de prendre connaissance des rapports politiques écrits sur le Maroc par les diplomates étrangers qui les adressaient à leur gouvernement, aussi bien en Sicile, en Flandres, à

et y organisèrent des cercles d'étude, ce qui contribua à rehausser leur prestige et à accroitre les chances de succès de leurs missions.

L'histoire de la diplomatie et des relations internationales du Maghreb était liée à celle de l'Université. Rares sont en effet les événements décisifs sur lesquels les oulémas n'avaient pas la haute main. c'est ainsi que les Almoravides ne portèrent secours à l'Andalousie qu'après qu'ils eurent obtenu une fétoua (consultation juridique) des oulémas d'AL QARAOUIYYNNE. De même, la première ambassade dépêchée du Maghreb en Orient était sous la conduite d'un Alem célèbre qui eut ainsi l'occasion de s'entretenir avec les sommités de Baghdad et d'Alexandrie.

AL QARAOUIYYINE fut d'autre part, la seule mosquée à recevoir sa part du butin pris au cours des combats héroiques livrés par les combattants de la foi. C'est ainsi que l'on trouve dans la nef centrale de l'édifice des cloches enlevées aux églises castillanes et transformées en lustres dont quelques uns portent encore des traces de lettres latines.

Les guerres défensives engagées par le Maroc profitèrent également à l'Institution au même titre que les périodes d'accalmie. Mais le rôle joué par elle, en temps de guerre comme de paix, était différemment orienté selon les impératifs du devoir ou les nécessités de l'intérêt public. Elle demeura la citadelle contre laquelle se brisèrent toutes les manoeuvres du colonialisme. Pour celui qui prend soin de suivre l'histoire politique du pays, il découvrira qu'elle était constamment à l'origine de tout mouvement de résistance. La «Résidence Générale» se trouva pour la première fois en difficulté avec le Palais Royal à cause précisément du rôle joué par AL QARAOUIYYINE, que l'occupant considérait comme un obstacle dant il fallait se débarrasser.

Ce sont là les grands traits que j'essaie de faire ressortir dans l'étude que je mets entre vos mains.

Voilà donc la Mosquée AL QARAOUIYYINE, à laquelle m'attachent tant de liens de fidélité indestructible. J'ai passé auprès d'elle les meilleurs jours de mon enfance. Mon adolescence et ma jeunesse : s'y écoulèrent dans la plus grande félicité, en tant qu'étudiant d'abord, et en qualité de professeur par la suite.

«Quant s'annonce sa vision au plus profond de mon âme.

Je sens frémir les rameaux de ma jeunesse». (poème)

J'ai ressenti une grande joie m'envahir le coeur, dès le premier jour où j'ai abordé la préparation de cette étude car j'ai cherché surtout à m'acquitter d'une dette de gratitude envers cette Institution.

J'ai pensé au premier abord qu'une telle entreprise ne me coûterait pas de grands efforts car la célébrité d'AL QARAOUYYINE était telle que toute documentation la concernant serait à la portée de tous. Or, à l'exception de quelques oeuvres tells «Raoud Al Qirtas» d'Ibn Abi Zarc, «Jana Zahrat Al Ass» d'Al Jaznai et «Jadouat Al Iqtibas» d'Ibn Al Qâdi, les sources de documentation faisaient sérieusement défaut.

La difficulté de l'entreprise m'apparut donc dès que j'eus exploité ces trois ouvrages dont les textes devaient du reste faire l'objet de plusieurs analyses et de recherches minutieuses. Car le premier auteur avait puisé la plupart de ses informations dans des sources disparues et non contemporaines de la fondation de l'Institution ; alors que le deuxième avait rapporté dans leur majorité les récits de son prédécesseur ; le troisième s'étant contenté d'y ajouter des renseignement datant de sa propre époque. J'ai également extrait des passages de certains recueils de jurisprudence ou de biographies, ce qui m'a permis d'éclairer quelque peu mon étude. La nécessité me poussa

dont le rayonnement rejaillissait sur les milieux fassis, ce qui a permis de stimuler les esprits et de développer le sentiment d'enthousiasme à l'égard de la culture.

Composé essentiellement de blanc, l'habit universitaire porté pa. le corps professoral d'AL QARAOUIYYINE trouve son origine dans un haut fait de l'histoire nationale et rappelle ainsi les exploits de l'Islam dans les périodes glorieuses de son apogée. Aussi, les traditions marocaines suivies en périodes de fêtes comme de deuils, sont-elles marquées par le port du blanc, en souvenir des prescriptions séculaires d'une dahir promulgué par les Mérinides.

Les écrits d'auteurs étrangers ont souligné l'apport d'AL QARAOUIYYINE dans l'évolution du mouvement orientaliste : avant d'être pape, Sylvestre II avait profité de l'enseignement donné par l'Institution à l'aube de son histoire : Clénard, Golius, André en suivirent également les cours, alors que d'autres disciples professèrent plus tard l'enseignement de la langue arabe dans les universités de l'Europe médiévale.

Le mérite d'AL QARAOUIYYINE n'était pas seulement dans la présence de célèbres et doctes personnages qui, par leur assiduité fréquentaient ses lieux ou occupaient ses chaires, mais s'étendait également à des dames vertueuses qui venaient assister aux séances de cours, à partir des galeries surplombant les cercles d'études.

Ainsi, les jeunes mariées étaient-elles instruites dans leurs devoirs de la vie d'ici-bas et des l'au-delà, car elles en avaient reçu l'enseignement pendant leur jeunesse dans les demeures de «Faquihat», maitresses qui à leur tour, avaient elles-mêmes assisté aux cours d'illustres-enseignants

Lorsqu'on cherche à énumérer les noms des professeurs, hommes et femmes, qui ont vécu à Fès et animés les cercles d'étude d'AL QARAOUIYYINE, on se trouve devant un si long répertoire d'érudits qu'il faudrait des dizaines de volumes pour en relater la biographie.

Véritable pépinère, AL QARAOUIYYINE assurait pour l'Etat la formation de cadres à tous les niveaux, aussi bien hommes de lettres de grand renom que magistrats de talent qui, les uns et les autres exercèrent leurs fonctions à Fès-même ou dans les autres villes du Maghreb et d'Andalousie. C'est encore parmi ses lauréats qu'on nommait les ambassadeurs devant se rendre en mission dans les lointains pays : Par leur dévouement, leur sincérité et leur sollicitude, ils étaient cités en exemple.

Les échanges de consultations entre Oulémas de Fès et ceux du Levant avaient permis d'établir entre eux des rapports fréquents, notamment à l'occasion d'événements notoires intervenus aux époques almoravide, almohade, mérinide, outtasside, saâdienne et alaouite.

Aussi, les pays du bassin méditerranéen et particulièrement Tunis, Tripoli et Alexandrie, demeuraient-ils des centres de rencontre entre personnalités intellectuelles originaires de ces diveses contrés : c'est ainsi qu'on trouvait le nom de Fès sur toutes les langues et que le rite malékite bénéficiait d'une sérieuse prééminence dans de vastes territoires et jusqu'en Alexandrie où pourtant le rite officiel de l'Etat était différent.

Les personnalités maghrébines dont les noms étaient devenus célébres en Orient, avaient toutes un lien d'appartenance avec AL QARAOUIYYINE : Ibn Al Arabi, Ibn Battouta, Ibn Khaldoun, Al Maqqari entre autres célébrités dont nous avons donné des biographies sommaires dans le répertoire des savants de cette université.

Lieu saint de l'Empire, AL QARAOUIYYINE venait donc tout naturellement en tête des lieux à visiter par les voyageurs se rendant au Maghreb : L'Ambassade de Salah Eddine Al Ayoubi y effectua une visite de piété, les émissaires d'Andalousie et de Tunis s'y rendirent à plusieurs reprises

AL QARAOUIYYINE attira ainsi des milliers de familles de diverses régions du Maghreb, ce qui lui valut le mérite de réunir à Fès un grand nombre de groupements issus de tribus originaires des contrées les plus lointaines. Bien plus, elle exerça son attrait sur des foules d'Andalous et d'Africains aux côtés desquels on trouva même des Persans et des Kurdes. Résider dans le voisinage priviligié d'un tel sanctuaire faisait en effet pour les uns et les autres, l'objet de voeux très chers.

AL QARAOUIYYINE, la première dans l'histoire universitaire, instaura une tradition, celle d'honorer ses étudiants, au printemps de chaque année, en accordant à l'un d'eux l'accession au titre de «Sultan Attalaba». A cet effet, le «monarque» des étudiants reçoit tous les insignes de la souveraineté: il monte un cheval princier et se fait abriter sous un parasol royal. Il nomme les ministres de son gouvernement parmi ses condisciples et reçoit durant la semaine de son «règne» la visite du vrai souverain, dans une pompe et un cécémonial majestueux.

AL QARAOUIYYINE connut une organisation précise en ce qui concerne le régime des études et des vacances, ainsi que des traditions particulières relatives aux cercles de cours dont les uns étaient confiés à un seul professeur, tandis que d'autres étaient dirigés par deux enseignants. Certains cercles étaient fréquentés uniquement par des étudiants portant le turban, alors que la participation à d'autres était interdite aux adolescents.

Si la ville de Fès jouissait de son rang de «Siège du Royaume», c'est grâce à AL QARAOUIYYINE qui disposait d'une centaine de sections d'étude, réparties à travers la cité, où l'on compta à une époque jusqu'à cent quarante chaires d'enseignement, dont bénéficiainent des auditeurs issus de toutes les couches de la population. Il était de notoriété publique que les étudiants non originaires de Fès, s'ils souhaitaient acquérir plus tard réputation et célébrité, devaient nécessairement poursuivre leurs études à AL QARAOUIYYINE.

Le mérite d'avoir sauvegardé au Maroc l'enseignement du Hadith (Traditions Prophétiques) sur la base de récits transmis fidèlement de génération en génération depuis les temps du Prophète (Assanad et Al Isnad), revient incontestablement à AL QARAOUIYYINE. Elle institua également les fonctions de «chargé de département» pour chaque discipline, de «commentateur» pour chaque traité précis, et rétablit le système des «Ijazat» ou attesations de capacité scientifique, qui restèrent en vigueur jusqu'à leur remplacement par un Diplome universitaire tout récemment créé.

Durant la première phase de l'histoire universitaire de la mosquée, les professeurs dispensaient un enseignement basé sur des ouvrages composés en Orient ou ayant fait l'objet de traduction. Toutefois ils ne tardèrent pas à adopter leurs propres oeuvres lors de la deuxième étape, qui fut marquée par l'apogée de l'Institution. La troisième étape, celle de la réorganisation, coïncida avec l'apparition de l'imprimerie lithographique, époque où l'on commença alors à exporter en Orient des ouvrages édités à Fès.

Les oulémas d'AL QARAOUIYYINE adoptaient une méthode qui leur était propre en matière de composition d'ouvrages, méthode qui différait de celle de leurs collègues d'Orient. C'est dire encore une fois la particularité de la personnalité maghrébine dans ce domaine, personnalité qui se signala' entre autres, par le choix du rite malékite et du dogme achaârite. par l'adoption de la méthode de lecture du Coran professée par Ouarch par le choix de la version rapportée par Ibn Saâda concernant les «hadiths» recueillis par Al Bokhari. par l'utilisation et la diffusion des chiffres arabes et enfin par la mise au point «d'El Amal El Fasi», traité de droit musulman dont l'ensemble des jurisprudences étaient en honneur à Fès.

L'esprit d'émulation entre les oulémas a contribué à la création d'un mouvement intellectuel

de sa fondation. Aussi, la confiance que lui témoigna le public amena-t-elle les gens fortunés à mettre en lieu sûr, dans son «dépôt», leurs biens les plus précieux.

Il est à signaler d'autre part, que de toutes les mosquées du monde musulman, AL QARAOUIYYINE possède le plus ancien minaret, solidement conservé jusqu'à nos jours, conformément au plan architectural établi il y a onze siècles, ce minaret sert de guide aux huit cents autres de la cité, auxquels il donne le signal de la prière. Ce monument et la chambre qui lui est attenante ont successivement servi d'observatoire et ont contenu de très anciennes clepsydres (celles d'Ibn Al Habbak, d'Al Qarastouni, d'al Jayi...) ainsi aque des sabliers et des astrolabes. à tel point que l'ensemble constitua un véritable musée que savants et astronomes s'appliquèrent à organiser et à fournir en instruments propres aux études et observations astronomiques. Les premières horloges mises au point en Europe firent aussitôt leur apparition dans cet observatoire, ce qui témoigne des soins particuliers dont on l'entourait.

Quant à son minbar, il se trouve être le plus riche et le plus ancien que des professeurs, maîtres artisans, aient façonné de leurs propres mains tout en dirigeant des cours au sein de l'édifice. D'illustres orateurs rivalisèrent d'honneur pour prononcer de cette chaire leur sermon, ne serait-ce qu'une seule fois, car pareille occasion leur procurait dignité et célébrité.

Par ailleurs, les coupoles, octognales, à stalactites ou circulaires, les chapitaux des colonnes, les voûtes des arcades, les frises des portails sont autant d'oeuvres artistiques qui reflètent le génie des architectes et décorateurs maghrébins et qui impressionnent par leur beauté les amateurs d'arts monumentaux.

Le souvenir de l'Alhambra de Grenade s'impose à la mémoire lorsqu'on embrasse de la vue le vaste patio de la mosquée dont les façades latérales sont ornées en leur millieu de deux élégants pavillons, reposant sur de grâcieuses colonnes de marbre et abritant deux vasques symétriques par rapport à la vasque centrale.

AL QARAOUIYYINE se trouve encore être le seul monument qui soit alimenté par cinq sources destinées à couvrir en toutes saisons les besoins en eau de l'édifice et de ses dépendances. Peu de canalisations ont été aussi judicieusement conçus. à telle enseigne que, même en temps de dure sécheresse, cette mosquée restait le seul monument où l'eau ne fit jamais défaut.

Sa célèbre bibliothèque constituée par les apports des Mérinides et par ceux connus sous le nom d'Al Ahmadiya (du nom du roi saâdien Ahmed Al Mansour) renfermait de riches et précieux manuscrits de tous genres, mentionnés par des documents historiques et par des attestations de Wakfs. Ce qui constitute une précieuse source d'information sur les disciplines enseignées et sur les oeuvres étudiées à différentes époques. La vie intellectuelle était si prospère qu'une criée de livres manuscrits se tenait chaque semaine dans la partie sud-est de la mosquée et que trente trois sections de cette bibliothèque furent ouvertes dans chacune des petites mosquées relevant d'AL QARAOUIYYINE.

Si l'on juge de l'importance d'un monument par le nombre de ses accès, AL QARAOUIYYINE compte dix huits portails, modèles de majesté et de splendeur dont certains sont recouverts de plaques de bronze ciselées de dessins et d'inscriptions louangeuses ou gravées de nom d'artisans.

La population afflua dans la zone périphérique pour l'habiter, en raison du voisinage de la mosquée, de l'éclairage soigné et des autres attraits qu'on y trouvait. Juges, notaires, astronomes muftis, imams, prédicateurs, libraires, savants, médecins y avaient élu domicile.

Des collèges (médersas) furent édifiés dans les alentours pour l'accueil des étudiants et furent dotés de salles d'études. Ces médersas richement ornées de mosaïques et de motifs décoratifs en plâtre et en bois avaient si grande allure, que l'une d'elle reçut le qualificatif de «Merveille de Fès»

PREFACE

Au Maroc, dans la ville de Fès, une parcelle de terrain occupe un demi-hectare de la rive gauche qui porte le nom des immigrés d'Al-Qaïraouane (Kaïrouan), et abrite le cœur battant de la cité, cœur dont l'impulsion et la vitalité, ont marqué de leur empreinte indélébile les vastes provinces de l'empire maghrébin.

Ce cœur vivant, c'est la Mosquée-Cathédrale AL QARAOUIYYINE, à laquelle revient le mérite, tout le mérite d'avoir maintenu la présence de l'Islam et de la langue arabe à travers les terres africaines.

En effet, son rôle ne s'est pas limité à l'accueil des fidèles pour l'accomplissement de leurs dévotions et de leurs prières, mais s'est étendu à celui d'un véritable foyer culturel dont le rayonnement englobait les différentes régions du Grand Maghreb pour atteindre aussi bien les contrées de l'Orient que les cités de l'Andalousie.

Si les historiens considèrent AL QARAOUIYYINE comme « la plus ancienne université du monde», ils visent surtout à mettre en lumière le fait qu'elle fut l'unique institution qui perpétua sa noble mission d'enseignement, sans avoir à souffrir des crises et des épreuves que subirent les mosquées de Zaitouna et d'Al AZHAR ainsi que le Collège AL Mostansiriah. AL QARAOUIYYINE demeura en effet loin des courants tumultueux qui ravagèrent les métropoles de l'Orient tels que Baghdad, Damas et le Caire et qui en perturbèrent les structures. C'est ainsi qu'elle garda intacte sa personnalité et sa physionomie jusqu'à nos jours, notamment par tant d'éléments architecturaux qui remontent à l'époque des Idrissides, aux temps des antagonismes entre Fatimides et Omeyyades ainsi qu'au règne des Zenatas, des Almoravides, des Almohades, des Mérinides, des Ouattassides, des Saâdiens et des Alaouites.

Toutes ces dynasties ont ainsi laissé de leur présence un témoignage mémorable, mais toutes sont redevables à l'Institution d'honorantes attention : aux uns elle accorda un soutien qui consacra leur autorité, aux autres elle indiqua la voie de la raison ; à d'autres encore elle apporta les preuves en faveur de tel choix salutaire.

AL QARAOUIYYINE connut une prospérité telle que ses ressources tant en biens immeubles, qu'en terres fertiles et en riches plantations, rivalisèrent avec les revenus de l'Etat lui-même, si bien que celui-ci se trouva dans la nécessité de recourir au trésor des Wakfs (biens de main-morte) consacrés à cette Institution, et ce en vue de subvenir à des dépenses publiques ou de combler un déficit.

Notons que ces biens constitués en Wakfs, n'étaient acceptés qu'après de minutieuses enquêtes destinées à établir la bonne provenance des ressources et la légitimité des droits des constituants Ce fut d'ailleurs là un principe intangible adopté en faveur d'AL QARAOUIYYINE depuis l'origine

CONTRIBUTION A L'HISTOIRE DU MAROC

AL QARAOUIYYINE

La Mosqué-Université de Fès
histoire architecturale et intellectuelle

PAR

ABD EL HADI TAZI
Docteur ès-Lettres

TOME I

Édité par
DAR AL-KITAB ALLUBNANI
Beyrouth - Liban B. P. 3176
Téleg. KITALIBAN — BEYROUTH

في تاريخ المغرب

الوكيل العام بالمغرب

الشركة الشريفة للتوزيع – سوش برس

١ – ساحة باندونغ

الدار البيضاء – المملكة المغربية

Dr. Abdulhadi Al-Tazi

La Mosquée Al-Qaraouiyin

l'Université de Fez

DAR AL KITAB AL LUBNANI